إطار إسلامي للفكر المعاصر

أنور الجندي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

المكتب الاسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

إطار إسلامي للفكر المعاصر

مدخل

إطار إسلامي للفكر المعاصر

آن الأوان لأن نواجه الفكر الغربي مواجهة صريحة ، وأن نحدد موقفنا الإسلامي الأصيل منه تحديداً حاسماً وفاصلاً ، انطلاقاً نحو مرحلة المد التي يدخل فيها الفكر الإسلامي باقترابه من فجر القرن الخامس عشر الهجري ، وصولاً إلى الأصالة والعراقة وتأكيد الذات ، وتثبيتاً لطابعه وقيمه ، ودعوة إلى انحسار موجة استعلاء الغريب الوافد التي تقترب الآن من مرحلة الجذر الكامل .

ولا ريب ستكون بداية هذا القرن قمة هذه المواجهة الصريحة كما بدأت منذ وقت بعيد ، والتي يجب أن تصل إلى غايتها خروجاً من التبعية ، ودخولاً إلى مرحلة الرشد الفكري ، بعد أن استمرت هذه المعارضة والمقاومة والمواجهة أكثر من مائة عام ... ومن أجل هذا يتحتم علينا أن نقدم إطاراً إسلامياً لفهم الفكر المعاصر والتعامل معه .

أولاً ـ هذا الواقع الفكري القائم الآن ، والمتمثل فيما تطرحه الفلسفات والثقافات ونظريات النفس والأخلاق والتربية والاجتماع والفن في أفق الفكر الإسلامي : ما موقفنا منه ؟ هل نقبله ؟ هل نرفضه ؟ كيف نزنه بميزان صحيح ؟ .

ومن الحق أننا لا نغلق أبوابنا في وجه الفكر العالمي ، ولكننا لسنا منفتحين إزاءه بلا ضوابط أو حدود ، إن لنا مصباحنا وميزاننا ومقاييسنا التي نقيس بها كل ما يصل إلينا ، ثم نحن نعرف أنفسنا . نحن

هذه الأمة أمة : لا إله إلا الله ، التي بناها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، وكوّنها القرآن ، وقادها محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان نموذجها الطبيعي المتفرّد ، والمسلمون — من بعدُ — على دربه سائرون، يواجهون العصور ، فلا يتخلّفون عن مسيرة الحضارة ، ويعايشون المتغيرات ، فلا ينعزلون عنها ، ولا ينسحبون ، ولكن لهم شارتهم وذاتيتهم وأسلوبهم في العمل ،ومنهجهم في الفكر ، وطريقتهم في الحياة .

المحظور الوحيد أن لاتستغرقهم الأحداث ، ولا تحتويه المذاهب ، ولا تصهرهم الحضارات ، وهم بمفهوم دينهم الحق « الجهاد » يواجهون كل غزو وكل محاولة لصهرهم أو إذابتهم ، وهم يعرفون موقعهم من العالم اليوم : جغرافياً واقتصاديا ، ويعرفون دورهم في العالم اليوم : أصحاب رسالة التوحيد الحق في مواجهة المذاهب والأيديولوجيات والنحل البشرية : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) .

ويعرفون مسؤوليتهم إزاء الأمانة العامة التي يحملونها كبشر ، وإزاء الأمانة الكبرى التي يحملونها كمسلمين ، عليهم أن يُنشئوا المجتمع الرباني الذي يحقق رسالة الله في الأرض عدلاً وسماحةً وإخاءً ، وعليهم أن ينشروا كلمة الله في العالمين ، وأن يبلغوها للبشرية كلها ، وهم يعلمون أنهم موضع التحدي الدائم على مدى العصور ، لموقعهم الفريد وثرواتهم الضخمة ، ولأنهم يحملون هذه الرسالة، من أجل ذلك هم مستهدفون لكل قوى الأرض ، تريد أن تسيطر عليهم ، وأن تحتويهم ، وأن تصهرهم في أتونها حتى تزول عنهم هذه الصفة المميزة ، ومن أجل ذلك حذّرهم قرآنهم من الانصهار والاحتواء والذوبان في الأمم ، ودعاهم إلى المحافظة على أماناتهم ورسالتهم : [خذوا ما آتيناكم بقوة] .

الاستعمار ... [handwritten margin note]

وهم اليوم في المواجهة القاسية مع التحدي ، والتحدي يتحرك من خلال ثلاث قوى : الاستعمار ، والصهيونية ، والماركسية ، وأرض المسلمين هي مركز التحدي . ولقد كان المسلمون كذلك منذ بعث الله رسوله إليهم ، فواجهوا حملات التحدي على مدى الزمن ، وسيظلون كذلك . ومن أجل هذا كتب عليهم الجهاد ، وفرض عليهم أن يعتصموا بالرباط في الثغور: رباط الحرب ، ورباط الكلمة، وعليهم أن يعيشوا في إهاب اليقظة : [ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة] . وسيظل المسلمون على هذه الأرض في رباط إلى يوم القيامة .

تلك هي الصورة التي نقدم بها البحث عن إطار إسلامي للفكر المعاصر .

ثانيا: إن الفكر الإسلامي اليوم يواجه مجموعة من القوى الخارجية الضاغطة عليه من أجل إزالة طابعه ، وتشويه ذاتيته ، وصهره في بوتقة الأممية العالمية ، واحتوائه داخل تيارات الفكر الغربي ..
وبعض هذه القوى يلبس (ثوباً عربياً) ويدّعون غيرة على هذه الأمة ، ورغبة في استنهاضها ، بينما لايرون لهذا الاستنهاض سبيلاً إلا هذه التبعية لمناهج الفكر الغربي ومذاهبه ، وفي ذلك إنكار للميراث الإسلامي ، وتجاهل للترات الإسلامي ، واستهانة باللغة العربية والتاريخ .

وتعمل هذه القوى التي تحتضن مفاهيم الفكر الغربي وفلسفاته في ميادين حساسة ، تصب فيها سمومها ، وتحاول أن تصهرها في بوتقة الفكر الإسلامي ، وأهمها دائرة الأدب والفن والشعر والقصة والمسرحية، وهي من أخطر الميادين التي تتصل بالنفس والخيال والوجدان ، وتجد مجاريها عن طريق الكلمة المكتوبة والمسموعة والمرئية ، ولذلك فإن

المفاهيم التي يمكن بثها عن هـذا الطريق تشكل تأثيراً بعيـد المدى في النفس والعقل والوجدان ، وخاصة فيما يتصل بالشباب الـذي لـم تتكون لديه بعد منطقة حصانـة كافيـة ، ولا أرضية إسلامية وافية ، تمكنه من الفهم والاستيعاب ، وتحليل ما يعرض ، وقبول الصالح منه ، ورفض الفاسد والضار .

وفي هذا المجال تعمل مختلف القوى : القوى المادية ، والمتسترة بالمذاهب المادية من أجل ضرب قيم الإسلام ، ومن أجل هـذا يعمـل الوجوديون ، والماركسيون ، ودعـاة التغريب ، والشعوبية ، ودعـاة الإباحة ، والهدامون من كل نوع وملة .

ويأتي بعد ذلك مجال الدراسات الإنسانية : كالنفس ، والأخلاق ، والاجتمـاع ، والدراسات الفلسفية ، وهي جميعها تستمد مادتها مـن النظريات الغربية ، سواء منها الليبرالية أم الماركسية ، وكلها تعتمد على القول بأنها مادة علمية ، وأشبه بالمسلمات ، ليس فيها من أي وجه من الوجوه وجهة النظر العربية الإسلاميـة ، مع أن للاسـلام في هـذه الدراسات أصولاً ومفاهيم وقيماً أساسية يجب أن تطبق على أهله ..

وفي مجال الدراسات السياسية والاقتصادية والقانونية : نجد كل ما هو مطروح للبحث في الجامعات ، وفي دوائر الحياة ، هو النظريات الاقتصادية الغربية والماركسية ، وكل مفاهيم العلوم السياسية أوروبية وغربية من ديمقراطية وليبرالية ومن قانون وضعي .. وتعرض هـذه المفاهيم كلها على أنها علوم تامة ، ومسلمات أساسية ، ويجري تطبيقها في أغلب البلاد الإسلامية عن طريق المصرف والمحكمة والمدرسة ونظـم الحكم .. بينما هي تختلف اختلافاً شديداً مع مفاهيم الإسلام السياسية والاقتصادية والقانونية ، وبينما للإسلام منهج حياة ونظـام مجتمـع متكامل جامع ..

وهكذا نجد أن الفكر الغربي يكاد يسيطر سيطرة كاملة على مختلف وجوه العلوم والثقافات والمناهج ، بحيث لا يسمح — إلا قليلاً — للمفهوم الإسلامي بأن يقدم وجهة نظره في أمر ما من أمور الحياة ، وذلك وفق تصور خاطىء بأن ما يسمى بـ « التصور الإسلامي » لمختلف هذه الأمور ، إنما هو بمثابة « الدين » المعزول عن الحياة والمجتمع ، والذي قد تطلب وجهة نظره حيناً بعد حين ، فيما يسمى « رأي الدين » وليس على أنه مقطع الأمر في شؤون الحياة .

وفي مختلف مجالات الكلمة المكتوبة والمسموعة والمرئية ، نجد المقياس الغربي هو الأغلب ، ووجهة النظر السائدة هي إطلاق الرغبات واعطاء الناس مايسليهم وما يشغلهم وما يرضي مطامحهم في حدود الرغبات الصغيرة ، والتطلعات اليسيرة ، فالأغنية تقوم على العاطفة ، والمسرحية تقوم على الحب من خلال حوار رديء متجهم سطحي ، تستعمل فيه لغة هجاءة متبذلة ، وفي حدة وخصومة وأنانية ، بعيداً عن كل مفهوم لسماحة الإسلام أو كرامته أو منهجه في التعامل .

ومن خلال هذه المسرحيات تقدم أفكار غير ناضجة وغير صحيحة وغير أصيلة أصالة الأمم الراقية المتطلعة إلى العلياء والخلق الكريم ، وهي لا تحسن علاج مشاكل الأسرة فيما بين الأب والأبناء ، أو الزوج والزوجة .. وإنما تعالجها بأسلوب يفسد كل شيء ، ويعلي من شأن الخلافات ، ويدحض القيم الأساسية التي تقوم عليها الأسر والبيوت مما يخلق في الشباب والسامعين والرائين مجموعة من المفاهيم للحياة والحب والمرأة والعلاقات والأسرة مسمومة قاسية ، مما يوجه الشباب وجهة فاسدة ، ويضع في أذهان الأبناء رجالاً ونساءً معلومات تغاير ما يقرره الإسلام ويطلب تطبيقه في مجتمعه ، ومن وراء ذلك مفهوم

المسرحية الغربية اليونانية والمسيحية القائمة على الصراع بين الإنسان والقوة العليا ، وبين الخير والشر وغلبة الشر ، وهـو مفهوم مأسوي لا يعرفه الفكر الإسلامي ، وتسيطر على الفنون كلهـا مفاهيم فرويـد ونظرياته في النفس ، وسارتر في الوجود الإنساني ، وماركس في اللقمة والفلسفة المادية بعامة في نظرتها إلى الحياة ، وكـل ذلك يختلف عـن مفهوم المجتمـع الإسلامي نفسه الـذي شكلـه الإسلام أو يجب أن يختلف .. ولكنها محاولة جريئة وخطيرة لنقل المجتمع كله إلى التبعية والاحتـواء الغربي خضوعا لمذاهب ونظريـات في النفس والأخـلاق والاجتماع والفن ، ليست إسلامية أساساً ، وليست نابعة مـن الضمير أو الروح أو الوجدان الإسلامي الأصيل ..

وبينما نجد هذه القوى مسيطرة تماما ومالكـة لكـل إرادتها في تقديم هذه المواد من الفكر الوافد ، نجد أن طريق الأصالة شبه مهجور أو مسدود ، ونجد العاملين في الحقل الإسلامي ضعفاء لا سلطـان لهم ، وإذا قدموا شيئاً في وسط هذا الركام الضخـم لم يسمع ، وما كـان لكلماتهم في الصحف والاذاعة والتلفزيون أي أثر تفسي غالب بالنسبة لساعات طويلة أو صفحات عريضة من ذلك البث الخطير المتدافع القائم على معارضة كل أسباب الأخلاق والخير ، ومن شأن ذلك أن يحـدث أثراً خطيراً ، فيه كل القلق والتمزق ، مما يبعد المسلم عن جو السماحة والطمأنينة والسكينة .

وهكذا نجد أن صوت الإسلام مبعد عن الصحافـة والاذاعـة والتلفاز إلا في فترات قليلة ، وكذلـك هـو مبعد عن مجـال التعليم والجامعة والثقافة ، وما يزال التيار الغربي هو التيار الغالب المكتسح ، سواء فيمجال الفكر والثقافة أوالصحافة والمسرح ، أو الفن والاذاعة ،

أو في مجال المجتمع الذي يخشى أن يتجه إلى التحلل الاجتماعي وانهيار قيم الأسرة ، وخاصة في موقف المرأة العاملة من اللباس ، ومن الرابطة الاجتماعية ، وهناك في مجال الاقتصاد التعامل بالربا ، وهناك في مجال الشباب اندفاع نحو إرضاء الغرائز وما يتصل بانفساح المجال إليها ، وأخطر من هذا كله انعدام فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وتحمل الصحف والمجلات كل يوم أنباء الأحداث التي تقع داخل المجتمع والتي تصور إلى أي حد إضطراب العلاقات بين الآباء والأبناء ، وبين الأزواج والزوجات ، وبين الناس في المجتمع ، وهي أحداث تغني عن كل تعليق ، فهي صورة حقيقية للآثار الناتجة عن إطلاق العنف والجنس في المسرحيات والافلام والقصص ، وقصور توجيه الآباء وأسو ةالأساتذة والمعلمين وضعف رعاية المسجد . وإزاء هذا كله نجد أنه يتطلب من الفكر الإسلامي إقامة إطار صحيح ، يحاكم الفكر المعاصر ، ويبين إلى أي حد يمكن معرفة وجهة نظر الإسلام في عشرات من هذه التحديات .

□ ▽ □

الباب الأول

أبعاد الغزو الفكري
ومخططات التغريب

أولا : ابعاد الغزو الفكري ومخططات التغريب ...

ثانيا : الإسلام في مواجهة المذاهب والإيديولوجيات ...

ثالثا : تغيير العقلية الإسلامية ...

رابعا : ضرب الإسلام من الداخل ...

خامسا : تحديات الاستعمار والصهيونية والماركسية ...

سادسا : ملاحقة شبهات التغريب ودحضها ....

سابعا : خطر الانهزامية ....

ثامنا : المعاول ما تزال تضرب ....

الفصل الأول

أبعاد الغزو الفكري ومخططات التغريب

إن أخطر ما يتحدى المثقف المسلم هو النظرة الجزئية، والرؤية المحدودة التي تقف عند حادث من الأحداث ، أو خبر من الأخبار ، أو موقف من المواقف ، فتنظر إليه ، وتحاول أن تحلله ، أو تحكم عليه دون أن تبحث عن خلفياته أو أبعاده أو أرضيته ، ومن هنا تكون تلك النظرة ناقصة أو جزئية أو غائمة ، وليس كذلك يفعل الناصحون الذين رباهم القرآن ، وعلمهم الإسلام ، وإنما تكون النظرة فاحصة ويكون الحكم سليماً إذا ما استوفى شرائط التقدير والبحث عما يتصل بالحدث أو الخبر أو الموقف مما سبق في الزمن ، ومما جرى وأوشك أن يغيب وراء الأفق ، ذلك لأن الأمور لا تجري منفصلة عن سوابقها ولواحقها ، خاصة فيما يتعلق بتحديات الغزو الفكري والتغريب .

وهذه أضواء كاشفة وخيوط عامة معروفة لنا جميعاً ، ولكننا ننظر إليها مع الأسف مفرقة وموزعة ولا نستحضرها عند النظر أو البحث في حادث ما أو خبر أو موقف ما ، ولذلك يفقد الأمر خطره ، ولقد عرف خصومنا فينا هذه النظرة الجزئية ، فباعدوا بين الأحداث اعتماداً على أننا لن نربطها ببعضها البعض ، أو ننظر إليها نظرة كلية ، هذه الجزئيات المبعثرة للنظر السريع ، هي في حقيقتها عناصر كاملة لخطة عامة وخطيرة فلننتظر .

اولا ــ ثلاث قوى :

هناك ثلاث قوى لها أثرها البعيد في أزمة المسلمين : « التعليم ــ الثقافة ــ الصّحافة » وما تزال مؤسسات التبشير والاستشراق تعمل من خلالها ، وهناك خطة واضحة للغزو الفكري ، وخطة للتغريب ، وخطة للشعوبية ، وهنا أساليب متعددة لإثارة الشبهات حول الإسلام : « القرآن ــ الرسول ــ تاريخ الإسلام » وهناك دعوة إلى إخراج المسلمين من « ذاتيتهم » باسم « المعاصرة » ودعوة إلى إخراج المسلمين من « قيمهم » باسم « التحرير » فيجب ألا تخدعنا الأسماء البراقة ، فنسلم بكل ماتقول ، لأن فيما تقوله زيفاً كثيراً وحقاً قليلاً ، ويجب ألا نخاف عبارات الرجعية والجمود والتخلف ،فإنها كلمات فقدت معناها ، وهي تطلق دائماً على أهل الأصالة والحق ، علينا ألا تخدعنا الأسماء البراقة لأنها ليست أصيلة ، ولا تصد عن الأسماء الزائفة،لأن الدعوى المدعاة لها ليست صحيحة .

نحن طلاب « أصالة » تكون منا بمثابة « الإطار الثابت » والحجاب الحاجز ، نتحرك من داخله إلى المعاصرة والتقدم والتحرر .

إن قيمنا القرآنية الإسلامية الربانية هي الأعمدة الثابتة التي يقوم عليها البناء ، ثبات في الأساس وحركة من فوقه أو من حوله . ثبات (القطب)وحركة كحركة الأرض حول محورها . إن كل المؤامرات قد أثبتت حقيقة واحدة ، أن الإسلام هو الهدف الذي تعمل القوى الخفية لضربه : « الصهيونية ــ والليبرالية ــ والماركسية » .

الهدف : هو أن يظل الإسلام بعيداً عن دائرة العمل والتنفيذ ، وأن لا يمتلك المسلمون إرادتهم القادرة على الانتقال من الدائرة الضيقة التي

حبسهم فيها الغزو الثقافي والتغريب إلى الدائرة المرنة التي أنشأها لهم الإسلام •إن هدفنا اليوم هو تحطيم هذه الدائرة الضيقة والتماس دائرتنا ومنهاجنا ومصادرنا ومنابعنا الثرة الخالـدة ، والأمل هـو أن يعرف المسلمون أنه ليس ثمة طريـق آخر • لقد جربـوا : مختلف الأساليب والسبل والمناهـج التي راوحت بينهم وبـين الفكر الغربي والفكـر الماركسي ، ودخلوا البوتقة ، وفشلت التجربة ، وتأكد لهم بعد سبعين عاماً ، وهم تائهون بين الشرق والغرب ، حائرون بين الأيديـولوجيات الوافدة • أنه لا سبيل لهم غير منهجهم الأصيل ، لقـد عجزت هـذه المذاهب والمناهج جميعاً أن تعطيهم التقدم أو التحرر أو امتلاك الإرادة، وأعطتهم بدلاً من ذلك : الهزيمة والنكسة والنكبة ، وعرضتهم للفناء، ومن ثم تبينوا أنه ليس غير الإسلام سبيل ونصير ونور •

ثانياً ــ حقائق :

إن بين أيدينـا حقائق طـازجـة يجب أن تكون موضع نظركم وتقديركم ، وأنتم ، في سبيل دراساتكم :

أولى هذه الحقائق ما أعلن منذ وقت قصير عن إلغاء الاستشراق ، فقد اجتمع المستشرقون في مؤتمرهم السنوي بعـد أكثر من سبعـين عاماً ، ليعلنوا أنهم قد ألغوا الاستشراق ، وأن الاجتماعات القادمـة ستكون تحت اسم « مؤتمر العلوم الإنسانية » •

ومعنى هذا في نظر أصحاب اليقظة : أن الاستشراق يغير جلده كما سبق أن غيَّر التبشير جلده ، الهدف واحد ، والأساليب تتغير مع الأزمنة والظروف ، وإذا كانت سمعة الاستشراق قد ساءت ، فإن على أهلـه أن يغيروا أسلوبهم ، وإن لم يغيروا هدفهم •)

اليهود والاستشراق

ونحن نذكر الآن : كيف يتحرك « الاستشراق اليهودي » بعد أن تقدم للسيطرة خلفاً أو شريكاً للاستشراق الغربي المسيحي ، وتعرف المخططات التي يقوم بها في سبيل احتواء الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي ، ومن ذلك ما تجده من بروز أسماء لامعة خطيرة في مجالاته المتعددة جولد زيهر في الشريعة الإسلامية ، مرجليوث في التاريخ الإسلامي ،برنارد لويس في مفاهيم الأمم والقوميات مستهدفاً إيجاد صراع بين العروبة والإسلام .

وفي العام الماضي أنعمت إسرائيل على برنارد لويس بلقب الدكتوراه تحية له عن محاولاته لهدم المفاهيم العربية الإسلامية ،وعلينا أن نذكر في هذا المجال أن معظم كراسي الأدب العربي والدراسات الإسلامية ، في أغلب جامعات الغرب يسيطر عليها مستشرقون يهود .

ويتصل بهذا محاولات السيطرة على دوائر المعارف العالمية ، وخاصة دائرة المعارف الإسلامية والسموم التي حملتها خاصة مادة « عرب » ومادة «إبراهيم » ومادة «إسماعيل » في محاولة لتزييف الروابط الأساسية بين بين سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ، وبين سيدنا إسحاق ، وفصل اسماعيل عن ميراث إبراهيم لجعله كله في نسل إسحاق ، وتلك مؤامرة ضخمة في حاجة إلى عناية شديدة .

كذلك فإن الأمر يتصل بمؤامرات تحريف التاريخ الإسلامي ، وفي مقدمتها « مؤتمر بلتيمور » الذي عقد عام ١٩٤٨ ، والذي حضره لفيف من قادة الصهيونية ، وفي مقدمتهم ابن جوريون لوضع خطة تستهدف تنظيم ومضاعفة عمليات تزييف تاريخ العرب ، وإخراج دراسات جديدة تحمل الشبهات التي تتصل بمؤامرات القرامطة والزنج والباطنية، وإعادة طرح أفكارها وتاريخها في أفق الفكر الإسلامي بوصفها حركات تهدف إلى العدالة الاجتماعية،وقد ظهرت مؤلفات كثيرة بعد ذلك المؤتمر

تحاول أن تطبق ما استهدفته هذه التوصيـات ويتصـل بهذا مؤتمر البهائيين العالمي الذي عقد في القدس المحتلة عام ١٩٦٨ وما كشف عنه من صلة جذرية بين تاريخ البهائية وبين الحركة الصهيونية ، كل هذا يجب أن نكون على وعي به ، ونحن نقرأ وندرس ونتابع •

ثالثاً ــ دلالات خطيرة :

يجب أن يكون أمامنا ــ ونحن نطالع تاريخ المسلمين والإسلام في العصر الحديث ــ عدة حقائق من شأنها أن تشكل قاعدة أساسية للبحث: هذه الحقائق لا توردها كتب التاريخ التي بين أيدينا إلا لماماً ، وربما أوردت ما يخالفهـا من شبهـات ظلـت تتردد حتى أصبحت في منزلة المسلمـات •

وأول هذه الحقائق ما طرحه غلادستون رئيس وزراء بريطانيـا على مجلس العموم البريطاني عام ١٨٨٣ حين حمل المصحف وقال : « مادام هذا الكتاب باقياً في الأرض ، فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين ، بل ونحن على خطر في أوطاننا » • وعلينا أن نفهم معنى هذا ومداه ، يضاف إلى هذا قول اللورد اللنبي حين دخل القدس عـام ١٩١٧ حيث قال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » فإذا ذكرنا أن الحروب الصليبية كانت قد انتهت قبل ثمانمائة عام ، عرفنا ماذا كان يريد أن يقول اللورد اللنبي متابعة مع خطة لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة حين دعا في وثيقة رسمية معروفة إلى بدء حرب الكلمة على المسلمين بعد فشل حرب السلاح ، وأن ما أشار إليه اللورد اللنبي إنما يعني نجـاح هـذه الخطة ، فهذا قول خطير له أبعاده ومداه ، ولم يدرس بعد الدراسـة الكافيـة •

فإذا ذكرنا أن وزير خارجية بريطانيا بترمان تقدم عام ١٩٠٧ بوثيقته المعروفة التي كانت خلاصة خبرة المفكرين والسياسيين من دعم وحماية الاستعمار الغربي والتي تقول : « لكي يظل الاستعمار قادراً في السيطرة على المسلمين ، والحيلولة دون توحدهم ونهوضهم ، لابد من إقامة حاجز بشري معاد للمسلمين في مكان ما بين إفريقيا وآسيا ، على أن يكون هذا الحاجز من جنس غريب عنهم ، ومن شأن هذا الحاجز أن يحول دون وحدة المسلمين » وقد كان الجواب حاضراً . فقد تقدم اليهود وقالوا : « نحن الحاجز الغريب » . كل هذه الخطوط مجتمعة ترسم صورة وتخلق تحدياً ، وتكشف عن خلفيات لا توردها كثيراً كتب التاريخ التي بين أيدينا أو التي تدرس في مدارسنا ، ولكن هذه التحديات ذات دلالات خطيرة ، ويجب أن تكون واضحة أمامنا ، ونحن نقرأ وندرس ونستوعب ، وهي تعطينا فكرة واضحة هي : أن هناك تعصباً وحقداً وخصومة ورغبة في أن لايستعيد المسلمون حقهم ، ولا يستكملوا إرادتهم .

رابعاً ـ مناهج تخريبية :

يجب أن تكون أمامنا نظرة واضحة لعلاقة الفكر الاسلامي مع الفكر الغربي : الفكر الغربي يعمل في محاولة دائبة منذ بدأ الاستعمار من أجل احتواء الفكر الإسلامي والحيلولة دون سيطرته على المجتمع الإسلامي ، ويبدو ذلك في عدة مواقع :

١ ـ التعليم : وهو خاضع للمناهج الغربية ، وهو الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون .

٢ ـ الجهاد : جرت المحاولات لتأويله وإقصائه عن حياة المسلمين .

٣ ــ الشريعة الإسلامية : سواء في مجال القانون أو الاقتصاد وقفت الحوائل دون تحقيقها .

٤ ــ اللغة العربية : جرت المحاولات المتصلة للهجوم عليها وانتقاصها محاربة للقرآن الكريم .

ثم جاءت الموجة التالية ، وتتمثل في الغزو الثقافي والتغريب :

١ ــ محاولة السيطرة على البلاد الإسلامية بالنظم الديمقراطية والقومية الماركسية .

٢ ــ محاولة سيطرة مفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق على أسلوب العيش الإسلامي . وقد جاء هذا في مرحلة تالية لسيطرة الصهيونية العالمية على الفكر الغربي سيطرة كاملة ، فقد برز زعماء اليهود كمفكرين مسيطرين على جميع مجالات الفكر العربي حيث حولوا المفاهيم التلمودية اليهودية إلى نظريات حديثة ، لها طابع علمي زائف ، ولكنه براق .

وسيطر اليهود الأربعة : هرتزل ــ وماركس ــ وفرويد ــ ودور كايم ، وجاء بعدهم سارتر ، وهو يهودي الأم .

الأهداف :

١ ــ تحويل الفكر البشري ناحية الطعام والمائدة .
٢ ــ تدمير النفس الإنسانية عن طريق الجنس .
٣ ــ إعلاء العنصرية والقوميات والدماء .
٤ ــ تأكيد الانشطارية بين الروح والمادة مع إعلاء المادة .

وبرزت الفرويدية والماركسية ومدرسة العلوم الاجتماعية « دور كايم وليفي بريل » ومدارس مقارنات الأديان ، وعلم اللغة ، وعلم الأنثروبولوجيا ، وكلها علوم تستهدف إعلاء الفكر التلمودي الوثني

المادي الإباحي ، وبعث تراث التلمود والغنوصية والفكر البابلي القديم.

أما بالنسبة للمسلمين فقد وقعوا تحت تأثير الاحتواء فترة ، ثم بدأوا يستفيقون ، ونحن نرجو أن يكون عصر التبعية قد انتهى ، وبدأ عصر الترشيد ويمكن القول بأننا الآن في مرحلة الفهم والعلم والوعي بالخطر الذي يراد بنا ، ويجب علينا الانتقال بقوة وفورا إلى مرحلة الإرادة والتغيير ، كذلك يجب أن تكون نظرتنا إلى الغرب واقعية .

العالم الغربي الآن يمر بمرحلة الأزمة وبدور النهاية فقد عجزت الحضارة عن أن تعطيه سكينةالنفس أو طمأنينة القلب بعد أن فصل بين الروح والمادة ، ومن ثم كانت أبرز مظاهر حياته الآن : التمزق والضياع والعبث ، فهل المسلمون في حاجة إلى فتات الموائد وحثالات الأطباق ؟! .

خامساً ــ البروتوكولات :

إن الأخطار التي تواجهنا الآن هي بمثابة مؤسسات ظاهرة ومنظمات خفية . فلا تغفلن أبداً عن ذلك .

أمامنا : الماركسية والاستعمار والصهيونية مؤسسات ظاهرة ، ولكن هناك منظمات خفية هي : الماسونية والروتاري والليونز . وهناك أخطار فكر فرويد وسارتر ودور كايم تبدو واضحة الأثر في نفسيات الشباب وفي مفاهيمهم ، وفي مفاهيم المرأة وقضاياها ، وكلاهما تتمثل في أخطر قضيتين :

١ ــ الوصاية على الأبناء وتغذية روح الكراهية بينهما .

٢ ــ القوامة على المرأة وخلق روح الكراهية بينها وبين الرجل .

وهما قضيتان بالغتا الخطورة يجب أن تدرسا بدقة ، وأن تعرف أبعادهما

وخلفيات الخطر القائم وراءهما ، وهو يتمثل في « بروتوكولات صهيون » وما كشفت عنه من هدف الاستيلاء على العالم وتدميره أخلاقياً قبل السيطرة عليه .

وبعد فهذه خلفيات وأبعاد ، أرجو أن تكون في تقدير مثقفينا ، وهم يناقشون ويدرسون ، وهي تحديات حقيقية . فإنها إذا ما استحضرت سوف تعطيهم فهما أعمق ، وقدرة أوسع على الإحاطة بالأزمة ، وعلى إيجاد الحلول الناجحة .

لقد تبين تماماً أن التجربة التي قام بها المسلمون والعرب للنظم الغربية ، سواء الليبرالية أو الماركسية ، قد فشلت تماماً في تحقيق المطمح الإسمي لأمة القرآن ، وبذلك أصبح الطريق أمامهم مفتوحاً نحو خط واحد ، لم يجربوه ، وهو خطهم الأصيل ، وهو ملاذهم الوحيد الذي لن يجدوا دونه محيصاً ، الذي صاحبهم أربعة عشر قرناً ، وحماهم وأكّد وجودهم ، ودافع عنهم ، وسيظل يحميهم من عاديات الزمن وأحداث الأيام ما استمسكوا به .

سادساً ـ نقاط هامة :

في التاريخ الإسلامي الحديث نقاط ما تزال في حاجة إلى توضيح وبيان ، وأبرزها : العلاقة بين المسلمين والعرب ، وبين الدولة العثمانية والعرب ، وبين العروبة والإسلام في مواجهة دعوات القومية والعنصرية والإقليمية وغيرها .

أما السلطان عبد الحميد فقد رد إليه اعتباره الآن بعد أكثر من ستين عاماً، كان فيها في نظر المؤرخين مستبداً وسلطاناً أحمر مع أنه كان من أشرف الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم وملكهم في سبيل دفع جائحة

الصهيونية العالمية عن السيطرة على فلسطين ، ومذكرات هرتزل تثبت ذلك ، وتكشف عن مدى الدور الذي ظل خافياً عن العرب والمسلمين سنوات طويلة ، وإن كانت القضية ما زالت في حاجة إلى نصوص أوفى ووثائق أخرى لتحرير تاريخ السلطات تماماً من كل ما علق به .

أما الخلاف بين العرب والدولة العثمانية : فهو في الحقيقة خلاف مع الاتحاديين الذين حكموا من عام ١٩٠٩ إلى ١٩١٨ وورثوا مصطفى كمال نظامهم التلمودي الماسوني الصهيوني ، هؤلاء هم رجال « الاتحاد والترقي » الذين تشكلوا في أحضان المحافل الماسونية ، والذين عملوا لخدمة الصهيونية العالمية ، فأسقطوا السلطان عبد الحميد ، ومهدوا لإلغاء الخلافة ، وسلموا طرابلس الغرب لإيطاليا ، وفتحوا الطريق أمام اليهود إلى فلسطين ، وكانوا حاضرين في ضمير اللورد اللنبي عند ما قال بعد سيطرة الإنجليز على القدس : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ثم جاءت المؤرخة اليهودية فقالت : إن وصول الإنجليز إلى القدس عام ١٩١٧ كان يعني أنها أصبحت في قبضة اليهود ، وقد تم ذلك فعلاً عام ١٩٦٧ .

فالخلاف إنما كان مع الاتحاديين ، وليس مع الدولة العثمانية نفسها ، ومن هنا يجري الحديث عن القوميات وعن تمزيق « وحدة العالم الإسلامي » إلى كيانات بادئة بالطورانية في تركيا ومقابلها القومية العربية .. وما اتصل بعد ذلك بمفاهيم الغرب وبسيطرة النظرية الغربية في القوميات على النحو الذي عرف في كثير من الدرسات ، وقد فشلت هذه المفاهيم تماماً في ضوء الوحدة الإسلامية التي تبيَّن أنها الطريق الصحيح والأوحد،وذلك بعد التجربة المريرة وبعدهزيمة ١٩٦٧.

هذه مجموعة من الحقائق لا أعتقد أن باحثاً أو مثقفاً يستطيع أن

يستغني عنها في مواجهة قراءاته ودراساته ، سواء في تاريخ الإسلام ، أو التاريخ الحديث ، وفي مواجهة الاستعمار والمذاهب السياسية والنظريات الغربية بشطريها • ولهذه الأضواء الكاشفة والنقاط السريعة تفصيل واسع وأبعاد هامة يجب أن تتابع • ومن هذه الخيوط المجمعة الآن في كلمة واحدة نستطيع أن نستكشف الآفاق البعيدة ونعرف الخلفيات الظاهرة والخفية ، وتتابع الأحداث والأخبار في وضوح وفهم•

* * *

الفصل الثاني

الإسلام في مواجهة المذاهب والأيديولوجيات

كانت الفلسفة قبل الإسلام قد شكلت نظرية أو عدة نظريات اعتمدت فيها على الأهواء المجردة المتحررة من مفهوم الدين الحق الذي جاء به الأنبياء والرسل منذ بدء الخليقة ، وقد تمثل في هذه الفلسفة ما يمكن أن يسمى بالفكر البشري الذي يختلف اختلافا واضحا عن الفكر الرباني الذي جاء به الوحي إلى الأنبياء والرسل من لدن الحق تبارك وتعالى •

وهكذا عاشت البشرية في صراع شديد بين حقائق التوحيد ، وبين شبهات الفكر البشري الذي اعتمد على مصدر من مصدرين : مصدر عقلاني ، ومصدر حدسي • وقد عرف اليونان بالفكر العقلاني منذ قرون ستة سالفة للمسيحية ، كما عرف الشرق بالفكر الحدسي منذ وقت مقارب لهذا ، ثم جاءت مدرسة الاسكندرية ، فصهرت الفكر العقلاني مع الفكر الحدسي بغية إيجاد فكر بشري موحد ، وقد حاولت ولم تكن •

وقد جاءت حركة الفكر البشري كلها سابقة لدعوة إبراهيم عليه السلام ، وظلت على صراع مع رسالة السماء ، فقد هاجم إبراهيم من الدعوات البشرية الوثنية : عبادة التماثيل ، وعبادة النجوم والكواكب ،

مما كان معروفا في أرض بابل ، وجاء برسالة التوحيد وعبادة الواحد الأحد ، ثم جاءت رسالة السماء إلى موسى عليه السلام بالتوراة شرعة وعقيدة إلى قومه بني إسرائيل ، وامتدت الرسالة في بني إسرائيل حتى ختمت فيهم برسالة عيسى عليه السلام الذي جاء بالإنجيل ، والذي جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة ، ومبشراً برسول من بعده اسمه أحمد .

وقد تداخلت الأهواء في رسالة السماء ، فحولها الذين استحفظوا عليها بعد الأنبياء إلى دعوات عنصرية ، وربطوها بهم ، فاتخذ اليهود من رسالة موسى عنصرية يهودية ، لها مفهومها الخاص في الإله ، وفي الأمة ، وفي الحياة ، وفي علاقاتهم بالناس والأمم .

ثم جاء بعض أتباع عيسى عليه السلام ، فاتخذوا من رسالة الرحمة التي جاءت لتكسر جمود المادية اليهودية ، رسالة خاصة لها مفهومها في الإله والنبي والأمة والناس ، وكلا المفهومين اللذين وصل إليهما أتباع رسالة عيسى وموسى عليهما السلام مخالف لصحيح الرسالة نفسها ومعارض لها .

ولقد اختلطت اليهودية بالفكر البشري البابلي، واختلطت المسيحية بالفكر البشري[1] اليوناني ، فتداخلت مفاهيم الفلسفات القديمة في دين الله ، فصدر من ذلك نتاج مضطرب ، سرعان ما تعارض مع الفطرة ومع العقل البشري ، وخاصة بعد أن دخل العقل البشري في عصر العلم .

ولقد جاء القرآن الكريم ليحسم الرأي في كل ما أثارته الفلسفات والفكر البشري من قضايا وتحريفات وإضافات وانتقاصات ، ورد في عديد من مواضعه على مختلف التصورات الزائفة التي حولت دين الحق إلى غير ما قصد به وإليه .

وقد زيف القرآن كل ما سوى (لا إله إلا الله) من نظرية سواء

أكانت دعوة إلى الدهرية أو التثنية أو التثليث ، وأقام شرعة الله الحق التي جاءت بها كل الأديان ، وكل رسل الله منذ بدء الخليقة ، وهي التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء.ودعا المسلمين إلى الإيمان بكل نبي أرسل وكل كتاب أنزل : (لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) [البقرة : ١٣٦] .

كذلك فقد جاء الإسلام للبشرية كلها وللإنسانية جميعا رسالة خاتمة ، وكتابا خاتما ونبيا خاتما ، به انتهت رسالة السماء في الوحي والنبوة ، وختمت بالمعجزة الكبرى الباقية على الدهر التي تحدى بها الحق ـ تبارك وتعالى ـ الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله . وقد عجزت البشرية ، وما تزال عاجزة ، ومايزال التحدي قائماً ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

عرف الفكر الغربي البشري بالنظرة المادية والعقلية ، وعرف الفكر الشرقي الهندي والفارسي الوثني بالنظرة الحدسية ، وعجز كل من الفكرين أن يجمع بين العقل والقلب والروح والجسد وفق نظرة الفطرة التي جاءت بها الأديان ، فأصبح كل فكر معادياً للآخر ، له شطر نظرة ، يقف عندها ، ويغضب لها ، وقد نكب الفكر العقلي بالمادية والدهرية ، والقصور على المحسوسات والظواهر ، بينما عجز الفكر الحدسي عن النظرة الكاملة ، فقد نكب منذ البداية بمذهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

ومن ثم فإن كلا المذهبين قد حطم الإنسان ، وهو يدعي تكريم الإنسان ، حطمه الفكر الغربي المادي بأن أنكر إرادته ومسؤوليته ، وحطمه الفكر الشرقي الحدسي بأن عزله عن الحياة تماماً .

ولقد حاول اليهود الادعاء بأن لهم إلماما خاصا ، وأن لهم وعدا

خاصا ،وأنهم شعب الله المختار ، وأن الأميين ــ وهم كل من سوى اليهود ــ أقل منهم قدرا ، ومن حقهم التسلط عليهم ، ولا يمثل هذا المفهوم إلا هوى العنصرية البغيضة ، فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ هو رب العالمين جميعا ، وليس هناك وعد إلا للصالحين وقد منّ الله على إبراهيم والصالحين من ذريته فقال : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين) [البقرة : ١٢٤] •

ولقد حاول النصارى الادعاء بأن الله هو المسيح ، وأن الله ــ جل شأنه ــ له ولد • ولقد دحض القرآن دعواهم وزيفها وأعلن بطلانها ، كما أدعوا تصليب المسيح وقد دحض القرآن دعواهم، كذلك فإن من دعاواهم الباطلة أيضا : الخطيئة الأصلية خطيئة آدم ، وقد زيف القرآن هذه الدعوى، فقد عصى آدم وتاب الله عليه ، وأعلن أنه لاتزر وازرة وزر أخرى • وأن كلاً مسؤول عن عمله ، وأن توبة الله على آدم تنفي أن تكون هناك خطيئة مرتبطة بالبشر جميعاً • وبالتالي: فإن ذلك ينقض القول بأن المسيح جاء ليكفر هذه الخطيئة الموهومة •

ولقد جاء الإسلام محررا للناس من الفكر البشري في زيوفه واضطرابه وفساده وما اختلط فيه بالأديان ، كاشفا عن انحراف اليهودية ، وخروج المسيحية عن طبيقها بوصفها دعوة مكملة لرسالة موسى ، إذ أخرجها بولس من نطاقها الطبيعي إلى ديانة عالمية ، وأفسدها بالتثليث والصلب والخطيئة •

وأعلن الاسلام تحرير عقل الانسان وفكره من الوثنية وتحطيم القيود والأغلال المتراكمة الموروثة • كما أعلن تحرير الإنسان نفسه من العبودية التي فرضتها عليه الحضارات الرومانية والفارسية

الإسلام والعرب المعاصر

والفرعونية، وأعلن الإخاء الإنساني ، وبذلك شجب زيف الجاهلية كلها ، وبدأ صفحة جديدة للبشرية،هي عصر الرشد الفكري الإنساني المتقبل لرسالة عالمية خالدة، تقوم على أساس الإقناع العقلي ، وتكون معجزاتها معجزة بيان وكتاب وقلم وأولها : (اقرأ) •

وبذلك بدأ خطاب العقل والقلب ، وبدأت دعوة التأمل والفكر ، وبدأت حركة السعي إلى النظر في الكون : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) [يونس : ١٠١] (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق) [العنكبوت : ٢٠] (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) [الأنعام : ١١] •

وكانت دعوة التوحيد القرآنية : أبسط الدعوات وأقربها إلى الفطرة والعقل والعلم • ومنها بدأت حركة العلم حيث خرجت البشرية من منهج اليونان الفطري التأملي إلى منهج جامع بين النظر والتجربة ، كان من شأنه أن أبدع « المنهج الاسلامي التجريبي » قوام الحضارة الحديثة والعلم التكنولوجي •

أبطل القرآن سلطان الأحبار والرهبان ، والوساطة بين العبد والرب ، وجعل العلاقة بين الله والعباد خالصة (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) [البقرة : ١٨٦] ليس هناك من كهنوت يملك التحليل أو التحريم أو الغفران •

ودعا الاسلام أتباعه إلى العمل وبناء الإرادة، وحملهم المسؤولية الفردية • والالتزام الأخلاقي مقدمة الجزاء والحساب بعد البعث في حياة أخرى بعد هذه الحياة •

« علم القرآن أتباعه أن يواجهوا الحياة بواقعية ورباطة جأش

لامثيل لهما في الأديان الأخرى ، وحثهم على الإقبال عليها ، والزهد فيها في آن واحد ، في توازن مدهش لاتفريط فيه ، ولا إفراط : شعاره الدين والدنيا معا » •

وأعطى الإنسان النفس الإنسانية السكينة والطمأنينة • بمايحول دون الفزع والتمزق والصراع والضياع والخواء الذي خلقته الوثنية قديماً وحديثاً، فقد جاءها بالأمل والعزيمة ، والمثل العليا •

ودعا الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : (لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون • كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه) [المائدة : ٧٨] •

حدد القرآن مسائل ماوراء الطبيعة(عالم الغيب) تحديدا واضحا، ورسم دائرته رسما كاملاً بما يشفي صدور المؤمنين ، ويكفي حاجتهم العقلية والنفسية ، وحتى لايذهبوا وراء البحث بأداة العقل التي تعجز عن اختراق هذه الحجب ، وأعلن قصور العقل الإنساني عن التوصل الى الماهية « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا » •

وربط بين الوحي والعقل ، وجعل العقل سراجا يستضيء بالوحي •

كذلك اعتمد القرآن في طريقة الاقناع على الفكرة لاعلى الجدل وخاطب في الناس عقولهم ومشاعرهم وقلوبهم ، وقدم لهم براهين التاريخ وعبرة القصة في أسلوب محيط بكل ملكات الإنسان ، ونشأ الفكر الاسلامي كله من مصدر القرآن •

فمن النظر إلى قوانين القرآن وشريعته نشأ علم الفقه •
ومن النظر إلى آيات الكون والغيب نشأ علم الكلام •

ومن النظر إلى أخلاقياته نشأ الزهد والتصوف .
ومن النظر إلى نظامه في بناء الجماعة والدولة نشأ علم السياسة .
ومن النظر إلى نظامه في بناء الجماعة والدولة نشأ علم السياسة.
ومن النظر في أسلوبه وبيانه نشأت علوم اللغة .

وتشكل منهم الفكر الإسلامي كلـه قبـل أن تترجـم الفلسفـة اليونانية أو الفلسفات الفارسية والهندية .

وعجزت وثنية الإغريق ومجوسية الفرس ، وغنوصية الهنود ، وإشراقية الشرق كلها عن أن تطغى على جوهر التوحيـد الخالص ، وان دخلت معها في معركة ضخمة انتهت بتحرير الفكر الاسلامي من كل الزيوف ، وذلك بعد أن انصهرت كل الايجابيات من معطيات العلوم القديمة في إطار التوحيد .

وإذا كان الفكر الاسلامي قد واجه الفكر الاغريقـي المـادي والفارسي والهندي الوثني في القرن الرابع ، فإنه من أوائـل القـرن الرابع عشر الى اليوم ، وهو في مواجهة صارمة للفكر المادي الغربي ، والفكر الماركسي ، والفكر الصهيوني التلمودي الذي احتوى الفكر الغربي بشقيـه .

وقد تجددت المعركة في مواجهة التوحيد الإسلامي في محاولـة ضخمة لاحتوائه ، وما تزال قوى الفكر الإسلامي تواجـه التحديات في قوة ، وتكشف عن زيف الفكر البشـري وعجـزه عـن الإحاطـة بالنظرة أو تمكنه من إعطاء الانسانية السكينة والطمأنينة النفسية ، أو إعطائها منهجا من مناهج الحياة الاجتماعية ، يحقق لها العدل والحرية معـا . وكما جاهد الأشعري والغزالي وابن تيمية والشافعـي في رد عادية الفتنة اليونانية على أصالة الإسلام وفكره ، فإن عددا كبيرا من

رجال هذه الأمة يدافعون عن التوحيد كاشفين زيف الوثنية والمادية والاباحية والإلحاد ممثلا في عشرات من المذاهب والايديولوجيات مؤمنين بأن المسلمين لن يجدوا إلا طريقا واحدا هو طريقهم الحق ، وأن كل هذه المناهج والأيديولوجيات سوف لاتحقق لهم شيئا إلا الهزيمة والاندحار ومزيدا من النكسة وامتدادا للأزمة : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) [الأنعام : ١٥٣] •

* * *

الفصل الثالث

تغيير العقلية الإسلامية الهدف الأكبر للاستشراق والتبشير

(تغيير العقلية الإسلامية هو الهدف الأكبر من عمل مؤسستي : التبشير والاستشراق :

التبشير يعمل في مجال التعليم ، والاستشراق في مجال الثقافة .

« ولما كانت عقلية العالم الاسلامي وثقافته مرتبطة بالاسلام واللغة ، فقد ركز عليها ، ولما كانت وسيلة التغيير كامنة في التعليم فقد حرص على بناء أجيال جديدة على مناهجه في مدارسه، وفرض على الدول المحتلة أنظمة تعليمية قوامها تحقيق هذا الهدف » .)

وما يزال هذا الجانب المتصل بالتربية والتعليم والثقافة بعيدا عن اهتمام قادة المسلمين والعرب ، وهي المصدر الأساسي لكل تغيير وإصلاح ، وتحرر من نفوذ الاستعمار الغربي والصهيوني والماركسي .

وإذا كانت رياح الفكر البشري تحمل إلى العالم الإسلامي مذاهب ونظريات وأيديولوجيات ، فسرعان ماتجد أرضا خصبة . فان ذلك كله يرجع الى التوسيد الذي أعدته مدارس الإرساليات ومناهجها

وأساليبها التي تلقفتها من بعد ذلك مناهج التعليم في المدارس الوطنية التي خضعت للنفوذ الاستعماري ، والذي فرض عليها اسلوبا غريبا بعيدا عن مفهوم التربية الاسلامية وطريقة التعليم العربية الأصلية • فلما جلا الاستعمار من البلاد العربية والاسلامية بقي هذا النظام قائما ، وكل ما أدخل عليه من تعديلات أو تغييرات فإنما اتصلت بهوامشه وفروعه ، ولكنها لم تقترب مطلقا من أصله وجذوره ، فبقيت رياح الوثنيات والعلمانيات وشبهات التغريب قائمة من خلال هذه المناهج •

ماتزال مناهج التعليم تصدر عن تلك الأصول القديمة التي وضعها الاستعمار متصلا بالارساليات التبشيرية ، وأقل ماتدل عليه هو أنها تنكر وحدة الفكر الإسلامي ورابطة اللغة العربية التي أقامها القرآن بين عناصر الأمة الاسلامية ، فضلا عن أنها ركزت على الاقليات في التاريخ والأدب والآثار ، كذلك فقد حجبت الدور الخطير الذي قام به المسلمون في بناء منهج المعرفة ومنهج العلم التجريبي ، وما قدمه الاسلام للبشرية من قيم في مجال السياسة والاقتصاد والقانون والاجتماع والتربية • فقد أعطت الطلاب المناهج الحديثة منفصلة عن جذورها التي قام بها المسلمون ، كذلك فقد أوقعتهم في مناهج بعيدة عن عقائدهم • وربما كانت معارضة لها كالفلسفات القديمة والغربية ، الملحدة منها والإباحية مما يختلف مع جوهر فكرهم الإسلامي الأصيل القائم على التوحيد والعدل والرحمة •

ولقد تأكد — بكل وضوح — أن التبشير في غاياته العليا ليس هو إدخال المسلمين في أديان أخرى وإنما هو إخراجهم من أصالة الإسلام إلى قشوره ومظاهره ، واثارة الشبهات حول قيمه الاساسية حتى يصبح المسلمون عجينة طيعة تتشكل وفق مفاهيم الغرب •

وقد حدث هذا ، وأكدت الايام صدقه ، إذ أن هذا « التوسيد »

الذي أحدثته مناهج التعليم الغربية التي سيطرت وما تزال تسيطرعلى كثير من المدارس العربية والإسلامية • أنها كانت قد أعـدت بدقـة لتفسح المجال في النفس الإسلامية والعقل الإسلامي لتقبـل مختلف التيارات التي تصل إليه‌من‌الشرق أو الغرب من الوجودية أو الماركسية أو الفرويدية ، لأنها قد خلت في الحقيقة من جوهر الأصالة الاسلامي الذي يعصم النفس والعقل جميعا ، ويكوّن ذلك الجدار الصلب‌الذي لاينفذ إليه الخطر ، وتلك الحصانة النفسية والفكرية القـادرة علـى الثبات أمام تلك الأعاصير والزعازع التي تقذف بها الثقافات • ومـا ال هذا الخطر قائما ، وماتزال تلك الحصانة مفقودة ، وما زال‌شباب المسلمين في حالةاستهواء إزاء كل ماتتقاذفه الثقافات العالمية من مذاهب وتيارات مضلّلة كاسحة من وثنية ومادية وإباحية وملحدة •

وقد أصبح من الضروري أن تتخذ خطوة حاسمة في هذا المجال، تحرر المناهج من هذا التحدي الخطير ، وتردها إلى أحضان الفكـرة الاسلامية الصحيحة القائمة على التوحيد والأخلاقية الأصيلة ، ومـا لم تتحقق هذه الخطةفإن هذا الخطر سيظل قائما ومستمرا في تنشئـة أجيال أقل مايقال عنها : إنها لاتمتلك الحصانة أمام الأخطار والتيارات الوافدة التي تهب رياحها على العالم الإسلامي من كل مكان ، والتـي تتشل في ثلاثة محاور أساسية هي : الفكر الاستعمـاري ، والفكـر الماركسي ، والفكر الصهيوني ، وهو في جملته يمثل «كل» ما يرد إلينا من وراء البحار ، وليست هناك أمة معرضة لهذا الخطر إلا الأمة الإسلامية، لأنها وحدها التي تمتلك ثقافة وفكرا مستقلا متميزا، له ذاتيته الخاصة، وطابعه المفرد من وحي السماء وكتابه الموثق الذي لم يدخله زيف أو تفسير خاطيء ، سواء بالاضافة أو الحذف كما وقع لثقافات الأمـم •

ومن هنا فإن تلك الثقافات التي يواجهها الغرب‌في آسيا أو غيرها،

إنما تلتقي كلها في مجال الفكر البشري الخليط المضطرب الذي هـو فكر رباني في أصله ، وقد خالطه زيف التفسيرات والأهواء والإضافة والحذف على النحو الذي صنعه بعضأرباب المذاهـب والنحـل في القديـم •

وقد كشف القرآن الكريم لنا هذه الصفحة ، وعرض لكل ماوقع فيه أهل الأمم ، سواء البابليون أو الفراعنة أو اليونان أو الرومـان أو الفرس أو الهنود ، ووقائع هذه الامور واضحة ، وقـد رد القرآن عليها جميعاً، وأبان وجه الحق في رسالات الانبياء الصافيـة النقيـة التي كانت هداية للبشرية ، ثم أصابها التحريف ، وقد جـاء القـرآن ليضع حدا فاصلا بين الفكر البشري والفكر الرباني،ومن ثم فقد تجددت هذه المذاهب وصيغت بصورة أخرى مستحدثة براقة ، وأدخلـت في إطار مايسمونه الفلسفات والايديولوجيات ، وهي كلها تمثل أهـواء البشرية ، (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم مـن ربهم الهدى) [النجم : ٢٣] •

ولذلك فإن المسلمين أمة واحدة قائمة بالحق ، تمثل ذلك الحق الرباني الصادق ، وعليهم أن يظلوا كذلك منفصلين عن الأمم،لايأذنون لفكرهم ولا لرسالتهم أن يصيبها من تلك الزيوف مايغير طابعهـا أو يخرجها عن جوهرها وكيانها •

وعليهم أن يقاوموا هذا الخطر بكل مايملكون من قوة وبأس ، وليس عليهم بعد هذه الحماية من خطر ، فإنهم إنما يدافعون عن كلمة الله ، ويسعون لإعلائها وتثبيتها وحمايتها ، وهم في سبيل ذلك يضحون بكل مايملكون ، ولا تزعجهم تلك العبارات البراقة التي تقال أحيانا من عصرية وتقدم وتجديد ، فإن قاعدتهم الأساسية هي التمسك بتلك

الاصول الثابتة دون أن يجعلوا منها مسوّغا لأهواء البشرية في اتجـاه حضارتها اليوم ، وليس عليهم أن يتحولوا عنها بالتبرير أو التفسير أو التأويل ليرضوا أهل تلك الحضارة، وإنما عليهم أن يطلبوا إلى البشرية أن تعدل طريقها لتتلاءم مع القيم الاساسية للدين الحـق وضوابطـه وحدوده التي أمر الله أن نقف عندها ولا نعدوها ، ذلك أن الحضارة ليست في الحقيقة إلا مادة صالحة يراد الاستعانة بها على إقامة المجتمع الرباني ، وليست هي الهدف الأصيل الذي تحطـم مـن أجلـه قيم السمـاء .

وإذا كان المجتمع الغربي قد تجاوز حدود الله ، فإنه يصلى اليوم نارا حامية ، وقد صرعته أزمة الانسان الحديث ، لأنه تجاهـل تلـك الضوابط التي تقيم التوازن بين الروح والجسم ، وبين العقل والقلب، وبين النفس والمادة ، وبين الدنيا والآخرة . وهو الآن يمـر بمرحلـة قاسية من التمزق والصراع والغربة ، لايجد منها فكاكا، ولا يجد منها مخرجا ، وقد جرب كل الايديولوجيات والنظريات والمناهج ، فلـم تحقق له أي بصيص من نور ، وليس هناك من سبيل إلا التماس كلمة الله الحق ومنهجه الأصيل، وسيظل المسلمون والعرب ضائعين لايجدون أنفسهم ، ومقصرين لايؤدون حق الله عليهم ماداموا في هذا الطريـق المظلم مالم يعودوا إلى الحق ، ويلتمسوا منهجهم الأصيل في التربيـة والتعليم، إذ أنه من هذه المقادة قادهم الاستعمار حين بدأ بإنشاء معاهد الإرساليات ، وقضى بها على مناهجهم الاسلامية الأصيلة ، وأزالها من مختلف المدارس والجامعات ، إن الهدف من تغيير العقلية الاسلاميـة يرمي إلى غايتين :

الأولى : أن يظل المسلمون يدورون في فلك الفكر البشري الذي صاغته أهواء الطامحين والطامعين وعبّاد الذهـب والمـادة ودعـاة

الجنس والفاحشة حتى لايصل مرة أخرى إلى مصادره الحقيقية التي تهدي البشرية إلى حق الله ونورالمعرفة الحقة ، وتجعل من أمة القرآن الامة القائمة على هذا الحق فوق هذا الكوكب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها • ومن ثم تعيش هذه الأمة ذليلة مدحورة، مكبلة بالباطل، مستعمرة محتواة مغزوة ليس بالقوى الاستعمارية وحدها ولكن بآثام البشرية كلها التي سحقت الأمم القديمة وأبادتها •

والثانية : أن يعجز المسلمون عن تبليغ هذا الحق الذيأنزله الله عليهم للبشرية ، وتلك مسؤوليتهم ورسالتهم بعد أن يقيموا المجتمع الرباني في أرضهم أن يبلغوا رسالة ربهم، وأن يهدوا البشرية الحائرة الآنإلىمصدر الضوءالحق،والنورالأصيلوالهدىالأوحد بعد أناختلطت بها الطرق ، واختلفت بها الوجهة ، وعجزت عن أن تصل إلى السبيل ، ذلك أن الغرب لايخاف شيئا كما يخاف دعوة الإسلام التي تعارض مناهجه الزائفة في الربا والماركسية وأهواء الوجوديةوالفرويديةجميعا •

والواقع أن الإسلام دين سلام ورحمة وإخاء بشري واسع النطاق ، وهو ليس عدوانيا ولا يحمل أحدا على الإيمان به أو الدخول فيه عنوة ، ولكنه يكتفي بأن يبلغ البشرية هذا الحق ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، والمسلمون ليسوا طلاب فتح أو غنم أو سيطرة مما يحاول خصومهم والصهيونية — على وجه العموم — أن يذيعوه في العالم الغربي ، وهم حماة البشرية بما أعطاهم الله من قدرات وطاقات وقوة بشرية ، ولكنهم لايقيمون نظامهم هذا إلا على أساس أن يكونوا قادرين على إقامة مجتمعهم وفق شريعتهم ، والحفاظ على ذاتيتهم أن تنصهر ، وأنهم لايقبلون أنيحول أحد بينهم وبين هذا الحق ، وهم به يكونون أقدر على التعاون مع البشرية كلها والمساهمة مع الامم

جميعاعلى الحياة، ولكنهم لايرضون أن تقوم قوى التبشير والاستشراق والتغريب والغزو الثقافي تحت أسماء الدعوة إلى العصرية والتقدم، ــ سواء بدوافع الاستعمار أو الماركسية أو الصهيونية ــ بتحطيم القوة الأساسية المعنوية التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي ، هذه القوة هي شبابه وأجياله الجديدة التي ستحمل أمانة العمل بعد قليل . هذه القوة التي يجب أن تبنى على الإيمان العميق والصمود والثبات والانفصام عن الشهوات التي تزعزع الكيان النفسي ، وتجعله عاجزا عن حمل الامانة الكبرى ، والمسؤولية الضخمة والتبعية الثقيلة التي سيورثونها ،ونحن مسؤولون على أن نحميهم من ذلك كله، وأن ندلهم على الحق حتى لا يأخذنا التاريخ والأجيال القادمة بالمساءلة عن التقصير أو التفريط .

* * *

الفصل الرابع

ضرب الإسلام من الداخل
مؤامرة قديمة متجددة

يصور القرآن الكريم نشوء الحركات الهدامة ومنطلقها وموقف الإسلام منها على نحو غاية في الوضوح والقوة، ويضع هذه الحقيقة أمام المسلمين قائمة حتى لا يغفلوا عنها لحظة واحدة ، وإلا اجتاحهم خصومهم ، يقول الحق تبارك وتعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . [البقرة : ٢١٣]

ومنذ كان الفكر الرباني ، وهو في صراع مع الفكر البشري ، وعلى مدى تاريخ البشرية ، وقد جاء القرآن فنسف أساس هذا الفكر كله ، وصيّره ركاماً ، وكشف زيفه وضلاله وفساده ، ودعا البشرية من جديد إلى التوحيد باعتباره المنطلق الوحيد إلى الفكرة الربانية من أجل قيام المجتمع الإنساني ، فهزم الإسلام العبودية البشرية في حضارات اليونان والفرس والهند والفراعنة ، وأقام حرية الإنسان منطلقاً إلى الإخاء البشري ، وهزم العبودية الوثنية لغير الله ، وحرّر العقل البشري ، وأطلقه ليجد طريقه إلى معرفة سنن الله في الكون .

ومن هذه النقطة أنشأ المسلمون « المنهج التجريبي » الذي هو قاعدة الحضارة المعاصرة .

غير أن محاولات الهدم لم تتوقف ، وتجددت مرة أخرى ، وأخذت تصنع من هذا الركام القديم مذاهب جديدة ، عرفت في العصور السابقة بأسماء كثيرة وهي : الغنوصية ، والتناسخ ، والدهرية ، وإخوان الصفا ، والسبئية . ومنها ظهرت القرمطة ، والزنج ، والمانوية ، والمزدكية ، والخرّمية ودعاة الإلحاد والحلول ، ووحدة الوجود .

ثم استطاع الإسلام أن يواجه هذه الحركات الهدامة بقوة ممثلة في أعمال الشافعي ، وابن حنبل ، والأشعري ، وابن حزم ، والغزالي ؛ وابن تيمية ؛ وابن القيم .

ثم جاء الغرب يحمل معه فكرة الغزو الثقافي والتغريب حسب وصية لويس التاسع الذي دعا إلى العمل لمحاربة الإسلام من منطلق الكلمة وعلى ضوء وصيته نشأت فكرة خطيرة هي « ضرب الإسلام من الداخل » ومن ثم كان إنشاء مؤسسات التبشير والاستشراق مقدمة لكل ما قدم للمسلمين من مذاهب هدامة ودعوات مضللة .

كانت مؤسسة التبشير هي المنطلق الأول للعمل عن طريق المدرسة والجامعة ، وكانت مؤسسة الاستشراق لتصدير الفكر إلى الجامعة وإلى الصحافة معاً في مجال الثقافة والتربية جميعاً .

وكان أخطر ما واجه المجتمعات الإسلامية ، بعد الاحتلال : نظرية « العلمانية » وهي فكرة خبيثة ، تمزق الإسلام إلى دين ونظام مجتمع ، وتحاول أن تقر الأول ، وتركض الثاني ، بينما يقوم الإسلام نفسه أساسا على أنه نظام مجتمع ومنهج حياة والدين — بمفهوم العقيدة والعبادة — جزء منه .

لقد عملت العلمانية على فرض القانون الوضعي في العالم الإسلامي متصلاً بنظام المصرف الغربي ، وعلى قاعدة الربا في مجال الاقتصاد مع تطبيق النظام السياسي الليبرالي الديمقراطي . غير أن التجربة التي تمت خلال خمسين عاما أثبتت فشل هذا النظام وفساده ، ثم انفتح الطريق إلى التبشير بالشيوعية عن طريق الماركسية أولاً ، وبدافع من الماسونية والعلمانية والتبشير ، فكان أن واجه العالم الإسلامي تجربة جديدة ، أثبت الحس الإسلامي والذاتية الإسلامية ، والمزاج النفسي الإسلامي رفضه الكامل لهذه الدعوة وسخطه الوافر على هذا النظام خاصة بعد أن كشف النظام نفسه عن فساده في بيئاته الأصلية وعجزه عن تحقيق الرخاء أو العدالة كما ادعى ، ولم يبق أمام المسلمين إلا أن يعتصموا بمنهجهم الإسلامي الذي بناهم خلال أربعة عشر قرناً ، وشكل ذاتيتهم ومزاجهم النفسي وكيانهم الاجتماعي ، فلم يعد لهم طريق غيره بعد أن تقطعت بهم السبل .

«أما « الماسونية » فهي حركة سرية خفية لا تظهر على السطح كمؤسسة ، ولكنها تؤثر في المؤسسات الظاهرة ، وتحركها إلى غاياتها ، ولذلك فإن عملها أشد خطراً ، لأنه مما لا يمكن مواجهته مواجهة علنية صريحة ، وإنما تواجه من خلال دعوات كثيرة مبثوثة خلال خلال المذاهب المتصلة بعلم النفس ، وعلم مقارنات الأديان ، وعلم اللغات ، وعلم الأخلاق ، وعلم الاجتماع ، وكلها علوم حديثة يضمها اسم « مدرسة العلوم الاجتماعية » ويقوم عليها دعاة يهود صهيونيون ، يتخفون تحت أرواب أساتذة الجامعات وشارات العلماء ، ولكن جوهر نظرياتهم كله مستمد أصلا من « التلمود » ومن منهج اليهود الذي صورته بروتوكولات صهيون ، والذي يستهدف أصلاً تدمير المجتمعات

الإسلامية بعد القضاء على مقوماتها الروحية والأخلاق والنفسية .
ويتصل بهذا كل المحاولات الموجهة إلى الشباب لتدميره عن طريق المسرح والقصة ، والصورة العارية ، والأغنية الخليعة ، والأزياء المكشوفة ، ودعوات الوجودية والهيبية والتي تهدف أساساً إلى القضاء على الفوارق الأساسية بين شخصية المرأة وشخصية الرجل كمقدمة لتدمير الأجيال الصاعدة حتى لا تستطيع مواجهة الغزو أو الوقوف في وجه الحرب النفسية المتصلة ، والتي تشنها كل القوى على الإسلام .

ولا ريب أن هدف الماسونية هو إيجاد الأرض التي تقوم عليها الصهيونية ، وإعادة بناء هيكل سليمان وإقامة مملكة داود .

ومن أجل هذا عمدت الماسونية إلى حماية دعوات ترمي إلى ضرب الإسلام من الداخل ، وفي مقدمة ذلك : البهائية والقاديانية .

ولا ريب أن أعظم ماتدعونا إليه المسؤولية المناطة بحملة الأقلام ودعاة الإسلام هو التعرف إلى أبعاد الخطر المتمثل في الحركات الهدامة في ضوء هذه المجموعة من الحقائق :

أولا : إن الفكر البشري ما يزال يصارع الفكر الرباني ، وأن المد المادي الوثني قد وصل إلى قمته ، وأن هناك شبه عقد غير موقع بين الشيوعية والصهيونية والوثنية والاستعمار على ضرب قوى الإسلام .

ثانيا : إن المسلمين اليوم قد تنبهوا إلى مصادر الخطر ، ولكنهم ما زالوا في حاجة إلى بناء الإرادة القادرة على التعبير والعمل ، وهذه هي المرحلة التي يترقبها المؤمنون بشوق شديد .

ثالثا : إن المسلمين في حاجة إلى أن يعلموا أن موقعهم في هذا الكوكب بين الشرق والغرب، إنما يحتم عليهم أن يظلوا - طول حياتهم وعلى مدى العصور وحتى يرث الله الأرض ومن عليها - في رباط ،

وذلك من منطلق توجيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : «وهم في رباط إلى يوم القيامة » ذلك أن القوى المختلفة لن تتوقف عن ملاحقتهم ومصارعتهم ، ولا سبيل لهم إزاء ذلك كله غير المرابطة والمواجهة والإعداد بالقوة لإرهاب العدو ، وأن يكونوا في حذر من الغفلة : « ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » [النساء : ١٠٢] .

رابعاً : ضرورة الحذر من العمل الذي يتم خلال واجهات غير معروفة ، فإن خطر المؤسسات القائمة الواضحة كالتبشير والاستشراق والبهائية والشيوعية له أهميته ، ولكن هناك نظام خفي يسري كالسم الزعاف في مناهج التربية والتعليم والثقافة عن طريق الماسونية وخلائفها من الروتاري ، والليونز ، ومدارس العلوم الاجتماعية ، والتحليل النفسي وغيرها ، وهي أشد خطراً لأنها تجد منطلقها في الثقافة عن طريق القصة والمسرح ، وتجد مداخلها في التربية والتعليم عن طريق التفسير المادي للتاريخ والوثنية والفرويدية . والوجودية دون أن ينكشف سعيها أو يظهر للعيان .

خامساً : ليكون معلوما أن هناك هدفاً واضحا وراء بروتوكولات صهيون ، هو تدمير الإنسان ، ومن ثم نشأت نظرية إخضاع العلوم الإنسانية لمناهج العلم التجريبي منطلقة من الغريزة كمصدر لحركة الإنسان في الفرويدية ، ومنطلقة من لقمة العيش كمصدر لحركة الإنسان في الماركسية .

سادساً : لابد من تقدير الخطة القديمة المتجددة التي تسمى « حركة ضرب الإسلام من الداخل » ويراد بها أن يعمل أعداء الإسلام من داخله عن طريق الادعاء بأنهم مسلمون ، ثم تكون لهم وجهات

نظر يراد استخلاصها بالتأويل والتضليل على النحو الذي سارت عليه الباطنية القديمة •

سابعاً : لابد من تقدير خطة هذه الحركات جميعاً في العمل على تغيير جلدها كلما انكشفت خطتها ، أو كلما واجهها الفشل ، ذلك أنها سرعان ما تعمل على التشكّل في صور جديدة •

كذلك لا بد من النظر بعين اليقظة إلى المرحلة الجديدة من حركة التبشير وهي مرحلة « التبشير اليهودي » بعد مرحلة تبشير الكنيسة وتبشير السياسة الاستعمارية ، وقد ركز التبشير السياسي الاستعماري على العلمانية ، أما التبشير اليهودي فهو يركز على ضرب قيم الترابط بين العروبة والإسلام ، ومحاولة تصوير الإسلام بصورة الدعوة العنصرية على النحو الذي يقدمه المستشرق اليهودي برنارد لويس •

إن الفكر التلمودي الصهيوني الذي تحوّل إلى نظريات ومذاهب في مجال الدراسات الإنسانية قد استطاع احتواء الفكر الغربي المعاصر ، وتوجيهه إلى خدمة أهداف الفكر الصهيوني ، وتصفيته من مفاهيم المسيحية والقيم الإنسانية العامة ، واستغلال الثقافة والحضارة في بث روح الإلحاد في العالم كله •

والحملة الآن موجهة في قوة إلى الفكر الإسلامي في محاولة لاحتوائه وصهره في البوتقة ، وذلك سواء بضربه من الخارج بالشيوعية والعلمانية ، أو ضربه من الداخل بالبهائية والتبشير ، كذلك تحاول المؤسسات الخفية التي لاتظهر عياناً كالماسونية والروتاري والليونز وغيرها القيام بدور خطير في هذا السبيل ، ومن هنا يتحتم علينا اليقظة التامة إزاء هذه المؤامرة المتجددة : مؤامرة ضرب الإسلام من الداخل •

الفصل الخامس

تحديات الاستعمار والصهيونية والماركسية

بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية التي استمرت ست سنوات تقريباً ، كان العالم الإسلامي يتطلع إلى أفق جديد قوامه ترابط إسلامي ، تتكامل فيه الحلقات الثلاث حتى تصل إلى غايتها الطبيعية : وطنية ، وعروبة ، ورابطة إسلامية بالفكر والجماعة ، وكانت كل العوامل القائمة توحي بأنه يخطو فعلاً في هذا الاتجاه ، وكان ظهور الباكستان من أهم العوامل التي هزت الوجدان الإسلامي تطلعاً إلى الوحدة وإلى التطبيق الإسلامي ، وكان المغرب بأقطاره الأربعة يتطلع إلى الحرية الوطنية مقدمة لاندفاعه إلى دائرة العروبة الإسلامية •

غير أن الوجود الصهيوني في قلب فلسطين لم يلبث أن تحول إلى كيان، وعجزت الدول العربية عن تصفيته،واستطاعت القوى الاستعمارية أن تحميه بتصفية القوى الداعية إلى الوحدة الإسلامية ، وإحلال الصراع الوطني والاقليمي ونظريات التجزئة والمفاهيم الغربية للقوميات•

ولم يلبث أن حدث تحول ضخم ، أبعد الاتجاه الإسلامي الجامع ، وغلب مفهوم التجمع العربي مع تعميق الدعوات الوطنية في بعض الأقطار العربية •

غير أن حركة التحرر مـن نفـوذ الاستعمار ما لبثت أن حققت استقلال تونس ، والجزائر ، وليبيا ، وفرضت حرب التحرير الجزائرية ، فكان تحرير الشمال الإفريقي والجناح المغربي للنصر العربي من أبرز انتصارات هذه الفترة •

وسرعان ما استطاع مفهوم الوحدة الإسلامية أن يفرض نفسه من جديد من خلال منطلق الأصالة بعد أن تبين عجز الخطر القومي القائـم على المفهوم الوافد عن تحقيق أي نتائج إيجابية •

وقد ارتبط مفهوم القومية ذات المفهوم الغربي بالدعـوة إلـى تفريغ العروبة من مضامين الإسلام فكراً ، ومن ترابط العروبة بالعالـم الإسلامي جغرافيا واجتماعيا وروحيا فبدا وكأنمـا هناك صراع بـين العرب والأمم الإسلامية •

ولم تلبث المفاهيم الماركسية أن دخلت الساحة العربية لتحل محـل مفاهيم الاقتصاد الغربي والرأسمال الـذي لم يكن قـد حقق شيئـاً يتلاقى مع الروح العربية الإسلامية ، كذلك فقد أخذت الماركسية تقدم مفهوما سياسياً بديلاً للديمقراطية الغربيـة التي عجزت بالتالي عـن الاستجابة لطبيعة النفس والمجتمع العربي الإسلامي •

وكانت هزيمة ١٩٥٦ بعد نكبة ١٩٤٨ على الساحـة العربية في فلسطين مع كل هذه الاتجاهات : سواء في مجال المفهوم الغربي للقومية، أو المفهوم الماركسي للاقتصاد ، أو المفاهيـم السياسية التي أحلت في بعض الأقطار نظاماً بديلاً للديمقراطية الليبرالية،كل هذا جاء بالانحسار الخطير الذي أطلق عليه نكسة ١٩٦٧ حيث ضاع آخر شبر من فلسطين، واحتل اليهود القدس ، وتوسعت إسرائيل في أراضي سيناء والجولان • وكانت عودة التضامن الإسلامي بمفهوم الوحدة والجامعة والإخـاء التي استخدمت على فترات طويلـة منذ سقوط الخلافـة الإسلاميـة

النهائية ١٩٢٣ قد قرعت الأجراس منذرة بالخطر الذي وقع عام النكسة، والذي لفت الأنظار بقوة إلى أن العرب والمسلمين قد وصلوا إلى الطريق المسدود ، وكان لابدّ من انتفاضة جديدة •

وبدا في مجال الفكر الإسلامي أن المعركة التي كانت قائمة في مواجهة تحديات الفكر الغربي عن طريق الاستشراق والتبشير والتغريب والغزو الثقافي والتي كانت تتركز حول فصل الدين عن الدولة والمجتمع ، وحول إقرار مفهوم جزئي للإسلام على أنه دين عبادة يفسح الطريق أمام نظام اجتماعي وقانوني وسياسي واقتصادي وافد • هذه الدعوة التي كانت موضع الحرب والنضال الطويل،منذ جاء الاستعمار الغربي في جولته التي بدأت بحملة نابليون إلى مصر ١٧٩٨ •

وبالاحتلال الجزائري عام ١٨٢٠ وما بعد ذلك ، هذه الدعوة قد تضاعفت حين طرق الفكر الماركسي أبواب عالم الإسلام ، وحاول أن يلتمس له منطلقا في بعض الوجوه ، وبدا أن المعركة معه قد بدأت فعلاً منذ عام ١٩٦٤ تقريبا ، وإن كانت من قبل ذلك كانت موجودة فعلا ، ولكنها لم تكن قد دخلت دائرة التحوي حين أتيحت للأقلام الماركسية الفرصة في تركيز قذائفهم على الإسلام على مسوى العالم العربي كله ، ومن هنا بدأت حلقة أخرى من النضال والحرب من خلال الكشف عن جوهر الإسلام ومفهومه الاقتصادي ، ونظامه الاجتماعي ، وكيف يتميز هذا النظام بتحقيق المجتمع العادل دون إراقة الدماء أو صراع الطبقات أو إنكار وجود الله •

فهذا مجال قد فتح أيضا أمام معارك المقاومة الفكرية ، وقد سار فيه الكتاب المسلمون خطوات واسعة •

وفي نفس الوقت كانت الصهيونية قد طرقت أبواب الفكر الإسلامي بقذائف من نوع آخر ، عن طريق الاستشراق اليهودي

الذي سيطر على الجامعات الغربية ، والذي حاول أن يركز على العرب وجودهم وكيانهم وقيمهم ولغتهم ودينهم وتراثهم من منطلق القضاء على الوجود العربي الذي هو بمثابة الروح للكيان الإسلامي .

وكان لدعوة التضامن ولحركة اليقظة الإسلامية دورها في دحض الشبهات التي طرحها الفكر اليهودي عن طريق دوائر المعارف ، وخاصة « دائرة المعارف الإسلامية » عن طريق إثارة الشبهات حول التاريخ الإسلامي ، والعناية عناية مفرطة بالحديث عن الباطنية والدعوة الهدامة، وإحياء قضايا الزنج والقرامطة ، ووصفها بأنها حركات إسلامية تحررية كذبا .

ووقف أحدهم في عاصمة عربية ليصف حركة القرامطة بأنها نموذج للعدل الاجتماعي الإسلامي ، وقد زيف رأيه في نفس الاجتماع .

ولقد كان هذا ميداناً ثالثا للنضال في مواجهة تحديات الفكر اليهودي الوافد ، بالإضافة إلى الفكر الماركسي ، والفكر الغربي .

ومن ثم فقد أصبح هناك ثلاث تفسيرات لكل قضايا الفكر الإسلامي :

- تفسير غربي يصر على اعتبار الإسلام ديناً عباديا ..
- وتفسير ماركسي يصر على أن الإسلام قد تجاوز العصر ..
- وتفسير صهيوني يصرّ على أن العرب أمة متأخرة ..

ولا ريب فلا يزال هناك المفهوم الإسلامي الأصيل في مواجهة ذلك كله ، ولكنه يبدو الآن وكأنه من مفاهيم أربعة .. ثلاثة منها لها صوت مدوٍّ عالٍ ، تفتح أمامها أبواب الكتب اللامعة ، والمجلات الضخمة ، ودوائر المعارف ، وبعض أروقة الجامعات ، أما النظم الإسلامية الصحيحة الأصيلة فإنها تواجه غربة شديدة ولم يقف الأمر

عند هذا ، فإن هناك تياراً وافداً تحتضنه التلمودية الصهيونية في الخفاء، وهو يبدو في الظاهر من تنظير العلم الحديث ، ذلك هو ما يتصل بالعلوم الإنسانية وعلوم النفس والأخلاق والاجتماع ، وكل ما يطرح فيها إنما هو حملة ضارية على الإنسان بوصفه إنساناً صاحب إرادة والتزام أخلاقي ومسؤولية ، تحاول أن تصرعه مفاهيم جديدة تحت اسم : الجبرية والصراع ، والحتمية في محاولة لقتل روح المسؤولية الفردية فيه وخداعه بأن مسؤوليته جماعية ، وأن المجتمع هو الذي يحمل التبعة ، أما الإنسان فهو شاهد صامت •

ولا ريب أن تلك الدعوى من أقسى ما يوجه إلى الإنسان المسلم، وهي تنطوي تحت هدف تدمير البشرية : الهدف الذي حددته بروتوكولات صهيون ، والذي أشرف عليه فلاسفة لامعون : سارتر، وماركس ، وفرويد ، وليفي بريل ؛ ودوركايم ، وماركيوز الخ • وكلهم يهود تلموديون يهدفون إلى إخراج البشرية من الدين الحق •

وذلك مجال خطير يطالب المفكر المسلم بأن يكتب فيه ، وأن يحمل لواء العمل لتحرير الفكر الإسلامي من آثاره وسمومه وشبهاته •

وهكذا نجدنا ــ ونحن نقترب من نهاية القرن الرابع عشر الهجري ــ على أبواب حرب فكرية قاسية تشن على الإسلام وفكره ، وعلى كل ما تمثله العروبة من مفهوم إسلامي وأصالة ، وكل ما يتصل بالمسلمين من تاريخ وخلق وعقيدة •

ومن الحق أن يقال : إن النكسة كانت نهاية طريق وبدء طريق ، وإن المسلمين قد تنبهوا إلى المؤامرة ، وأحسوا بأن تبعيتهم للفكر الغربي في أي من جوانبه ، سواء منها اليمين أو الشمال •• إنما هو أمر يجب أن يكون مرحليا وأن ينتهي ، وأن تبدأ بالفعل « روح الترشيد »

الكفيلة بالتماس منابع الإسلام بوصفه الطريق الوحيد المفتوح أمـام المسلمين : أصالة ومعاصرة وثباتاً وحركة ، وإيماناً وفكراً ، وروحـا ومادة ، ودنيا وآخرة .

وما يزال أمام الفكر الإسلامي معارك ضارية في مجال مقاومـة تحديات الفكر الغربي الوافد ، والكشف عـن زيفه والتماس المفهوم الإسلامي الأصيل الذي يستطيع بحق أن يضيء طريق العرب والمسلمين إلى التماس مكانهم تحت الشمس .

* * *

الفصل السادس

ملاحقة شبهات التغريب ودحضها

قرأت النص التالي لكاتب عربي في إحدى المجلات الأدبية العربية، وقد مضى وقت طويل دون أن يتعرض له أحد ، فبدا كأنما جاء به هو من المسلمات ، بينما أن الحقيقة تعارضه تماماً ، وكثيراً ما تلقى هـذه الشبهات كالقذائف على معسكر الإسلام ، ثم يتركها أهل الرأي دون أن يقولوا فيها كلمة الحق ، فتصبح مع مضي الأيام وكأنها من المسلمات ، ومن حق الاسلام علينا أن نتعقب هذه النصوص ، وندحض زيفها .

يقول الكاتب :

« إن الثقافة العربية مزيج من عناصر ثلاثة :

العنصر العبري ، العنصر الفارسي ، العنصر اليوناني .

ففي القرآن وفي الإسلام ما لا يحصى من مبادىء التوراة وقصص التوراة وأصول التـوراة . وفي الحضارة العباسية كثير مـن وسائل الحضارة الفارسية ومظاهرها المادية بل وتياراتها الأخلاقية والفكريـة في بعض الأحايين . أما اليونان فأظن أن تأثيرهم في الفلسفة الإسلامية والمنطق الإسلامي وعلم الكلام واللغة والنحو والبلاغة أوضح مـن أن يذكر » .

هذا هو النص الذي أورده الدكتور محمد مندور في إحدى مقالاته ، ومضى كأنه من المسلمات ، ومثل هذا يقوله الكثيرون من أبناء البعثات الغربية ، والذين تعلموا بالذات على أيدي المستشرقين اليهود أمثال : دور كايم ، وليفي بريل، وقد التقى بهم طه حسين ومنصور فهمي ، وزكي مبارك ، ومحمود عزمي خلال الثلاثينات،وكان لهم أثرهم البعيد في آرائهم واتجاهم « وان كان بعضهم قد تنبه أخيراً للدس الصهيوني الماكر ورجع عنه من أمثال منصور فهمي » .

ج هذا النص بهذه الصورة من عمل « الاستشراق الصهيوني»: هذا الاستشراق الذي سيطر خلال فترة مابعد مؤتمر بازل عام ١٨٩٧ وظهور البروتوكولات، وكان له أثره على دوائر المعارف العالمية،وخاصة«دائرة المعارف الإسلامية» المتداولة بيننا والمليئة بالسموم، ويختلف الاستشراق اليهودي عن الاستشراق الغربي المسيحي بأنه يركز على كل ما يتصل بالعرب ، وخاصة فيما يتعلق بميراث إبراهيم عليه السلام وما يتصل بعلاقات العرب بالفرس والترك ، وما يتصل بفلسطين وجزيرة العرب ، وذلك لأنه يستهدف خدمة هدف خاص يختلف عن هدف الاستشراق الغربي ، وإن كان يجتمع معه في الغاية الكبرى .

١ ــ ومن هنا برزت في هذا النص فكرة العنصر العبري، وهذه قضية مثارة الآن في كل مجالات الدراسات الاستشراقية عن القرآن وقضاياه وقصصه ، وتستهدف القول بأسبقية التوراة وتبعية القرآن ، غير أن هذه القضية واضحة تماماً أمام الباحثين ، فان مصدر الكتب السماوية واحد هو الله تبارك وتعالى ، والدعوة إلى التوحيد هي أساس الأديان جميعا ، غير أن القرآن تفرد بأسلوب وطريقة في العرض ، تختلف عن التوراة التي بين أيدي الناس الآن ، والتي هي من صنع البشر ، وليست من عند الله ، فضلا عما امتاز به القرآن من تقديم

جوانب عديدة تكشف إعجازه ، وأنه من عند الله حقاً ، هذا وتبقى بعد ذلك حقيقة هامة هي أن القرآن هو النص الموثق الذي حفظه الله، والذي لازال منذ أربعة عشر قرنا ، لم تمسه يد التحريف ، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأن منزّله قد تعهد بحفظه ، بينما وكلت الكتب السماوية الأخرى إلى أصحابها فلم يحفظوها •

ولا شك أن هناك اتفاقاً بين الكتب السماوية في أمر التوحيد ، أما في الشريعة فهناك اختلاف وتغيير يتفق مع حالة البشرية إبان تلك الرسائل ، بينما حظي القرآن بتقديم الشريعة الخالدة التي هي للعالمين ، وليست لأمة وحدها ، والتي هي لأهل الأرض مادامت السموات والأرض ، وقد جاءت هذه الشريعة بعد أن بلغت الإنسانية رشدها ، فلا ريب أن تكون مختلفة في كثير من جوانبها عن الشريعة التي أنزلت على موسى عليه السلام •

٢ ــ أما العنصر الفارسي الذي يراه الكاتب ، فذلك أمر واضح، وهناك أيضاً العنصر الروماني ، وكلاهما يمثل حضارة منطقة من المناطق التي سيطر عليها الإسلام ، وأقام فيها دولة التوحيد ، ولقد كان من شأن حضارة الإسلام أن تستوعب كل ما وجدته من عناصر الخير عند الأمم ، وأن تزيد عليه ، وأن تصبغه بصبغة الإسلام ، وأن تديره في إطار التوحيد ، وأن تنفي كل ما يعارض ذلك من وثنيات ومادية وإباحية ، ذلك أن الإسلام هو وراث المدنيات والحضارات السابقة جميعا ، لأنه دين الرشد البشري الذي جاء بعد أن استكملت الإنسانية قدرتها على أن تبدأ صفحة جديدة ، كان كل ما قبلها هو بمثابة تمهيد لها وإعداد ، ومن هنا فقد كان من الضروري أن يصهر الإسلام كل ما في الحضارات والعلوم السابقة في بوتقته، لا فرق بين كتب الفرس أو اليونان أو الهنود

أو الرومان ، وأن يستصفي من ذلك زبـدها ، وأن يصحـح أخطاءها واضطرابها ، وأن يقدم للبشرية منهجه الجديد القائم على « التجريب » الذي لم تكن تعرفه البشرية من قبل امتداداً من نقطة: «قل انظروا ماذا في السموات والأرض » [يونس : ١٠١] وينشيء المسلمون منهج العلم التجريبي الذي هو مصدر الحضارة البشرية التي تعيشها اليوم ، هـذا المنهج الذي تكاملت عناصره في جامعات قرطبة وبلنسية ومالقه ، ومنها انتقل إلى أوروبا ، وذلك باعتراف كل المنصفين مـن العلماء والباحثين الغربيين اليوم ، وفي مقدمتهم : جوستاف لوبون ، ودرابر ، وبريفولت ، وقد أفاض كتاب الدكتورة سجريد هونكه «شمس الله تشرق على الغرب» في كشف هذا العطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية المعاصرة .

كذلك لم يجد المسلمـون مـن حرج في التماس مظاهر المدنيـة الفارسية والرومانية في وسائل العيش والحرب وبناء المـدن وغيرها ، وإنما أرادوا ذلك كله في إطار التوحيد ، ويبقى بعـد ذلـك العطـاء الإسلامي الكبير الذي قدمه للإنسانية ، والذي تجاهله الباحث المسلم ، ذلك هو « تحرير البشر : نفساً وعقلاً وروحاً » من عبودية الوثنية ، ومن عبودية الأباطرة ، حيث كسر الإسلام هذا القيد الذي كان يطوق البشر بالعبودية للسادة في فارس والهند ومصر والدولـة الرومانية ، وأعلن أن الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، وأنه لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .

ذلك هو العطاء الصحيح الذي إذا أضيف إلى التوحيد ، كـان أبرز عناصر الثقافة العربية ، فالمسلمون لم يعرفـوا لهـم مصدراً قبل القرآن ، وما كان لدى العرب في جزيرتهم لم يكن إلا أبيات من الشعر ، وسجع الكهان ، وكلمات شاردة عن حنيفية إبراهيم ، أمـا المسيحيـة واليهودية فقد رفضوها ، وكانت وثنيتهم وثنية قشرية ، ولم تكن عريقة

كوثنية اليونان ، ولم تكن لها فلسفة ، وكانت آثار الآباء ما تزال باقية ــ وإن بَعُدَ بها العهد ــ خاصة دين إبراهيم ورسالة إسماعيل ، وقد عرفت الجزيرة العربية هوداً وصالحاً من بعد ، فلما جاء الإسلام أعطاهم مقاليد الفكر الرباني الخالص ، ونزل القرآن يحمل إليهم معجزةالبيان الخالد ، وفيها أصول الشريعة ، وعبرة التاريخ ، ودعـوة التوحيد ، ومسؤولية الإنسان والجزاء .

هذا هو العطاء الخالد الذي تدافع من فوهة الجزيرة العربية في أقل من ستين عاما بعد أن أختار الرسول الكريم الرفيق الأعلى فعـم العالمين ، وشمل القارات الثلاث ، وبلغت آياته إلى حدود الصين شرقا ، وإلى حوض نهر اللوار غربا .

تلك هي كلمة الله العليا : مصدر الثقافة والعلم ، التي أهدت إلى البشرية التوحيد مجدداً ، والعـدل حقاً مشاعا ، والإخـاء الإنساني ، فهزت العروش ، وأدالت الإمبراطوريات ، ودلفت إلى أوروبا فأيقظتها من سباتها ، وقدمت لها حرية الفكر والمنهج التجريبي ، ومفهوم الارادة الإنسانية ، وحررتها من الرهبانية والوثنية ، وأخرجتها مـن عصـور الظلام ، ونقلت البشرية كلها إلى الحضارة الربانية القائمة على الرحمـة والعدل والإخاء .

أين هذا كله في مصادر الثقافة العربية التي عرضها الكاتب الكبير.

٣ ــ بقي أمر اليونانوأمر الفلسفةالتي ترجمت إلى اللغة العربية، والتي يدعي الكاتب باطلا أنها أثرت في كل معطيات العلوم الإسلامية ، والحق أن الترجمة لم تقدم آثارها إلا في القرن الثالث ، ومن قبل ذلك كان المسلمون قد أنشؤوا مناهجهم كلها ، ومنذ أن أتم اللهكلمته علـى النبي : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم

الإسلام دينا) [المائـدة : ٣] فمنـذ ذلك اليوم لم يدخـل إلـى الإسلام خيط واحد يمكن أن يقال : إنه إضافة إلى المنهج الرباني الجامع المحكم ، أما المسلمون فقد أنشؤوا علوم الحديث والتاريـخ واللغـة والنحو والكلام قبل أن يتصلوا بالفلسفة اليونانية أو تنقل اليهم .

فلما نقلت الفلسفة أثارت ثائرات كثيرة ، ولكن علماء المسلمين سرعان ما استطاعوا أن يكشفوا زيفها ، وأن يبطلـوا سحرها ، وأن يزيلوا ذلك الأثر الخادع الذي استطاع بريقه أن يفتن بعض القلـوب، وانتهى إلى بروز « مذهب السنة والجماعـة » الـذي استصفى خير ما حملته رياح الطرق ، وترك شرها فيها ، فاستكمل بذلك وجوه الخير كله ،فالمسلمون محبون للرسول ولآل بيته ، وهم — في نفس الوقت — مخبتون إلى الله راغبون في مغفرته ، وهم — في نفس الوقت — مؤمنون بالشريعة الإسلامية إيماناً واضحاً صريحاً ، وإيمانهم بالتوحيد قائم على الأساس القرآني .

هذا المفهوم زيف آراء الباطنية والمتصوفة الفلسفية والفلاسفـة المشائين ، وحطم كل دعوات الجهمية والشعوبية والإشراقية والحلولية وأبطلها .

إذن : فالحديث عن أثر اليونان في الفكر الإسلامي ، هو حـديث زائف ، حمل لواءه لطفي السيد وطه حسين في فترة ظنوا أن المسلمـين عاجزون عن فهم منهج دينهم ، ولقد طارد الغرب نفسه الفكر اليونـاني وآراء أرسطوا ، وحكم عليها بالفساد ، وكان ذلك بعد أن طاردها علماء المسلمين ، وهدموها من أمثال : الشافعي ، والأشعري ، وابن حنبل ، وابن تيمية ، وذلك حديث يطول .

ولقد كان هدف هذه الدعوة أن يقال : إن المسلمين أخذوا فكرهم

في القديم من الفكر اليوناني ، ولما كان الفكر الغربي الحديث هو ثمرة الفكر اليوناني ، فلا ضير على المسلمين من أن يلتمسوا الفكر الغربي ، وتلك معادلة باطلة ومسمومة ، دعا إليها طه حسين ، وزيفها كل علماء المسلمين ، وهي خدعة يراد بها الاستسلام أمام سموم الفكر الغربي ومحاولاته الخطيرة في احتواء أصالة الإسلام والقضاء على ذاتية الإسلام ، تلك مؤامرة مدبرة بليل يشترك فيها الاستعمار الغربي عن طريق التبشير والاستشراق ، وتشترك فيها الصهيونية والماركسية جميعاً ، ونحن اليوم نخوض معركة المواجهة ، وهي معركة تماثل تماما معركة المسلمين مع الترجمات اليونانية ، وتزيد عليها أن المعركة الأولى كانت إرادة المسلمين فيها مملوكة لهم ، بينما أن هذه المعركة قد جاءت والمسلمون في حالة ضعف وعجز عن المقاومة ، ففرضت عليهم ما لم يكن في مقدورهم مقاومته ابتداءاً .

أما اليوم فإن الفكر الإسلامي بإعلامه وحركة اليقظة الواعية التي عرفت طريقها بعد النكسات المتوالية والهزائم المتكررة ، هذا الفكر قادر اليوم على أن يرد هذا الزيف ، وأن يكشف أخطاء هذه المناهج ، وأن يواجهها بقوة ، ولا ريب أن النصر معقود للفكر الإسلامي مرة أخرى ، كما عقد له في معركة القرن الثالث ، فقد انكشفت أهداف حركة التغريب والغزو الثقافي بأبعادها المختلفة ، وأصبح على مفكري المسلمين مسؤولية المرابطة والدفاع وسد الثغرات والثبات أمام المؤامرة المتوالية المتجددة لكشف زيفها ورد عدوانها .

الفصل السابع

خطر الانهزامية

التي يطرحها الفكر الوافد في أفق الإسلام

يطرح الفكر الوافد وهو فكر « تلمودي » محاذير كثيرة في أفق الفكر الإسلامي تحتاج إلى إعادة النظر فيها في ضوء الأصالة الإسلامية والتفسير الإسلامي للتاريخ ، وفي ضوء الإيجابية وبناء الإرادة والعزيمة التي يشكل بها الإسلام أهله في مواجهة التحديات والأخطار والغزو الخارجي .

اولا : محاذير الانهزامية

أعترف مفكرو الغرب بالآثار الخطيرة التي أثرت على حضارتهم نتيجة سيطرة المدرسة الاجتماعية والفكر التلمودي فيقول كارل باسبرز في كتابه « مستقبل الإنسانية » :

« هناك بدعتان طاغيتان من بدع العصر ، هما الماركسية والفرويدية ، إنه في عالم محروم من الله ظهر كارل ماركس نبيا ، واتخذ القوالب التي يستطيع هذا العالم أن يقع بها أو يهلل لها . وكان طبيعيا أن تسيطر على النفوس أساليب فرويد ومدرسته في منهج مهزوز مكدود في عالمنا المقلوب هذا قد أحس الناس بحاجة شديدة إلى التحرر ، وجاء

التحليل النفسي ، فزودهم بذلك الوهم ، إننا هنا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتي الذي هو نتاج صادق لهذا العصر المفتون والذي يسير جنبا إلى جنب من أساليب السحر والتعاويذ التي استولت على عقول الناس » .

وليس من شك أن الرأي مستقر الآن تماما ومجمع على الانهزامية الواضحة في الفكر الفرويدي والفكر الاجتماعي كله الذي ينشر مظلته على المجتمع الغربي كله ، ويزحف رويدا إلى المجتمعات البشرية كلها .

ذلك أن الغرب انشغل طويلا بالعلم التجريبي حتى علت الصيحة التي قالت : إن عقل الغرب أصبح أكبر من قلبه ، وإنه لابد من دراسة النفس الإنسانية ، هنالك تقدمت هذه المدارس التي استمدت مفاهيمها من الفلسفة المادية ، ومن الفكر التلمودي ، فسيطرت على دراسات الأخلاق والنفس والاجتماع،وبرز فرويد ودر كايم بعد ماركس يحاولان أن يرسما للبشرية مفاهيمها التي انطلقت من فكرة آثمة خطيرة هي قولهم : إن الإنسان حيوان ، ولا ريب أن منطلق هذه الدعوة كان يستهدف تحقير البشرية .

حمل اليهود لواء هذه الدعوة ، واستغلوا لها كثيرا من الفلاسفة ، وخاصة ما كتبه دارون الذي قال : إن الكائنات الحية جميعا نشأت من أصل واحد ، وإن الكائنات المعاصرة تسللت من كائنات أبسط منها . هذه الفكرة استغلها الفكر اليهودي التلمودي أسوأ استغلال ، وحاول أن يبسط عن طريق الفلسفة محاولة كاملة للتدمير ، فمنها تفرع القول بأن الإنسان حيوان ، ومنها تفرع بأن التطور ليس بيولوجيا فحسب ، ولكنه تطور اجتماعي ومطلق ،ومنه القول بأن الجديد أفضل من القديم، ويعنون بالقديم هنا مقررات الأديان التي هي مصدر الضوء الكاشف للبشرية كلها ، وتقررت في ضوء المحاولة إلى تدمير البشرية نظرية تقول

بتفسير التاريخ بالطعام «ماركس» ونظرية تقول بتفسير التاريخ بالجنس « فرويد » وعمل اليهود كل ما في وسعهم لبث مبادىء داورن وماركس وفرويد ونيتشة وباكونين وسارتر ، وكلها تهدم الأديان ، وتدمر النفس الإنسانية ، واستطاعوا احتواء الفكر الغربي الذي يعد في نظر النـاس هو الفكر العالمي ، فنجحت خطتهم في إفساد العالم ، وبعثرته وتفتيت مقوماته ، وتشكيكه في خصائصه ، وإشاعة الاضطراب فيه ، ودفعه في أحضان الرذيلة ، وقذفه في ثورة الانحلال واللؤم والحقد •

والخلفية لهذه الانهزامية التي فرضتها الفلسفات المادية والوجودية والفرويدية والماركسية كلهـا قـد صدرت عن مخطط واحـد هـو البروتوكلات ، وقد اعترف الحاخام هنري كلين في صحيفة « صـوت المرأة » التي تصدر في شيكاغو في كلمة نشرت له عام ١٩٤٥ جاء فيها : إن البروتوكولات — وهي الخطة التي وضعت للسيطرة على العالم — أمر حقيقي ، وإن زعمـاء الصهيونية يكونـون مجلس « سانهدرين الأعلى » الذي يرمي إلى السيطرة على حكومات العالم ، وقد طردني اليهود من صفوفهم لأني أنكرت عليهم خططهم الشريرة •

واذا كانت الفرويدية انهزامية ، فاذا الهيبية معرفة كاذبة •

واذا كان الدافع الجنسي موجود في أساس اجتماع الرجل والمرأة وتوليدهما،وفي تخليد جنسهما البشري غير أنه ليس أساسا ليكون مصدرا واحداً للتصرفات الإنسانية كذلـك ، فإن الاقتصاد عنصر مـن عناصر المجتمعات ، ويفسر التاريخ ولكنه ليس أساساً ليكون مصدراً واحداً لتفسيره •

وقد تبين هذا للفكر البشري اليوم ، وعلـم أن هـذه المحاولات كانت مضللة ، وأنها ساقت البشرية سوقا ، ولأزمان امتدت أكثر مـن

قرن ، وشملت عدداً من الأمم إلى الضلال والهدم ، وأنها حطمت الطريق الأصيل الذي رسمه الدين الحق للبشرية حين هداها إلى مفهوم رباني أصيل قائم على التوحيد والرحمة والعدل والإخاء البشري •

وتبين أن نبوءات ماركس قد فشلت وبطل سحرها ، كما أن مفاهيم فرويد كانت تنطلق من تحليل المرضى ، ولم تكن تستمد من الأسوياء ، ولم يكن فرويد كما حاول أن يصفه المخدوعون الخادعون بأنه حلال العقد النفسية ، ولقد اختلف رفقاء فرويد معه، وأنكروا غلوه في أمر الجنس ، وقدموا تفسيرات أكثر سلامة وصحة ، ولكن القوى التي كانت تدفع الفكر البشري إلى الفساد ، أذاعت هذه السموم ، ونشرتها وفرضتها على مناهج الجامعات مع نظرية التطور ، ومع مفهوم دوركايم عن المجتمعات ، وإنكار فطرة الدين وفطرة الأسرة •وتبين من بعدما كشفت عنه الوثائق أن العملية كانت تجري بمخطط مرسوم من أجل هدم الإنسان وإفساد البشرية وإعدادها للسقوط بين أيدي أصحاب مخططات صهيون •

وعندما دعا سارتر إلى الوجودية كان يحقق هدفاً أصيلا للتلمودية، وهو دفع الإنسان إلى كسر جميع الضوابط والحدود والقيود التي رسمتها له الأديان من أجل حمايته من أخطار التمزق والانحراف والسقوط في هاوية الشهوات ، وعن الوجودية جاءت ظاهرة الامتثالية أي : الهيبية التي بحثت عن السعادة في المخدرات والمارجوان والانفصال عن أعراف المجتمع ورفض الحياة المنظمة واحتقار القيم الاجتماعية،وإذا كان الهيبيون رافضين ، فإنه جدير بهم أن يبحثوا عن البديل الصحيح والإيجابي لما يرفضونه ، ولكنهم حين ينسحبون من المجتمع،ويحطمون وجودهم النفسي والاجتماعي ، فإنهم لايعملون شيئاً ، ولكن هكذا تعمل التلمودية وبروتوكلات صهيون لتدمير المجتمعات البشرية •

ثانيا : محاذير الشعوبية :

هناك دعوى باطلة تتردد بشدة في أفق الفكر الإسلامي ، تحاول أن تطرح مفهوم « الشعوبية » بديلاً لمفهوم الأصالة .

إن أبسط مفاهيم الشعوبية هو التنازل عن الهوية والطابع الخاص والذاتية المتميزة الذي صاغها الإسلام لأهله ، فهم يدعون إلى الانصهار في الحضارة العالمية والفكر الأممي ، وكان طه حسين في مقدمة هؤلاء الدعاة في مصر ، وأحمد غايف في تركيا ، إنهما يدعــوان إلى أن يسير المسلمون سيرة الأوربيين ، ويسلكوا طريقهم ، ويأخذوا من الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب ، وتلك دعوى باطلة وصيحة زائفــة ، يجب أن تقابــل بالإنكار والنبذ على سواء ، وما تزال هذه الدعوى تتكرر بين آن وآن بأقلام الشعوبيين الجدد ، تستهدف إذابة الأمة الإسلامية المتميزة بــين الأمم بطابعها القائم على التوحيد في أتون الأممية الضخم الذي تنصهر فيه المشخصات ، وما تزال هناك محاولات سعيد عقل في الدعــوة إلى العامية اللبنانية بالحروف اللاتينية ، ومن ذلك محاولات يوسف الخال ، وإدخال المصطلحات النصرانية والكنيسة إلى الشعر العربي ، ومحاولات كتاب كثيرين في الكتابة بالأسلوب التوراتي الــذي حاوله من قبــل جبران خليل جبران ونعيمة والريحاني،والذي لم يجد قبولاً لدى أهل الثقافة العربية .

ثالثا : محاذير تفسير التاريخ :

منذ وقت بعيد تنبه علماء المسلمين إلــى محاذير تفسير التاريــخ وأخطاره .

فقال العلامة أبو بكر بن العربي في كتاب «العواصم من القواصم»:

« لتحذروا من المفسرين والمؤرخين وأهل الأدب ، فإنهم أهل جهالة بحرمات الدين وعلى بدعة مصرين ، فلا تبالوا بما رددوا ، ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ، ولا تسمعوا المؤرخ كلاماً إلا الطبري » .

ولقد تنبه النفوذ الغربي منذ وقت بعيد إلى أهمية التاريخ في تكوين الأمم والشعوب ، فحرص على إفساده وتسميم منابعه ، ورسم صورة مظلمة له ومقبضة ، يعرضها على أهله حتى يكرهوا تاريخهم ، ويحتقروا أمتهم ، وينفروا منها .

ولقد كان المجوس واليهود في القديم هم حملة رسالة تزييف التاريخ ، ثم جاء الرواة فزيفوا تاريخاً كثيراً ، وعمدوا إلى غريب من الأخبار ، فأثاروا الشبهات ، ثم جمعت أحاديث الرواة ، وعدها المستشرقون مراجع وجهوا إليها أتباعهم ، فاعتمدوا عليها في تزييف الحقائق .

وكان من أخطر ما دعوا إليه اعتبار كتاب « الأغاني » و « ألف ليلة » وكتب المحاضرات مراجع يعتمدون عليها ، وقد اعتمد مؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم » على كتب الأدب والمحاضرات كما اعتمد مؤلف كتاب « أضواء على السنة المحمدية » على مثل هذه المراجع ، وكلها زيف لا يرجع إليه في علوم السنة أو الفقه ، وفي العصر الحديث عمدت الجامعات الكبرى التي أقامتها الإرساليات إلى تلقين التاريخ على أنه علم من العلوم التجريبية ، بينما لا يمكن محاكمة العلوم الإنسانية وفق مقاييس العلوم التجريبية لأن التاريخ قائم على حركات البشر ونوازعهم ومشاعرهم ، وكلها لا تخضع لقواعد الرياضيات والتجريب ،

ولكن الهدف معروف وراء هذه المحاولات ، وهــو انتقاص التاريــخ الإسلامي والبحث عن ثغرات فيه ومحاكمته إلى مفهوم مــادي ، بينما يستمد التاريخ الإسلامي قوته من روح الإيمان والجهاد « الاستبسال في سبيل هدف واضح وغاية واضحة تبذل في سبيلها الأرواح ، ويكون الغلبة فيها للقوى المؤمنة القليلة العدد أمام الكثرة الكاثرة من أصحــاب الأهواء » .

ولا ريب تختلف وجهة نظر الإسلام لتفسير التاريخ عن وجهــة نظر الأمم الأخرى ، وقد أشار إلى ذلك « اليان وايد غراي » حين قال : « أما وجهة نظر المسلمين للتاريــخ ، فانهــا نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم القرآن ، فإن إرادتها حينذاك تتطابق وإرادة الله ، ولا يعود يوجد من يعصي أوامره ، ويعم الإخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ، ويعلم أن لا مرد لإرادة الله » .

* * *

الفصل الثامن

المعاول مازال تضرب في جدار الإسلام

(تغيرت أساليب الغزو الثقافي والتغريب في السنوات الأخيرة تغيراً ملحوظاً ، فبدت ولها طابع هادىء ، قد خلا من الحدة والعنف ، وأصبح يتقبل بعض الحقائق الفرعية ، ويقدم انتقاداته أو مفاهيمه بأسلوب أقل حرارة مما كان في المراحل السابقة ، وقد ظن كثير من الذين يأخذون الأمور في بساطة ويسر أن هذا تحول ، وجرى أتباع الثقافات الغربية والتغريب إلى الإشارة بهذا الاتجاه والإعلان عنه . والواقع أن هذا التغير في الأسلوب ، وليس في الغاية ، أو كما يقول أصحاب المصطلحات الوافدة :تغير في التكتيك ، وليس في الاستراتيجية وأن علينا أن نحذر من هذا التغير ونخاف ، لأنه لا يبتغي الاعتراف بفضل هذه الأمة ، أو تقدير فكرها ، أو التحول عن رأي سابق ، وإنما هي محاولة نفسية للخداع والتضليل وإيجاد المنافس للسيطرة على العقل والفكر بأسلوب ماكر خبيث يضع العسل فوق السم ، أو القفاز الحريري فوق الأظافر الجارحة .

والحقيقة التي لاتختلف ولا تتغير أن الحملة الإسلامية — فكراً وعقيدة — مستمرة ، وأن الذي يتغير هو أساليبها في موائمة مع الظروف والتغيرات .)

ولا ريب أن أمتنا يجب أن تكون حريصة أشد الحرص في هذه المرحلة بالذات ، لأنها سوف تواجه عاصفة قوية من التشكيك وإثارة الشبهات • وذلك بعد ذلك النصر الشكلي الذي تحقق بمعركة العاشر من رمضان وما تلاه من عقد الخناصر بين الدول العربية والاسلامية ، والوقوف في وجه الخطر الاستعماري الصهيوني لأول مرة في جبهة واحدة •

لا ريب أن ذلك من شأنه أن يجدد أساليب الغزو والتغريب ، وأن تتفتق عقليات الاستشراق والتبشير على خطط جديدة ومؤامرات جديدة في سبيل التوهين من هذا الاتجاه وتلك النتائج ، ونحن نعرف أن المعاول ماتزال تضرب في جدار الإسلام منذ يومه الأول ، وأن المسلمين المؤمنين قد وطدوا العزم على مواجهة هذا الخطر على أنه خطر دائم قائم لا ينتهي • وقد دعاهم القرآن إلى هذه التعبئة الدائمة والحذر الدائم ، وصدقت الأحداث ما أشار إليه القرآن حيث توالت في التاريخ الإسلامي عمليات الغزو والعدوان والتدخل من أكثر من طريق ، وبأكثر من اسم ، وتحت عبارات غامضة لها طوابع تاريخية أو مستمدة من أساطير أو ادعاءات لايقرها البحث الصحيح ، ولذلك فإن علينا دائما أن نكون في هذه المرحلة بالذات في يقظة أشد قوة مما كنا من قبل • فإن أخشى ما نخشاه أن يستغنم المسلمون إلى « بريق النصر » ويغفلوا عن سنة التاريخ التي لا تتخلف • إن المعاول التي تضرب في الجدار تحاول أن تسرب تحت الأساس شبهات وادعاءات في مجالات شتى ، ما تزال تتردد بصورة أو بأخرى حتى ظن البعض أنها مسلمات وحقائق • وتتصل هذه المحاذير والتراكمات التي تتركها المعاول باللغة العربية من ناحية ، وبالشريعة الإسلامية من ناحية أخرى ، وبالتاريخ من ناحية ،

وتتخذ من التعليم والصحافة أداتين فعالتين لتثبيت الشبهات والسيطرة العقلية . فما تـزال هاتان الأداتان واقعتين تحت نفـوذ الفكر الغربي ومفاهيمه إلا قليلاً . وعن طريقهما تنبعث الصواعق والصواريخ التي تقذف فكرنا وعقائدنا . أما في اللغـة العربيـة فهناك حملات متصلة للتهوين من قدرها ومكانهـا ، والدعـوة إلى تغليب العاميات عليها ، والفصل بـين البيان العربي القرآني ، وبين أسلوب الكتابـة العربيـة الأصيل ، وإدخال نماذج من الأساليب الغربية ، وخلق ما يسمى باللغة الوسطى إلى غير ذلك مما يراد به إيجاد فاصل عميق ، وحاجز ضخـم بين البيان القرآني الأصيل وبين لغة العصر .

أما الشريعة الإسلامية فما تزال الحملات مستفيضة على قواعدها ومقاصدها لانتقاصها وتصويرها بصورة الجحود أو التخلف أو إثـارة الشبهات حول علاقة غير صحيحة بينها وبين القانون الروماني .

وفي مجال الثقافة هناك محاولات متصلـة للفصل بين الثقافـة العربية والفكر الإسلامي والادعاء بأن الحملة الفرنسية مبدأ تاريخ ، وأن ما قبله غير متصل به مما لا يتفق مع الوقائع التاريخية ، أو الحقائق العلمية ، فما تزال الثقافة العربية ومختلف الثقافات التركية والإيرانية وغيرها ذات صلة أصيلة بالفكر الإسلامي ، نبعت منـه ، واستمـدت وجودها وكيانها ، وأقامت قيمها على مصادره وأصوله .

كذلك فإن هناك محاولـة أخرى لتتبيع الثقافة العربيـة الحديثة للفكر الغربي حاضراً ، والادعاء بأن الفكر اليوناني كان له أثره في الفكر الإسلامي قديماً ، وذلك بمحاولات إعـلاء شأن الفلسفات : والتركيز على ابن سينا في الفلسفـة ، وابن المقفـع في الأدب ، وأبي نواس في الشعر ، والحلاج في التصوف .

وليس من ريب أن اتصالاً وقع بين الفكر الإسلامي والفكر اليوناني ، ولكن أصالة الفكر الإسلامي واستمداده من مصدره « التوحيد » كان واضح الدلالة في كل خطوات ، هذا الاتصال ، أو كان واضح الأثر في استصفاء الفكر الإسلامي لكل ما يتفق مع روحه وطابعه من الفكر البشري دون أن تمس قيمه أو شخصيته أو ذاتيته الثابتة •

وما يزال كثير من الباحثين يرى هؤلاء الذين تابعوا الفكر اليوناني أو الفكر الفارسي القديم أو الفكر الهندي على هامش الأصالة الإسلامية •

وفي مجال التاريخ الإسلامي تجري المحاولات للتحريف والتهوين من شأن البطولات الإسلامية ، ومن شأن أعلام الإسلام • وهناك المحاولات التي تثير الشبهات حول الوحي والنبوة وعالم الغيب ، وكلها شبهات باطلة ومضللة •

وأشد منها هو خطأ محاكمة التاريخ الإسلامي إلى مناهج الغرب، هذه المناهج التي قامت أساساً على تقدير واقع المجتمع الغربي ، والتي تستمد أصولها من عقائده وأخلاقياته ومثله ومفاهيمة •

ولكل أمة طريق وأسلوب وتاريخ • ومن هنا فلها أيضاً منهج فكر تحاكم إليه وتقاس عليه • ولقد ذهب بعض الباحثين إلى اتخاذ مناهج الغرب في الأدب أو التاريخ أو الاجتماع مقياساً لحياتنا ومجتمعنا • ولا ريب أن النتائج التي حصلوا عليها لم تحقق لهم مايريدون ، ذلك لأن الخطأ وارد في الأساس •

(لقد حاول الاستشراق والتغريب احتواء الكفر الإسلامي وتذويبه في بوتقته العالمية الغربية أو الأممية العالمية • ولكن الفكر الإسلامي في

أصوله الأصيلة لايحتوى لأنه يستمد كيانه من أصل راسخ هو القرآن والوحي المنزل بالحق •

وسيظل الفكر البشري يصارع الفكر الرباني المصدر ما يشاء له الصراع ، ولكنه سوف يعجز عن النيل منه ، وستكون الغلبة للحق : للفكر الرباني الأصيل الذي يقوم على الفطرة البشرية وعلى المفهوم الإنساني الكريم •

وعلينا أن نكون دائماً في موقف الحارس اليقظ ، والديدبان الصاحي ، ونكون في مواقع الفكر أشبه بالمرابطين الذين لا يغمض لهم جفن •

ولنذكر دائماً أن المعاول ماتزال تضرب في جدار الإسلام ، وأن علينا أ ن نحرر الوقائع ونصحح المفاهيم ، وأن ندحض الشبهات •)

* * *

الباب الثاني

التحرر من تبعية الفكر الغربي

أولا : من التبعية إلى الأصالة

ثانيا : التحرر من الفرويدية .

ثالثا : التحرر من الوجودية

رابعا : التحرر من دوركايم ومدرسته العلوم الاجتماعية

الفصل الأول

من التبعية الى الأصالة

من سنن الفكر الإسلامي وقانونه القائم الذي لا يتحـول ولا يتغير : قدرته على تصحيح مساره عنـدما ينحرف ، وانبعاث حركـة اليقظة من داخله دون عامل خارجي ، وفي حالـة الأزمـة التي تفرض التبعية : القدرة على التحول نحو الأصالة والخروج من دائرة الأممية والاحتواء التي تفرض عليه •

ويبدو هذاجليا في مواقفكثيرة من مراحل الفكر الاسلاميخلال تاريخه ، وخاصة في أزمتيه الكبيرتين : أزمة العقلانية التي أطلق عليها « الاعتزال » وأزمة التصوف الفلسفي •

وفي العصر الحديث نجد هذه الصورة واضحة تماما •

نجد المدرسة الحديثة التي حملت لواء الدعوة إلى الثقافة الغربية تنسحب انسحابا حثيثا من موقفها الى معادلة جديدة عندما ينكشف لها أنها كانت لا ترى أبعاد الأمور ، أو أنه قد غرر بها في كلمات غريبة براقة : كالحرية والإخاء والمساواة ، ثـم أثبتت الأحداث فساد ذلـك وزيفه ، ومن ثم نرى هؤلاء الذين حملوا لـواء الدعـوة الى الفكـر الغربي ، وإلى الفرعونية ، وإلى الاقليم « هيكل ، ومنصـور فهمي ،

والعقاد ، وتوفيق الحكيم ، وزكي مبارك » يؤوبون مرة أخــرى إلى التراث الإسلامي يستلهمونه ، ويرون أنه هو ــ وحــده ــ المصدر الأصيل القادر على العطاء للمسلمين والعرب .

وبالرغم من خضوع هؤلاء الكتاب لمناهج التحليل الغربي ، وهي مناهج لا تصلح للتطبيق على الفكر الاسلامي والتراث الاسلامي ، واصح منها تلك المناهج التي طبقها الرافعي ، وجاد المولى،ومحمدعبده وغيرهم ، إلا أن هذا يؤكد صدق ذلك القانون الثابت الذي يحرر الفكر الاسلامي من أي إضافات غير أصيلة إليه ، مهما بلغ من عنف التحدي، ومهما حاول الاستعمار والتغريب إغراق الفكر الاسلامي في دوامة عاصفة من هذه المذاهب والدعوات والنظريات،فإن الفكر الاسلامي يأخذدائما حاجته وما يراه صالحاً لتصحيح مساره ، ثم يرفض الباقي ، ويتخلص منــه .

واليوم تتكرر هذه التجربة في الجانب الآخر من الفكر الماركسي ، فبعد أكثر من عشرين عاماً في تجربة الاحتواء الماركسي ، وارتفاع مدّه حتى ظن أنه قد أغرق الفكر الإسلامي ، نجد لفيفاً من هؤلاء الذين كانوا يتصدرون الدعوة إلىالتفسيرالمادي للتاريخونظرياتالماركسية يعودون ليصححوا موقفهم ، ويلتمسوا مفهوم الإسلام ، وأمامنا اليوم « مصطفى محمود ، علي الدالي ، جلال كشك ، لمعي المطيعي وغيرهم » يرفضون مفهوم الماركسية للتاريخ والبطولة والاقتصاد .

ويحظى مصطفى محمود بقدر كبير من هذا التحول .

وفي كلا المرحلتين نجد أن الفكر الاسلامي هو الحاكم المسيطر والمصدر الأصيل الذي لا تجد مجتمعات المسلمين والعرب سبيلا غيره ، وقد مروا بالتجربة من ديمقراطية الغرب إلى ماركسية الشرق ، وتبــين

فشل التجربتين ، بحيث لم يعد أمام العرب والمسلمين إلا منهج واحد : هــو منهجهم الأصيل •

نعم : إن الانسان ابن عصره وابن بيئته ، ولكن هو ابن عقيدته وامتداده الانساني الذي مرت به تجارب النبوات ومعطيات رسالات السماء ، وهو لا يستطيع أن ينفصل عن المحورين ، محــور الثبات في شخصيته ،وفي القيم الأساسية لعلاقته بالكون والحياة والمجتمع والموت، ومحور الحركة بين عصره وبيئته ، وقد جــاء الإســلام خلافــاً لكــل الأيديولوجيات والمذاهب والدعوات والتفسيرات جامعاً لهما •

نعم : لابد من التغير ، ولكن في إطار القيم الثابتة والجوهر القائم الدائم •

لابد من ثبات الشكل والإطار ، ولابد من فهم القانون الأساسي للحركة والتطور فيالفكر الإسلامي ، وهو مختلف تماماً عن ما تحاول الدعوات المختلفة أن تروج له وتخدعنــا به ، وهــو قانون مترابط بين الثبات والحركة ، وبين القيم الأصيلة والوافدة ، ليس كل القديم أو الموروث تقاليد أو معطيات اجتماعية متغيرة ، وإنما نعني به هوالجوهر الأصيــل الذي جاءت بــه رســالات الســماء ، وقامت به السماوات والارض •

ونحن نستطيع أن نفرق بينه وبين التقاليد والموروثات التي صنعها المجتمع ، وان كانت محاولات التفريق ترمي إلى سيطرة التقاليد على الأصول الأساسية ، ولذلك لابد من الحذر من الدعوة الملحة المضللة التي يحاول أصحابها الاندفاع في حماسة للتغيير للقضاء على الجوهر الثابت مهددين بأن هذا الثبات رجعية وتأخر ، وكذبوا ، فهم بين واحد لايفهم حقيقة الفكر الإسلامي ولا أصالته، وآخر يفهم ، ولكنه يغرر بنا ويخدعنا •

يقول الدكتور شكري عياد في هذا المعنى : أن الشكل لا يضيره المضمون : لك أن تأتي بما شئت من معاني تدعي أنها عصرية دون أن يحملك ذلك على العبث تقوالب اللغة أو بنظم القصيد • ان (القالب ، الشكل ، الصورة) هو حقيقة الشيء ، فان لم تكسر الشكل العربي القديم فأنت لم تتجاوز حدود الثقافة العربية الأزلية •

ونحن نجد الآن من أعداء الفصحى والفكر الاسلامي قائلا بقول « من يكسر النص » ومعنى هذا أن هؤلاء خصوم يعرفون أنهم يهدفون إلى تهديم الأساس والقضاء على الجوهر ، ولذلك فنحن نحذرهم ومع ذلك فنحن نقول مع الدكتور شكري عياد « إن قوى الثبات ظلت بفضل ركائزها الضخمة في الاعماق أقوى سلطاناً من التغيير الذي لم يكن يتجاوز السطح حتى يتعثر وينكفيء راجعاً إليه أو يمتص من المستودع الكبير : مستودع القيم الراسخة على مدى القرون » •

وعندنا أن الأمور في حركة الفكر الاسلامي لو كانت تسير سيراً طبيعياً دون هذه القوى الخفية التي تريد أن تؤخر وتحطم وتدمر ، وتحول بين الحركة الصحيحة لهذا الفكر ، وهذه المؤسسات التي تخدم الصهيونية والماركسية والاستعمار ، لولا هذا لما كان هناك صراع بين الثبات والتغيير في الفكر الاسلامي ء الذي يقوم على أساس التكامل والتوازن ، ولتحولت كل عناصر التغيير إلى ثبات ، ولكن هناك قوى تدفع ، ولا تريد أن تجهض كل شيء ، وترمي أساساً إلى محاولة هدم الثوابت •

ولقد تستعير الأمم من الخارج ، ولكنها لا تعيش على الاستعارة ، وقد تأخذ في فترات ، ولكنها لاتكون تابعة أبداً ، ومن حقها أن ترفض ما يضيرها ويحول بين الحفاظ على شخصيتها وذاتيتها ووجودها وكيانها •

وذلك هو التأصيل الذي يتجه إليه الفكر الاسلامي انتقالا من التبعية بعد معركة طويلة لا بد منها (كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) •
[الرعد : ١٧] •

نحن لانأخذ إلا « مادة خام » نستعملها كما نشاء ، وليس لأحد أن يفرض علينا منهجاً أو مذهبا ، لان لنا مذهبنا الأصيل ومنهجنا الراسخ ، وما فرضنا منهجنا على أحد يوما ، وعندما أخذت أوروبا فكرنا ، أدخلته في داخل أطرها وثقافتها وعقائدها ، ولم تتغير به ، وإنما صهرته في جوهرها ، فكيف يراد بنا ونحن الذين نحمل الفكر الجامع المتكامل الذي يزود البشرية لأول مرة بالمفهوم الذي يربط بين الروح والمادة ، والفردية والجماعية ، والثوابت والمتغيرات ، والذي ينظر إلى الأبعاد المتصلة بالزمن والبيئة ، وفي نفس الوقت بالأبعاد المتصلة بالسماء ، وبالازل وبالبشرية منذ مبدأها وما قدم لها من عطاء •

إن القول بأن الفكر الغربي هو صاحب العالمية قول مردود ، لأنه ليس هناك فكر غربي واحد ، المثالية أم المادية ، الماركسية أم الفرويدية، الوجودية أم الهيبية ، لقد انتهى خداع هذه النظرة ، ونحن اليوم قادرون على تزييف هذه الدعوات التي طالما رددها طه حسين ، وزكي نجيب محمود ، وسلامة موسى وغيرهم : أولئك الذين قالوا : خذوا الحضارة الغربية جملة واحدة ، فكرا ومادة •

ان هذه النظرية إنما وضعت لخداع العرب والمسلمين والادالة منهم ، ولم تكن ذات أصالة في الفكر الغربي نفسه ، لأنه لم يفعل هذا حين اتصل بالفكر الإسلامي ، وحمل منه عصارة معطياته ، وفي مقدمتها المنهج التجريبي قوام الحضارة الحديثة •

لقد وجدنا مختلف مناهج الفكر الغربي : ليبرالية أو مادية

جدلية أو وجودية أو فرويدية عاجزة عن أن تستوعب المجتمع الاسلامي، هي عاجزة أساسا بالنسبة لمجتمعاتها، وهي عاجزة قبل ذلك لانشطاريتها ولعدم قدرتها على الربط بين الثابت والمتغير، والمادي والروحي، والأرض والسماء .

إنها قد أنكرت جانبا أساسيا خصبا ، هو جانب الروح والنفس والوجدان ، وألغته تماما إزاء العقلانية ، ولكن خطأها الأكثر أنها انكرت ترابط الجانبين في كيان واحد ، وهو مالا يعرفه مذهب أو منهج غير الإسلام، وهو الحلقة المفقودة التي ما تزال البشرية تسعى اليها والتي ماتزال عاجزة عن أن تستوعبها بالرغم من ذلك التقدم الخطير في مجالات التكنولوجيا ، ويوم نعرفها سوف ترى ضوء الحق الباهر ، ولن نعرفها إلا عن طريق الاسلام .

* * *

الفصل الثاني

التحرر من الفرويدية

اولا : فرويد :

استطاع فرويد أن يخدع الفكر البشري أكثر من سبعين عاماً قبل أن تكتشف هويته ، وبالرغم مما أوردته « بروتوكولات صهيون » من إشارة إلى أنه — هو وماركس — من مخططات اليهودية العالمية ، فقد ظل كثير من الرازحين تحت أحمال التبعية الفكرية الوافدة ينظرون إليه في تقدير كبير ، وخاصة أولئك الذين احترفوا تدريس مادة علم النفس في الجامعات ، أو الذين وجهوا إلى ترديد مفاهيمها في الصحف والمجلات ، وفي البلاد العربية . كان سلامة موسى في مقدمة من دعا إلى هذا الفكر ، وظل يكتف عنه يوما بعد يوم لا على أنه نظريات أو فروض . وإنما على أنه حقائق علمية وصلت من مكان الكمال المطلق ، وجرت على الألسنة كلمات : مركب النقص ، والعقل الباطن ، وغيرها من مصطلحات حتى جاء الوقت الذي استطاع علماء النفس أنفسهم أن يضعوا الحقائق كاملة بين أيدي المثقفين والباحثين عندما أعلن المتخصصون منهم أن ما أورده فرويد من أصول لنظريته جرت مجرى العلم الصحيح ما هي إلا أصول الفلسفة التلمودية الصهيونية اليهودية مجددة ومصاغة في قالب علمي براق ، استطاع أن يخدع الكثيرين ،

وقد كشف الدكتور صبري جرجس في كتابه « التراث الفرويدي التلمودي » من هذه المؤامرة الخادعة •

أما سلامة موسى فلم يكن عالماً متخصصاً بقدر ما كان مروجاً للفكر الغربي الصهيوني في عشرات من النظريات والأفكار التي دعا إليها ورددها في مؤلفاته ، وسوف يأتي الوقت الذي تحصى هذه الشبهات ، بل إن الدكتور صبري جرجس ــ بوصفه مسيحياً ــ يرى مدى الخطر الذي يحيط بعقيدته من جراء استسلامه لزيوف الفكر التلمودي اليهودي الذي قام أساساً لضرب المسيحية الغربية وتدميرها ، والذي استغل كلمات نيتشه ، ورينان ، وأوجست ، وماركس ، وفرويد، وسارتر ضد الدين ، والتي كانت موجهة أساساً إلى المسيحية الغربية وحدها باعتبارها الموقف العقلي لمرحلة من الفكر الغربي إزاء العقيدة القائمة في مجتمعه • ومن هنا كانت حملة الدكتور صبري جرجس الذي لم يكن يكشف هذا الخطر لولا أن بعض مؤرخي اليهود أعلنوا أن فكر فرويد هو من صميم مذهبهم التلمودي الذي يقوم على أساس إثارة روح التحلل والفساد والجريمة والإباحية بين الأميين تمهيداً لتدميرهم • بل هناك في حياة فرويد نفسه ما يوحي بأنه كان صديقاً « لهرتزل » الذي حمل لواء الدعوة إلى الصهيونية ، والذي كان على رأس مجموعة الحاخامات الثلاثمائة في بازل عام ١٨٩٢ ومعهم صحائف « بروتوكولات صهيون » التي أشارت إلى هذا المخطط ، والتي ما زال كثير من الذين يكتبون بالعبرية يدافعون عن الصهيونية ، وينفون نسبة هذه البروتوكولات إليها « ولا ريب أن كل دعاة الفصل بين اليهودية والصهيونية وهؤلاء المدافعين باسم التحقيق العلمي المضلل ، إنما هم من أتباع الماركسية التي هي وليدة الصهيونية أساساً والتي تحاول أن تحافظ على هذه العلاقة السرية » •

ولقد كان علينا نحن العرب والمسلمين أن نتحرز من مفاهيم فرويد الذي لم يتوقف عند التحليل النفسي « وله فيه آراء صائبة مستمدة من الفكر الإسلامي أساساً » ولكنه مضى حتى وضع أيديولوجية كاملة شملت الأدب والفن والمجتمع والعقائد جميعاً ، وحاولت في أهم ما رمت إليه إلى التركيز على الفصل بين الاعتقاد والعمل ، أو بين العلم والسلوك . وذلك بالقول بأنه هناك عقل باطن منفصل عن العقل الظاهر ، وفي ذلك محاولة خطيرة للإخلال بحقيقة أساسية في تكوين الإنسان ، وهي الترابط بين المعرفة والإرادة ، وتعد هذه النظرية ضربة موجهة إلى الفطرة وإلى اليقين النفسي الذي جاءت به الأديان ، هذا بالإضافة إلى مؤامرته تحت أسم الجنس ، ولعل هذا الاتجاه كله هو من التوزيع الدقيق للأدوار في مسألة الصراع ، فحيث كانت آراء ماركس في أساسها من مخططات التلمودية اليهودية مصاغة في قالب إقتصادي عصري . فهناك يتمثل الجانب الاجتماعي ، وبذلك يسيطر الفكر اليهودي التلمودي على الفكر البشري كله في مجالات الاقتصاد والاجتماع والنفس والأخلاق ، ومنها يمتد إلى الأدب والفن ، ولا يبقى شيء بعد ذلك صالح لأن يقال فيه كلمة حق ، كل هذا الذي نقول بعد الآن من البديهيات التي ليست في حاجة إلى إعادة ، ولكنا نريد أن نرى إلى أي أحد ، وأصل البحث طريقة في الكشف عن زيف فرويد .

١ ــ هذا كتاب جديد تأليف بول روزن أستاذ علم النفس بجامعة هارفاد تحت عنوان « قصة فرويد وتايزك » يزيح فيه فكتور تايزك معاصر فرويد وأحد رواد علم النفس حقائق خطيرة ، ويكشف عن مدى أحقاد فرويد التي ساقها حرباً شعواء ضد هذا الباحث نتيجة غيرته منه ، وفي سبيل عرقلة جهوده وأبحاثه في حقل علم النفس مما دفع به ــ دفع بتايزك ــ في النهاية إلى الانتحار بإطلاق الرصاص على نفسه في ٣

يوليو سنة ١٩١٩ • وكان قد رحل إلى فيننا لدراسة علم النفس،وقدكتب لأبحاثه الرواج والانتشار ، مما لفت نظر فرويد • وقد كشف المؤلف عن غيرة وحسد فرويد من تاريزك لنبوغه وأصالة أبحاثه ، حتى أنه رفض معالجته عندما اشتدت أزمته النفسية ، وحين أوكل علاجه إلى تلميذة فرويد « هليبي ديتش » بل إن فرويد وصل إلى حد تهديد تلميذته ، ومنعها من مساعدته مما دفعه في نهاية الأمر إلى نوع من اليأس القاتل ، انتهى بإطلاقه الرصاص على نفسه •

٢ — وفي فرنسا صدر كتاب عن فرويد بقلم « لوس ايراجراي » التي تنتمي إلى المدرسة الفرويدية والكتاب اسمه « المنظار الطبي للمرأة الأخرى » وقد أحدث ضجة كبرى رغم أن مؤلفته قد طردت بسببه من الجامعة ، لاحظت المؤلفة أن فرويد عند ما يتكلم عن المرأة يضيع عقله ، ويشتد شريط تحليله ومنطقيته ، فهو يشعر دائماً أنه السيد ، وهو عند ما يتكلم عن المرأة يتجه إلى الرجال على أساس أن المرأة لايجب عليها معرفة شيء من أمورها حين يناقش الرجال الموضوع ، وأن مشكلة الأنوثة تهم الرجال ، ولكنه بالنسبة للمرأة الموجودة معهم • وترى المؤلفة أن المرأة عند فرويد لغز عجز الرجال عن اكتشافه • وبذلك بقيت المرأة بمثابة « الأرض الموحشة » في علم النفس ، وتحاول المؤلفة أن تصل من هذا إلى أن فرويد — بالرغم من كل ما يحاول إعلانه من استقامة البحث — لايرى في المرأة كائناً إنسانيا، وأنه لم يأت بجديدسوى أنه صقل تحاليل أفلاطون ، وتقول المؤلفة : إنه ربما كان فرويد مريضاً ويعاني عقدة إزاء المرأة • وتقول : إن تحويل المرأة إلى لغز عند فرويد يعدّ سلباً لطابعها الإنساني ، وتحويلاً لها إلى شيء خارجي •

وعندنا أن رأي فرويد مستمد أيضاً من مفهوم التلمود، فهو يحاول أن يصورها على أنها أداة جنسية للمتعة ، ولذلك فهو ينكر

إنسانيتها واستقلالها ، ويرى فيها رأي الفلسفات القديمة التي تحتقر المرأة .

٣ ـ عالج فيلكس وجاناري في كتابهما « إنني أوديب » نظريات فرويد ، وأشارا إلى أن فرويد هو مفتاح الامبراطورية البروسية ، وأن علم النفس التحليلي الذي أسسه هو علم القمع والكبت الذي تستغله الأنظمة الرأسمالية فيما بعد .

كما أشار بنيامين نيلسون في كتابه « فرويد والقرن العشرين » إلى أن فلسفة فرويد مادية صرفة تنكر الروحانية والحرية ، وأنه يعد الحالات النفسية العليا كالإلهام الشعري والحب الصوفي مجرد تهويلات وأقنعة للغريزة الجنسية ، وأن رأي فرويد في قصور الإنسان دون الوصول إلى الكمال لم يستمده من المسيحية ، بل من دارون ، وأن فرويد قد اعتمد على أساطير قديمة كالمأساة اليونانية في عقدة أوديب وعقدة الكترا والصراع بين ايروس إله الحب والحياة ، وثاناتسوس إله الموت ، والتنبؤ بانتصار الموت في النهاية ، وأنه غارق في فكرة الخطيئة الأولى .

ولا ريب أن هذه الحقائق التي لم يكتشفها الفكر الأوربي إلا أخيراً ، كانت واضحة في عقل الباحثين المسلمين منذ اليوم الأول لنظرهم في فكر فرويد . بل إن كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» الذي كتبه مؤلفه في سن مبكرة ، وهو يدرس في قسم الفلسفة وعلم النفس في كلية الآداب مازال حتى الآن ـ بالرغم من مضي أكثر من ربع قرن على ظهوره ـ واضح الدلالة في عجز نظرية فرويد عن فهم النفس الإنسانية ، وأن معطيات القرآن والسنة النبوية والفكر الإسلامي في هذا المجال بالغة القوة والحيوية والصدق . ولكن الفكر الغربي الذي لم ينتبه إلا أخيراً لفساد نظرية فرويد يعرف أن أي نقد لها اليوم لا قيمة له . لأنها قد تغلغلت تغلغلاً كاملاً في كل أعمال الأدب والفن والقصة والمسرحية حتى لم

بعد هناك تراجع في أثر هـذه النظرية التي أرادت تدمير الفكر الغربي المسيحي ورده إلى الوثنيات والأساطير والخرافات • ونحـن نعرف أن فرويد حين بدأ مع «أدلر ويونج» في أوائل هذا القرن كان عنيفاً في فرض اتجاهه بالتفسير الجنسي الذي خالفه فيه صاحباه ، وانفصلا عنه كما اختلف مع جيمس حين التقى به في أمريكا بعد ذلك ، وأنه لم يبق معـه إلا اليهود : رانك وجونز وبريل •

ولكن إذا كان فرويد على خطأ ــ وهو على خطأ معارض للفطـرة والعلم والعقل في دعواه ــ فلماذا أتيح له هذا النفـوذ الخطير ، وهـذا الدوي المدوي ؟ لم يكن ذلك لوجه العلم وحده ، ولم يكن ذلك طبيعياً ، ولكنه كان بقوة من الدفع اليهودي الصهيوني المسيطر على النظريـات والمذاهب ، القادر على فرض ما يشاء منها ، ومن قبل كان والاس قـد سبق دارون ، وكان أقرب منه إلى الفطرة والعلم الصحيح ، ومع ذلـك فقد دوى صوت دارون لأنه اتخذ منطلقاً إلى النظرية المادية ، وإلى فرض نظرية التطور الاجتماعي المطلـق ، وكانت نظريتـه قاصرة على مجـال البيولوجيا وحدها •

وكذلك كان الأمر بالنسبة لفرويد مع أولر ويونج ، فقد قالا بأن العامل الجنسي ليس هو المصدر الأوحد للتصرف الإنساني ، ولكنـه واحد من عوامل كثيرة ، منها : تأكيد الذات ، ومركب النقص ، ولكن دعوى التحدي بالجنس وحده كمصدر لتصرفات الإنسان، هي التي شاعت وذاعت •

ونحن نجد النظرية تسقط اليوم سقوطاً علمياً شديـداً ، ولكـن أصحاب الفلسفة المادية يحاولون تمديدها بربطها بالماركسية من ناحية ، وبالدعوة إلى ما يطلق عليه الثورة الجنسية ، وبربطها بالوجودية ، وهذا ما سنتحدث عنه بعد •

الفصل الثالث

التحرر من الوجودية

سارتر ونظريته قد تجاوزها الزمن ، وعارضتهما الفطرة الإنسانية .
إن أي نظرية يتقدم بها فيلسوف أو مصلح تتمثل فيها حقائق هامة .

أولاً — إن هذه النظرية هي فرضية افترضها هذا الفيلسوف بناءً على نظرته إلى الأمور .

ثانياً — إنها نظرية تتصل أتصالاً تاماً بالتحديات الخاصة بشخصية هذا الفيلسوف وبيئته وعصره ومجتمعه وظروف معينة قائمة .

ثالثاً — إن الإنسان على أعلى درجة من التفكير والنظر ، لا يستطيع أن يخرج عن إبعاد وجوده البشري والعقلي والنفسي ، ولا يستطيع أن يشرع للمجتمع الإنساني كله . ومن ثم فإن كل ما يقدمه الفكر البشري هو فرض يقبل الخطأ والصواب ، ويصلح لمجتمع ، ولا يصلح لآخر ، وينفع في عصر ، ولا ينفع في جميع العصور ، ولقد اعتورت النظريات والمناهج أسباب القصور ، وحل بها النقص ، واحتاجت إلى الإضافة والحذف على مدى قريب من ظهورها ، وذهب بعضها وانطوى عجزاً وفساداً ، وليس أدل على ذلك من الفرويدية والوجودية والماركسية وهي أبرز أيديولوجيات العصر التي اضطربت ، وعجزت في بيئاتها الخاصة ، واضطرت أصحابها إلى تعديلها بالإضافة والحذف ، ومحاولة

الربط بين الوجودية والماركسية من ناحية ، وبين الفرويدية والماركسية من ناحية أخرى على نحو يومىء بإنقاذ المراكب الغارقة ، وعلى بعد ما بين بالأيديولوجيات الثلاثة من تناقض واختلاف . ونحن نعرف أن الوجودية صيحة أزمة ، تعالت في فرنسا بعد انهيارها في الحرب العالمية الثانية حين هوت تحت سنابك خيل الألمان صريعة الانحلال الخلقي،فجاءت الوجودية التي دعا إليها سارتر ليطلق للشباب أمر التهالك على الشهوات تحديا للخطر الماحق الذي يعيش تحته العالم ، وبعد أن أفقدت الحرب أمم أوروبا زهرة شبابها التي تجاوزت المائة مليون .

ولقد كانت وجودية سارتر وجودية ملحدة نابعة من الفكر المادي ، وإن حاولت أن توجد للإنسان منطلقاً عاصفاً حيث جردته من مسؤوليته الفردية والتزامه الأخلاقي ، وأحالت ذلك كله على المجتمع . ومن ثم انطلقت تلك الصورة المدمرة في كل أنحاء العالم توحي بالتفكك والتحلل والتمزق والضياع ، ولقد صدق جاك بيرك،حين قال : إن الوجودية ظاهرة زمنية عابرة ، لن يلبث الإنسان أن يتخطاها ،وهي ليست روحاً ، وأنا لاأستنتج منها نتيجة متشائمة ، بل واقعا يجب أن يعترف به .

وهي في تقديرنا علامة على دخول أزمة الإنسان المعاصر في مرحلة الانحدار ، ودخول أوروبا والغرب والفكر الغربي كله مرحلة التمزق الذي فرضته عليه الفلسفة المادية التي قادها فلاسفة اليهود التلموديون ، وإن كانت لا تخلو من تمثل أخطر ماتلقته التعبيرات المسيحية حول نظرية « الخطيئة الأصلية » ذلك السوط الذي مازال يلهب ظهور الفريقين ويسوقهم إلى الدمار النفسي .

ولا ريب أن فلسفة سارتر الوجودية الملحدة هي بديل الإيمان الذي عجز الغرب عن الحصول عليه عجزاً مطلقاً ، ولا ريب أن البشرية حين انطلقت لترسم لنفسها طريقاً بعيداً عن طريق الله ، فإنها ستظل تائهة

في مضارب الصحراء ، ومادام الإنسان قد شرع لنفسه ، ورفض الأسس التي قدرها الحق تبارك وتعالى لينظم المجتمع البشري ، فإنه ليس هناك قواعد ما يمكن أن تفرق بين الحق والباطل ، ذلك لأن الإنسان لا يمكن أن ينظم لنفسه ، وإذا أراد ذلك تداخلت أهواؤه ومطامعه وشهواته ، وأصبحت الأمور كلها نسبية ، وليس لها ضوابط أو حدود أو قيم ثابتة راسخة تحاكم إليها ، أو ليس هناك من نقطة بداية ونقطة نهاية ، وإنما يصبح الكون دائراً في دوامة لا نهاية لها ولا غاية منها . وقد جهل الإنسان سر وجوده وهدفه في الحياة ورسالته في الأرض ومسؤوليته وجزاءه وحسابه . وتلك هي الحيرة التي تذوب فيها البشرية نفسها اليوم بعد أن خالفت عن منهج الله ، ومن ثم تصبح حياة الإنسان وليس لها طعم: حياة القلق والتمزق والألم والإحساس بالغثيان والضياع، ذلك لأنها فقدت المعنى الذي وضعه الحق تبارك وتعالى لها ، والذي هو سر الحياة نفسها ، الأمل والإيمان والهدف والمسؤولية والرسالة التي وجد الإنسان من أجلها في الحياة .

إن الوجودية تثور على مفاهيم سحق الإنسان التي تقدمها الماركسية ، ولكنها – مع الأسف – تسحق قلب الإنسان ، ولا تراه إلا من وجهة النظر المادية الصرفة ، وهم حين ينكرون أن يصبح الإنسان رساً في آلة ، يحيلونه إلى شعور بالضياع والفراغ ، ويفرغونه من معناه الاجتماعي ، ويجعلونه أنانياً لا همّ له إلا مطامعه التي تقوده إليها غرائزه كالحيوان في الغابة ، وما تزال الوجودية تدفع أهلها من قيد إلى قيد ، ومن تمزق إلى مزيد من التمزق نراه الآن في الهيبية والخنافس .

وحين يقولون : إن الوجودية تحرر الإنسان نجد كتابات أهلها لاتحمل إلا اليأس القاتم ، فهم يقولون عن أنفسهم : إنهم جيل بلا أمل

بلا عمق ، بلا مستقبل ، وأن عمقهم هو الهاوية ، وحبهم هو الوحشية ، وحياتهم علب من الورق فارغة وقابلة للتمزق ، وليست الوجودية إلا تعبيراً عن هذا الهوان ، أين هذا من الإسلام الذي يقدم للبشرية الأمل ، وللنفس الإنسانية السكينة والإيمان ، حيث يرفض اليأس والقلق والشك والحقد ، وهو لايترك الناس صرعى في أوهامهم ، ولكنه يقدم لها الترياق ، يقدم لهم العون ، يطب لهم بالمبررات ، ويفتح لهم الآفاق التي تخفف الشهوات ، ويحررهم من قيود الحيوان ، ويراوح بينهم دين السماء والروح والمعنويات ، وهو لا يحرمهم رغائبهم الجسدية ، ولكنه ينمي فيهم الروح والعقل .

إن أخطر ما تقدمه الوجودية التشاؤم ، وهو طابع عام لكل معطيات الفكر الغربي البشري الضال عن الإيمان بالله والروح والمعنويات . إن مصدر التشاؤم في الفكر الغربي هو عدم الاقتناع العقلي لوراثة البشر جميعاً لما يطلق عليه « الخطيئة الأصلية » هذه التي ينكرها الإسلام إنكاراً كاملاً ، ولا يرى أن إنساناً مسؤولاً عن خطأ الآخر : (ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن للإنسان إلا ماسعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى) [النجم :٣٨-٤١] ومن خلال أيديولوجية الخطيئة الأصلية السوداوية المتشائمة ، تنتشر على أوسع نطاق في الفكر الغربي نظرة: لامعقولية الحياة، وعبث الوجود ، ثم جاءت الوجودية لتكون أعلى مراتب التشاؤم .

وهذه كلها أفكار غريبة عنا كل الغرابة مختلفة عن طوابع الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، ولا تتصل بسبب إلى ثقافتنا أو قيمنا أو عقائدنا ، وهي توحي بأن الفكر الغربي والمجتمع الغربي يمر بمرحلة انهيار كامل ، يتمثل في الأسرة والفكر والمجتمع ، وإن طوابع المادية الخالصة قد صرعته تماماً، وإن إنكاره للروح والدين والخُلُق والإيمان

بالله قد دمره تماماً ، ولذلك فهي تبدو غريبة عنا ، دخيلة علينا ، متناقضة مع جوهر الإنسان ومع فطرته ، وأغرب ما فيها أنها حين تعتز بحق الفرد في الوجود ــ وهو مفهوم إسلامي ــ فإنها تغطي عن أعظم معطيات الإنسان والركن الركين في وجوده على الأرض ، وليس المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي الذي يحاسب على أساسه ويقرر جزاءه •

ولا ريب أن إفسادها يتمثل في أنها ترى أن الإنسان يكوّن نفسه مستقلا عن الدين والتقاليد والمجتمع ، وأن الزواج نظام عتيق، وأن الطلاق لا يبقى بإرادة الزوج فضلاً عن إنكارها قوامة الرجل ، ودعوتها إلى حرية الصداقة ، وإسقاط الدين كله من حساب الحياة • وهي ــ لأنها تعارض الفطرة الإنسانية ــ لم تجد قدرة على البقاء ، وتساقطت جوانبها إلا من تلك النزوات التي يقوم بها المنحرفون • ولا ريب أن المفاهيم الوجودية كلها إنما هي تعبير فكري ونفسي وأخلاقي عن الفراغ الروحي المخيف ، ذلك أن رفض فكرة الالتزام ، وفكرة الرقيب النفسي « الضمير » وفكرة الفضيلة وفكرة الخير ، وفكرة الإيثار ، وفكرة العدل وفكرة المسؤولية ، إنما تجرد الإنسان من كل قدراته ومعطياته التي تجعله قادراً على أداء دوره الحق في الحياة ، وإن أخطر ماتدعو إليه الوجودية هو أنانية الفرد في مواجهة المجتمع بإنكار دوره في العطاء والبذل والإنفاق والعطاء للآخرين ، ومن فسادها قولها : إن الإيثار يعني أن يصبح الإنسان مجرد أداة للآخرين ، بينما يدعو الإسلام إلى أن الإيمان هو انتقال الإنسان من الأنانية إلى الغيرية •

ولا ريب أن موقف سارتر من الألوهية موقف أشد عنفاً وخطراً مما يقول به الملحدون أو المشركون ، فهو يضع الذات الإلهية في مقام التزاحم مع الإنسان ، وأن وجود أحدهما يلغي وجود الآخر : (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) ، والإنسان ليس في الحقيقة إلا خلق الله وعبده

وفضل من فيض فضله وعطائه .

وإذا قيل : إن الوجودية تحمل مفهوم الحرية، فإنما هي الحرية بمفهوم تحرير الإنسان من مسؤوليته ، وإطلاق أهوائه إلى أبعد مدى ، وكيف يستقيم أمر نظرية تدعي أنها عملية حين تنكر وجود الحق تبارك وتعالى ؟ وكيف يمكن أن تعلل وجود العالم ؟ وكيف يمكن القول مع الوجودية بأن العالم وجد بلا داع ، ويمضي لغير غاية ؟ ونحن نقرأ قول الله تعالى: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون) [المؤمنون : ١١٥] .

ولا ريب أن الفرد هو موضوع هام شغل الفلاسفة وأصحاب الأيديولوجيات ، ولكن أهم ما هنالك : هو مسؤوليته وموقفه من الجماعة ، وتلك هي القضايا التي تتلاعب بها أهواء الفكر البشري حين تراه سيداً مؤلهاً ، وحين تراه حيواناً ، وحين تراه ترساً في آلة ، وقد برأه الإسلام من ذلك كله ، ووضعه في موضع الحق ، واعترف برغائبه المادية وأشواقه الروحية جميعاً ، فليس الفرد مؤلها ولا معبوداً و لاحيواناً ، ولكنه من أعظم ما خلق الله لو استقام على الطريقة واهتدى إلى الحق ، وقد حدد الإسلام موقفه من ربه ، ومن الكون ، ومن المجتمع ، وحدد مسؤوليته ورسالته وجزاءه وعلاقته بالدنيا وبالآخرة وبالوجود كله على النحو الذي تعجز كل الفلسفات والمذاهب عن الوصول إليه ، أما الغرب فإنه حين أنكر الألوهية والدين والوحي ، فإنه ذهب وراء الأهواء كل مذهب في سبيل تشكيل مفهوم للحياة وللإنسان . ولكن الإسلام — وهو وحي الله ورسالة السماء — كان أصدق من كل هذه المذاهب والأيديولوجيات ، وأقربها إلى الفطرة ، وأبعدها عن الغلو والاضطراب ، ومن ثم فهو أصلح المناهج للبشرية على مدى العصور ، وعلى اختلاف البيئات ، لأنه قدّم الشريعة المحكمة الخالدة القائمة على إطار ثابت مع

القدرة على التغير والحركة والتطور ، رابطا بين العقل والقلب ، والروح والمادة ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة •

ولقد سقطت الوجودية وتجاوزها الزمن لأنها خالفت الفطرة ، ولم تستطع أن ترضي العقل ولم تعترف بالروح ، فهي تجعل الإنسان في عزلة عن الجماعة أنانيا غاية الأنانية أولاً ، وتجعله يَسْتَطيبُ إبراز القبيح من جوانب الطبيعة الإنسانية ثانياً ، وتجعله يفصل نفسه عن ربه وعن السماء وعن الدين ، ويتنكر لكل القيم الخالدة ثالثاً ، ولأنه يؤوس قنوط قلق ممزق لا يجد قراره ولا راحته ولا طمأنينته ولا أمنه النفسي ، بينما الإسلام هو ما عكس هذا كله نوراً وهدىً •

* * *

الفصل الرابع

التحرر من دوركايم ومدرسة العلوم الاجتماعية

منذ سنوات ومن خلال الضباب المخيم على آفاق الفكر الإسلامي ، ارتفعت صيحة صاعقة ، ثم سرعان ما انطفأت وساد الصمت بعدها ، كان صاحب هذه الصيحة هو أستاذ العلوم الاجتماعية في إحدى الجامعات العربية ، قال الدكتور عاطف غيث : إن علم الاجتماع الذي يدرس بجامعاتنا ــ بصورته ومادته الحالية ــ أداة انهزامية في مجتمعنا العربي ، إن مدعم علم الاجتماع الذي نعتمد على نظرياته في جامعاتنا هو العالم اليهودي الفرنسي : إميل دور كايم الذي حاول مع من ردد آراءه ــ أمثال ماكس فيبر الألماني ، وفلفرن الإيطالي ــ أن يطمسوا فعالية الإنسان ، ويجعلوه عبداً لمصير مجهول ، وحاولوا كذلك أن يميّعوا حركة التاريخ ، ويبعدوا الأحداث التاريخية عن مضمون الواقع المعاصر حتى لا يتعرف الباحث على حقيقة مسيرة التاريخ نحو هدفه الذي لابد منه ، وهو ضرورة تحرير المجتمع الإنساني من القيود التي كبلته قروناً عديدة.

ودوركايم هو صاحب الأفكار التي تعوق النزعات الحرة كلها ، ويقف حائلا أمام تخطيط الإنسان لمستقبله .

إن خطر علم الاجتماع يتضح عندما نعلم أن موضوعه الرئيسي هو دراسة بناء المجتمع وعوامل تغييره ، وهو ما نعده أساس معركة النضال

للخلاص من الثغرات التي خلفها الاستغلال والاستعمار في المجتمع العربي •

ولا شك أن علم الاجتماع الذي يدرس الآن في جامعاتنا ــ بوضعه الحالي ــ عاجز تماماً عن متابعة التغييرات فهماً أو تقويماً • ولذلك فإن بناء قيم جديدة، وصناعة جيل جديد ، لايمكن أن تحظى من علم الاجتماع بوضعه الحالي بأدنى اهتمام ، وهو ــ بوضعه الحالي ــ أداة لتحويل الأنظار عن أوجه النضال الاجتماعي والاقتصادي • ولذلك فإننا نعدّ نقله دون تغيير إلى بلادنا يعد أداة انهزامية يجب القضاء عليها •

هذه هي الصيحة التي استعلنت منذ عشر سنوات ، ثم سرعان ما انطوت ، صيحة لا تقف عند علم الاجتماع وحده ، ولكنها تتصل بعدد من العلوم التي ندرسها في جامعاتنا • وهي في ذاتها علوم وافدة ونظريات أجنبية ، صممت على مقاييس مجتمعات أخرى في الشرق أو في الغرب ، وسيطر عليها فلاسفة لهم اتجاهات واضحة ، وأهداف صريحة ، وهم يجرون في موكب «الصهيونية وأهداف بروتوكولات صهيون التلمودية» وليس هذا شأن المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي يقودها دوركايم وليفي بريل وغيره من اليهود • ولكن الأمر يتصل بعلوم الأخلاق ، والنفس ، والتربية ، والعلوم السياسية ، والتاريخ والفن •• ففي كل مجالات هذه العلوم تجد نظريات وافدة تقتضي الأمانة بعلمائنا أن يعرضوها على أنها ليست العلم العالمي كما يدعون ويقولون ، أو أنها نتاج أعلى العقول البشرية ، فليس الأمر كذلك في الحقيقة ، ولكنها نظريات وفروض ، وضعها مجموعة من الباحثين والفلاسفة في ضوء عاملين خطيرين :

العامل الأول : عامل البيئة الغربية التي صنعتها عوامل ثقافية ودينية واجتماعية معينة •

والعامل الثاني : عامل العصر المعين الذي يقع في منتصف القرن

العشرين الميلادي ٠

وفيما يلي قبل ذلك بعقد أو عقدين من الزمان كانت هناك مذاهب أخرى وحلقات متصلة بذلك الزمن ، كما كانت هناك مذاهب فلسفية مختلفة ، ولا تزال في ألمانيا لها طابعها الوجودي ، وفي فرنسا لها طابعها الماركسي ، وفي أمريكا لها طابعها البرجماني وهكذا ٠

فكيف يصح في الأذهان أن تنقل هذه المذاهب إلى مجتمع كالمجتمع العربي الإسلامي الذي يعيش عقيدته وآدابه وأخلاقه ومفاهيمه وطباعاته الخاصة التي ما زالت تستمد جذورها من القرآن والتوحيد والشريعة الإسلامية ، بالرغم من مرحلة الاضطراب التي فرضتها ظروف الاستعمار والغزو الثقافي ، كيف يمكن أن تنقل هذه المناهج ، فتدرس في الجامعات على أنها علوم مقررة،وأن فروضها ونظرياتها تعلم على أنها حقائق نهائية؟!٠

وكيف يمكن لمجتمع ناهض مختلف عن المجتمعات الغربية التي استكملت وجودها ، وتعيش الآن مرحلة الرفاهية والاستهلاك ، وقد وضعت نظرياتها في ظل هذه الأوضاع كيف يمكن أن تطابق هذه النظريات مجتمعنا ، وكيف تستطيع أن تعطيه ، وهذه العقلية العربية الإسلامية التي تقوم على مفهوم الإيمان بالله ، وإرادة الفرد ، والالتزام الأخلاقي ، والمسئولية والجزاء ، كيف تستطيع أن يتعامل مع نظريات تقوم على الجبرية ، وتحاول أن تصور المجتمع بصورة الصراع ، وأن تقيم التناقضات أساساً بينما تقوم المجتمعات العربية الإسلامية على التقاء العناصر والأجزاء في كل متكامل دون صراع بينها أو جبرية ٠

ذلك هو الخطر الذي يصل إلينا ، لا عن طريق الفكر المفتوح حتى نناقشه ونكشف عن زيفه ، ولكن عن طريق الجامعة ، فإذا هو من المسلمات في عقول أبنائنا،بينما هو — في الحقيقة — ليس كذلك في نظر أصحابه الذي طالما غيروا في نظرياتهم ، وبدلوا بالإضافة والحذف ، وما

يزالون يغيرون ، لأن الزمن لا يدعهم في راحة •

إن ما ذهب إليه دوركايم في مذهبه الاجتماعي الذي يضمه كتابه « قواعد المنهج في علم الإجتماع » ليس إلا نظرية وفرضية ، بناها عقله في ضوء تحديات كثيرة منها التحديات العامة ، ومنها التحديات الخاصة ، ولكل فيلسوف من ظروفه الخاصة ظل وأثر على آرائه لا ريب في ذلك •• أما التحديات العامة فذلك أن دور كايم هو ربيب الثقافة الماركسية أو المذهب الماركسي والنظرية المادية أصلاً ، ومفهومه معارض تماماً لكل القيم الأساسية التي جاءت بها الفطرة ، أو صاغتها الأديان في منهجها الرباني القائم على الفطرة،وهو — في كل دعاواه — يأخذ الطرف الثاني المعارض•فإذا أعلنت الأديان أن الدين فطرة ، وأن الأسرة فطرة ، أعلن هو عكس ذلك تماما ، فقال إن الجريمة هي الفطرة ، ولكن الدين والأسرة ليسا من الفطرة في شيء •• وهو — في كل مايدعو إليه — تابع للمدرسة المادية التي بدأها سبنسر وكانت ، وهو تابع في نفس الوقت للمدرسة التي بدأها ماركس في التفسير المادي للتاريخ ، فهو واحد من كبار الدعاة إلى إنكار الفرد ومسؤوليته ودوره وإعلاء شأن الظاهرة الاجتماعية وتحميلها كل النتائج على النحو الذي يؤدي إلى أخطر الآثار التي يترتب عليها إنكار مسؤولية الفرد والتزامه الأخلاقي وجزاؤه •

ومن شأن هذا أن يسوغ للأفراد تصرفاتهم ، ويحررهم من التبعية، ويلقيها كلها على المجتمع ، ولا ريب أن هذا الاتجاه معارض معارضة جوهرية لمفهوم الدين الحق ولقاعدة أساسية من قواعد الإيمان بالله التي يقوم عليها المجتمع العربي الإسلامي •

يقول دور كايم : إن الفرد لا قيمة له ، ولا معنى للتشبث بالحرية الفردية ، وإنما القيم كلها للمجتمع الذي يخلق الأديان والعقائد والقيم الروحية ، وكلها عبث لا قيمة لها ••

وهو في هذا يحاول إرساء قاعدة فاسدة ، تتعارض مع الفطرة البشرية ، ترمي إلى القول بأن التحلل والانحلال أمر حتمي ، وأهم ما يريد دور كايم أن يصل إليه هو :

أولاً — إقامة فكرة التطور المطلق التي تلغي مفهوم الإسلام القائم على إطار من الثوابت في داخله حركة وتغيير •

ثانياً — الدعوة إلى فكرة القهر الخارجي الذي يقهر الفرد على غير رغبة منه ، وذلك ليلغي مفهوم الإسلام القائم على الإرادة الفردية والمسؤولية الفردية والجزاء الفردي •

ثالثاً — تفسير الإنسان وفق مذاهب المادة وعالم الحيوان، وذلك في مواجهة مفهوم الإسلام الذي يكرم الإنسان ، ويجعل له منهجاً خاصاً لفهمه يختلف عن المادة وعن الحيوان •

رابعاً — إنكاره القواعد الخلقية وثبات القيم الأخلاقية ، وهو ما يقرره الإسلام •

خامساً — إنكار فطرة الدين والأسرة والزواج ، وفي ذلك معارضة لأصول أصيلة من النظام الإنساني •

سادساً — لايعترف دوركايم بأن الحياة البشرية يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردي ، وإنما يفسرها العقل الجمعي ، وهذا الرأي معارض مع مفهوم الإسلام الذي يقرر أن كل إنسان مسؤول عن نفسه مسؤولية خاصة ، وأن تعلله بفساد المجتمع أو اضطرابه لا ينجيه من الجزاء •

سابعاً — نفي القداسة عن الدين والأخلاق والأسرة والتشكيك في قيمها ، وهو يدعو إلى تحطيم الدين لأنه قد يعوق التطور ، وليس فطرة إنسانية ، وتحطيم قيود الأخلاق لأنها لا وجود لها في ذاتها •

هذه هي النظرية المادية الخالصة التي تقوم عليها مفاهيم علم الاجتماع كما دعا إليه دوركايم، وكما يدرس الآن في الجامعات العربية حيث ينشيء أجيالاً تقوم عقليتها على أساس النظرة المادية الخالصة إلى الإنسان ، وحيث تنظر بسخرية إلى الأخلاق والدين والأسرة ، وترى أن هذا الذي تدرسه هو الحقائق العلمية والمسلمات التي لا مرد لها • بينما هي لاتعرف وجه الحقيقة بالنسبة لمفهوم الإسلام الحق الذي هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، والمفهوم الأصيل الذي يقرر أن الإنسان روح وجسد ، وعقل وقلب ، وأنه لا يمكن تفسيره عن طريق المذاهب المادية التي تعامله كالحيوان أو التجريبية التي تعامله كالمادة الصماء •

ولا ريب أن نظريةدوركايم في علم الاجتماع حين تلتقي بنظرية فرويد في علم النفس ، ونظرية ماركس في الاقتصاد من شأنها أن تشكل إنساناً مضطربا مزعزع الوجدان • واليهود الثلاثة هم القادة المسيطرون على هذا الفكر الغربي الذي يفرض الآن على أنه هو الفكر العالمي • بينما تختفي مفاهيم الإسلام في النفس والأخلاق والاجتماع ، وتتضاءل ، ولا تعرض حتى على أنها وجهة نظر أخرى ، بل لعل شبابنا في الجامعات يرى أنه ليس هناك مفهوم أسلامي هو أعمق وأصدق وأكثر أصالة من هذا المفهوم الذي تقوم عليه مجتمعات الغرب ، والذي به وصلت إلى الأزمة الطاحنة المستحكمة التي يعانيها الآن من تخلخل المجتمع إلى اضطراب الأسرة التي تمزق النفس البشرية ••

وبينما يجد المسلمون منهجاً صادقاً متكاملاً ترتقبه البشرية كلها ، وتتطلع إليه ، ويجد كل مطلع شمس من يؤمن به من أهل الغرب ، فإن العرب والمسلمين محجوبون تماماً عن منهجهم هذا في مدارسهم وجامعاتهم، لقد كان من الضروري أن يكون للعرب والمسلمين منهجهم الاجتماعي الأصيل المشهر من فكرهم وعقائدهم وبيئتهم ، ومنهم خرج مؤسس علم

الاجتماع الذي يعترف الغربيون بزيادته وأثره وهذا ما قاله الدكتور غيث : ماهي الحقيقة التي تختفي وراء ترك علمائنا لواجب البحث والتأليف في علم كعلم الاجتماع الذي نشأ عندنا وترديد النظريات الأجنبية بكل علاتهـا ، لقد كان من الضروري أن يقوم علـم الاجتماع العربي الإسلامي في بلادنا على أسس مختلفة عما علمّه الغرب لأبنائنا ، وهناك فارق بين منطق العلم وحقائق العلم « إن منطق العلم ومنهجه لا يختلف عليه اثنان مهما كان لونهما وأيديولوجيتهما . ولكن تفسير الحقائق وإبراز بعضها الآخر ، واستخراج نتائج متميزة هو الذي يجب أن ننتبه إليـه تماماً » . إن أخطر ما يفرضه منهج دوركايم في علم الاجتماع هو « أن إرادة الإنسان ليست بالانطلاق الذي يمكنه من تغيـير المجتمع ، وأن الأفراد ـ وهم ورثة النظام الاجتماعي ـ ليسوا إلا صوراً متشابهـة متكررة ، كما أن إطار الدراسة فيه يدور حول مجموعة من المسلمات » هذه المسلمات الباطلة الزائفة التي لا يقرها الفكر الإسلامي .

ويقول الدكتور غيث : إن الرد على دوركايم ـ ومـن قبلـه أوجست كونت ـ يقوم على أساس أنهما في تفسيرهما للعوامل الموجهة لحركة التاريخ والمجتمع الإنساني يغفلان عمداً الصراع الذي خاضـه الإنسان المغلوب على أمره ضد طغيان العبودية .

لا ريب أن دور كايم ومعه زملاؤه اليهود قد صدروا في مذهبهـم عن هدف واضح وجريا في نطاق واضح بدأه ماركس ، وأكمل شطره فرويد، وجاء دوركايم ليحكم الخلقة ، ولا ننسى في هذا ما كتبه الأستاذ محمد قطب في كتابه « التطور والثبات في حياة البشرية » فإنه بلا ريب قد كشف وجوها كثيرة وخلفيات خافية مما يريده مفسروا البروتوكولات من أهداف وغايات بالبشريـة . وليس هنـاك انتصـار أكبر من أن

نظرياتهم وفروضهم تدرس الآن على أنها حقائق العلم ، والجديد في هذا الأمر أن الجزائر قد حاولت في مؤتمر علم الاجتماع الذي عقد بها عام ١٩٧٤ أن تدعو إلى إنشاء علم اجتماع عربي ، والتحرر من منهج علم الاجتماع الوافد الاستعماري الطابع ، وقد دعا عدد من علماء الجزائر إلى الرجوع إلى الأصالة باعتباره أحد الحلول المطروحة الآن .

غير أن الأمر ما زال في حاجة إلى نظرة إسلامية ، تكشف عن جوهر مفهوم علم الاجتماع الإسلامي ، ولذلك فإني أتوجه إلى الدكتور عبد الواحد وافي راجيا أن يدلي بدلوه في هذه القضية التي تعد إحدى معضلات الفكر الإسلامي المعاصر ، وبوصفه من رجال الفكر الإسلامي ، وممن درسوا علم الاجتماع الفرنسي .

إن التحديات التي تواجه المسلمين اليوم عن طريق العلوم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية هي من أخطر التحديات ، لأنها لا تمثل في الحقيقة يد الصهيونية التلمودية الطائلة في داخل عقولنا وفكرنا ومجتمعنا ، وأننا في حاجة إلى أن نتحرر عقليا من هذه المدرسة التي صاغتها بروتوكولات صهيون ، وغزت بها الفكر العربي المعاصر الذي ما يزال يقاوم ، ونحن أولى بأن نكسر هذه القيود ونحرر فكرنا ومجتمعنا من مذاهب هدامة، أثبتت فشلها وزيفها في بيئاتها وما أحق أن نكشف عن مفاهيمنا الأصيلة، وأن ندعو الإنسانية إليها ، فإنها ستطلع الآن إلى ضوء كاشف لن يأتيها إلا من عالم الإسلام .

الباب الثالث

تحديات في وجه الثقافة الإسلامية

الفصل الأول

اصالة الثقافة الإسلامية

لا ريب أن الثقافات مناهج من الفكر ، تتميز بذاتيتها وخصائصها المرتبطة بالأمم وبالعقائد والأخلاق والقيم وعوامل التكوين النفسي والاجتماعي ، وهي تختلف عن المعرفة والعلم بأنها خاصة ، بينما المعرفة عامة ، والعلم عالمي .

ولذلك فإن القول بأن « الثقافة عالمية » فيه كثير من التجاوز ، والبعد عن الدقة والأمانة العلمية ، ذلك لأن كل أمة لها ثقافتها المستمدة من روحها وتاريخها/ ولا ريب أن هناك خلافات جذرية بين الثقافات ، وخاصة بين الثقافة الإسلامية ، والثقافات الغربية ، ومن أعظم الفروق بينهما : أن الثقافة الإسلامية شرقية عربية ، ولدت في بيئة رسالات السماء ، وقامت على التوحيد وطابع الأخلاقية ، والجمع بين الدنيا والآخرة ، والروح والمادة ، وأسلوبها في المعرفة قام على جناحي النظرة العقلية والنظرة الروحية متكاملين .

وأبرز وجوه الخلاف بينها وبين الفكر الغربي هو التكامل في مواجهة الانشطارية/ فإذا قيل : « وحدة الثقافة » قلنا : الصحيح هو « وحدة المعرفة » . ذلك أن وحدة المعرفة ترتبط بالشخصية البشرية

عامة ، لأن هناك قيماً عامة كالعدل والحرية والحق والباطل والفضيلة والرذيلة ، غير أن كل ثقافة تفسر هذه القيم تفسيرها الخاص ، فإحداها تغلب الفردية ، والأخرى تغلب الجماعية أما الإسلام فإنه يجمع بين الفردية والجماعية ،وإذا كانت الثقافات الفرنسية والألمانية والانجليزية والأمريكية تتباين وتختلف ، وهي من ذات أصل واحد لغوياً هو « اللاتينية » ومصدر واحد هو الفكر المسيحي الغربي والفكر الهليني ، والفكر الروماني ، أماالثقافة الإسلامية ، وما تفرع منها من ثقافات عربية وفارسية وتركية ، فإنها تستمد من أصل واحد هو : الإسلام واللغة العربية والقرآن .

ومنذ ظهور الإسلام أخذت الثقافة الإسلامية نفسها بتحديد طابعها ومظهرها وذاتيتها حتى لا تختلط بالثقافات والعقائد . وقد دعا الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى تأكيد هذه الطبيعة الخاصة والمحافظة عليها في الفكر والمجتمع ، ولذلك فهي قد وقفت موقفاً واضحاً صريحاً إزاء الثقافات اليونانية والفارسية والهندية عند ما ترجمت ، فهي لم تقبلها ولم تستسلم لها . بل واجهتها مواجهة صريحة في ضوء « التوحيد » بل إن الفلاسفة الذين سايروا الفلسفة اليونانية ، وحاولوا ربطها بالفكر الإسلامي أمثال : الكندي والفارابي وابن سينا ، فإن محاولتهم فشلت ، وعجزوا عن ذلك لأسباب كثيرة ، وقامت المعارضة قوية عنيفة في وجه الاحتواء والتبعية والغزو ، وكان للشافعي والأشعري وابن حنبل والغزالي ، ولابن تيمية مواقف حاسمة في هذا الأمر .

ولذلك فإن القول بالترابط بين الثقافة الإسلامية والفكر اليوناني ، أو الاستلام من الفكر الإسلامي للفلسفة اليونانية ، هذا قول ليس صحيحاً على إطلاقه ، وإن هذه الصورة التي يتناقلها بعض كتاب التغريب فإنها ليست محررة ، ولا دقيقة ، ولا كاملة ، وإن هناك جوانب ضخمة

للمعارضة وللمحافظة على ذاتية الثقافة الإسلامية ، فصلها كثير من الباحثين في العصر الحديث . والثقافة الإسلامية هي ثقافة عربية ، فبقدر ما دخل الإسلام من الفرس والترك والهنود وغيرهم فإن كل منجزات الثقافة كتبت باللغة العربية إلا القليل ، ذلك أن الفكر الاسلامي كان متحركا في إطار العقيدة ، وكانت اللغة العربية هي لغة الكتابة: للفارابي التركي ، وابن سينا والغزالي الفارسيين ، وابن الرومي الرومي ، وابن خلدون المغربي ، وابن رشد الأندلسي . هؤلاء جميعاً عاشوا في إطار الفكر الإسلامي وقرآنه ولغته . وصنعت هذه الثقافة عقيدتهم التي كتبوها باللغة العربية .

أما الثقافات الفارسية واليونانية والنصرانية والهندية ، فلم تنصهر في الثقافة الإسلامية ، ولكن الثقافة الإسلامية أخذت منها وردت في ضوء التوحيد الخالص ،فضلاً عن أن الثقافة الاسلامية نفت الزيف وكشفت الخطأ .

وقد كانت هذه الحرية وهذه الذاتية مصدراً ثراً للثقافة الاسلامية في قدرتها على الحركة والتطور دون أن تفقد عنصر الوحدة والاتصال بالماضي . ذلك لأنها تمثلت أهدافاً أساسية هي التوازن بين الروحي والمادي ، وأولوية الخلقي على الجمالي ، والشعور بكرامة الإنسان والإحساس العميق بالزمن بين الأزل والأبد والربط بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وطابع الأخلاق الواضح في السلوك والعاطفة ، القائم على ضبط الشهوات ، والإيثار للغير ، وامتزاج العقل بالقلب ، وترابط العلم والأدب ، والجمع بين مصالح الدنيا والآخرة .

كذلك فقد حفظ هذا الإصرار على التميز والذاتية والأصالة : الثقافة الإسلامية من الأساطير والوثنيات والعصبيات والعنصريات وأكد عالميتها الخاصة التي ترمي إلى إقامة العدل الإجتماعي وفق منهج رباني .

ومن هنا فإن الثقافة الإسلامية ليست شرقية ولا غربية، وهي ليست مركباً للثقافتين ، ولكنها ثقافة مستقلة ، استمدت وجودها من القرآن والإسلام في إطار اللغة العربية ، وكونت منهجاً ربانيا متميزاً ، وتاريخها فيه الإيجابيات والسلبيات ، وقد قامت أساساً على التكامل والتوازن والمواءمة بين القيم التي تبدو في الفكر العربي مستقلة أو متعارضة .

ولذلك فإننا نعارض قول القائل بأن هناك ازدواجاً حضارياً أو تشابكاً بين ثقافة الإسلام وثقافات الغرب وقد يكون هذا التشابك بين الفكر اليوناني الهليني وبين الفكر الشرقي الغنوصي القديم ، ولكن ذلك توقف بعد الإسلام تماماً ، فقد قطع الإسلام الامتداد الفكري والحضاري بين الأمم ، وشكل ذاتيته الخاصة التي واجهت كلا من الفكرين ، وكشفت عن شبهات معارضتهما للتوحيد .

ونحن اليوم نمر بمرحلة شبيهة بالمرحلة اليونانية ، غير أن هذه المرحلة أشد قسوة لأن إرادة المسلمين فيها ليست مطلقة في اختيار ما تشاء ورفض ما تشاء ، ولكن قوة النفوذ الأجنبي فرضت عليها ترجمات تتعارض مع عقيدتها وتراثها وذوقها .

واليوم تجري المحاولات لعزل الثقافة العربية المعاصرة عن جذورها وتاريخها تحت اسم الثقافة المعاصرة ، ولا ريب أن هذه المحاولات لن تجد نجاحاً ولا تقبلاً ، ذلك لأن الثقافة العربية المعاصرة هي حلقة من حلقات الثقافة الاسلامية القرآنية منذ أن جاء بها الإسلام على مختلف مراحلها . وقد فشلت كل المحاولات في حجب الثقافة العربية عن طابعها الإسلامي المميز لها ، وعزلها عن القديم كله ، والدعوة إلى ثقافة عربية حديثة مرتبطة بالحملة الفرنسية والغرب مع حجب ما يتصل بتاريخ ثلاثة عشر قرناً .

ولا ريب أن الدعوة للأصالة في مجال الثقافة ضرورة ملحة للامة العربية في هذه المرحلة من حياتها . حيث إزدادت حدة الغزو الثقافي ،

واتسعت حملة التغريب ، وليس يمنع هذا من الاقتباس أو الانتقاء في بعض العناصر ، فإن ذلك من ضرورات الحياة ، ولكن الأمر الهام هو أن تظل الثقافة الإسلامية محتفظة بذاتيتها وخصائصها وطابعها القرآني المعطـاء .

إن حاجتنا إلى العلمية الكيماوية والطبيعية والهندسية والطبية ، ولكننا لسنا في حاجة إلى أسلوب العيش الغربي ، ولا إلى الثقافـات القائمة على طوابع الأمم المختلفة بتراثها وتاريخها وتراكماتها . وإن كمال الاستقلال والتحرر من النفوذ الأجنبي السياسي والعسكري يتطلب التحرر من النفوذ الثقافي والعقلي .

أما الثقافة الاسلامية فهي أيضاً في حاجة إلى أن تتحرر مما اختلط بها خلال القرون مما أثر على جوهرها وأصالتها ،وذلك من حيث اتصالها بثقافات الأمم اليونانية والفارسية والهندية ، وما يتصل بالعقائد القديمة، وما يتصل بالتصوف الفلسفي ، والاعتزال والفلسفة وغيرها من تلك هو: منهج أهل السنة والجماعة . وعلى من يحاول دراسةهذهالعناصرأن الخيوط التي تناثرت فيها ، ثم استصفاها الإسلام في منهج جامع أصيل يدرسها في إطارها الحقيقي ، ومن خلال حركتها إبان ترجمـة التراث اليوناني ، ومن بعده قد نجد الآن قوماً يأخذون هذه الخيوط الفرعيـة مستقلة عن أصولها ، ويحاولون أن يتحدثوا عنها على أنها منهج للفكر الإسلامي ، وخاصة ما يتصل بالعقلانية والاعتزال . والواقع أن أصالة الثقافة الإسلامية قد تحررت تماماً من استعلاء العقلانية والاعتزاليـة والتصوف الفلسفي جميعا ، وشقت طريقها إلى التكامل والوسطية ، هذه العقلية الإسلامية الجامعة لها طابعهـا الخاص الذي يختلف عن تراث الهيلينية والغنوصية جميعاً ، إنه صبغة الله الحق .

الفصل الثاني

كيف نواجه ركام الفكر الوافد ؟

إن السؤال الذي هو بمثابة أكبر معضلات العصر ، هـو موقف شبابنا إزاء هذا الفيض المتدفق من النظريات والمعلومات والأفكار عـن طريق الصحافة والإذاعة والكتب العربية المترجمة والقصص ، وما يدرس في مدرجات الجامعات ، وما تتناولـه الكتب الرخيصة المنثورة علـى الأرصفة ، وعلى أسوار الحدائق ، وكيف يواجـه شبابنا ذلك الزحام الهائل المعروض عليهم عرضاً حراً مطلقاً ، كأنما هو مـن المسلمات أو الحقائق الثابتة .

إذا أردنا أن نعرف ما هي الأدوات التي يمتلكها هذا الشباب للحكم على ما يقدم له ، لم نجد أكثر من قدرة يسيرة على القراءة ؛ ونفـوس غضة متطلعة إلى كل طريف وجميل وملون وأنيق ، وخاصة إذا صحبته أسماء لامعة مثل : فرويد ، أو سارتر وبودلير وكافكا . كيف يستطيـع أن يكتشف الحقيقة ويعرف الأصيل من الزائف ، وقدرته العقلية يسيرة، ومحصوله العلمي قليل ، وذخيرتـه الفكرية والروحية والدينية طفيفة ، وعنصر الحرص من الخطر معدوم تماماً .

إن شبابنا يقبل ببساطة على هذا الركام ، وهو مستلم له استلاماً تاماً

خالي الذهن من تلك المعركة الضخمة الدائرة من وراء هذه المطبوعات ، والتي ترمي إلى إغراقه واحتوائه والقضاء على كيانه ، واستلاب قدراته التي تملكها أمته من أجل الدفاع عن القيم والمقدسات المعرضة للخطر .

لذلك فإن القراءة الآن أصبحت فناً خطيراً ، وأمانة الكاتب موضوعة الآن في الميزان ، ومسؤولية القارىء يجب أن تكون واضحة إزاء مايُكْتَبُ وما يُقَدَّم .

إن خطر الكتاب الأجنبي المترجم ليس أقل أثراً من الغربي المكتوب بالعربية والمقدم للشباب على أنه نتاج عربي ، وهذا الغربي المكتوب باللغة العربية وبأقلام عربية ، ما مدى أصالته ، وما مدى سلامته ، وما مدى إيمان أصحابه بأمتهم وبأماناتهم لها ؟ .

لقد أصبح هناك صنفان من الكتابات : أحدهما : ولاؤها للفكر الغربي بمفهومه ديمقراطيا ووجوديا وقائما على الفردية والفكر الحر ، ومتداخلاً مع المادية والجنس وإحياء الوثنية الإباحية الهلينية ، وهذا الفكر يحاول أن يتعرض للإسلام ولتاريخ الإسلام ولشريعة الإسلام بإثارة الشبهات ، وبالدعوة إلى استغلالها لتبريد الواقع وتبرير الحضارة التي تمر بمرحلة الأزمة الصاعقة ، والتي تقدم أسوأ معطياتها اليوم ، وأقسى صور حياتها : في صورة الوجودية والهيبية الناقمة المنحرفة الرافضة لكل قيم المجتمعات وضوابطها .

ومن الكتابات ما نجد وراءها دعاة للفكر الماركسي المادي بمفهومه المنحرف الداعي إلى صراع الطبقات ، المحرض على الهدم والتدمير والدماء ، والقائم على الجماعية التي تحتقر الفرد ، ولا ترى إلا أنه ترس في آلة ، والتي تنكر الأسرة والزواج ، وتنظر إلى الأخلاق والدين والصلة بالله وبالسماء نظرتها الرافضة المحبوسة في حدود المحسوس والمادي ، وهي تحاول أن تفرض فلسفتها هذه على المجتمع

الإسلامي ، وتعمل على تفسير التاريخ تفسيراً مادياً محدوداً ، قاصراً لا يعترف بالروح ولا بالمعنويات •

ومن عجب ألا يتوقف هذا التيار الصاعق عند دعوته ، ولكن يقتحم الفكر الإسلامي ليفرض منهجه المادي عليه ، ومن هذه المحاولات لخطرة :

أولاً — إقامة جسور وقناطر بين الفكرة الإسلامية ، والنظريات الغربية : ماركسية ووجودية وديمقراطية بدعوى أن الإسلام فيه ديمقراطية وعدالة اجتماعية واعتراف بالفردية •

ثانياً — محاولة تفسير التاريخ الإسلامي تفسيراً ماديا ماركسياً يحاول أن يتبع العوامل الاقتصادية ليجعل منا نقطاً تحرك التاريخ الإسلامي ، أو اتخاذ التفسير المادي المنكر للغيب والنبوة وما وراء المادة أساساً للتفسير •

ثالثاً — محاولة وضع الشريعة الإسلامية في مجال تبرير الواقع المعاصر في الأمم والحضارات المعاصرة • وذلك بالقول بأن الشريعة الإسلامية مرنة وقابلة للحضارات وتغيرات العصور والأزمان ، وأنها تقوم على أساس قواعد عامة ، ترضي القوانين الوضعية مع تعديلات يسيرة •

ولا ريب أن هذه كلها مؤامرات زائفة ومحاولات مغلوطة لتفسير الشريعة الإسلامية ، والمفهوم الإسلامي على الانصهار في بوتقة الحضارة القائمة بكل فسادها وانحلالها وتدبيرها من ناحية والقبول بها من ناحية ذاتية الإسلام المفردة ذات الطابع أخرى وأهم من ذلك كله القضاء على الخاص المتميز الذي يختلف اختلافا واضحاً عن الواقع الإسلامي المعاش والمستمدة من الحضارة الغربية التي شكلتها مفاهيم الوثنية اليونانية

والقوانين الرومانية وتفسيرات المسيحية الغربية بما فيها الخطيئةالأصلية، والفصل بين الدين والدولة ، والقول بالتطور المطلق ونسبية الأخلاق •
إن الماركسيين يحاولون خداع المسلمين بأن الماركسية والإسلام يلتقيان في العدل الاجتماعي ، وإن الغربيين الليبراليين يحاولون خداع المسلمين بأن الديمقراطية والإسلام يلتقيان في الشورى التي تسمى في الديمقراطية التمثيل النيابي ، وكلا الأمرين فيه تمويه وزيف كثير ، فلا العدل الاجتماعي في الإسلام مشابه للماركسية ، ولا الشورى مشابهة للتمثيل النيابي •

ونحن نعرف أن الاستعمار والصهيونية والماركسية يتعاونون على هدف واحد ، وإن اختلفوا في مطامع السيطرة ، هذا الهدف هو تدمير المعنوية والأصالة والذاتية في الأمة الإسلامية ، حتى تخضع وتدخل دائرة الاحتواء ، وتنصهر في الأتون المكين أتون الأممية ، ومن ثم تفقد ذلك الشيء الذي يميزها ويجعلها أمة وحدها ، لها قدرتها الخاصة على إقامة كلمة الله ، وعلى العمل لإقامة المجتمع الرباني •

جاء الاستعمار وهدفه إحلال مخطط جديد وفكر جديد مختلف في الغاية والوجهة ، هو إدخال المسلمين في الدائرة الغربية المغلقة ، وإخراجهم من الدائرة الربانية الموسعة الجامعة ، مستهدفاً حصرهم واحتواءهم ، ولقد جرب الغرب أسلوبه في الديمقراطية الغربية ، وأحس العالم الإسلامي أنها جسم غريب ، ثم جاءت الموجة الأخرى المتابعة لها، وهي الماركسية ، ورفضها الجسم الإسلامي والعقل الإسلامي ، وأثبت الروح الإسلامي أنه غير قابل للاحتواء والانصهار في أي النظامين ، غير أن التجربة المظلمة تجربة تطبيق النظام الغربي في المجتمع والتعليم والسياسة والاقتصاد والقانون ، كانت مصدراً للهزائم المتوالية التي وقعت فيها المنطقة العربية : نكبة ونكسة وهزيمة ، واحتلال فلسطين والقدس ، كانت أفكار القومية والإقليمية والتجزئة مصدر التمزق

والهزيمة ، لقد كانت الهزيمة نتيجة تنحية المنهج الإسلامي : منهج الأصالة والذاتية والانصهار في مناهج الغرب التي لم تكن صالحة لأهلها أو محققة لهم قيـام المجتمـع الأمثل ، إن الذي هزم هـو التخطيط العسكري والسياسي الوافد •

أما الإسلام فإنه لم يكن موجوداً أو مطبقاً حتى تنسب الهزيمـة إليه ، بل كان قد أبعد تماماً وحوصر • إن التجربة التي بدأت بالاحتلال الغربي ، وانتهت بالهزيمة سنة١٩٦٧م يجب أن تضع تحت أعيننا رصيداً ضخماً من الوعي والحـذر واليقظة تجاه فكرة تقليـد الغرب بشقيه ، وأنماط الغرب ــ الترف ، والاستهلاك ، والانحلال ، والتمزق ، والغربة والغثيان كلها ــ هي ميراث هذا الفكر الغربي الوافد الذي يقدم لنـا عن طريقين : عن طريق مترجمات غثة رديئـة لا تختار إلا الإباحيـات والسموم والانحراف ، وتدع كل ما هو إيجابي وصالح ونافع ، ثـم تقدم هذا على أنه مسلمات وحقائق ، بينما هو لم يبلغ درجة النظرية ، وليس درجة العلم ، إنما هو ركام شديد السوء ، تقدمـه أقـلام مليئة بالحقد والكراهية والتعصب ، مدفوعة إلى تدمير المجتمعات وهزيمـة القيم وإثارة الشبهات والشهوات والإباحيـات •

لقد علـّمنا الإسلام أن نقف من المعارف المعروضة علينا مـوقف التعرف الصحيح على قيمها الحقيقية ، وعلى مصادرها ، وعما إذا كانت نافعة أم ضارة ، إيجابية أم سلبية ، وإن علينا أن نرفض الزيف والتفاهات وان ننبه عليها ، وأن نعرف أن لنا من العلوم موقفـاً ، ومن الثقـافات الأممية موقفاً ، ومن هذا الركام الزائف المنشور في كتيبات تباع علـى الأسوار موقفاً آخر • وعلينا أن نعرف الفرق بين العلـوم والفلسفات ، فالفلسفات نظريات فردية قوامها فروض تصح وتخطىء ، وهي مرتبطـة عادة ببيئاتها وعصورها ، وليست صالحة لعصور أو بيئات أخرى • لأن جانبها الذاتي بالإضافة إلى صدورها عـن تحديـات مجتمعها وعصرها

وأمور مجتمعها ، كل هذا يجعلها أقل صلاحية لأن تكـون إنسانية أو عامة • والعلوم التجريبية شيء غير الفلسفات وغير الثقافات ، ومن حق الشباب علينا أن نقدم له مترجمات عن الفكر الغربي ، ولكنها يجب أن تكون مسبوقة باستعراض لها ، فإذا قدمنا لهم ماركس ، أو سارتـر ، أو هيجل ، أو فرويد ، فعلينا أن نقدم ذلك في إطار عصره وفكـره ، وأن نقدم أيضاً وجهة نظر فكرنا في هذا العمل أو ذاك ، ذلـك أن للفكـر الإسلامي منهجه ومنطلقه وطابعه الخاص به ، وهو مختلف عن مناهـج وتطلعات وخواص وطوابع الفكر الغربي الذي مر بمراحل مختلفـة ، وتركز في صور عديدة منها : الاقتصاد ، والنفس ، والاجتماع ، والقانون وكلما تخالف مع مفهوم الإسلام، فلنكن على حذر مما يقدم إلينا من هذه المترجمات •

أما ما تكتبه الأقلام العربية من مصدر ولاء للفكر الغربي أو الفكر الماركسي ، فإن علينا أن نعرف موقف الإسلام من كـل ما يقدم ، وألا تختلط علينا المفاهيم فتجرفنا إلى ما يخرجنا من طوابعنا وذاتيتنا وقيمنا ، حتى لا نسقط في فـخ الفكر العالمي الأممي ، الـذي يستهدف صهرنا وإذابتنا في بوتقته حتى تضيع تلك الصفة الخاصة التي يتميز بها المسلمون، وتلك هي أخطر التحديات التي تواجه « الأصالة » •

* * *

الفصل الثالث

هذا التيار الزائف ركام الهزيمة والنكسة

إن الذين يحاولون فهم مجرى الفكر الإسلامي بما يتصل مع الثقافة العربية والأدب العربي من خلال هذه المجموعة من الكتاب الذين يتصدرون في بعض الصحف والجامعات ، إنما يخطؤون فهم الحقائق الأصيلة والمجاري العميقة للفكر الإسلامي الذي يتميز بذاتيته الخاصة وطابعه الواضح، مهما حاول الكثيرون ادعاء الانتساب إليه أو التكلم باسمه .

ذلك أن فكرة الاستشراق ومحاولة التغريب تنصب على أن تتقدم مجموعة من تابعيها لتبرز وتتألق في مجالات الفكر والصحافة والمؤتمرات المتوالية التي تعقد هنا وهناك ، على أن تتكلم هذه المجموعة بحماس الراغب في تطوير الفكر الإسلامي والغيور عليه ، والخائف من سقوطه في الجمود ، وهؤلاء يعملون جهدهم في التعرض لقضايا ، هي من صميم الإسلام وفكره واجتهاده حتى يكسبوا بذلك ثقة القارىء الوسط ، وبذلك يمكن أن يصبح هؤلاء قادة للفكر الإسلامي ، وليزيحوا أولئك الأصلاء الذين ليس لهم صوت مرتفع ، ولا منبر عالٍ ولا شهرة مدوية .

ولذلك فإن الاستشراق والتغريب يحرصون كل الحرص على أن لا تنكشف هويتهم ، وتظهر تبعيتهم ، فإذا ما اندفع أحدهم بعنف ،

أعادوه إلى الطريق ــ كما فعلوا مع طه حسين وغيره ــ حتى يجيء اليوم الذي يقال : إن فلاناً من مفكري الإسلام ، وعنه يؤخذ ، وأنه قد أعلن كذا وكذا من الآراء التي تصبح ملزمة ،والتي تثير الشبهات والمعارضات كما أحدث علي عبد الرازق بالنسبة للإسلام من القول بأنه دين روحي، وما أحدث طه حسين حين أعلن أن العلم لا يعترف بوجـود إبراهيـم واسماعيل بالرغم من أنهما ذكرا في القرآن .

وفي مؤامرات متعددة أخيرة ظهرت أسماء تتحدث عن التراث وعن الدين ، وتخوض في قضايا كثيرة خوض مثير الفتنة والشبهات في حماس بالغ مصطنع ، وشأن هؤلاء شأن تلك الجماعة التي ظهرت في القـرن الرابع والخامس الهجري من أمثال : ابن المقفـع ، وابن الراونـدي ، والحلاج ، والقرامطة ، والباطنية ، وإخـوان الصفا ، وبشار ، وأبـو نواس ، والفارابي ، وابن سينا ، وهؤلاء جميعاً لم يخدعوا المجتمـع الإسلامي الذي سرعان مالفظهم ، وكشف زيفهم ، وأعلن براءته منهم ، وحدد موقفه بأنهم لا يمثلونه في شيء ، وأنهم في دوائر منفصلة تعبر عن فكرها الشخصي ، وأن وراءها قوى ترغب في تدمير المجتمع الإسلامي تحرضهم وتسوقهـم ... ونحن على وشك أن نعلن ذلك بشأن هؤلاء الذين تجمعهم مؤتمرات مشبوهة ، وتسوقهم غايات معروفة ،ولا يخفون على أحد ، ولا يستطيعون أن يمثلوا الإسلام أو يحسبوا بين مفكريه .

وما تزال مؤسسة التغريب والغزو الثقافي ومؤسسة الشعوبيـة الحديثة واقفة في العراء بالرغم مما تتسربل بـه من حجب ، وما تخفي وراءه من مظاهر ، وقد تجددت دعواتهم مرات ومرات ، تجددت بعـد النكسة بصورة عرفناها وكشفناها : تحت لواء علمنة الذات العربيـة ، ثم تجددت بعد انتصار رمضان الشكلي بصورة أخرى ما تزال تبـدي وجهها ومعالمها ، وهي في دعواها تقدم اسماً لامعاً ذا بريق : هو المعاصرة

والتحضير والنهضة والتقدم ، وكلها كلمات مسمومة ما عادت تخدع أحداً في سبيل التضحية بالذاتية والكيان والأصالة التي هي إن فقدت فلن تنفع المسلمين والعرب أيّ بادرة تقدم لأنها تكون قد أفقدتهم وجودهم ذاته ، ويكونوا قد انصهروا في بوتقة الأممية ، وذابوا في العالمية ، وهم الذين وُجِدوا ليكونوا كالشامة البيضاء الواضحة في القطيع العريض الطويل .

إن الفكر الإسلامي والثقافة العربية والأدبالعربي ــ وهما وليداه ــ مطالب بأن يكشف عن ذاتيته الخاصة ، ويحميها دون أن يتقوقع أو ينغلق .

(١) ــ إن الفكر الإسلامي يتميز بميزة خاصة هو أنه يقوم على بعدين واضحين : بعد متصل بالسماء وبالآخرة وبالوحي وبالألوهية وبرسالات السماء ، وبعد متصل بالحياة والمجتمع في مغايرته وتطوراته المختلفة من خلال الزمن المتغير أو البيئة المتغيرة ، وهو لا ينفك أبداً عن هذين البعدين ، ولا يفرط في أحدهما من أجل الآخر ، ولذلك فهو في توازن واضح بين الأصالة والمعاصرة ، وبين القديم والجديد ، وبين الميراث الثابت وبين معطيات العصر والحضارة .

(٢) ــ والفكر الإسلامي يتميز بأنه بدأ صفحة جديدة منذ جاء الإسلام ، وأنه قطع صلاته بما قبل ذلك من ركام الفكر البشري ، وإن ظل اتصاله قائما وحياً بميراث النبوة،هذا الانقطاع التاريخي والحضاري واضح وثابت ، وليس في حاجة إلى مزيد من بيان بعد أن كشف عنه المؤرخون الذين كتبوا عن ذلك حين جرت المحاولات لرد المسلمين القهقرى إلىالفرعونية والفينيقية ، والبربرية وغيرها ، وما إلى ذلك من سبيل ، فإن الإسلام محا ذلك التراث كله ، وأزال الفلسفة كاملة من

سيطرة الرومان واليونان ، وكان قوامها وثنية القلب والعقل ، وعبودية الجسد لغير الله •

(٣)ـ والفكر الإسلامي يتميز بأنه كل متكامل متصل على الزمن ، حلقاته متوالية ومتتابعة ، وأن نهضته في العصر الحديث لا تنفصل عن تاريخه كله ، وهي مرحلة من مراحله ، بل هي استجابة من استجابات حركته قوة وضعفاً ، وأن هذا الفكر كان ولا يزال قادراً على ابتعاث نفسه كلما خبت أضواؤه متجدداً عندما يلتمس الأصول والمنابع ، وهو كلما وقع في الأزمة أو النكسة ، عاود نفسه وراجع انحرافه وصحح مساره •

وتلك حقائق ثلاث أصيلة ، ودعائم وطيدة ، تكذب كل المحاولات والأضاليل والشبهات ، تلك التي تريد أن تفصله وتجعله فكراً عربياً جديداً ، لا صلة له بالفكر الإسلامي ، أو تفصل أدبه أو ثقافته عن جذورها ، وتلك التي تريد أن تبتعث من تراثه الجوانب السلبية التي أثارها اتصاله بالفكر اليوناني والفارسي القديم ، أو تلك التي تريد أن تفصمه عن وحدة الفكر بإعلاء الجوانب الإقليمية والكيانات، أو تلك التي تحاول أن تنظر إليه في ضوء التيارات الجديدة ، تحاول أن تترك بصماتها عليه ، وهي الماركسية والفرويدية والوجودية • ولعل الكثيرين يرددون الآن وبحماسة وجماعية : أن الأدب العربي الحديث لا يمثل هذه الأمة ، وذلك حق لأنه لم يصدر عن ذاتيتها ومقوماتها • إن هو إلا ركام من أدب الأمم وأوهامها وخيالاتها منقولة إلى اللغة العربية عن طريق القصة التي ليست من فن الأدب العربي الأصيل أو الشعر الزائف الرخيص ، أو مترجمات القصص العالمية ، سواء أكانت وجودية أو واقعية مع تغير الأماكن والأسماء • وهل يستطيع كاتب أو قصاص هو نفسه غريب على هذه الأمة شعوراً وفكراً ، وعقيدة وإيماناً أن يمثلها

أو يعبر عنها ، أو يستجيب لها ، كل ما يكتبه هؤلاء لا يمثل جذور هذه الأمة ولا ضميرها ، وإنما تميل تلك القشرة الرقيقة التي علت بشرتها في ظروف الاضطرار ، حيث لم يكن أمرها من تطورها الطبيعي أو معطياتها الصحيحة .

إن الشخصية العربية التي يمثلها الأدب العربي ليست هذه التي نراها في كتابات فلان أو فلانة ، إنما يصدر هؤلاء عن أحاسيسهم ، وهم في غربة عن أصالة هذه الأمة وفكرها . ولذلك فإن هذا « الركام » التي قدمته تلك السنوات العجاف المضطربة القلقة التي كانت الأمة فيها فريسة بين الماركسية والوجودية والفرويدية ، وهي مذاهب وافدة لا تمثل النفس العربية الإسلامية ، ولا المجتمع العربي الإسلامي ، هذا الركام إنما يعجب به المستشرقون أمثال : جاك بيرك ، ويعدونه ظاهرة من ظواهر تحويل المجتمع العربي الأسلامي إلى مزيد من التغريب ، وإلى الشخصية الأممية التي يحلمون بأن يتحول المسلمون والعرب إليها لتنتهي ظاهرة تميزهم الخاصة ، وتفردهم بلون معين من الفكر والتكوين والكيان .

لقد تجاوز العرب والمسلمون ماركس وفرويد وسارتر تماماً ، ووجدوا في ثقافتهم الأصيلة زاداً يملأ قلوبهم بالسكينة والطمأنينة ، وتبتعث فيهم القوة والإيمان معاً . إن هذا الركام الذي يظن البعض أنه تيار، والفارق في بصمات الماركسيةوالفرويدية والوجوديةسوف تنحيه الأصالة جانباً ، وسوف تعده تراث النكسة والهزيمة والنكبة .

إن خير ما تحاول أن تقدمه الماركسية ، نجده في الإسلام على أصفى صورة ، وذلك هو العدل الاجتماعي وإن خير مايمكن أن تقدمه الوجودية من تكريم دات الإنسان لم يجد صورة أشد تكريماً واغمراراً مع المسؤولية والالتزام والجزاء من الإسلام ، إن ما تحاول أن تقدمه

الفرويدية من الاعتراف بالرغائب والغرائز ، يسبقها الإسلام فيه حيث يوازن بين رغائب الإنسان المادية وأشواقــه الروحية ، ويتيح للإنسان تحقيق غاياته في إطار معركة من التكامل ، وأستاذ من الضوابط الحكيمة التي تحقق السلامة ، وتحفظ الشخصية ، وتحول دون التمزق والفصام.

نحن نعرف أن هذه الفلسفات والنظريات قد فشلت في أن تقــدم خيراً لأصحابها والذين صنعوها على مقاييس بيئتهم وظروفهم ، فكيف يمكن أن تقدم لنا نحن ــ ولنا منهاجنا وقيمنا وطابع مجتمعنـــا ــ كيف تقدم لنا شيئا إلا السموم الناقعات ؟ .

إن آثار هذا الفكر يجب أن تدرس بتوسع وأن تستكشف آثارها الخطيرة في النفس العربية الإسلامية ، ويجب أن تعرى هذه النفــوس التي تلبس وجوها زائفة لتخدع هذه الأمة ...

* * *

الفصل الرابع

بناء ذاتية المثقف المسلم في مواجهة الخطر

ان من أكبر المهام التي يفرضها علينا التحدي ــ تحدي الصهيونية والماركسية والاستعمار ممثلا في الغزو الثقافي والتغريب عن طريق التبشير والاستشراق والشعوبية ــ بناء ذاتية المثقف المسلم على نحو يجعله قادراً على تجاوز المخاطر والألغام المبثوثة في طريقه .

إن الشاب المسلم يفتح عينيه على قراءة ما هو مطروح في السوق من كتب ، وهي خليط مضطرب تكثر فيه الأوشاب والأهواء ، ويصدر في الأغلب عن هدهدة العواطف وإثارة الغرائز دون تقدير للسن أو للعوامل المختلفة التي يقع تحت تأثيرها القارىء .

ولقد ذهب كثيرون فريسة هذا الفخ المنصوب وهذا الخطر الكامن وراء الأوراق اللامعة وخداع الكلمات .

ولذلك فنحن نطلب من الشباب أن يكون قبل أن يقرأ فاهماً: ما هي غايته ورسالته وأمانته ، وماذا يقدم له وماذا وراء ما هذا الذي يقدم له. إن أي ثقافة أو قراءة أو اطلاع دون عقيدة وهوية سوف يكون مصدراً من مصادر الشقاء الذي لاحد له ، سوف يجري صاحبها مع كل ريح ، وسوف يعجز عن تحديد موقفه من أهواء المذاهب والكتابات التي

تجتاح كل من ليس له عقيدة أو هوية .

نحـن مطالبون أولاً بأن نعرف ركائز فكرنا وعقيدتنا ونعتنقها ، ونملأ بها كياننـا الروحي والنفسي والعقلي . وفي ضوئها نواجه كـل ما يكتب ونحكم على كل ما يقال.

إن الخطر الذي اجتاح أولئك الذين غلبوا على أمرهم من أبنـاء أمتنا ، فاتناشتهم الرياح الهوج مغربين أو مشرقين إنما يرجع إلى أنهـم كانوا — مع الأسف البالغ -- شباباً متطلعاً ، عجز أهله وأساتذته عن أن يكشفوا له عن ركائز فكرنا وعقيدتنا ، ومن ثم عاشت نفوسهم غربـة الفراغ العاطش المتطلع إلى أي شيء ، فلما وجدوا تلك الكتابات البراقة المسمومة ككتابات نيتشة وفرويد وماركس وسارتر ، برقت في نفوسهم الخاوية الخالية ووجدت مع الأسف مكانا .

إن المثقف المسلم الأصيـل لا تخدعـه الأسماء الـلامعـة ،ولا المطبوعات الفاخرة ، ولا الكلمات البراقـة ، وإنما هو حريص يقظ ، يعرف الرجال بالحق ، فمن عرف الحق عرف أهله .

وبعد فهل نحن حقاً في حاجـة إلى أن نعتنق مذهبا من هـذه المذاهب ؟ ، وهل أمتنا في حاجة إلى منهج جديد وافد أو نظام مجلوب من خارج دائرة فكرها ؟ وهل في استطاعة أمتنا — ولها هذا التاريخ العريق والدور الكبير الأصيل في بناء الحضارة الإنسانية — أن تقبـل كل ما يفد إليها كأنه حقيقة علمية أو مسلمة لا يقبل النظر أو النقد أو النقص . ودون أن تفحصه وتعرضه على قيمها الأصيلـة .

وهل هي أولا طبقت قيمها ومنهجها ؟ ثم انكشف لها عجز هـذه القيم عن أن تقدم النظام الأمثل للمجتمع الجديد .

وهل نحن حقاً نريد أن نتبنى منهجاً جديـداً في الحياة يحجب

طريقنا الذي سرنا فيه ؟ . وهل يمكن أن يكون طريقنا وفكرنا وثقافتنا وآدبنا مغايراً لمسيرتنا كلها ؟ .

تلك الأسئلة لا يستطيع المثقف المسلم أن يجيب عليها إلا إذا كان قد فهم أصول فكره وركائز قيمه ، وعرف أبعادها ومعطياتها ، ذلك أن أبرز قوانين فكرنا هي أن الإسلام قدم للبشرية أصفى وأنقى وأنصع منهج حياة ، وقد جعله متكاملا جامعاً رابطاً بين القيم مستمداً من مفهوم التوحيد الخالص والالتقاء بالفطرة والتجاوب مع الطابع الإنساني الأصيل .

إن النظرة الضيقة المحدودة القاصرة على الإقليمية ،أو الانشطارية، أو المادية ، ليست نظرة فكرنا الرحب الجامع ، وهي نظرة لا تعطي ذلك التكامل القائم بين الدين والمجتمع ، ولا تعطي طابع الأخلاقية الذي ينظم كل مجالات التربية والاقتصاد والسياسة .

ومن ثم فإن الفهم الموسع المتكامل الرحب الذي يقدمه لنا الإسلام يختلف اختلافاً واضحاً عن تلك النظريات المحدودة بعصرها وبيئتها وبالحياة الدنيا ، ومن شأنه أن يوجه المسلم إلى أفق أوسع ، وإلى أبعاد أشد رحابة ، ويكشف له عن ضرورة الحفاظ على الذات والحيلولة دون الانصهار في بوتقة الأممية ، ومواجهة خطر الغزو الاستعماري الصهيوني الماركسي ، في محاولة لاحتواء عالم الإسلام ، والقضاء على مقوماته وقيمه ، وإننا نعيش في عصر بلغ فيه التحدي الاستعماري الفكري مداه في محاولة لاحتوائنا وصهرنا في بوتقة الغرب ، ونعرف كيف يقوم في قلب عالمنا رأس جسر للصهيونية والاستعمار ، بالإضافة إلى تحديات مذاهب الإلحاد والمادية والماركسية والوجودية وغيرها مما يتجمع ليواجهنا عن طريق مؤسسات ظاهرة صريحة هي : التبشير والاستشراق ، وعن طريق قوى خفية تتمثل في

بروتوكولات صهيون وما تدبره في خفاء عن طريق الفكر والثقافة ، وبواسطة الدعوات والأيديولوجيات في سبيل تحقيق ذلك الهدف الخطير ، وهو السيطرة على العالم بعد القضاء على كل قيمه ومثله وأخلاقياته واستعباد أهله .

ولقد كان بعض المثقفين يسخرون من هذه التحديات نتيجة قصر نظرتهم على المؤسسات الظاهرة ، ولكن وثائق كثيرة تسربت في السنوات الأخيرة كشفت عن مدى ما تتحرك نحوه هذه القوى التي يمكن أن يقال اليوم : إنها في مواجهة سافرة مع الفكر الإسلامي والثقافة العربية عن طريق اللغة العربية والتاريخ والتعليم وشرائع المجتمع وقيمه ، وعن طريق مهاجمة الدين بصفة عامة والإسلام على وجه الخصوص ، ومحاولة تحوير مفهومه وإثارة الشبهات حوله وحول قيمه وتعاليمه وشريعته ورسوله وتاريخه .

هذا التحدي يجب أن يكون قائماً في نفس كل منا وعقله لا يغيب لحظة ، فلا ينظر في أمر من أمور الثقافة والفكر والاجتماع الا وهو مستحضر ذلك الخطر الذي ترمي اليه كل القوى الطامعة في بلادنا ، والتي ترى أن خير وسيلة لاحتوائنا هو استقطاب فكرنا ، وأننا أمة لا يمكن أن تخضع إلا إذا خلعت أنيابها ، وأنياب أمتنا هي : الإسلام والقرآن واللغة العربية .

ولقد جرت المحاولات ولا تزال لتحقيق هذه الغاية وتجريد ذلك المارد من قوته ومن أنيابه ، ولكننا كنا — بفضل الله — قادرين على أن نفهم ما يراد بنا ، وأن نعرف اتجاه الريح .

ولكن الأمر الآمر اليوم هو في تحويل هذا الفهم وهذا التقدير للأمور إلى إرادة حية متحركة ، تصد هذا الكيد ، وتحمي ذلك الميراث، وتحمل تلك التبعة ، وتذود عن هذه الامانة بكل مرتخص وغال ، بل

وتستشهد في سبيل الدفاع عنها .

ذلك أن أي واحد ، ما هو الا ابن هذه الأمة وهذا الفكر ، وهي بنوة عريقة ونسب كريم ، فقد حمل أبناؤنا أشرف رسالة وأعظم دعوة ، وكانوا من أمة هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومن المؤمنين بهذا الدين القويم ، ولقد قدموا خلال تاريخهم الطويل أعمالا خالدة في مختلف مجالات البطولة والعلم والأخلاق والإخاء الإنساني ، وأشادوا للحضارة ذلك الحصن الباذخ ، وكانوا قادة الهدى والنور والخير في كل أرض وعصر ، فنحن حين ننظر اليوم إلى موقعنا من التاريخ ومن الجغرافيا أو من العلم أو من الحضارة ، تجدنا بحق خير أمة أخرجت للناس ، وحق علينا أن نذود عن هذا الشرف الذي وضعنا به ، وأن نحميه ، وأن نقوم على إتمامه ، وأن نظل قادرين على حمل اللواء والدفاع عن الأمانة وتبليغ الرسالة إلى الأمم جميعا ، إلى الأمم الحائرة التي تعيش اليوم في قلق وتمزق نتيجة غلبة المادية عليها .

ومن حق هذا الميراث العظيم ــ الذي نفخر به نحن اليوم ونباهي به أمم الأرض جميعا أصالة ومهداً ــ أن نكون قادرين على حمل تلك الأمانة التي شرف بها أهلنا من قبل ، وقاموا عليها ، وجئنا نحن لنكمل البنا ، ونقيم دعائم جديدة على الطريق ، ومن هنا فمن العار على أمتنا أن تكون تابعة أو ذيلا أو محتواة لأمم أخرى أو لفكر آخر ، وكيف يمكن أن يخضع للاحتواء والتبعية من يحمل أصدق القيم وأكرم الدعوات ، وأقرب مناهج الحياة ارتباطاً بالله واتصالا بالفطرة والتقاءاً مع العقل والعلم ، وأقدرها على بناء التقدم والمعاصرة بمفهوم جامع أصيل ، لا يتخلف فيه العقل عن القلب ، والروح عن المادة ، وتلتقي فيه الدنيا والآخرة ، وتقوم قواعده على الثوابت الأصيلة القائمة كالأساس أو كالإطار مع حركة المتغيرات المستمرة من أجل التجدد والتطور ،

وفي ضوء اختلاف العصور والبيئات .

فاذا كان لنا أن نسأل عن مصادر ثقافتنا ، كنـا قادرين على أن نعرف أنها ليست في ذلك الركام من الروايات والكتب المبتذلة ، أو تلك النظريات والمذاهب أو أفلام السينما أو روايات المسرح ، فتلك كلهـا غريبة عنا إنما نحن نصدر عن منهج أصيل ، لا بد أن يكون قائماً في كل نفس ، راسخاً في كل عقل وقلب ، وعلى ضوئه وفي نوره ومن خلال قيمه وأصوله وأصالته نستطيع أن نفحص كل ما يقدم إلينا ، ونحكم له أو عليه ، فلا نكون ريشة في مهاب رياح المطامع ، ولا تكون كتابات الشعوبيين والتغريبيين وخصوم هذه الأمة مرجعاً لنا أو مصدراً لفكرنا ، علينا أن نكون حذرين حتى لا يستولي أعداؤنا على أسلحتنا الماديـة والمعنوية (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) [النساء : ١٠٢] .

* * *

الفصل الخامس

محاولة احتواء الفكر الإسلامي

يرصد المراقبون ظاهرة جديدة في أفق الفكر الإسلامي تأخـذ شكلاً خطيراً في هذه الأيام ، تلك هي ظاهرة الكتب الموصومة المشبوهة التي تصدر من غير أسماء مؤلفين أو أسماء مؤلفين وهميين، والتي تباع في الأسواق بقروش قليلة ، وهي تحمل سموماً كثيرة ، إذ يدور بعضها حول الجنس والمرأة ، وبعضها حول السحر والتدجيل ، وبعضها حول وحـدة الوجود والحلول والاتحاد ، بالإضافـة إلى ذلك السيل من القصص الأجنبية المترجمة ، والكتب التي تحاول أن تقدم مفاهيم زائفة عن النفس والأخلاق والإجتماع والتربية ، وقد توسع هذا التيار وأصبح يهدد الثقافة الأصيلة ، نظراً لرخص ثمن كتبه ولإقبال الشباب اليافع عليه فرحاً بما فيه من صور عارية وكلمات براقة •

ولا ريب أن الشاب المسلم والفتاة المسلمة معرضة بذلك كله إلى محنة قاسية نتيجة نقص الكتاب الإسلامي التوجيهي ، ومن ثم فقـد أصبح ضروريا أن نواجه قضية القراءة ، وماذا يجب أن يقرأ الشاب المسلم ، دون أن تخدعه الأسماء اللامعة ذات الدوي ،ولا الأثواب البراقة التي تغلب بها هذه الكتب ولا براعة الإعلان •

مسؤوليــة القارىء :

ولا ريب أن على القارىء المسلم المسئولية فيما يقرأ وفيما يختار توجب عليه أن يلقي على نفسه هذا السؤال : إلى أي حد يسكن الثقة بالكاتب الذي يقرأ له ؟ • وعلى ماذا تقوم هذه الثقة ؟ • ومن أي الفرق هو ؟ • ما هي علاقته بالمنهج الإسلامي الأصيل الحق : منهج الجماعة • هل هو قرآني النهج أم فلسفي الطريقة ، أم من الآخذين بأســلوب التصوف أو أسلوب الكلام والاعتزال ؟ • وهل هو صاحب نحلة ؟ • وهل يفسر الفكر الإســلامي في ضوء المذاهب الفكريــة الغربية : الماركسية ، والتفسير المادي للتاريخ ، أم الليبرالية والفكر الحر ، أم الوجودية الفردية ؟ •

وهل هذا الكاتب له تجربة الأديب ، أم تجربة الاجتماعي ، أم تجربة السياسي ، أم تجربة الاقتصادي ؟ • وكل من هذه التجــارب جزئية ترى الحياة والإنسان من زاوية واحدة • وتجربة الأديب تجربة وجدان ، وتجربة الفيلسوف تجربة منطق ، وتجربة الصوفي تجربــة إشراق وحدث ، وكلهــا تجــارب ناقصــة ، لا تستوفي أبعــاد البحث الصحيح ، وهي عرضة لجزئية النظرة والهوى والغرض كذلك فــإن تجربة الصحافة تجربة جزئية وقشرية وسريعة ، لأنها مرتبطة بالزمــن القريب والتغير اليومي ، وهي لا تستوعب الرؤيا العميقة لقربهــا من الأحداث قرباً يحول بينها وبين التكامل ، أما نظرة الفنان فإنها تقوم على أساس العاطفة والانفعال ، والمذكرات الشخصية تحيط بها الأهواء والنزعات ، وتحول بينها وبين الحق ، ولقد يتاح لبعض الكتاب فرص وشهرة وظروف في ظل نفوذ ما ، يفرض اسمه وشهرتــه دون أن يكون جديراً في ميزان الحق بأن يؤخذ منه ، وغالباً ما تحول الشهرة دون الرأي الصحيح ، وقد تحجب ضياء الحقيقة •

وفي الإسلام لا يعرف الحق بالرجال ، ولكن يعرف الرجال بالحق ، فحيث تعرف الحق تعرف أهلــه . ومن هنا جاءت مهمة علــم الجرح والتعديل ، وهو نقد الرجال في الأدب والفكر والثقافة ، وتفسير أعمال الكتاب والمفكرون بالبواعث والدوافع قبل تفسيرها بالنتائج والغايات ، ومن هنا يجب الربط بين حياة الكاتب وبين سلوك المفكر ، وبين القول وقائله ، وإذا لم يكن أسلوب حياة العظماء والكتاب والمفكرين مطابقاً لفكرهم ونظرياتهم ، فهــم لا يستحقون الإعجاب والتقــدير ، والعبرة دائماً بالنموذج الحي والأسوة الحسنة .

إن أســلوب التعصب والحقد والسخرية والاستهانــة بالقيم الأساسية : الدينية والخلقية . هو أساس واضح للتحفظ ، فإن طابــع الفكر الصادق أن يرتفع فوق الأحقاد والأهواء ، فإذا لم يفعل لــم يكن أهلاً للثقــة .

إن هناك صلة واضحة وأساسية بين سلوك الكاتب وفكره ، إن أهمية الجرح والتعديل في دراسة حياة الكُتّاب ووجهتهم وتاريخهــم عامل في فهم ما يكتبون ، وفي تقبله أو رفضه ، وعلى القارىء أن يكون قادراً على فهم وجه الكاتب وإخلاصه وسلامة هدفه ، وارتفاعــه فوق الأحزاب والأهواء والمطامع ، وإنما يكون الغرض هو خدمة الفكر على وجهة خالصة محررة من كل هدف غير الحقيقة وحدها .

أمانــة الكاتب :

إن الكاتب الذي يطمع في أن يكسب ثقة الشباب المسلم المثقف يجب أن يكون قادراً على حمل أمانة الكلمة ، مقدراً للأبعاد المختلفــة لرسالة هذه الأمة واتجاه فكرها ، والتحديات التي تواجهها ، وأن يكون من كرامة الشخصية بحيث لا يغش ولا يسوء ولا يزدري مقدرات هــذا

الفكر ،وليعلم أنه سوف لا يمر وقت طويل حتى تنكشف الحقائق ويظهر الزيف ، وتعرف النحلة ، ومن ثم يسقط أولئك الشعوبيون الخادعون المضللون ، كما تتساقط أوراق الشجر • ذلك لأن القارىء المثقف في هذا العصر على الرغم من وجوده على حافة الدائرة ، وليس في قلبها ، فإنه قد آمن بأن أمته تواجه اليوم تحديات خطيرة عن طريق الغزو الثقافي والتغريب ، وأن الثقة لم تعد معطاة إلا لعدد قليل ممن برهن تاريخهم ، وكشفت وقائع حياتهم عن الصدق والإخلاص •

إن في الساحة كتاباً كثيرين ، وهناك من قد يستطيعون عن طريق البراعة والذكاء وتنميق العبارة ، وإخفاء الهوى أن يصلوا إلى بعض العقول وبعض النفوس نتيجة لمرحلة القصور الذاتي الموجودة في الشباب الذي لم يتعلم من أصول فكرة الإسلامي العربي إلا شذرات قليلة ، بينما أتخم بفنون مختلفة من فكر الغرب •

إن الكتب البراقة والصحف اللامعة والأسماء الشهيرة ، قد كانت على مدى هذا العصر الحديث تخطف الأبصار ، ولكنها عاجزة عن تملك القلوب والنفوس ، إن عشرات من هذه الأسماء التي لمعت لم تلبث أن سقطت وانكشف زيفها ، وإن عشرات من هذه الكتب التي أحدثت ضجة لم تلبث أن انطوت ، وظهرت عشرات الكتب والأبحاث في كشف زيفها والرد عليها ، وقد سادت نظريات كثيرة بسلطان التغريب زمناً ، ثم سقطت ، فعلى الكتاب الذين يتصدرون اليوم أن يعرفوا هذه الحقيقة : إنهم سوف لا يستطيعون الصمود فوق المسرح وتحت الأضواء إلا زمناً قليلاً ، ثم ينكشف زيفهم •

أما الكتاب الصادقون ، فإنهم يعرفون تماماً أن المنابر الصحفية الضخمة لا تفتح لهم ، وأن معظم كتاب العصر الحديث من أعلام اليقظة الإسلامية ، لم يكتبوا حرفاً في تلك الصحف ، ولم يقدر لها أن تفتح

أبوابها إلا لمن اصطفتهم القوى والأحـزاب ، وكانوا قادرين على أن يكتبوا ما يطلب إليهـم لا مايؤمنون بـه • ولقد أيقظت هـذه الأمة في العصر الحديث صحف ومجلات لم تكن في الدرجة الأولى من الذيوع والانتشار ، ولكنها كانت على تواضعها وإيمانها قادرة على أن تسيطر على القلوب وقهر النفوس •

إن الكتّاب الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه معروفون بأعيانهم ، وإن وجودهم بعيداً عن الوهج الصحفي البراق هو علامة على قدرتهم على التمسك بالحـق وصمودهم بعيـداً عـن مغريات النفـوذ وأهـواء الشهرة • إن الكاتب الذي يصطفيه الشباب المسلم : ليس هو « الرجل ذو الألف وجـه » القادر على أن يكتب في كل فن ، قومياً أو إقليمياً أو وطنياً أو ماركسياً ، حسبما تجري الريح ، ولكنه هو ذلك الصامد في قلعة الحق ، القادر على أن يقول الكلمة لوجه الله خالصة ، ونصحـاً للأمة ولمقدساتها وقيمهـا وعرضها ، وإن أخطر أخطاء الكتاب هـو التعصب الخفي المسـتور وراء مظاهر المنهج العلمي ، بينما تبـدوا الأحقاد واضحة ليست في حاجة إلى من يكشف عنها ، وإن من أكبـر أخطاء الكتّاب العجز عن النظرة الكلية والكلمة المنصفة •

إن الكاتب القادر على الإنصاف من النفس هـو القادر على أن يكسب ثقة القارىء ، وليس من شأن الكاتب أن يجعل نظرته الذاتية قانوناً شاملاً مفروضاً على الفكر كله ، وليس من شـأن الكاتب أن يتطرف إلى جانب أو يقف عند النظرة الجزئية • وليكن الكاتب الشريف الحر منتمياً إلى أمته وفكرها وعقائدها ، ولتكن غيرته على هذه الأمة أن يجار عليها أو يغزوها فكر وافد غيرته على عرضه وشرفـه ودينه ، وليكن صادقاً في هداية قومه إلى الحق • ذلك أن الباطل مهما أسـبغ عليه من صور العلمية أو المنهجية ، أو بريق العبارة الخادعة ، فإنه سوف

ينكشف ويتعرى ، والشيء المصادم لطبائع الأشياء لا يدوم .

ولقد أزيحت في العامين الأخيرين جائحة فرضت نفسها بالخداع والمكر على القلم والثقافة والصحافة ، وتركت وراءها سموماً ومسوءات ما تزال في حاجة إلى دحضها وإبلاغ قارئيها مدى ما كانت تحمل من اتجاهات تريد أن تزلزل وجود هذه الأمة وقوائمها الراسخة .

إن كل دعوى إلى نظرية لا تندمج في العقيدة الأساسية للأمة سوف تقابل بالرفض مهما حشد لها من قوى وأقلام ، سيرفضها ضمير هذه الأمة النقي ، كما يرفض الجسم الحي أي عارض دخيل .

إن الكاتب الذي هو معقد المسئولية والأمانة : من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، ذلك الذي لا يتعصب إلا للحق وحده ، وينكر ذاته ، وينكر التبعيةعلى أي صورة من صورها ، ولا قيمة مطلقاً للكتاب الذي يفصل بين القيم ، فيعجز عن النظرة الكلية والمعرفة الكاملة ، وبذلك تفوته أبعاد الأحداث والقضايا . لا قيمة لكاتب بغير عقيدة كاملة تستطيع أن تضع كل شيء في موضعه ، وتقف من كل الأمور موقفاً حاسماً .

إن الكاتب بلا عقيدة كالربان الذي فقد اتجاه الريح وعلامات السماء ، لقد أستطاع الفكر الوافد أن يوجد طبقة تقول : إنني مشتغل بالأدب فلا أعرف في العقائد أو الأخلاق ، بينما كل ما يعرض عليه من الفكر الغربي — من وجودية أو علمانية أو مادية أو لا معقول — له إرتباط كامل بكل قيم الإنسان والمجتمع ، متعرض لها ومؤثر فيها ، هادف إلى إحداث نتائج بعيدة المدى في تحويرها وهدمها . على الكاتب الذي يحمل أمانة هذه الأمة أن يكون قادراً على التحرر من التبعية الفكرية ، وأن يكافح من أجل تحرر فكره وأمته منها ، وأن يعرف أن

بكل أمة لا تنقل ولا تستورد ، وأن يؤمن بأن هذه الأمة لها رسالة أصيلة ومستمرة ما زالت وستظل تؤديها للإنسانية حتى تخرجها من الظلمات إلى النور : من ظلمات العنصرية والمادية والوثنية والإباحية والإلحاد ، إلى نور الحق والتوحيد ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وأنه ليس من عمل الكاتب المسلم تبرير الواقع ، بل عليه أن يضع المعالجات لإصلاحه ، وأن يدعو إلى تغييره إذا تطلب التغيير ، وأن يرد كل تغيير وإصلاح إلى الإطار الأصيل الذي يتحرك فيه الفكر الإسلامي ، والثقافة العربية وليدة هذا الفكر • وليؤمن الكاتب الذي يريد أن يكسب ثقة الشباب المثقف أن انبعاث الأمم إنما يستمد قوته من أصالة فكرها وعراقة مقوماتها ، وأن إنبعاث المسلمين والعرب لن يكون من خارج مقومات فكرهم أو عقائدهم ، وأن الكاتب ليس بهلواناً جاء لإضحاك الناس أوإرضاء غرائزهم وهدهدة أهوائهم ولكنه جاء ليصحح الأخطاء ، ويكشف الزيف ، ويضيء الطريق إلى الحق •

وليؤمن الكاتب بأمته وفكرها ، والدور الذي قامت به في تاريخ البشرية والفكر الإنساني ، ليؤمن بأن الفكر الاسلامي حفاظاً على أصالته وعلى دعوة التوحيد الخالص ، قد رفض المنطق الأرسطي ، وأقام منهجاً جديداً هو المنهج التجريبي ، وليؤمن بأن أصول العلوم التي تدرس الآن في الجامعات ــ كالطب والاجتماع والنفس والتاريخ والأدب والقانون والفلك والتربية ــ بدأت من نقطة الإسلام وحضارة القرآن ، وكان للإسلام دور في تحضيرها وصياغتها محررة من أهواء البشرية وظلامها السابق ، وليؤمن بأن كل ما يقال عن النضال أو الصراع بين العلم والدين ، إنما يقصد به تاريخ الغرب وفكره ومجتمه • أما الإسلام فلم يعرف صراعا بين الأمة والفكر كالصراع القومي ، ولا بين الدين والعلم كالصراع المادي ، وليؤمن الكاتب المسلم أن مرد ضعف

المسلمين يرجع إلى إغفالهم تعاليم الإسلام ، وليس إلى منهج الإسلام نفسه ، وأن الانسان ليس نصف إله ولا حيوانا ولا آثماً بحكم ولادته ولا مجبوراً على التناسخ ، وإنما هو الذي كرمه الله ، واستخلفه في الأرض ، وحمله أمانة بناء المجتمع الرباني ، وجعله مريداً ومسؤولاً ، وجعل جزاءه في الآخرة .

إن أزمة القلق التي يعانيها الشباب اليوم قد صدرت نتيجة الفصل بين المجتمعات والدين ، وبين المجتمعات والأخلاق ، وبين المجتمعات والمعنويات ، وإنه ما من علم أو فن يتحدث فيه الناس في أدب من الآداب إلا له ضرب في اللغة العربية ، وإن أهم ما في الفكر الإسلامي قاعدة المطابقة بين الكلمة والسلوك .

وإن على الكاتب المسلم أن يفرق بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية من ناحية ، وأن يفرق بين المفاهيم الأصيلة والمفاهيم الزائفة الوافدة ، وإنه لا خطأ في الإسلام ، وإنما الخطأ في طريق إسلامنا ، وإن فترة ضعف الإسلام لا تمثل حقيقة جوهرية ، وإن من أكبر الأخطار التي تواجه الكاتب المسلم ، هي تلك النظرة الخاطئة التي تحاول أن تعطي الأدب أكبر من حجمه الحقيقي في عالم الفكر ، ومن ثم كان تجاوزه الخطير لمهمته ومفهومه ، وإنه لا تناقض في الفكر الإسلامي بين العلم والأدب ، ولا بين العقل والقلب ، ولا بين الروح والمادة ، بل هناك تكامل وترابط ، وإن الإسلام لا يعلي شأن الجنس أو الشهرة ، وإن كان يعترف بالرغبات البشرية ، ويفتح الطريق لها عن طريق طبيعي مع وضع الضوابط والحدود التي تحول دون التحلل أو السقوط ، وإن على كتاب الإسلام أن يغربلوا ذلك الركام ، ويكشفوا عن الأصيل والزائف ، والأساس والدخيل .

وعلى الكاتب المسلم أن يكون مقاوماً ، داعياً إلى الله ، آخذا

بكتاب الله ، وليس مستسلماً أو موالياً للباطل ، وليس لذلك كلــه من سبيل إلا من خلال النظرة الكلية الجامعة ، وليؤمن كاتب الإسلام أن الإسلام منذ انتشر لم يتغلب عليــه متغلب ، وإن تغلبت على أمتــه الشدائد ، ومنذ ظهر الإسلام وكــل حدث في العالــم مرتبط به ، وإن العمل على الالتقاء بين روح الأمة ، وروح العصر لم يكن أبداً عــلى حساب القيم الأساسية ، بل في ضوئها وعلى هداها ، وإن الإسلام قد رفض مبدأ التقليد ومبدأ التبعية ، ولم يستسلم في تاريخــه الطويل لأي نظرية واحدة ، وإن التجديد في الأدب كالتجديد في العلم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الماضي والحاضر .

إن بريق الأسماء لا يغني شيئاً عن الحقائق ، وإن محاولة رفــع أسماء بعينها سوف تكشف زيفه الأيام ، وإن أي كتاب مضلل مهمــا كان لامعاً في مظهره ، فسوف تكشف الأيام زيفه ، وإن كل صيحة علت بغير الحق لا تلبث أن تتحطم ، وإن الضجيج والبريق ليسا شيئاً إلا في الأمد القصير « وأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » [الرعد : ١٧] .

صدق الله العظيم

الفصل السادس

البعد الثالث في الدراسات الإسلامية

الأصالة عنصر اساسي يضيفه الإسلام ويراه ضروريا

« إذا اريد لشخصية الامة ان تظل محتفظة بطابعها المميز ، فلا مناص من قيام إطار يدوم على مر التاريخ يكفل لها الثبات برغم تنوع المضمون الفكري داخل هذا الإطار عصرا بعد عصر ، لأنه إذا تحطم الإطار في كل مرحلة تبعثر التفكير خلالها ، فإن هذا سيؤدي إلى انهيار شخصية الأمة » .

الإنسان ليس ابن بيئته أو ابن عصره كما تقول المذاهب الغربية ، ولكنه قبل ذلك ابن أصالته . كما يقول الإسلام .

والأصالة هي البعد الثالث لدراسات الأدب والتاريخ والحضارة ، وهي البعد الغائب إذ تحاول كل مذاهب الأدب والتاريخ والاجتماع أن تدرس النفس الإنسانية أو الإنسان أو المجتمع أو الأمة من خلال عاملين لا ثالث لهما ، هما : عامل البيئة وعامل الزمن باعتبارهما العاملين ذوي التأثير في تشكيل المواقف المختلفة ، وليس غيرهما عامل آخر . أما الفكر الإسلامي فإنه يضيف إلى هذين العاملين عاملاً ثالثاً ، ويراه مقدماً على هذين العاملين . ذلك هو عامل « الإطار » الذي تجري في داخله حركة البيئة والزمن معاً ، عامل الامتداد المرتبط بأبعاد الإنسان الأولى وجوداً ، وبالديانات والرسالات والكتب المنزلة ، وبالرباط المقدس مع التوحيد الذي يقوم على أساسه معرفة الله عز وجل ، ومعرفة

مهمة الإنسان في مسؤولية الأنسان وسعيه وخبراته ، ذلك لأن الإنسان حين يدرس متصلاً بالبيئة والزمن دون ارتباط جذري بنقطة البدء في حياته وتكوينه ورسالته ، فإنه يكون عاجزاً عن استيعاب أبعاد حياته .

ولذلك فإن الإنسان في مفهوم الإسلام يرتبط ببعد ثالث عميق الأهمية هو بعد الأصالة الذي يشكل الإطار الثابت الذي تتحرك فيه الأمة حتى لا تفقد ذاتيتها ولا تنتقص هويتها ، ولوجود هذا البعد أثر كبير ، ولفقدانه أثر خطير .

وإن فقدانه هو فقدان الذاتية المشكلة لوجود الإنسان والأمة ، فإذا ضاع هذا البعد أصبح الإنسان بلا هوية واضحة ، إن هذا البعد هو شهادة ميلاد الفرد والأمة على السواء ، وهو نقطة البدء في الحركة ونقطة النهاية ، وهو المحور الذي تدور حوله حركة الإنسان وحركة الأمة .

فإذا اصطدمت الأمة بأزمة من الأزمات ، أو حدث من الأحداث الخطيرة ، فهي سرعان ما تعود إلى هذه النقطة للتعرف على نفسها ولنقد ذاتها ولمعرفة أسباب أزمتها ، ثم إذا هي تعاود الحركة من جديد مستمدة حركتها من المنابع ومن الأصول الأصيلة ، ومن الجوهر الحقيقي ، الذي يصحح لها طريقها ، ويعدل مسارها ، ويحول بينها وبين الارتطام أو الوقوع في الخطأ .

وإذا فقد هذا البعد الثالث ، اندفعت الأمم في طريقها منفصلة تماماً عن تاريخها وفكرها وعقيدتها ، منطلقة إلى غير غاية واضحة ، وهذا ما وقعت فيه الحضارة الغربية اليوم حين آمنت بالتطور المطلق ، ورفضت منهج التكامل بين الثوابت والمتغيرات ، وحين أقرت مفهوم

النسبية الزمنية والبيئة ، وطبقته على الأخلاق والدين ، فانتزعت نفسها من القواعد الثابتة ، والدعائم المكينة ، والقلاع الحصينة التي تعتصم بها الأمم أساساً ، ومنها تندفع إلى الأمام ، ثم تعود دون أن تفقد هويتها أو ذاتيتها أو عقيدتها .

وحين يغيب هذا البعد الثالث تحس الأمة بأزمة الفراغ العقائدي ، وتتطلع إلى مناهج وافدة من هنا أو هناك ، تحاول أن تشكل منها منطلقاً لها أو قاعدة تقف عليها .

ولقد عمد التغريب والغزو الثقافي بالمسلمين إلى نسيان هذا البعد الثالث ، وأغرقهم في نظرة محدودة قائمة على بعدين أثنين هما : البيئة والعصر في كل ما طرح أمامهم من نظريات ومذاهب وأيديولوجيات ، سواء في مجال الأدب أو التاريخ أو الاجتماع أو النفس .

ومن هذه التجزئة ومن غياب القاعدة الأصلية المتمثلة في الإطار العام بدت الحركة عائمة ومهزوزة ومنطلقة إلى غير غاية واضحة ، وما من نظرية مطروحة أمام الفكر الإسلامي إلا وتجد هداها إذا التمست ذلك الإطار الأصيل ، فالدعوة إلى القومية هذه التي طرحها الغرب في آفاق الفكر الإسلامي مستهدفاً بها إعلاء الجنس والعنصر ، وشجب العلاقات الفكرية والعقائدية العميقة بين العرب والمسلمين ، وكذلك الدعوة الوطنية التي يراد بها الأرض والقصور على الإقليميات الضيقة والتجزئة .

هذه النظرية إذا وضع لها البعد الثالث ، وتحركت في داخل الإطار بدت وكأنها خطوة على طريق ، وليست غاية في حدّ ذاتها ، عندما تضعف الأمم وتتمزق ويسيطر عليها الاستعمار ، تدافع عن الأرض باسم الوطنية ، فإذا تحررت الأرض أخذت تدافع عن الكيان باسم الأمة ،

فإذا تحقق ذلك لم يكن هو خاتمة المطاف ، وإنما ذلك مقدمة للوحـدة الفكرية الجامعة التي تقوم على وحدة الثقافة والعقيدة والفكر والتـي ترتبط في أعماق بعيدة امتدت أربع عشر قرناً بالقرآن الكريم .

والدعوة إلى الإقليمية التي طرحها الغرب في أفق الفكر الإسلامي بإحياء ما قبل الإسلام من فرعونية وفينيقية وبابليـة وأشورية تلقي في ضوء « بعد الأصالة » .

ليست هذه المسميات كلها إلا من مصدر واحد ، ذلك أن هـذه الموجات كلها خرجت من الجزيرة العربية ، واندلحت في الشام ومصر وإفريقيا ، وتسمت بأسمائها الفرعية ، بينما هي في جذورها الأصليـة عربية حنيفية .

ذلك أن الأصل الأصيل لحركة هذه الأمة إنما بدأ من حول البيت الحرام الـذي بناه إبراهيم وإسماعيل ، وإسماعيل هـو جد العرب ، وإبراهيم هورسول الحنيفية التي حملت لواء التوحيد في جزيرة العرب. ومنها امتدت هذه الفروع ، وخرجت موجات إثر موجات لتثبت هنـا وهنـاك .

وماضي العرب قبل الإسلام في كل ما يذكر عنه من أريحية وكرم وشهامة ورجولة ومروءة وما يروى من قصص وتاريخ ، إنما هو ذلـك التراث الذي خلفه دين إبراهيم في الجزيرة ، وما دخل عليه من فساد أو وثنية أو ظلم أو وأد للبنات ، أو أمر من أمور الجاهلية ، فإنما هـو من شأن موجات المذاهب والأفكـار ، وأما ذلـك الأصل الأصيل المضيء المشرق فهو من ثمار تلك الدعـوة المباركـة التي كانت رسالة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ امتداداً لها واستكمالاً : (ثم أوحينا إليـك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) [النحل : ١٦] وهكـذا نجـد أن الأصالة

باعتبارها بعداً أساسيا وإطاراً ثابتا للفكر الإسلامي تستطيع أن تصحح كثيراً من الأخطاء ، وتضع الأمور في موضعها الصحيح بعيداً عن الجزئية التي يفرضها الخضوع لمفهوم البيئة والعصر وحده دون الارتباط بالامتداد الأعمق والأوسع — على مدى التاريخ ، ومنذ وجد الإنسان — وهو ارتباط بتراث النبوة وميراثها الذي أهدى إلى البشرية كل ضياء ونور .

والأصالة هي البعد الثالث الغالب على نظرية الجدل التي يقوم عليها الفكر الغربي باعتباره حركة إيجابية وحركة سلبية ، ينتج منها حركة ثالثة جامعة لكليهما على النحو الذي رسمه هيجل في نظريته ، فقد كان الغرب منذ أرسطو يؤمن بالثبات الدائم ، ثم جاء هيجل فنقله إلى الحركة الدائمة ، ومنذ ذلك الوقت كانت الحركة هي الأساس الوحيد ، سواء في اتجاه اليمين أو اليسار ثم الالتقاء في نقطة الوسط ، وهكذا عاش الفكر الغربي منقسماً ممزقاً بين المنطق الشكلي المجرد الأرسطي الذي يقوم على أساس أن كل ما في الوجود من مادة وفكر ثابت ، وبين المنطق الجدلي الديالكتيكي الذي يقوم على أساس أن كل ما في الوجود — مادة وفكراً — في تغير مستمر بسبب ما يحمله في محتواه من تناقض يؤدي إلى إنشاء وضع جديد .

أما الإسلام وفكره فقد قام على أساس إثبات بعد آخر ، هو الأصالة ، جامعاً بين المنطقين الثابت وبداخله المتحرك . فهو أصول ثابتة ربانية وتطبيقات بشرية متغيرة .

الثابت — على حد تعبير الدكتور شوقي الفنجري — هو الإلهي ، والمتغير هو البشري ، وهذا مقرر ومنسحب على الاقتصاد والسياسة والاجتماع في ضوء الالتزام بأصول عامة وفتح باب الاجتهاد في التفاصيل .

ومن هنا فإن انطلاقة الإسلام وحركته ، تحمل بعداً أشد عمقاً وأوسع دائرة من الفكر الغربي ، لأنها تجمع بين الروح والمادة ، والمصلحة الخاصة ، والمصلحة العامة ، وبين الثبات والتطور ، ولقد رأى الإسلام أن هذه الأبعاد المختلفة ليست تناقضات بقدر ما هي عناصر تتكامل كالسالب والموجب للتعاون والتكامل ، لا للصراع والاقتتال ، وهي تشكل في مجموعها كلاً متسقاً فيه الفرد والجماعة ، ويعمل الإسلام على الإبقاء على هذه التناقضات ، لأنها مصدر الحركة ، وهو يوفق بينها ، ولا يرى أنها عوامل صراع ، بل عوامل لقاء لا يجحد أحدها الآخر وينفيه ، بل يوافق بينه ويتكامل معه •

ونظرة ثالثة هي نظرة الأديان ، فقد غالت اليهودية في تقدير القوة المادية ، وغالت المسيحية في تقدير القوة الروحية ، بينما جاء الإسلام دين التوازن بين الجانبين على أساس أن كلاً منهما ــ المادية والروحية ــ أساسي في الطبيعة البشرية، وكلاهما لا غنى عنه لتقدم الإنسان • ففي الإسلام: لا صراع بين الفردية والجماعية ، فالفرد للمجتمع ، والمجتمع للفرد ، وهما جميعاً لله ، وبذلك يحرر الإسلام طاقات الإنسان فكرية وخلقية وعملية لينطلق في خدمة تقدمه كإنسان ، وفي خدمة المجتمع ككيان ، ولا يقدس الإسلام للفرد إلى حد تفكيك المجتمع إلى حد سحق الفرد •

لقد وقف الفكر الغربي منذ هيجل عند هذا الأفق المحدود وتجمد فحجب عنه النظرة الكاملة ، وحجب عنه أنوار السماء ، ولم يستطع التجاوز إلى الغاية ، وكذلك وقفت المادية والماركسية والوجودية والفكر الغربي عند الظاهر المادي ، ولم يستطع أن يستكمل نظرته إلى المعنويات ، وقفوا عند ضوء البصر ، ولم يستطيعوا تجاوزه إلى نور البصيرة ، عرفوا سنن الكون ، وعجزوا عن معرفة صاحب السنن ، وعجزوا عن معرفة قدرة صاحب السنن على إيقافها أو خرقها متى شاء ،

كذلك عجز الذين وقفوا عن أسلـوب الروحانيات والحدس والإشراق عن استكمال النظرة ، وعجزوا بذلك عن الوصول إلى الغاية ، ووقفوا عند النظرة العقلانية أو الوجدانية أو الاعتزال ، أو التصوف لم يكملوا الطريق ، وقفوا عند الأدب أو عند السياسة أو عند النظرة الوطنيـة أو القومية ، ولم يكملوا الطريق ، وقفوا عند آثار البيئة والعصر ، ولـم يكملوا الصورة • إن النظرة الوطنية والقومية والإقليمية نظرة وافـدة غربية ، وهي ناقصة لا محالة ، لأنها تستمد من المذهب الهيجلي ، ناقصة بحكم أنها نظرة إقليم أو نظرة جغرافيا ، أو نظرة أرض ، أو نظرة جنس من الأجناس ، لا تستطيع أن تتجاوزه إلى النظرة الإنسانية التي قدمها الإسلام جامعة بين الأمة والوطن ووحدة الفكر •

أما الإسلام فقد حمل أمانة التكامل والنظرة الجامعة أو الأبعاد المتعددة للفكرة الواحدة : بعدها الحاضر ، وبعدها الماضي الممتد إلـى رسالات السماء ، وبعدها المستقبلي الممتد إلى ما بعد الموت ،إلى البعث والنشور ، ولم يقصرها على النظرة المعاصرة أو البيئة المحددة ، وهـذا هو تكامل الإسلام يجمع بين الدين والدولـة ، ويجمع بين الفرديـة والجماعية ، ويعنى بالروح في نفس الوقت الذي يهتم فيه بالمادة ، ويجعل من الفكر والمادة سياقاً متتابعاً لا يسبق أحدهما الآخر ، ويجعل مـن الحركة حلقات متصلة في إطار الثبات ، ويجعل بين الإلهي والزمني ترابطاً جامعاً في أفق الإلهي ، وهو يجمع بين الأرض والسماء في نظام الكون ، والدنيا والآخرة في نظام الدين ، والروح والجسد في نظام الإنسان ، والعبادة والعمل في نظام الحياة ، ويسلكها جميعاً في نظام موحـد هـو الطريق إلى الله ، فلا ترى فيهـا تعقيداً ولا اضطراباً ولا صراعاً ، ولا جبرية ، ولا صدفة ، ولا واحداً من هذه التفسيرات التي تثبت العجـز والانحصار ، وضيق الأفق عن فهم كون الله ورسالة الإنسان •

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنمـا يصعّد في السماء) [الأنعـام : ٦]

الباب الرابع

تحديات في وجه الحضارة الاسلامية

اولا : كيف يمكن ان يفهم الغرب روح الاسلام ٠
ثانيا : هل هدفنا هو اللحاق بالغرب ٠
ثالثا : حضارة الغرب في مواجهة حضارة الاسلام ٠
رابعا : في سبيل بناء حضارة حديثة ٠
خامسا : اوروبا ولدت في آسيا ٠
سادسا : الحضارة الاسلامية تاخذ طريقها إلى العطاء ٠

الفصل الأول

كيف يمكن أن يفهم الغرب روح الإسلام

يتحدث الغربيون عما يسمونه العقلية العربية ، والحضارة العربية ، والثقافة العربية ، والتاريخ العربي ، وكل هذه مسميات ما أنزل الله بها من سلطان ، وما كان المسلمون أو العرب يفرقون بين القيم ، أو يعلون من نسبتها إلى الجنس والعنصر كما حاول الغرب حين اتصل بالشرق ، وحين أوغل الاستشراق في سبيل تمزيق وحدة الأمة الإسلامية والفكر الإسلامي إلى ثقافات عربية وتركية وإيرانية وهندية وغيرها ، ويمـزق الأمم إلى عرب وترك وفرس وغير ذلك ، فهـذه محاولات استعماريـة تغريبية حيث لم يحدث انفصال بين القيم والعناصر إبان تاريخ الإسلام الطويل ، إلا منذ سيطر الاستعمار على بعض أجزاء العالم الإسلامي ، وأقام فيها مناهج الإقليمية والتجزئة ، أو حاول معتمداً على التاريخ أن يفصل كل قطر أو دولة إلى مالها من شطائر في التاريخ الإسلامي العام للقول بأن هناك ثقافات عربية وتركية وإيرانية ، أو القول بأن هنـاك أدباً مصرياً وسورياً وعراقياً ، فذلك كله ليس صحيحا على إطلاقه ، وإنما يتحرك المسلمون في ثلاث دوائر متكاملة : دائرة المواطنة، وهي مرتبطة بالأرض • ودائرة القوم ، وهي مرتبطة بالأمة • ودائرة الإسلام : وهي المظلة الواقية الكبرى ، والدائرة الأساسية التي جمعها وربطها القرآن ،

وأقامها التوحيد والسنة والفقه والتاريخ كله ، ولذلك فإنه حين يجيء الغربيون أو المستشرقون اليوم ليقولوا : إنهم يدرسون العقل العربي أو الأمة العربية ، فإنهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى حقيقة ما إلا إذا عادوا إلى الإطار الأصيل الذي يتحرك فيه العرب كما تتحرك غيرهم من الأمم داخل مظلة الإسلام الكبرى .

أقول هذا بمناسبة ماصدر من كتب عديدة في السنوات الأخيرة للكشف عما يسمونه القصة العربية — في محاولة لفهمها والتعرف عليها — وليس هذا جديداً فإنه كان من اهتمام الاستشراق منذ سنوات طويلة ، وقد فشل في الوصول إلى الحقائق الصحيحة ، لأنه لم يلتمس إليها الطريق الصحيح ، والتي كانت أهواء الباحثين تسيطر على أسلوبهم الذي يسمى بالأسلوب العلمي ، فيعجزون عن فهم الحقائق ، ثم تفاجئهم الأحداث ، فإذا العرب والمسلمون متغيرون تغيراً سريعاً ، فيهبون من جديد لإعادة البحث ، كيف تفهم العقلية العربية ، ويعلنون إفلاس خزائنهم في فهم النفسية العربية ، ويجيء الاستشراق اليهودي الذي يريد أن يزيف الحقائق ، فيسيطر على الأبحاث ليقدم للغرب صورة سيئة عن العرب حتى يوقع الخلاف ويعمق الخصومة ، وينفرد هو وحده بصداقة الغرب . ومن الحق أن الغرب محتاج لأن يفهم العرب والمسلمين فهماً مجرداً صحيحاً بعيداً عن أهواء باحثيه من المستشرقين التابعين لدوائر الاستعمار ، أو دوائر الكنيسة ، أو دوائر الصهيونية ، لأن كتابات هذه الفرق الثلاث سوف تكون عاجزة وقاصرة وغالباً عليها هواها عن أن تقول الحق ، وقليل من الباحثين هم الذين نصحوا لقومهم وكشفوا لهم عن الحقيقة . والواقع أن دراسة العرب والمسلمين الآن على ما هم عليه لا تمثل حقيقة جوهرهم الأصيل ولا منطلقهم الحقيقي ، ذلك أن هناك طبقة سميكة من الآثار التي أحدثها الاستعمار والتغريب خلال

أكثر من مائة سنة مما فرضه النفوذ الأجنبي على مجتمعاتهم من قانون وضعي بديلا لشريعتهم ، ومن نظام اقتصادي بديلا عن منهجهم الإسلامي، ومن تربية وتعليم يجري وفق مناهج وافدة ، ويضع في أذهان الأجيال الجديدة سموماً تحول بين هذه الأجيال ، وبين أداء دورها الحق ، أو فهم موقعها الصحيح ، أو معرفة أبعاد التحديات التي يواجهها المجتمع الإسلامي إزاء الغرب بقواه الثلاث : الاستعمارية والصهيونية والماركسية ، وما تحمل من مطامع ودوافع للسيطرة ، واستدامة النفوذ.

ولذلك فإن هذه العبارات المائعة التي تضمها تلك المؤلفات كقولهم: إن العرب وجدانيون ، أو إنهم لا يفهمون إلا لغة القوة ، أو إنهم منقسمون على أنفسهم، أو إنهم يجرون وراء البريق... الخ . كل هذه ليست صفاتهم الحقيقية ، وإنما هي القشرة التغريبية التي جاءتهم من النفوذ الغربي المسيطرة على مقدراتهم وثقافتهم ونظامهم الاجتماعي، والحائل دون انطلاق إرادتهم الحرة نحو تطبيق تشريعهم أو تحقيق نظامهم التربوي أو امتلاك ثرواتهم .

والواقع أن للعرب والمسلمين جزراً عميقاً في التربة والنفس الإنسانية ، والعقل البشري ، من الصعب القضاء عليه أو تدميره أو احتواؤه أو تحويله عن مجال الأصالة إلى مجال التبعية إلا قليلاً . ولقد نهب رياح صفراء تحمل معها دعوات ومناهج وأيديولوجيات لاقتلاع هذا الجزر العميق واحتواء هذا الفكر ، وصهر هذا المجتمع في بوتقة العلمانية أو الأممية أو غيرها من البوتقات المفتوحة فوهاتها لا لتهام المسلمين وحدهم ، ولكن سرعان ما ينكشف أن قوة أصلية في أعماق المجتمع والفكر سرعان ما تلفظ هذا الوافد بعد أن تنتفع بما فيه من إيجابيات ، وترد سلبياته وتطردها كما يطرد الجسم العضو الغريب عنه.. ولقد كان الوجود الإسلامي الروحي والعقلي في أعماق هذه الأمة قادراً دوماً على التجديد الذاتي ، وعلى الانبعاث من داخله كلما

تأزمت الأزمات ، أو أحاطت به تحديات الغزو ، يستطيع التماس منابعه الأصيلة الربانية الثابتةالتي لا تتخلف في إمداده بالنصر والقوة والتمكين في الأرض • ولقد كان المسلمون والعرب ــ ولا يزالون وسيظلون ــ أمة ربانية على شرعة الله ، منتدبين لإقامة المجتمع الأمثل الذي يهدي البشرية كلها إلى الحق ، وهم الآن مدعوون إلى البشرية ، وهي أشد حاجة إلى هذا النموذج بعد أن فشل الناس في الوصول إلى منهج أو نظرية أو أيديولوجية تحقق السلام النفسي والروحي، والعدل الاجتماعي، والإخاء الإنساني على أساس الرحمة والتقوى •

فإذا كان الغرب يريد حقيقة أن يفهم العقلية العربية ، والنفس الإسلامية ، فليدخل إلى ما بعد تلك القشرة التغريبية التي فرضتها عليهم أزمة الغزو وتحديات السيطرة الغربية التي حاولت أن تسحق شخصيتهم ووجودهم الذاتي ، ثم تبين له بعد ذلك الجهد الضخم الذي بذله عن طريق التبشير والاستشراق ، وإثارة الدعوات الشعوبية والباطنية القديمة مجددة في الوجودية والماركسية والهيبية وغيرها •• تبين له أن هذه الرياح الصفراء قد تهز الأشجار وتميلها ، ولكنها لن تستطيع أن تقتلها •

ولقد استفاق العقل العربي والنفس العربية ، واستيقظ، ورفع عنه غشاء النصيحة الكاذبة التي قدمها له بعض من يكتبون بالعربية حين دعوه إلى الانصهار في بوتقة الغرب ، وقد رأى نتائج النصيحة هزائم متوالية خلال أكثر من ثلاث عقود من حياته حيث جرب المناهج الغربية: الماركسية والليبرالية،وتبين له فسادها وعجزها عن إعطاء النفس العربية الإسلامية مطمحها في الإخاء والعدل والرحمة والإيمان ، واليوم تعلو موجة هذا الإحساس في النفس العربية الإسلامية حيث لا تجد لها مخرجاً ولا ملاذاً ولا متطلعاً إلا عن طريق الحل الإسلامي وحتمية الحل

الإسلامي ، إذ أن كل هذه الأمور التي أبرمت بأهواء الغزو والتغـريب والشعوبية قد أصبحت تحول دون فجر نهضة جديدة إلا إذا التمست لها الحلول الإسلامية الأصيلة ، فعلى الغرب أن يفهم هذا ، وأن يعرف كذب دعاوي الاستشراق الاستعماري والصهيوني ، وكل منهما يعمـل لغايته الخاصة ،ولا يعمل لسلام البشرية ، وعلى الغرب أن يتصل بالوجود العربي الإسلامي على صورته الأصيلة الحقة ، فإن هذا الوجود وحـده هو الذي سيقيم الجسور الصحيحة بين الأمم، ويدعم الحضارة، ويحقق الأمن العالمي .. وليس أصدق من الإسلام أسلوباً للأمن والسلامـة والمودة ، وقد عزف ذلك الذين اقتربوا من عالـم الإسلام بالحـق في لقاءات كشف فيها المفكرون المسلمون عن سلامة الفكـر الإسلامي في إقامة علاقاته مع الأمم والأديان ، وأهل الأمم والأديان، وأهل الحضارات المختلفة ، وعن الأمن الحقيقي الذي يمكن أن يوجد في نطـاق التطبيق الإسلامي .

لا ريب أن أكبر الحقائق أن المسلمين أمة لها ذاتيتها التي أنشاهـا القرآن ، وجعلها مثلاً عالياً للمنهج الرباني المرجو تطبيقه على الأرض ، عدالةً ورحمةً وأخوةً وارتفاعاً عن الأهواء والمطامع ، وانتقالاً بالبشرية من الأنانية إلى الغيرية ، ولا ريب أن للمسلمين ثقافة وعقيدة خاصة ، تختلف عن ثقافات الأمم ، ولكنها تلتقي معها في المفاهيم الإنسانيـة والقيم الربانية ، وأن هذه الثقافة بقيمها الأساسية الثابتة ، قد فرضت طابعها على طريق التفكير وطرق التصرف والسلوك ، وأن هذه الثقافة تستطيع أن تأخذ وتعطي على قدر ما تتقبـل أسسها ودون أن تصاب بالاحتواء أو التمزق ، وأن العرب والمسلمين اليوم هم ضمير البشريـة ومصدر قوي للعطاء ، فهم يملكون التفوق البشري ، ومصادر الخامات، والإرادة الحرة المتطلعة إلى بناء القوة العلمية التي تستهدف الرحمـة والخير والإسعاد للبشرية كلها .

الفصل الثاني

هل هدفنا هو اللحاق بالغرب ؟

إذا كان الهدف هو اللحاق بالغرب . فإن ذلك هو غاية الاستعمار للقضاء على أمة التوحيد !!

يردد كتاب التغريب عبارة اللحاق بالغرب ويثيرون النفس الإسلامية العربية بهذه العبارة مدعين عجز المسلمين والعرب عن تحقيق هذا الهدف الذي يحاولون القول بأنه التحدي الوحيد الذي واجه الأمة منذ جاء الاستعمار والاحتلال ، والواقع أن هذه أكذوبة مضللة ، فليس هدف المسلمين والعرب اللحاق بالغرب •• وإنما الهدف الحقيقي هو استعادة ذاتنا ووجودنا ، ونحن نسأل : إذا كان الهدف هو الوصول إلى الأمن والعزة والكرامة وامتلاك مقدراتنا ، فإن اللحاق بالغرب لا يحقق هذا ، بل يعارضه • وإذا كان الهدف هو الوصول إلى تطبيق منهج الإسلام كنظام مجتمع بما فيه من عدالة ورحمة وسماحة وقوة ، فإن اللحاق بالغرب لا يحقق هذا •

إن اللحاق بالغرب هدف يدعو إليه الاستعمار والتغريب والاستشراق والتبشير والغزو الفكري • إنه دعوة إلى أن ننصهر في الفكر الغربي والمجتمع الغربي ، وأن نعقد مقوماتنا وعقيدتنا التي هي ضوء كاشف

أهداف الغرب

للبشرية ، وقائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها /إن الغرب يهـدف إلى احتواء هذه الأمة وصهرها في بوتقة الأميـة حتى تفقـد أخص خصائصها ، ولذلك فنحن لا ندعو إلى اللحاق بالغرب ، بل نشجب اللحاق بالغرب ، لأنه يقتل أمة الإسلام ، ويدمر كيانها المفرد وذاتها الخاصة ، ونحن مطالبون بأن نقاتل وتفنى دون ذاتيتنا الخاصة : الذاتية القرآنيـة الإسلامية القائمة على التوحيد تلك الأمة التي جاءت لتحمـل لـواء « لا إله إلا الله » والسؤال بمعنى آخر : هل يريد الغرب لنا امتلاك عزتنا وثروتنا ومقدراتنا ؟ • وهل يعمل علـى تحقيق ذلك سواء بالعلـم أو التكنولوجيا، أم إنه يحجب عنا الوسائل التي تؤدي إلى ذلك • ويدفع إلينا فتات موائده الاستهلاكية دون أن يمكننا من الحصول على أسرار العلم ، أو الأدوات القادرة على الإنتاج •

وهل الغرب يطمع حقيقة في تمدين البلاد المستعمرة وتأهيلهـا لتصبح قادرة على امتلاك ناصية الحضارة الحقة ؟ •

إن التجربة التي مرت بالبلاد الإسلامية المستعمرة خلال أكثر من قرن كامل تكشف عن زيف هذا الاتجاه ، وتؤكد بأن الغرب لا يعمـل لتحقيق ذلك ، بل يعمل على عكس ذلك تماماً : على الحيلولة بين البلاد الإسلامية وبين امتلاك إرادتها أو ثرواتها أو مقدراتها ، وأنه يعلم تماماً أن أداة الوصول إلى الأمن والعزة والكرامة هي في التمـاس المسلمين لمنهجهم وشريعتهم ، ولذلك فهو يحول دون ذلك بكل الوسائل : يحول أولاً بفرض القانون الوضعي، وإلزام الحكومات في معاهدات الاستقلال بأن تقيم نظمها السياسية والاجتماعية على أساس النظام الليبرالي الغربي القائم على النظام الربوي في الاقتصاد ، وأن لا تطبق إلا القانون الجنائي الغربي الذي يرفض عقوبة الزنى والسرقة والخمر والاغتصاب، ويبيح ذلك كله •

فإذا حاولت البلاد المسلمة الاتجاه إلى جعل الشريعة الإسلامية مصدر القانون حاول ضرب هذه الشريعة بالشبهات والاتهامات ، فهي تارة مأخوذة من القانون الروماني ، وتارة هي شريعة الصحراء والبداوة، وتارة هي شريعة عصر وبيئة انقرضتا ، وتارة هي متعارضة مع الحضارة والعصر والتقدم ، بينما يقف العلماء والخبراء القانونيون الغربيون في مؤتمراتهم ليشيدوا بهذه الشريعة ، ويؤكدوا سبقها للقانون ، وقدرتها على العطاء ليس للمسلمين وحدهم ، بل للبشرية كلها .

ويحول الغرب دون امتلاك المسلمين والعرب لإرادتهم ومقدراتهم بعشرات الوسائل منهـا : **التعليم :** فيمناهجه الغربية التي بدأت في الإرساليات • ثم نقلت إلى المناهج التعليمية الوطنية ، والذي مازال سارياً وقائماً على الفصل بين العلوم الإسلامية والعلوم العصريـة في ثنائية غربية متضاربة ، تحول بين وصول العلوم الإسلامية إلى المدرسة العصرية ، وتحجز خريجيها عن المناصب الكبرى ، وتحول دون تطعيم العلوم العصرية بالمفاهيم الإسلامية ، فتظل العلوم العصرية مقطوعة الأواصر بالبيئة والعقيدة والمجتمع وروح الأمة، تتدارس مذاهب الغرب سواء في كليات الاقتصاد أو العلوم أو التربية أو النفس أو الاجتماع أو السياسة دون أن تقدم لها وجهات النظر الإسلامية في كل ذلك مستمدة من الإسلام وشريعته وقرآنه وفكره •

ومن ثم فإن الأجيال المتخرجة جميعها تدين بالولاء للفكر الوافد ، وتعجز عن فهم روح أمتها وتراثها ، وعقيدتها القادرة على إحيائها •

وتستهدف هذه المحاولات أن يحول الاستعمار بين المسلمـين وبين أصالتهم وفكرهم وعقيدتهم وشريعتهم ومنهج حياتهم الأصيل الذي هو السبيل الوحيد الذي يمكنهم من تحقيق ذاتيتهم • ولقد كان المسلمون دائماً ــ وعلى مدى التاريخ وخلال أربعة عشر قرناً تكتمل بعد سنوات ــ

قادرين على مواجهة أزمة الانحراف عن مسارهم ،وأزمة الثقة حين تفرض عليهم قوى الغزو الخارجية مفاهيم ومذاهب وقيماً ، كانوا قادرين على تصحيح الطريق بالتماس الأصل الأصيل والمنار الثابت ، والبدء من نقطة البدء ، من لا إله إلا الله ، ومن القرآن ، ومن التوحيد ، دون أن يفرض عليهم ذلك أن يعيشوا الماضي ، ولكنهم كانوا يأخذون هـذه القيم المضيئة لينيروا بها عصورهم وبيئاتهم ، ويعيشوا بها زمانهم دون تخلف ودون جمود ودون أن يتهموا بالرجعية أو التقوقع • ذلك هذه القيم التي قدمها الإسلام ليست على نهج القيم التي تقدمها المناهج البشرية والأيديولوجيات ، ليست موقوتـة بعصرهـا وبيئتهـا ، ولكن القيم الإسلامية هي قيم خالدة وإطارات واسعة مرنة قادرة على العطاء الدائم في كل عصر وجيل ، ولذلك فإنها حين تعطي تمكن من السير مع العصر دون التخلف ، ومع البيئـة دون الجمود ، وليس كذلك أي منهج أو نظام من النظم البشرية القاصرة على زمانها وبيئتها •

لقد جربوا أيديولوجيات الناس ،واستعـاروا مذاهـب الشرق والغرب ، فعجزت عن أن تعطيهم شيئاً لأنها ليست قادرة على العطـاء المستمر ، بل إن هذه الأيديولوجيات والمذاهب قد توقفت في بيئتهـا، وأصابها العطب ، واضطر أصحابها إلى التعديل والتحوير فيها بالإضافة والحذف • وتعساً لقوم يملكون المنهج الأسنى الخالد الدائم القادر على العطاء بما يحقق للمسلمين في كل العصور القدرة على الحياة في عصرهم وبيئتهم دون تخلف مسابقين ركب الحضارة والتقدم ، ودون أن يفقدوا لساعة واحدة إيمانهم بربهم وتطبيقهم لمنهجهم •

وعندما تثار قضايا التقدم والتخلف يسارع التغريبيون فيقولون كلاماًليس هو في الواقع الحق ، وإنما هو نسق يريدون أن يجعلوه من المسلمات ، يقولون : إن الناس في مواجهـة التقدم والحضارة ثلاثـة

أصناف : معارضون تقليديون ، يرون أن في الإسلام الكفاية والغاية ، ورافضون ماديون يرفضون التراث جملة ، وفئة ثالثة تجمع بين التراث والعصر ، وتنتقي من التراث ما يناسب العصر .

والواقع أن هذا الكلام الذي أصبح أشبه بالمسلمات اليوم لا صحة له ، وليس هو الحقيقة وأن المفكرين المسلمين لم يكونوا في يوم من الأيام على هذا النحو من مواجهة الحضارة والغرب ؛ وإنما كان المفكرون المسلمون يؤمنون دائماً بأنه لا سبيل إلى تقبل معطيات الفكر الغربي إلا بعد قيام قاعدة أصيلة هي قاعدة « البناء على الأساس » التي تجعل من الإسلام وشريعته ومنهجه أساساً يعرض عليه كل القديم والجديد جميعاً ، ويقبل منهما ما يتفق مع جوهره وأصالته ، ذلك لأن القديم وهو التراث قد أصبح يمثل فرقاً عاصفة وعصوراً متخلفة ، ووثنيات متجددة، وعنصرية وباطنية مما قدمه خصوم الإسلام على المدى الطويل ، اختلط هذا بالفكر الأصيل ، وربما أحياه المستشرقون وأذاعوه رغبة منهم في إثارة الخلافات بين الفرق وتجديدها في محيط المسلمين ، ومنهم من قضى عمره يبحث عن متصوف منحرف أو شاعر ماجن ، أو فيلسوف مضلل ، **فالأمر في التراث هو ان يعرض من جديد على مفهوم الإسلام الأصيل الثابت المضيء الذي لايتخلف ، ، يعرض على مفهوم التوحيد الحق ، كذلك الامر في الجديد الوافد ، فإنه يعرض على مفهوم الإسلام الأصيل ، فما كان منه نافعا ومتقدما ومعطيا دون ان يطغى على الإطار الثابت وما كان مخالفا او معارضا ، فنحن نرفضه تماما .**

تلك هي القاعدة الحقيقية التي دعا إليها رجال حركة اليقظة منذ اليوم الأول ، وأصروا عليها وآمنوا بها ، وهي ما ندعوا إليه الآن ونصر عليه دون أن يستخفنا زيف أو تضليل أو مكر أو سخرية ، فما قيمة

ذلك الذي يراد تقديمه لنا من الحضارة والفكر الغربي إذا كان زائفاً إذا كان مادياً ، إذا كان ملحداً ، إذا كان إباحيا ، اذا كان عاجزاً عن فهم النفس الإسلامية ، أو علاقة الإنسان بالحياة والكون ، أو قاصراً عن معرفة أبعاد وجود الإنسان وإرادته ومسؤوليته وجزائه الأخروي .

لا ريب أن ما عندنا أكثر قوة وحيوية وأصالة لأنه من المنبع الأصيل الصادق الحق من الهدى الوضاء الذي لا تزيغ به القلوب ، ولا تلتبس به الأفئدة من القرآن : هدي الله ووحيه ومنهجه الحق الباقي على الأرض نبراساً للبشرية . وهدي إليها ، ودعوة ليكون لها منهج حياة ونظام مجتمع ، وكل ما بعده من الفكر البشري ضلال ، وكل ما وافقه فالقرآن أكثر منه أصالة ، ذلك هو موقف المسلمين الحق من معطيات الفكر الغربي . إن المسلمين لا ينظرون في علاقتهم بالغرب إلى تلك الأمثولة الزائفة التي يرددها بعض الكتاب : أمثولة اللحاق بالغرب ، فما جدوى اللحاق ببنيان في طريق الانهيار ؟ ، وبنظام فاسد ضال ، وصل الفساد فيه إلى النخاع ، وما جدوى تطبيق نظام مضطرب ما زال يجري شمالا وجنوبا وشرقاً وغرباً من وجودية ليبرالية إلى ماركسية إلى فرويدية إلى برجماتية إلى واحد بعد واحد ! ! الخ . دون أن يستطيع أن يهتدي إلى حق في شأن القلب ، أو يهتدي إلى ضوء في شأن العقل ، أو يهتدي إلى سكينة في شأن النفس ، وإنما هو التقدم العلمي ، الذي لا يتوقف ، ومعه الانهيار النفسي الذي لا يتوقف ، وكلما كانت الأمم أكثر نعمة وثراء ورفاهية « كالسويد والنرويج » كانت أكثر جنوناً وانحلالاً وتمزقاً وانتحاراً ، ذلك لأنها فقدت « أداة الحياة » الإيمان برسالة الإنسان ساعياً في الحياة ، مريداً ملتزماً بالأخلاق ، مؤمناً بالبعث والجزاء ، فإذا فقد ذلك فما قيمة الحياة إلا أن تكون صدفة أو لعبة أو عبثاً على نحو ما صوروها فلاسفة الوجودية والهيبية والتحليل النفسي .

لقد جرّب المسلمون تقليد الغرب ثم جرّبوا تقليد الشرق،وانتهت كلا التجربتين إلى الهزيمة الماحقة إلى النكبة والنكسة . فلما أذن الله لهم بأن يلتمسوا أول الطريق إلى الأصالة ، وإلى منهجهم حين صاحوا : « الله أكبر » فتح الله عليهم الضياء الذي لو ساروا فيه لبلغوا الغاية ، ولكانوا الأمة المطمئنة التي يأتيها رزقها رغداً من كل مكان .

لقد كان تقليد الغرب بتطبيق نظمه السياسية « الديمقراطية » والاقتصادية « الربا والمصارف » والاجتماعية « علب الليل والخمر والزنى » فماذا وجد المجتمع الإسلامي بعد ذلك ؟ لقد وجد التمزق لا الوحدة في مجال السياسية ،والفقر لا الغنى في مجال الاقتصاد ،والانهيار والانحلال في مجال المجتمع والأسرة ، فهل له أن يسارع بالخروج من الدائرة الضيقة التي توشك أن تغلق عليه لتقضي على بقية وجوده .

إن الغرب لم يعط إلا السلبيات والهزائم وفتات الموائد إلى جوار عطاء كبير من الخمر والفساد والترف والمرأة العارية والمراقص ، أما في مجال الجد والعلم والتكنولوجيا ، والقوة المادية ، فقد سلب ولم يعط .

لقد أريد للعقل الإسلامي الإلحاد والشك ، فأثيرت حولها كل مذاهب الغرب متضاربة لتصرعه ، لقد أريد للنفس الإسلامية الريب والشقاء والتمزق ، فأثيرت حولها كل مذاهب الغرب مقاتلة لتقتله ، ذلك ما أعطى الغرب بشقيه ، وما هو واضح الآن أمام المسلمين ، لقد وضح تماماً أمام المسلمين والعرب أبعاد الخطة ، أبعاد المؤامرة التي تركب موجها الآن الصهيونية العالمية حاملة في يدها بروتوكولات صهيون بمشروعها الذي يرمي إلى السيطرة على بلاد الإسلام بعد أن احتوى الغرب وفكره وحياته وصيّره صريعاً للشيطان والهوى، فهل

يستسلم المسلمون لمنهج الصهيونية التلمودية الذي يحاصرهم ، أم هم قادرون ، وقد عرفوا أن يتلكـوا الإرادة ليحطموا القيد وليثبتـوا وجودهم الحق ، وليقاوموا ما يراد بهم ، فإن كانوا صادقين فعليهم :

أولا – إقامة نظام التعليم على منهج التربية الاسلامية ٠

ثانيا – تطبيق الشريعة الإسلامية على مختلف القوانين والنظم ٠

ثالثا – إقامة البنك الإسلامي المتحرر من الربا ٠

رابعا – تدريس وجهة النظر الإسلامية في مناهج الاقتصـاد والسياسة والتربية والقانون الغربية ٠

* * *

الفصل الثالث

حضارة الغرب في مواجهة حضارة الإسلام

هناك نظرية يطرحها الاستعمار من خلال منطق الاستعلاء باللون أو الجنس تقول هذه النظرية : إن هناك حضارة عالمية واحدة ، وإن العرب والمسلمين كانوا حلقة من حلقات هذه الحضارة التي ظهرت على شواطىء البحر الأبيض ، قوامها اليونان والرومان ، ثم الغرب في العصر الحديث .

ويردد هذه النظرية بعض كتاب الغرب ومن بينهم جورج سارطون في كتابه :

والواقع أن الحضارة الإسلامية بالرغم من أنها أخذت الخيوط الأولى لما كان معروفا في العالم القديم من علوم ، فإنها أبدعت حضارة جديدة لها ذاتيتها الخاصة وطابعها المميز ، وأن الإسلام قد قدم مفهوما جديداً « للتحضر » يختلف عن مفهوم « المدنية » المادي المرتبط بالعمارة والصناعة والرياضيات والفلك والجغرافيا ، ذلك الذي قدمه الإسلام إنما هو بمثابة الوعاء الذي تصاغ فيه المدنية من بعد ، وتصهر فيه العلوم ، ذلك هو التوحيد والإيمان بأن الله — تبارك وتعالى — هو الخالق الرازق والصانع ، وهو القائم بقدرته من وراء الكون كله ساعة بعد ساعة ، ولحظة بعد لحظة ، وأنه هو الذي أنشأ هذا الكون

من العدم ، وأنه أقام له قوانين ونواميس يتحرك من خلالها إلى أجله المحتوم ، وقد أطلع الله ــ تبارك وتعالى ــ البشرية على هذه القوانين والنواميس حين جاءت رسالة الإسلام بالقرآن تضع هذه المفاهيم بين يدي الإنسان لينتفع بها في سعيه إلى استكناه الكون ، واستخراج ثروات الأرض •

وإن هذه الدعوة وجهت إلى البشرية بالنظر إلى السموات والأرض والتفكر فيهما كانت منطلق «التجريب» الذي عرفه المسلمون،وحاكموا إليه كل الفكر القديم الذي عرفته حضارات بابل وفارس والفراعنة واليونان والرومان، فصححت أخطاءه ، ورفضت ماكان منه قائما على السحر والخرافة ، وحوّلت خلاصة هذا التراث القديم إلى مادة خام صنعت منها « المنهج العلمي التجريبي » الذي قدمه العلماء المسلمون للبشرية •

هذا في جانب العلم ، أما في جانب الحياة فقد قدم الإسلام مفهوم المساواة والإخاء الإنساني ، ووحدة البشرية كلها لآدم وآدم من تراب ، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، وبذلك شجب النزعة العنصرية ، وقضى على مفهوم العبودية الذي قامت عليه حضارات الفراعنة واليونان والفرس والرومان •

هذا هو إطار الحضارة الذي أقامه الإسلام لتصاغ في إطار المدنية المادية عن العمارة والصناعة والرياضيات والفلك والجغرافيا ، ليكون ذلك كله خالصاً لله مستهدفاً إقامة المجتمع الرباني القائم على العدل والرحمة والكرامة •

ومنذجاء الإسلام ، فإن حوض البحر المتوسط قد انشطر إلى حضارتين :فقد برزت حضارة لها طابعها وذاتيتها وتشكيلها الروحي والفكري والنفسي والاجتماعي • ومن خلال الإسلام قامت حضارة لها

مضمونها الاجتماعي ، ولها نظريتها الخالصة ، ولها أسلوبها في المعرفة ، ولها منهجها العلمي التجريبي الذي قدمته إلى البشرية كلها ، ثم قامت عليه الحضارة العالمية الحديثة .

هذا التميز الخاص بالحضارة الإسلامية يصوره الأستاذ محمد أسد فيقول : « إن الحضارات المختلفة قامت ونشأت رويداً رويداً من تراث الماضي بما حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر التي استغرقت في تبلورها إلى شكلها الخاص ، وكيانها المحدد آماداً طويلة من الزمن ؛ وقد انفردت «حضارة الإسلام » وحدها بانبجاسها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار ، وقد جمعت في فجر نشأتها كل المقومات الاساسية لحضارة مكتملة شاملة ، فقامت في مجتمع واضح المعالم ، له نظرته الخاصة إلى الحياة ، وله نظامه التشريعي الكامل ، وله فهمه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع ، ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخربها الماضي ، ولا وليد تيارات فكرية متوارثة ، ولكن هذه الحضارة كانت وليد حدث تاريخي فريد ، هو تنزيل القرآن الكريم ، وكان مردها إلى رجل فذ في التاريخ ، هو محمد رسول الله ، فلقد أدرك الذين آمنوا بالإسلام — واتبعوا محمداً ، وصدقوا بالقرآن فاتخذوه قاعدة حياتهم — أن الدين الجديد الذي جاءهم به القرآن . يتطلب منهم هجرة بائنة إلى ما جاءهم به عما توارثوه من عقائد الحياة ، وما ألفوه من مناهج السير فيها ، فكان قبولهم لما جاء به بداية حدث جديد في حياة البشر وتاريخهم ، إذ أنهم أدركوا أن الإسلام — وقد جاء نظاماً شاملاً للحياة — قد افتتح حقا حضارة جديدة ، وما كان دوره ليقتصر على التمهيد لغيره من الحضارات أو الإرهاص بها ، فتبينوا — كما تبين من جاء بعدهم — أن مبعث رسول الله كان إيذاناً ببدء عهد جديد بكل ما ينطوي عليه هذا البدء من حقائق ومعانٍ ، ولن يفهم من هذا أن الإسلام قد قطع كل صلة بين حضارته

وبين الماضي ، فذلك فهم لا يقبله العقل أو يستسيغه ، لأن كل كائن عضوي لا يمكن أن يوجد دون أسلاف وآباء ، فلن ندهش إذن حين نرى أن ما جاء به رسول الله — على ما هو عليه من جدة في النظر إلى الكو والحياة ، ومن استحداث نظام اجتماعي كامل — يتضمن كثيرا مما جاءت به الأديان ، ويتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التي كانت لدى من سلف قبله ، ولم يتنكر لهذه الفضائل والحقائق أحد من أهل الإسلام ، بل لقد كان القرآن ذاته أصرح ما يكون اعترافا بها وتسليما .

والقرآن الكريم هو الذي دعا إلى العلم والعقل والبرهان ، فحقق قيام منهج التجريب وهو الذي دعا إلى وحدة البشرية والإخاء الإنساني ، فحقق تحرر الإنسان من عبودية الأباطرة ، والقرآن هو الذي دعا إلى التوحيد ، فحقق تحرر العقل الإنساني من الوثنية وعبادة الأحجار .

هذا هو التميز الواضح الذي يقطع بأن حضارة الإسلام لم تكن حلقة في حضارة سابقة أو لاحقة ، ومنه ينكشف زيف الدعوى بالقول بأن العرب والمسلمين لم يكونوا — في وجودهم التاريخي الضخم الذي انفردوا به في العالم كله ألف سنة كاملة على الأقل . منذ بزوغ الإسلام حتى ظهور النهضة الأوروبية عام ١٥٠٠ — جزءاً من حضارة البحر المتوسط ، أو مرحلة من مراحلها ، بل كانت حضارة الإسلام وجودا ذاتيا قائماً بالحق ، شطر البحر المتوسط ، ولا يزال يشطره إلى حضارتين ، ولا ريب أن الحضارة الغربية الحديثة حين أخذت منهج التجريب الاسلامي قد سجلت على نفسها أنها تنطلق من حيث قامت الحضارة الإسلامية في هذا الجانب وحده دون أن تأخذ بمفهوم الاسلام المتكامل في الإخاء البشري أو صياغة العلم والحضارة في إطار « بناء المجتمع الرباني » الذي دعت إليه أديان السماء ، ورسم منهجه الإسلام كاملاً .

١ ـ ازمــة الحضــارة :

بدأت الحضارة الغربية دورتها منذ أوائل القرن الخامس عشـر حـين كانت الحضارة الإسلامية قد أوشكت أن تبلغ نهايـة الدورة التاريخية لها ، فعملت منذ ذلك الوقت إلى اليوم في سبيل هدفها الذي اتخذته عنوانا لها الرفاهية وقدمت في هذا المجال معطيات باهرة لإسعاد الإنسان ، ولكنهـا واجهت التحديات الخطيرة التي أرحلتها مرحلـة الأزمة لعدة أمور :

أولا ـ لأنها ربطت الحضارة بالاستعمار ، وجعلت من الشعوب والأمم النامية مصدراً لخاماتها وسوقا لمنتجاتها ، وقد جرى ذلك في ظل حركات الاحتلال والغزو والسيطرة السياسية والعسكرية •

ثانيا ـ لأنها عزلت نفسها عن المفهوم الإنساني الكامل الجامع بين الروح والمادة •

ثالثا ـ لاستعلائها بالجنس الأبيض : صانع الحضارة الذي لا يقهر ، وتجاهلها للدور الذي قامت بها الحضارة الإسلامية في بنـاء المنهج التجريبي •

رابعا ـ لغلبة الطابع المادي الصرف ، وأسلوب التعامل الربوي اليهودي والسيطرة الاقتصادية والغزو الفكري •

خامسا ـ معاملة الأجناس المختلفة معاملة عبودية ، واحتجـاز الكرامة البشرية والحرية والرفاهية لأهلها وحدهم •

وقد شهد بهذا الانحراف كثيرون من الباحثين الغربيين المنصفين :

١ ـ تقول الكاتبـة الفرنسية مدام سنت بوانت : إني أتهـم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها ألقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة • أعني المهمـة التي ترمي إلى نشـر تعاليم

الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض بحيث تؤدي إلى الاتحاد ، ويمكن للإنسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غير ، وهما : وسيلة حب الذات ، ووسيلة حب الغير .

أما الغرب فإنه لم يقع اختياره إلا على الوسيلة الأولى : وسيلة الأنانية وحب الذات ، وكان اختياره لها جريمة ، وكان ذلك لسبب ضياعه واضمحلال نفوذه ، لأن الوسيلة التي لجأ إليها ملعونة ، إن الأنانية تقضي على الخير ، وتلتهم كل بر ، ولقد أراد الغرب أن يوجد العالم ، ولكن تحت سلطانه ولمصلحته ، والعالم لا يساس إلا بالعدل وبالحب وبالإخاء وبردّ الحقوق إلى أهلها ، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة ، واعتمد على القوة وحدها ، وعبث بالشرائع الدينية ، وخالف تعاليم المسيح عيسى الذي أمر بمحبة الناس جميعا ، لقد أضاء الشرق دياجير أوروبا بنور تعاليمه ، وما هذه العلوم التي يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق ، وليس الذي يحجب النور عن الأنظار هو مدنية الشرق القديم ، بل الوحشية الغربية ودين القوة ، وحب الذات والأنانية التي يعمل بها الغرب ، لقد اختار الغرب الرذيلة على الفضيلة ، وإنه بالتجائه إلى الوسائل التي لاتعرفها الإنسانية قد أثبتت أن مدنيته أفلست » .

ويعني هذا أن الحضارة الغربية انحرفت عن طريق الأصالة ، حين عجزت أن تحرك حركتها داخل إطار الربانية والالتزام الأخلاقي ، وتقدير مسؤولية الإنسان وجزائه ، لقد عجزت عن المحافظة على القيم الإنسانية للحضارات ، فهي قد قامت أساساً على المادية ،ومن ثم تطورت مفاهيمها في ظل عوامل ذات فاعلية إلى تغليب مفاهيم إطلاق الغرائز وتقرير «حيوانية» الإنسان ، ثم اندفعت في تقرير الحرية على النحو الذي حطم كل الضوابط والقيم والحدود التي من شأنها أن تحمي الوجود الإنساني عن أن يدمر نفسه أو يدمر مجتمعه .

٢ — ولعل الدوس هكسلي حين يصور هذه الزاوية يكشف عن حقيقتها في وضوح حين يقول : « إن الحضارة قد دفعت الناس إلى التمرد على حياة الروح والاندفاع وراء المادة ، وقصرت جهودهم على المتع والرغبات، وأعرضت بهم عن المثل العليا ، وإن اندفاع العالم إلى الاستمتاع قد شاع في أقوال المؤلفين والشعراء والخطباء والممثلين المتمادي في سبيل الدعاية للحياة المستهترة والإباحية ، وقد بالغوا في مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مرذولة مبغوضة كالسهم الذي ينقلب داءبعد أن كان دواء ، وإن المثل العليا زاهية لاشك فيها لأنها ضرورية للعالم ، وهي الوسيلة الوحيدة للقضاءعلى الفلسفة المادية التي أعجب بها هواة اللذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها ، وإن النفوس البشرية لتضيع في سبيل هذه الملذات وتفقد الثقة بالفضائل ، وقد أجمعت أرقى العقول فيسائر الأزمنة والأمكنة على أن غاية الإنسانية هي السلام والمحبة والعدل ، ومن المحبة الأخوية نشأت فكرة الوطنية ، وهي فكرة إذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الأوطان » .

٣ — ويقول لاسكي «لقد فقدت الحضارة ثقتها في نفسها وإيمانها العميق بحيوية القيم الثقافية السائدة ، وعجزت عن تحقيق الوفاق بين عالم المثل الأعلى المتمثل في كتابات الإنسانيين ، وبين حقائق هذا الواقع الحافل بأهوائه وأطماعه وخصوماته ، إن الحضارة تمر بمحنة من محن الشك والخوف والإلحاد ، وتميّع المعايير الثقافية ، والقيم الأخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير فيحياة الفرد وحياة الجماعة » .

٤ — ويرى البرت شفيتسر أن غلبة الجانب المادي في الحضارة على الجانب الروحي هو مصدر أزمة الحضارة والإنسان في ههذا العصر، ويقول : « إن تقدم الحضارة المادي أكبر بكثير من تقدمها الروحي ، لقد اختل توازنها ، فالاكتشافات التي جعلت قوىالطبيعة تحت تصرفها على

نحو لم يسبق له مثيل ، قد أحدثت ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض، وبين الجماعات والدول ، والواقع أن معارفنا قد أثريت ، وأن قوتنا قد زادت إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله، نحن نغالي في تقدير إنجازاتها المادية ، ولا نقدر أهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره ، إن الحضارة التي لا تنمو إلا في النواحي المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافىء في ميدان الروح ، هي أشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها ، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها . ذلك أن الطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية والسياسية للشعوب وللإنسانية في مجموعها ، وليس العنصر الحاسم في تقويم الحضارة ما أنجزته من أعمال مادية ، بل يتوقف مصيرها على كون الفكر يسيطر على الأحداث أو لا يسيطر ، والأمر في هذا شبيه بما يحدث في السفر ، فإن نتيجة الرحلة لا تتوقف على كون السفينة كانت أسرع أو أبطأ قليلاً ، بل على كونها تسير في الاتجاه الصحيح ، وأن قيادتها في يد أمينة » .

٥ ــ وهذا الذي يقوله البرت شفيتسر في كتابه «فلسفة الحضارة» ليس جديداً، فقد ردده من قبله « أوزفالد شبنجلر » في كتابه « سقوط الغرب » حيث قال : إن الحضارة الغربية مشرفة على عهد انحطاط وتدهور ، وإنها تعاني أعراض الشيخوخة وانحلال الفناء ، وقال : إن أوربا ستقضي على حضارتها التي هي بمثابة عملاق يترنح بفعل الخمر والمرض والانحلال .

ويقول جود : لقد وهبنا من العلم قوى لم يكن يحلم بها أجدادنا السابقون ، ولكننا نستخدمها بعقول الأطفال والمتوحشين ، وإنه لا شيء يسد الثغرة التي تفصل قدرتنا عن حكمتنا غير إحياء القيم الأخلاقية العليا، وذلك بإحياء العقيدة الدينية في النفوس ، وإن المطلوب هو سد

الثغرة بين العلم والأخلاق • ويرى أرنولد توينبي أن أزمة الحضارة هي الدين ويقول : إن الحضارة الغربية المتدهورة لا يمكن إنقاذها إلا بالدين • ذلك أنها مصابة بالخواء الروحي الذي يحوّل الإنسان إلى قزم يفتقد عناصر وجوده الإنساني ، ويعيش الحد الأدنى من حياته ، وهو حد وجوده المادي فحسب ، مما يصيبه بأمراض السأم الروتينية وفقدان الهدف في كل ما يأتي ، ويحوّل حياته إلى جحيم مشوب بالقلق والحيرة الذهنية، والتمزق النفسي، خواء روحي يحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف كما تركض القطعان دونما تفحص لمعنى مسيرته الهوجاء كما يضطر المدركون أحياناً إلى إعلان انشقاقهم عليه •

ويقول توينبي : «إن الحضارة الغربية اليوم تعاني أخطر الأزمات ، فهي حضارة علمانية لاحقة بالمسيحية ، تعيش على بقايا مختلفة من المبادىء المسيحية المشوهة ، وهي فوق ذلك مأخوذة ببدعة تقديس الفرد كفكرة الإنسان الجماعي مجسدة في أنظمة الدول الفاشية والنازية والشيوعية والقومية والإقليمية •»

٢ ــ المسلمون وازمة الحضارة :

تجري في السنوات الأخيرة محاولة لفرض مفهوم الحضارة ، يدعى إليه المسلمون والعرب عن طريق ندوات عالمية تعقد هنا وهناك يختلف عن مفهوم المسلمين الأصيل للحضارة وعلاقتها بالعلم وبالحرية وبالفن •

وأبرز وجوه التعارض بين هذا المفهوم الذي يدعى إليه المسلمون والعرب، وبين مفهومهم الأصيل• أن وجهة النظر الوافدة تستمد منطلقها من نظرة مادية خالصة لا يعرفها الفكر الإسلامي الذي يربط بين الروح والمادة ، والعقل والقلب في إطار مفهوم جامع ، ومنظور متكامل ، هو

في ذاته دين ومنهج حياة ونظام مجتمع ، هذه النظرة المطروحة تستمد منطلقها من الفكر المادي ، فتغفل الجوانب النفسية والروحية والمعنوية جميعاً ، ومن ثم فإنها لا تمثل منطلق المفهوم الإسلامي الذي عرفوه وعاشوه وتعاملوا معه منذ خمسة عشر قرناً .

ومن ثم فإن الدعوة إلى نقل الأمة الإسلامية إلى الحضارة الغربية عن طريق الإنتاج العلمي من الغرب على العالم الإسلامي بتسير وسائل نقل التكنولوجيا وأساليب التقدم في مجالات الزراعة والصناعة، والكشف والبحث في أعماق المحيطات ، وتفجير الصخور واستخراج الثروات المدفونة ، هذه الدعوة يجب أن تكون حرة وغير مرتبطة بأي دعوة أخرى إلى نقل أسلوب العيش الغربي بما يستهدف القضاء على الضوابط الأخلاقية والدينية والأدبية ، وهي القيم التي قام عليها المجتمع الإسلامي في عقائده وعاداته وحياته الاجتماعية .

إن حاجة المسلمين اليوم هي حاجتهم إلى العلم التجريبي والتكنولوجيا ، ولهم بعد ذلك أسلوب عيشهم ، ومنطلق حركة هذا العلم في إطار قيمهم ومفهومهم الذي يقوم على بناء المجتمع الرباني الخالص المحرر من العبودية والعنصرية والاستغلال .

ولا ريب أن المسلمين يقفون موقف الحذر من أساليب العيش الغربي ومفاهيمه في النفس والأخلاق والاجتماع ، لأنها تستمد مفهومها من الفلسفة المادية وحدها فضلاً عن أن الحضارة الغربية تمر اليوم في مرحلة من أدق مراحل اضطرابها على النحو الذي كشف عنه عشرات من مفكري الغرب نفسه ، وهي تواجه التحديات الخطيرة من الانحراف والتمزق والتحطم النفسي ، والتدمير العقلي ، ونحن مطالبون حين نأخذ من الحضارات والثقافات أن نعرض ذلك على أصول قيمنا ، فنأخذ ما يتفق معها ، ونرفض ما يختلف .

ولقد كان حقاً لنا أن نقول لدعاة فرض حضارة الغرب القائمة الآن على عالم الإسلام : إن كلمة الحضارة لها في الإسلام ــ الذي يعيش في إطاره منذ أربعة عشر قرناً ــ معنى مختلفاً تمام الاختلاف عن المعنى الغربي الوافد ، هذا المفهوم يتصل أيضاً بمعنى التقدم والعصرية والتحديث ، وكلها كلمات في أصلها الأصيل لا تتعارض مع الإسلام إلا في الفرق بين النظرة الكلية الإسلامية ، والنظرة الجزئية الغربية ، فنحن نفهم الحضارة بمعناها جامع بين تحضير المجتمع ، وتحضير النفس الإنسانية ، ولا نضحي في سبيل التقدم المادي بالنفس الإنسانية لتصبح مدمرة ممزقة تعيش في كهوف الخوف والشك والتشاؤم على النحو الذي نراه في الغرب ، وقد كان خليقا بهؤلاء الرواد إن كانوا صادقين في النصح لأممهم ــ والرائد لا يكذب أهله ــ كان خليقا بهم أن يدرسوا تجربة الغرب ، وينظروا إلى مجتمعنا في ضوئها .

إن موقعنا من الحضارة أن نحصل على العلم ، وأن ننقله في إطار لغتنا العربية ، وأن نحركه في إطار مفهوم الإسلام وقيمه العليا ، وأما أسلوب العيش الغربي ممثلا في الأخلاق واللباس والزينة والمعاملة والعلاقات الاجتماعية بين الأسرة والأمة ، وبين الأبوة والبنوة ، وبين الرجل والمرأة، في ضوء هتافات صارخة للحرية ، وكسر الضوابط،وإعلاء الأنانية والنفعية والتحلل ، فهذا أسلوب من العيش لا صلة له بالعلم ، ولا حاجة لنا به .

الفصل الرابع

في سبيل بناء حضارة جديدة

هناك مسائل كثيرة وتحديات متعددة تواجـه الفكر الإسلامي ، نود أن نستعرضها واحدة واحدة حتى تتبين فيها وجه الحق، ونعرف فيها رأي الإســلام ٠

أولا : هذه الحضارة . ما شأننا معها ؟ ٠

لا بد لكي تفهم الحضارة أن تفصلها عن العلم التجريبي ، فهــي ليست هذا التقدم العلمي وحده ، ولكنها الصورة التي يتشكل بها هذا العلم في مجال الحياة الاجتماعية ،وأسلوب العيش وما يتصل بذلك من الفنون والرقص والتماثيل والموسيقى والأزياء ٠ وهذا الفصل بين هذا كله وبين العلم ضروري وهام على الأقل من وجهة نظرنا نحن المسلمين ، الذين يدعونا الإسلام إلى أن نأخذ أحدث معطيات العلم والتقدم ٠ فنحن نطلب معطيات العلم ، ولكننا لا نقبل التطبيق الذي تتشكل فيه ، أو على الأقل نختار منه ونرفض ، ونحن في الحقيقة في حاجة إلى الأدوات ،ولكننا لسنا في حاجة إلى مضامينها الغربية ٠
أي أننا في حاجة إلى المذياع وآلة السينما وآلة الإذاعة المرئيــة ،

ولكنا في غنى عن مسرحياتها وأفلامها ، والمواد التي تبث عن طريقها ، لأننا حين ننقل هذه الأدوات الصناعية الحديثة إنما نريد أن نشغلهـــا بفكرنا نحن ، وليس بفكر الغير ، وحول هذه الحقيقة الواضحة يدور حوار كثير ، كذلك نحن في حاجة إلى ماكينة النسيج وآلــة الحرث أو الري أو الحصاد ، ولكنا سوف ندخل إليها المواد الخاصة بنا في بلادنا .

وإذا كان هذا المعنى واضحاً وصريحاً وواقعيا ، فإننا ندهش لهؤلاء الذين يدعوننا إلى أن نأخذ الآلة ومادتها ، أو نأخذ الجهاز والأفـــلام الخاصة به ، بدعوى أنه لا بد عند نقل الحضارة المادية من اعتناق فكرها ، وكيف يمكن أن يستقيم ذلك في عقل عاقل ، أو تقدير باحث ، إن هناك فصلا واضحاً بين معطيات العلم المادية ، وبين المواد التي تستعمل داخل هذه الأجهزة . لقد التقطت أوروبا الخيط من المسلمين الــذين أنشأوا المذهب التجريبي ، وساروا شوطاً طويلاً في بناء العلوم الطبيعيـــــة والرياضية ، وفي ميادين الطب والفلك ، وحين سار الغرب في بناء هذه العلوم فتحت له آفاق واسعة إلى التقدم ، هذا التقدم نفسه كان لا بد أن تصاحبه وجهة وغاية ، هو أن يكون في سبيل بناء البشرية وإسعادها وخدمتها باعتبارها وحدة واحدة ، ولكن الذي حدث أن انحرفت أوروبا في أسلوب استخدام العلوم ومعطيات العلم ، فجعلتها في سبيل الخاصة ، وقصرتها على الجنس الأبيض ، ثم أنحرفت بها أخلاقية فجعلتها في سبيل الترف والرفاهية ، ولم تجعلها في سبيل تقديم عطاء متوسط للكافة ، بل عطاء غال للخاصة وحدهم ، وبذلك تبددت المواد الأوليـــة ، وأسرفت أجهزة الحضارة في زخرفتها والمغالاة فيها حتى لم تدع لمجموع الناس إلا الفتات ، هذا هو إنحراف الحضارة الأول ، ثم كان إنحرافها الثاني هو انحرافها نحو الأهواء والملذات والشهوات ، وهذا هو ما أطلق عليه

أسلوب العيش الغربي ، فهل يمكن أن تلزم أمة أخرى لها قيمها ورسالتها وطبيعتها ودورها الرائد السابق في مجال العلم والحضارة أن تسقط في هذا التيار ، وتحتوي إرادتها ، أم أنها لا بد أن تتحرر إرادتها أولاً حتى تكون قادرة على أن تأخذ العلم ، وتصيغه في إطار لغتها أولاً ثم في إطار فكرها ثانياً ، ثم تتحول بمنتوجاته إلى إسعاد البشرية باعتبارها أمــــة واحدة •

إننا لن نقبل إلا مقررات العلم والأجهزة الصماء ، أما المادة التي تتحرك داخلها ، فإنها لن تكون إلا من نتائجنا وفكرنا وقيمنا ، كـذلك نحن لا نؤمن بهذا الجانب الغربي الذي يسمي بالفن والرقص والمســرح والتمثيل والأزياء ، ولنا تحفظات عليه ، ولنا مفهوم واضح يقدم الأخلاقي على الجمالي ، ويسقط الدعوة الغربية الحارة إلــى الجنس والكشف والإباحية ، ليضع مكانها أشواق الروح والمعنويات والارتفاع بالإنسان إلى الكرامة والخلق دون أن يفقده شيئاً من رغباته النفسية والحسية •

ثانيا : هنالك هذه الصيحة إلى مزيد من عطاء الحضارة •

نحن نتساءل : ماذا سيكون هذا المزيد من العطــاء ، أيمكن أن يصبح الإنسان بغير عمل ما ، وتعمل له الآلات في المسائل العقلية ،يقدم ما عنده للآلة الحاسبة ، وفي مسائل الطعام والشراب يقــدم له الإنسان الصناعي حاجته •

إذن فما هو سعي الإنسان في الأرض ، وإذا انتهى الإنسان مــن مشاكل العمل ، هل يجد السعادة ؟ ، إن الصور التي يقدمها المجتمــع الذي وصلت فيه درجة العطاء والترف الى غايتها ، هذا المجتمع يقاسي اليوم أشد لوعاته بالانتحار والتمزق والمخدر والتدمير المتعمــد للقوة البشرية ، هل سيزيد عطاء الحضارة في مزيد من الزخرف وإنفاق المواد

الخام في إنشاء الثريات والمطارق والأضواء والمراقص والعطور والخمور؟ وقد بلغت الصورة الواقعة في ذلك غايتها حيث لا زيادة لمستزيـد ، ماذا سيكون هذا العطاء ، وإلى أي حد سيصل الإنسان إلى تدمير ذاتـه بالمزيد من الترف والرفاهية ، وبالوقت الذي سوف لا يجد ما ينفعـه فيه ، وبالجسم الذي سيحتاج إلى كثير من العلاجات ، لأنه يكاد يزدرد بشراهة ، وفي نفس الوقت يتوقف عن الحركة •

وماذا بعد الاستمتاع والسهرات والحركات الهستيرية المخدرة ، لقد عاد الإنسان يبحث عن المشي ساعات ، وعن الصوم أياماً ، وعـن التأمل وتركيز العقل في شيء ما • وما حاجته إلى هذا كله ، إلا أن مرض العصر إنما يأتي من انسداد الشرايين ، وعجز الإنسان يأتي من التأمـل المطلق، ولقد أعطى الدين للبشرية حلول ذلك وعلاجاته كلها ، فدعـا الناس إلى الخشونة، وإلى أن يكونوا قوماً لا يأكلون حتى يجوعوا، وإذا أكلوا لا يشبعوا • ودعاهم إلى الصـلاة خمس مرات في اليـوم حيث يتعلمون منها تركيز العقل في عبادة الله ، وهذا خير لهم من هذه الدعوات الواهمـة •

ثالثا : هناك ذلك الإعجاب الوافر بعظمة الحضارة •

فماذا قدمت الحضارة من ما يسعد النفس الإنسانية ، أو يدخـل إليها الطمأنينة والسكينة ؛إن كل ما أعطت كان في مجـال المـاديات ، أعطت الإنسان الترف والرفاهية ، ومعها الرخاوة والتحلل ، وبذلك ركد جسده وحسه ، ولم يعد قادراً على مقاومة الأخطار والتحديات ، ولكنها لم تعطه الإيمان ، فهذا العلم وحده غير كاف ، واستعمال العلم يدمـر الكيان البشري، إن هذه الحضارة المادية، وهذا العلم الذي قـد قصر

نفسه على دراسة ظواهر الأشياء ، سوف لا يعطي النفس البشرية الحائرة المأذونة الإجابة المطلوبة لن يعطيها ترياقها ، لن يعطيها أشواقها ، وستظل غارقة في الحيرةوالتمزق حتى تهتدي إلى ربها، وتعرف أن الله من وراء هذا العلم كله ، وأنه صانعه ، وهو الذي هدى الإنسان إلى معرفة أسراره وكشف قوانينه ، وأنه من وراء الكون كله لحظة بلحظة : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) [فاطر : ٤١] .

إن مفهوم العلم ما زال قاصراً ، لا يستطيع أن يعطي إلا إجابة واحدة عن ظواهر الأشياء ، أما أسرارها وغاياتها وأبعادها، وغايةالإنسان من الحياة ، فتلك لا يقدمها إلا الدين والوحي ، وكتاب الله المنزل ، فإذا شاق البشرية أن تعرف فعليها أن تسأل عن ذلك ، وفي القرآن الإجابة الكاملة الثرّة التي تهدي النفس البشرية ، وتردها عن تمزقها ، وتمدها بأسباب السكينة والأمن بالحق ، بالفهم الأصيل العميق .

رابعا : هل هناك تعارض بين الحضارة وبين الإيمان بالله ؟ .

أما في الفكر البشري المسيطر الآن فنعم ، وأما في الحقيقة فلا ، لأن العلم البشري في صلفه يدعي أنه من نتاج العقل الإنساني وحده، ولذلك فهو محجوب عن الحقيقة الكبرى التي هي سر هذا الوجود كله.

وإذا كان العلم اليوم قد خفّف من غلوائه ، فإن الخطر في الفلسفات المادية التي تحاول أن تغرق البشرية في الجبرية والعدمية ، إن التعارض بين الحضارة والإيمان بالله، هو أن الدين الذي أنزله

الله ، قد وضع للبشرية حـدوداً ، وللإنسان ضوابط ، وللحضـارات قواعد ، فإن خالفتها سقطت وتردت حضارات وأمم كانت أعظم حضارة وقوة • وما تزال آثار هذه الأمم والحضارات باقية في الشرق والغرب عبرة لأصحاب الحضارات : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليـل) [الصافات:١٣٨]فإذا خالفت الحضارة عن وجهة ربها الحقة وأمر ربها، تعرضت للدمار والزوال ، والحضارة الغربية القائمة تعارض الفطرة ، وتـدفع إلى الانطلاق إلى أقصى غايات الأهواء ، وقد بدت أزماتها وتمزقاتها • والمخرج هو أن تتبصر الإيمان بالله ، وأن تتغير الوجهة ، وأن يكـون العلم في خدمة الوحدة البشرية ، والإخاء الإنساني ، وليس في خدمـة الترف والأهواء والشهوات • لا بد أن يكون التقدم الحضاري جامعا بين التقدم الخلقي والتقدم المادي ، أما التنازل عن الأخلاق فإنه مصدر الأزمات التي دمرت كل حضارة •

لا بد أن تعرف الحضارة بوجهة الله ، وتسير إليها ، وإلا فهي زائلة، ولذلك فإن الإسلام يقف من الحضارة موقف المعارضة في الوجهـة المادية ، وفي إسرافها في الترف ، وفي إنكارها لصانع العلم الأكبر ، وإن وقوف الإسلام بحدوده وضوابطه في وجه الحضارة لا ينقص عطاءهـا التقدمي ، إنما ينقص من الأخطار التي تحيط بها ، ومن الوجهة الضالة الإباحية المادية المسرفة ، والإسلام يقطع في هذا الأمر بالرأي فلا سبيل إلى قبول التقدم الحضاري المادي الصرف ، ولا سبيل إلى التنازل عـن الضوابط الأخلاقية والاجتماعية ، ولايضر الإنسانية أبـداً أن يتوقف هذا الجانب الحضاري الآثم ، وأن يعترف العالم بمن بيده مقاليـد القوانين والسنن وصانعها ومعلم الإنسان إياها ، والقادر على تغييرهـا وخرقهـا •

ولا ريب أن المسلمين اليوم ــ وهم يقفون على مفترق الطرق ــ يلتمسون العلم والتكنولوجيا ومعطيات الحضارة ، ويستشرفون هــذه المرحلة الجديدة من حياتهم ، فإنهم في حاجة إلى أن يصرّوا على هــذا الإيمان بأسبقية الخلق والإيمان بالله على كل عطاء حضاري مــادي ، وليعلموا أن نقل مستحدثات العلم والتقدم ، إنما هو لتكون مواداً خاماً يصيغونها داخل إطار فكرهم وقيمهم، وبذلك يصنعون الحضارة القادمة: حضارة القرن الخامس عشر الهجري .

* * *

الفصل الخامس

أوربـا وُلدَت في آسـيَا

شاقني عنوان هذا الكتاب الجديد الذي نشره في الغرب الصحفي الألماني : هاينز جونكر ، فإنه يعبر عن حقيقة تاريخية أصيلة ، ظلت زمناً طويلاً موضع التجاهل والإنكار من الغرب كله ، بالرغم من الثبـوت القاطع بدور الحضارة الإسلامية في بناء الحضارة العصرية وإقامـة أساساتها العلمية الصحيحة ليس فقط كما كان يدعي بعض من حاولـوا الإنصاف من أن المسلمين حفظوا تراث اليونان حتى أعادوه إلى الغرب، وإنما بما تحقق تماماً ، ولم يعد يستطيع أحد من الباحثين إنكـاره أو تجاهله وهو أن « المنهج العلمي التجريبي » الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية هو منهج إسلامي الأصل ، صنعه المسلمون ، وانتقل مـن بغداد والقاهرة ودمشق إلى الأندلس ، وشاع في جامعات قرطبـة وبلنسية وغرناطة ،ومنها انتقل إلى باريس ولندن ، وفي هذه الجامعات تعلم أساتذة الغرب الأول الذين شهدوا بأن علمهم لم يكـن يونانياً ، وإنما كان إسلاميا عربيا .

ومن هنا يحق للدكتور هاينز جونكر أن يضع هذه الحقيقة عنوانا لكتابه ، فإن أوروبا فعلا ولدت في آسيا ، وولدت مرتين : المرة الأولى

بما نقل إليها من الفكر الديني الذي عرفته آسيا بنزول الأديان السماوية فيها منذ إبراهيم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ، وما أنتج هـذا الفكر الرباني من آثار ، كانلها مداها البعيد في نقل الأمم من البداوة إلى الحضارة ، وما يتصل بذلك من دعوة إلى تحرير الفكر من أسـر المادية والوثنية ، وقد حاولت أوروبا أن تصـوغ ذلك كله في فكـر عقلاني ، بينما ثبت تماما أنه تراث الأديان السماوية الشرقية التي نزلت في آسيا، ثم كانت صحوة أوروبا التي أطلق عليها اسم عصر النهضة في القرن الخامس عشر الميلادي ،أي بعد المسيحية بألف وخمسمائة عام ، وبعد الإسلام بتسعة قرون ، بعد أن عبر الإسلام إلى قارة أوروبا ، وسيطر على الأندلس « وهي ما يطلق عليها أسبانيا والبرتغال » قرابة ثمانيـة قرون كاملة ، وكان عبور الإسلام إلى أوروبا قبل نهايـة القرن الأول الإسلامي عام ٩٢ هجرية الموافق ٧١١م، أي: أن الإسلام ظل في حضانة أوروبا أكثر من ٧٨٩ عاما حتى أفرخت أوروبـا ما أسمته « حركـة الرينسانس » .

هذه هي الحقيقة التي تعد من علامات عصـر جديـد للإسلام أن يعترف بها بعض علمائها المنصفين في هذه الأيام بعد أن توقف ولا زال كثير من علمائنا الظالمين التابعين للتغريب والغزو الثقافي عن الإقرار بها ، فإذا جابهت أحدهم بذلك قالوا : نحن لسنا متعصبين ، ولو صدقـوا لقالوا : إنهم ليسوا مؤمنين بأمتهم وبدورها الحق في بناء الحضـارة الإنسانية ، وإنه إذا كان أصحاب هذه الحضارة قد اعترفوا مختارين بهذه الحقيقة ، أفلا يرضونها ، ولقد كان أولى بهم ـ لو كانوا مؤمنين بأمتهم ـ أن يكشفوا عنها ، ولذلك طالما سمعنا من بعض دعاة التغـريب حملات الاستنكار والسخرية بأمثال : جوستاف لوبون ، وكارليل وغيرهـم ممن سبقوا في هذا المجال ، واعترفوا بفضل المسلمين ، وكان ذلك في

أوائل هذا القرن ومن قبله ، ثم جاءت موجة أخرى من العلماء الرياضيين أو التجريبيين الذين عايشوا المنهج العلمي التجريبي الإسلامي معايشة معملية ، فكشفوا عن هذه الحقيقة بصورة أشد قوة ووضوحا ، ومن هؤلاء :

درابر : في كتابه « العلم والدين » ترجم ذلك العلامة محمد فريد وجدي .

بريفولت : في كتابه « بناء الإنسانية » ترجم ذلك العلامة محمد اقبال .

سارتون : في كتابه « تاريخ العلم » ترجم ذلك الدكتور عمر فروخ .

١ ـ يقول درابر : وكأنما كان مطالب قبل خمسين سنة أن يكتب تحت عنوان (أوروبا ولدت في آسيا) .

كانت قرطبة تتألف من مائتي ألف بيت ، ويسكنها مليون من النسمات ، ويكفي أن تعرف أن شارعها الأكبر كان بطول عشرة أميال ويضاء ليلاً للمارة بمصابيح كبيرة « هذا طبعا في قرطبة الإسلامية » وهذا مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه لندن إلا بعد ذلك العهد بسبعمائة عام ، وكانت طرقات قرطبة مرصوفة بالأحجار في حين أن باريس ظلت قرونا بعد حضارة العرب في الأندلس بركا للمياه والأوحال التي تغوص فيها الأرجل إلى الركب في فصل الشتاء ، ولم يقتصر الأمر على قرطبة، بل إن غرناطة وأشبيلية وطليطلة كانت مدناً تعد أشباهاً لقرطبة ونظائر لها ، وكانت قصور الأمراء مثلا من الفخامة الشرقية ، بل كانت متاحف للفنون الرفيعة ، وعنواناً على حضارة عريقة في حين أن المنازل التي سكنها أمراء ألمانيا وفرنسا وانجلترا ، لم تكن تفضل حظائر الماشية في شيء ، فهي بلا مداخن أو نوافذ ، وكان المخرج الوحيد الذي يسلم

إلى فضاء الجو : كوة من أعلى السقف يتصرف منها الدخان،ومن موجب الأسف أن الأدب الأوروبي حاول أن ينسينا واجباتنا العلمية نحـــو المسلمين ، فقد حان الوقت الذي ينبغي لنا أن نعرفهم• وإن قلة الإنصاف المبنية على الأحقاد وعلى العنجهية القومية لا تدوم أبد الدهر ، والذي يثير الدهشة أننا كثيرا ماتوهمنا أن بعض المحدثات هي من وضـــع عصرنا ولكنا لا نلبث حتي نرى العرب كانوا قد سبقونا إليها » •

٢ ــ أما العلامة بريفولت في كتابه « بناء الإنسانيــة » فيقول : « إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ماقدموه لنا من اكتشافات لنظريات مبتكرة غير ساكنة ، إنه يدين له بأكثر من هذا ، إنه يدين لــه بوجوده ذاته •

إن طريق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ومناهج العلـم الدقيقة ، والملاحظة الموصلة العميقة والبحث التجريبي ، كلها كــانت غريبة عن المزاج اليوناني ، إن ماندعوه بالعلم ظهر في أوروبا كنتيجـة روح جديد في البحث وبطرق جديدة في الاستقصاء ، طريق التجربــة والملاحظة والقياس ، وليطور الرياضيات في صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي » •

٣ ــ أما الدكتور سارتون فيقول : « إن بعض الغربيين الــذين يستخفون بمــا أسداه الشرق إلى العمــران ، يصرحــون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ، ولم يضيفوا إليها شيئاً ، هــذا الرأي خطأ ،لو لم تنقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدينة بضعة قرون ، لذلك فالعرب والمسلمون كانوا أعظم معلمين في العالم في القرون الثلاثة «الثامن ، والحادي عشر،والثاني عشر للميلاد » إن باعث بنــاء حضارتهم راسخ في تراثهم وكتابهم وإن انهيار حضارتهم المادية ترجع

إلى عوامل خارجية ، هي الغزوات المتعاقبة التي دهمتهم لا إلى فساد في داخلهم ، إن العرب والمسلمين لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخاً ، ولكنهم جمعوا بين المصدرين ، ثم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية ، وإذا لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكاراً ، فليس في العالم إذن ابتكار على الإطلاق ،فالابتكار العلمي في الحقيقة إنما هو حياكة الخيوط المتفرقة في نسيج واحد » .

شمس الله تشرق على الغرب

ثم جاءت مرحلة جديدة هي الاعتراف الشامل الكامل بفضل العرب حتى يوصف أثرهم بأنه شمس الله التي أشرقت على الغرب ، وهذا هو تعبير الدكتورة سيجرد هونكه الألمانية الذي صدرت به كتابها الضخم عن فضل المسلمين على الحضارة .

حيث قالت : يبدو أن الأوان قد حان بالنسبة للغرب ليتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب ، هذا الشعب الذي أثر بكل عمق في مجرى الأحداث العالمية ، والذي يدين له الغرب والإنسانية جمعاء بالشيء الكثير ، ولعل التعصب الديني هو الذي حمل الغرب دائماً على تشويه المنجزات المسلمين والعرب العظيمة ، وطمس مساهمتهم الأساسية في الحضارة الأوربية ، وإن طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام إلى يومنا الحاضر لتبين كيف يمكن للعواصف والأهواء أن تملي التاريخ بصورة معينة أي بصورة مشوهة، وأبعد ماتكون عن الصدق،ولكن هذه النظرة التي كانت سائدة في العصر الوسيط ، لم يعد يمكن القبول بها في الوقت الراهن ،حين كانت أوربا غارقة في ظلمات العصور الوسطى وجهالتها ، ووقف المسلمون والعرب

على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طوال سبعة قرون، لسـد مايغبن حقهم حين يكتفى بالقول بأنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم الغربي بعد ما حفظوه من الدمار ، فذلك يعني في الواقع التقليـل من قيمهم ، والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضاري وجعلهم مجـرد وسطـاء ليس غير ، والحقيقـة أن سائر مناحي الحيـاة الاقتصاديـة والاجتماعية والثقافية في الغرب مدعومة بآثارهم ، لقد كشف انتصـار الإسلام وجود عالم متوجه منذ أكثر من ألف عام نحو الشرق ، فأسرع الغرب يرفع تجاه الغزو الإسلامي شعـاراً جديداً اعتصم خلفـه طوال قرون •

وإن قواميس اللغات الأوربية لتعج بالكلمات العربية ، سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها ، لقد نقل الغرب عن العرب فكـرة البريد الذي كان الحمام الزاجل الناقل للرسائل في أصله، لقد نقـل الغربيون إلى بلادهم فنون الزراعة وأساليب الري المطبقة في بلاد العرب، كان الاستحمام والتطيب بالعطور مستعاراً من المسلمين ، وهكذا فـإن الحصار الذي فرضته أوروبا على نفسها ضد الإسلام ، قد خرق مرات عديدة ومتوالية بحيث أصبح مئات الألوف من الغربيين أسرى الحضارة الإسلامية وتلامذة لها ، إن سائر الأمم المتحضرة اليوم تستخدم الأرقام العربيـة ، ويعود الفضل في تعريف الغرب عـلى الأرقام العربية إلى الخوارزمي الذي ترجم كتبه جميعا إلى اللاتينية ، وكانت مرجعا هامـا للعلماء الغربيين •

إن الفرغاني كان سباقا إلى اكتشاف الشمس والسيارات ترسـم مدادات في الاتجاه المعاكس للحركة النهائية ، أما ثابت بن قرة فقـد حسب الارتفاع الشمسي الظاهر وطول السنة الشمسية ، أما البيروني

فقد صاغ نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس ، أما ابن الهيثم فأول من قرر أن الرؤية تتم بواسطة شعاع تطلقه العين في اتجاه الجسم المنظور ، بل بواسطة أشعة تطلقها الأجسام المضيئة إلى العين التي تراها بواسطة جسمها الشفاف ، إن أوروبا قد تعرفت الى أهم مؤلفات القدماء بواسطة العرب الذين ألهبوا في أوروبا بفضل تراجمهم وتعليقاتهم روح البحث العلمي فلقد نقلوا أرقامهم وأدواتهم المحكمة ، حسابهم وجبرهم ، علم مثلثاتهم ، على بصرياتهم ، وإنه لمن السخف أن تعيش العبقرية الإسلامية على مقاييس العبقرية الإغريقية ، ونلومها لافتقارها إلى التعليل الفلسفي للكون ، وإن لكل عبقرية طابعها الخاص ، وطريقتها الخاصة وإن مآثر العرب والمسلمين الخالدة لتقوم على تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية الموروثة عن الإغريق ، إن العرب والمسلمين هم مبدعو هذه التجربة بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم المبتكرون الحقيقيون للاستقصاء العلمي ، فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام أو الطريقة الاستقرائية : الطريقة العلمية الأساسية ، إن المنجزات التي حققها رواد العلم الإسلامي على أساس المشاهدة والتجربة سوف تحدد الحركة الأولية لتحرر الفكر الغربي عن طريق : روجر بيكون ، والبير الكبير ، وليوناردو فنشي .

وبعد ذلك كان طبيعيا أن يظهر كتاب « أوروبا ولدت في آسيا » الذي قال صاحبه : إن انجازات العلماء العرب ربما تكون قد أنقذت أوروبا من الأوبئة خلال تلك العصور ، وخاصة في دراسة تضميد الجراح ودراسة السرطان وأمراض الدورة الدموية والدرن والاضطرابات البصرية وأمراض النساء ، وفي احتفال مهيب أقامته الدولة الألمانية

في مدينة نوبلجن في العام الماضي . قال دكتور مورش : إن الحضارة الأوروبية مدينة للحضارة العربية أنها ـ أي الحضارة الأوروبية ـ أصبحت في عصر النهضة مشبعة بالاستعداد لاكتساب المعرفة بعيداً عن الأحكام المسبقة ، ونحن نعرف ذلك الإصلاح النابع من اكتساب الأرقام العربية الهندية في الرياضيات ، وكان الطب الأوروبي بحاجة إلى زمن طويل لاستيعاب المعرفة التي قدمها الأطباء العرب ، وكان علم الفلك معتمداً على الحسابات التي اتخذها العلماء العرب بناء على دقة في المراقبة كانت مجهولة في الغرب ، كما أننا مدينون في مجال إدراك العالم ونظام الشمس بصورة كبيرة للعلماء العرب ، وقد ساعد المبدأ الإسلامي المبني على عدم وجود تعارض بين الدين والعلم على تحرير العلوم في أوروبا من التصلب الذي قبلته الكنيسة ، كذلك أضفت الموسيقى العربية طابعها على الموسيقى الأوروبية ، أما فن الشعر ولا سيما الألماني منه قد انتفع دائما من الكنز اللغوي العربي الذي اكتسبه ، وها نحن نحتفل بمرور ٢٢٥ عاماً على مولد جوته الذي يعتبر مؤلفه « الديوان الشرقي » مثالا حيا على تلك التأثيرات ، لقد كان من الطبيعي أن الحضارة العربية بلغت ذروتها في الموضع الذي بلغ فيه قربها من الغرب ، وحده الأقصى كان ذلك في أسبانيا أو الأندلس ، وقد تحقق هناك تعايش امتد لمئات السنين ، وما زلنا إلى اليوم نتحسس آثاره .

فإذا أضفنا إلى هذا الأبحاث التي جرت بين المسلمين والغرب بشأن الشريعة الإسلامية ومعطياتها قلنا : فما عبرة ذلك كله في هذا الوقت بالذات في السنوات الخمس الأخيرة من القرن الرابع الهجري ؟ :

أعتقد أن هناك إرهاصات كثيرة تكشف عن الدور الجديد الذي سوف يقوم به عالم الإسلام في القرن الخامس الهجري ، وهذه الصورة

التي نقدمها من الاعتراف بأثر الإسلام على الغرب على هذه الصـــورة الواضحة والواسعة والعميقة ، هو واحد من هـــذه الإرهاصات التي تتجمع لتشكل قوة واضحة منها : التفوق البشري ، ومنها امتلاك الطاقة، ومنهـا امتلاك القدرة الاقتصاديـة المادية ، ومنهـا السعي لامتلاك التكنولوجيـا •

ولكن هذا كله لا يفرحنا بقدر ما يلقي على أكتافنا مسئولية الدور الذي سيقوم به العرب والمسلمون للبشرية في عصرها الجديد ، وأول هذه المسؤولية هو ضرورة الانطلاق من نطقة الإسلام :مـن الشريعـة الإسـلامية كنظام للمجتمـع ، ومناللغة العربيـة كمصدر للعلـم والتكنولوجيا ، ولنحذر من كل المحاولات التي يراد بها خداع البشرية عن حقيقة أساسية : هي أن الإسلام شيء مختلف تماماً عن الأديـان والعقائد والنظم التي عرفتها البشرية ، وأنه هو وحده القادر على أن يعطي العالم حاجته إلى العدل والحرية والكرامة والإخاء الإنسـاني ، وأنه مهما قيل في التقائه جذريا مع أصول الأديان السماوية ، فإنه يتميز بذاتيته الخاكمة وسلامة مصادره ،واحتفاظه بنص كتابه الموثق وبمفهومه القائم على التوحيد الخالص لا يشاركه في ذلك دين أو عقيدة أخرى • وتلك ميزته التي أصبحت تؤهله الآن في نظر الأمم التي جربت عشرات المذاهب والأيديولوجيات ، تلك ميزته التي تؤهله إلى أن يكون هـو منهج حياة الغد القريب للعالم كله •

الفصل السادس

الحضارة الإسلامية تأخذ طريقها إلى العطاء

لم يعد هناك مفر بعد أن وقف المسلمون والعرب اليوم على مفرق الطريق بين « عصر الاستعمار والتبعية » الغارب ، وعصر « الرشد الفكري والأصالي » الذي نعايشه اليوم وصولا إلى عصر النهضة ، من أن يتوقف باحثون غربيون كثيرون ليدرسوا مستقبل الحضارة الاسلامية التي توقفت عن العطاء ، ثم أخذت تستعيد اليوم قدرتها وكفايتها وتتمثل هذه الظاهرة في أكثر من موقف :

أولا ـ صدر في أمريكا كتاب عن أحد كتاب اسبانيا هو أمبرتو كاسترو وهو أحد الكتاب الإسبانيين الذين هاجروا إلى أمريكا بعد الحرب الأهلية الأسبانية ، درس فيه المجتمع الإسباني في القرن السادس عشر «أي :القرن العاشر الهجري» وهي فترة تمثل أزهى فترات الحضارة الإسلامية في الأندلس وانتقالها إلى أوروبا ، وقد شدّت أفكار هذا الكتاب مثقفين كثيرين أمريكيين ، منهم الدكتورة مادلين فليتشر التي حولت دراستها إلى حضارة المسلمين في أسبانيا والتي تقول : لقد شدّتني الأفكار التي جاءت في هذا الكتاب ، فقررت أن أدرس حضارة المسلمين في أسبانيا لكي أقف على الدور الذي لعبته اسبانيا

في عهدهم ، ولذلك وجب علي أن أبدأ بدراسة اللغة العربية دراسة عميقة ، قالت الدكتورة مادلين : إن خير شاهد على التأثير الذي تركه المسلمون في إسبانيا وفي الحضارة الأوروبية ، هو اللغة الإسبانية نفسها التي ما زالت زاخرة بمئات الكلمات العربية والتي انتقلت منها إلى اللغات الاوروبية الأخرى مثل كلمات الكحول والقطن والجبر والياسمين وغيرها .

أما إذا حاولنا أن نرصد هذا التأثير من ناحية واحدة مثل الأدب ، فيمكن أن نأخذ لذلك مثالا ، وهو الكوميديا الالهية لدانتي ، فهذا التشابه بين « رسالة الغفران » لأبي العلاء والكوميديا جاء من اطلاع الشاعرين على التراث المشتمل على قصة الإسراء والمعراج في القرآن الكريم والحديث الشريف إلا أن أبا العلاء قرأ ذلك باللغة العربية ، ودانتي قرأه باللغة اللاتينية التي ترجم إليها القرآن الكريم ، وبعض كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب ، ومن هنا نفهم سر هذا التشابه ، لقد كانت إسبانيا القنطرة التي عبر عليها التراث الإسلامي مترجما إلى أوروبا .

ثانيا ــ هذا الاهتمام البالغ بالتراث العربي في معادلات الكيمياء والعلوم واللغة العربية ، فنجد أمامنا أطروحة جديدة للدكتور ليمهاوس عن دراسة الفرق بين الفعلين : فعّل بتشديد العين ، وأفعل في اللغة العربية ، وخاصة من خلال آيات القرآن الكريم ، يقول الدكتور ليمهاوس : لقد دفعني إلى هذه الدراسة تلك الفكرة الشائعة عن اللغة العربية ، وهي أنها لغة مترادفات ، وهذا غير صحيح ، فكل اسم وفعل في اللغة العربية له دلالة خاصة ، فمثلا « فعّل » بتشديد العين ، يدل على أن الفعل يشير إلى شيء غير معروف لدى السامع أو القارىء ، أما

« أفعل » فيدل على أن الشيء المتحدث عنه معروف لدى السامع أو القارىء ، ويمكن أن نمثل لهذا بالآية الكريمة في سورة الطارق (فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا) فالفعل (مهل) الأول : يشير إلى إعطاء فرصة للكافرين حتى يثوبو إلى رشدهم ، ويرجعوا عما هم فيه ، والفعل الثاني (أمهل) : يعطيهم الفرصة الثانية في حالة ما إذا صدر عنهم شيء محدد ، أي : أن فرصة السماح الأولى تعطى لهم لإثبات حسن النية وفرصة السماح الثانية تعطى لهم أيضا ولكن في حالة ارتكابهم مايخالف أوامر الله سبحانه وتعالى، وبعد ذلك يكون الحساب، وعلى هذا فليس صحيحاً مايقال بأن هذا تكرار أو تبرير هذا التكرار بتأكيد الفعل • ولكن هذا الأمر هنا يتعلق بالاستخدام اللغوي للفعل ، وما يترتب على هذا الاستخدام من فهم المعنى الحقيقي للآية الكريمة •

ثالثا ـ في كتاب الفيلسوف جارودي « من أجل حوار بين الحضارات » الذي صدر أخيرا يقول : ان معركة « بواتييه » التي انهزم فيها العرب أمام الجيوش البربرية الفرنسية لم تكن هزيمة للعرب بقدر ما هي هزيمة للإنسانية ، فلو قدر للعرب المسلمين أن ينتصروا في تلك الموقعة لكانت الإنسانية متقدمة بقرون عما هي عليه اليوم ، ويقول : إن كثيرين من العرب لم يقرأوا ما قاله أناتول فرانس : إن أسوأ أيام فرنسا هي تلك التي انهزمت فيها جيوش العرب المسلمين أمام الجيوش الفرنسية إذ حالت هذه الهزيمة دون دخول فرنسا مبكرا في دائرة الحضارة التي كان العرب يحملونها معهم أينما حلوا ، كما كان في الأندلس ، ويقول : إن كثيرين من الأوربيين قد نسوا قولة فرانس هذه ، ولكن جارودي أعاد تلك الصرخة العقلية من جديد في كتابه الجديد •

ويقول في مجال تصنيف الحضارات : إن الحضارة العربية

الإسلامية من أعظم الحضارات وأعمقها ، وهذا التصنيف وهذه الصرخة التي لها مدلول خطير في هذه المرحلة التي تمر بها الإنسانية ليست الأولى ولا الأخيرة ، فقبل جارودي قال برتراندرسل : ان الحضارة العربية « الاسلامية » لا يمكن مقارنتها بالحضارة الغربية المعاصرة ، فهذه الحضارة الأخيرة قدمت للعالم كل شيء مقابل إنسانيته ، أما الحضارة الإسلامية فلم تكن لها تلك الجوانب السوداوية التي تكتنف جوانب الحضارة الأوربية المعاصرة .

ويؤكد جارودي في كتابه « حوار الحضارات » أن الغرب يعيش في هذا الربع الأخير من القرن العشرين أزمة ثقافية حادة ، أوجدها التطور القائم على إرضاء الرغبات ، وهي المعضلة الرئيسية التي تواجه ضمير الغرب ، ويحاول جارودي تخطي المفهوم الغربي للتطور الذي يعاني منه في آن واحد : الفكر الرأسمالي والفكر الماركسي ، ويجد أن تطور الغرب يقوم على ثلاث قواعد رئيسية هي في أساس المأزق الحضاري : وهي تحول الغرب من أولوية العمل إلى الاحتفال بالرقص والعبث ، ويقول : لقد كانت قاعدة الحضارة الغربية الثانية هي أولوية العقل والمنطق ، فاقتصر الفكر على الذكاء فلم يكن للوجدان مكان ، والقاعدة الثالثة هي قاعدة التطور الكمي دون الرجوع إلى مشروع إنساني يهدف الى نوعية حياة معينة ويقول : ان الحضارة التي تملك هذه الأسس الثلاثة تملك كل مسببات الانتحار ، ويقول جارودي : إن الغرب خاف العالم الثالث حين سار على طريق النمو منذ دخول الإنسان الأبيض القارة الافريقية خلال القرن الخامس عشر لم يكن هناك فارق شاسع بين مستوى تطور المجتمعات الافريقية الحضاري ومستوى تطور الغرب ، ولم يتأكد الفرق وتتسع الهوة بشكل مطلق

إلا بعد أن نفذت المذابح ضد الهنود في أمريكا الشمالية والجنوبية •

وكشف جارودي عن الثمن الذي دفعته الإنسانية حتى وصل الغرب إلى مدنيته ، وكيف أن ملايين من الهنود الحمر ذبحوا من أجل الاستيلاء على أراضيهم ، فأصبح فيمتناول الغرب مساحات شاسعة ومصادر ثروة ضخمة وقتئذ ، ولما كانت اليد العاملة قليلة العدد أنشأ الغرب العبودية ، وبدأت دفتر مرحلة جديدة هي مرحلة «تدمير افريقيا» لقد حل هذا الدمار بواسطة نزف اليد العاملة الذي افتعله البيض بقتلهم أعدادا ضخمة من العبيد للعمل في أمريكا •

ويقول جارودي : إن عملية « العبودية » كانت أساس أكبر إبادة شهدتها البشرية حتى الآن ، لقد أدى دخول البيض لافريقيا إلى هلاك مائة مليون افريقي •

ويقول : لقد فرض على البلاد المستعمرة اتباع أنواع لا تقتنع بها ، فشاهدت هذه المستعمرات مجاعات كبيرة نتيجة خراب اقتصادها الطبيعي ، ويقول جارودي : هذا هو ثمن نمو الغرب الذي أدى إلى دمارها يسمى بالعالم الثالث •

وقال جارودي : إن هناك أزمة ضمير بالنسبة للحضارات التي كتب لها الغرب ان تخضع في حين كان في استطاعتها أن تعطي الكثير للإنسانية بسبب تفوقها ، هذه الحضارات هي الحضارة الإسلامية والصينية والهندية •

ويقول : إن ما حققه المسلمون في اسبانيا عظيما ، لقد حملوا معهم نظاما اجتماعيا يفوق ما كان موجودا ، وظهروا بمظهر المحررين عندما أطلقوا الاقنان من سيطرة القوط ، ثم عدلوا عن مصادرة الأراضي لأن القرآن يمنع ذلك •

إن نهضة اسبانيا كما يذكر الكاتب بلاسكوايبانيز لم تأت من عصابات الشمال البربرية بل حملها اليهم عرب الجنوب بعلومهم الرياضية والطبية والبحرية المتطورة وفلسفتهم الاجتماعية وثقافتهم المزدهرة .

ويرى جارودي أن الأمة العربية يمكن أن تنجح في أخذ معطيات العلم من الغرب ، ثم تصهرها في نظامها العام القائم على المعتقدات والعادات التي تنظم علاقات الإنسان بالطبيعة .

ويقول : إن بعث المستقبل الحق يشترط العثور ثانية على الأبعاد الإنسانية التي تفتحت في الحضارات والثقافات غير الغربية .

وبعد : فإن هذه الكتابات التي تناولت الحضارة الإسلامية بين دورها الاول ودورها المرتقب قد تعددت في السنوات الثلاثين الأخيرة بل قبل ذلك حين تناولها جوستاف لوبون ودابر وكارليل ، ثم جاءت كتابات أرنولد توينبى وشينجلر والدكتورة سجريد هونكه لتضع إطارا واضحا يكشف موقف الفكر الغربي من الحضارة الإسلامية ، قوامه الاعتراف والتقدير ، ومنذ سنوات تتوالى المؤلفات عن هذا الحدث ، وخاصة بعد حرب رمضان ، وإن كان جارودي قد كشف عن رأيه هذا منذ وقت أبعد غير أن المحاولات التي ترمي إلى تطعيم الحضارة الغربية بالفكر الإسلامي، والتي يرددها توينبي وجارودي اليوم إنما هي محاولة نظرية محضة ذلك لأ نالحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي إنما يصدران من وعاء له أصالته الخاصة وذاتيته المفردة التي لاتتشكل بالانصهار في وعاء آخر ، والتي يجب أن تقيم حضارتها الجديدة ومجتمعها الجديد بمعزل عن الحضارة والمجتمع الغربيين القائمين الآن ، واللذين قد أصابهما العطب والفساد ، وذلك لأن الحضارة الغربية قد بلغت مرحلتها الخاتمة التي لا تستطيع معها أن تعدل مسارها ، وخاصة

بعد أن سيطر عليها الفكر التلمودي الوثني الربوي الذي أخذ يحتويها منذ قيام الثورة الفرنسية التي أقامها اليهود لتحطيم وحـدة المجتمـع المسيحي الغربي ، ولفرض نفوذهم وسيطرتهم الاجتماعية والسياسية على المجتمع الأوربي •

وجارودي يعترف في كتابه أن أغلب الأيديولـوجيات الحديثـة والمعاصرة هي وليدة الثورة الفرنسية كاللبرالية والشيوعية والفاشيـة والنازية ، ومن هنا فإن الفكر الماركسي الذي يدين به جارودي نفسه هو فكر تلمودي يهودي مصاغ في أساليب حديثة ماكرة تخفي ظاهرة ولكنها تعجز عن إخفاء جوهره ، والعالمون بتحولات التاريخ الحديث يعرفون عمق العلاقة بين الثورة الفرنسية وبين الانقـلاب الشيوعي الروسي ، وبين إزالة الخلافـة الإسلامية ، وهي أعمال ثلاث كبرى ، قامت بها اليهودية العالمية لإقرار وجـود للصهيونية في قلب العـالـم الإسلامي •

وقد تبين الآن للباحثين بوضوح عمق الصلة الليبرالية الغربيـة والماركسية الشيوعية ، وأنهما من تموجات العقلية اليهودية ، كذلـك لم يعد هناك سبيل إلى إنكار العلاقة الجذرية بين الصهيونية والشيوعية، وأنهما وليدتا اليهودية العالميـة ، ومن عجب أن ترى ماركس وفرويـد وسارتر ، وكل منهم يعمل في ميدان لهـدم المجتمـع والقيم الانسانية « الاقتصاد ــ النفس ــ الأخلاق » كل من هؤلاء الثلاثة قد ألف كتابا عن المسألة اليهودية مما يؤكد العلاقة العميقة بينهم وبين تلك الجـذور الأصيلة ، كذلك فإن هناك الصلة العميقة بين هرتزل صاحب كتاب الدولة اليهودية ، وبين فرويد صاحب مذهب التحليل النفسي وصاحب نظرية الجنس التي هدمت المجتمع الأوروبي ، وكذلك الصلة العميقة بين هيس

صاحب الفكرة الصهيونية وبين ماركس صاحب نظرية رأس المال ، وكل هذا الفكر يتحرك بوضوح في إطار « امبراطورية الربا » التي اقامتها اليهودية العالمية ، وكشفت عنها بروتوكولات صهيون •

ولذلك فإن محاولة ربط الحضارة الإسلامية التي تأخذ طريقها اليوم إلى العطاء مرة أخرى بعد التوقف بالحضارة الغربية التي احتوتها اليهودية التلمودية ، هو من الأمور المستحيلة ، فلكل وجهة هو مولّيها •

■ ■ ■

تحديات في وجه التاريخ الإسلامي

تحديات في وجه التاريخ الاسلامي

اولا : مخططات صهيونية لتزييف التاريخ الاسلامي والعالمي

ثانيا : ابعاد خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين .

ثالثا : التحديات التي تواجه التاريخ الاسلامي .

الفصل الأول

مخططات صهيونية

لتزييف الفكر الإسلامي والعالمي

من أبرز الظواهر التي تواجه الباحث المسلم للتيارات الوافدة :

أولاً — إن السيطرة الصهيونية قد وسعت حلقاتها بالنسبة للدراسات العربية في الغرب ، وخاصة في الولايات المتحدة .

ثانيا — إن السيطرة الصهيونية قد أوجدت تأثيراً ضخماً على الفكر الغربي نفسه ، وإن هدف السيطرة الصهيونية في كلا الميدانين واحد في هدفه وغايته ، وإنه يحاول إيجاد ركيزة عن طريق الفكر لتحقيق غاياته الخطيرة في تركيز وجوده في قلب العالم الإسلامي ، وفي الوصول منها إلى غايته الكبرى في السيطرة العالمية .

ومن خلال دراسة تقارير عديدة نجد أن الاهتمام الحقيقي بالدراسات العربية — على حد تعبير الدكتور إبراهيم أبو لغد — إنما ينبعث أصلاً من ذلك الحقد الذي ورثه الإنسان الأوروبي الأمريكي من تاريخه نحو الحضارة العربية الإسلامية التي أضاءت ظلمات القرون الوسطى المظلمة . فكانت محاولته هذه للتسلح بسلاح يمكنه من التقليل من أهمية هذه الحضارة ، وليوضح اعتمادها على الحضارات الأوروبية السابقة ، واعتماد الإسلام على النصرانية واليهودية ظنا منه

أن هذا الفهم الخاطىء سيحرم الحضارة العربية الإسلامية أصالتهـا ، ويتأكد هذا حينما نعلم أن المسيطرين على توجيه الثقافة الأمريكية هـم أساتذة اللاهوت المقارن ، وهم من اليهود أو المسيحيين الذين كانـوا يعملون في مجال التبشير في بعض بلاد العالـم العربي ، والمعروف أن التبشير المسيحي قد ارتبط بالحكومات الاستعمارية التي اتخذت منه أداة للسيطرة على المنطقة فكريا وعونا في سيطرتها المادية .

وقد توسعت هذه الدراسات العربية في الجامعات الغربية عامة، والأمريكية بصفة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، ويبين هـذا مـن اهتمام مؤسسة فورد في طرح مشروع العربية الأساسية الذي هو دعوة إلى استعمال العاميات الإقليمية ، وخاصة في لبنان .

وإذا كانت هذه المراكز قـد قامت تحت لواء التبشير والاستعمار الغربي ، فإن الصهيونية قد استطاعت احتواءها والسيطرة عليها علـى نحو مكَّن لهم من السيطرة على الدراسات العربيـة في الجامعـات الأمريكية ، ومنها تمكنوا من توجيه الإعلام الأمريكي والثقافة الأمريكية فيما يتعلق بالتاريخ العربي واجتماعياته وسياسياته ، وتقوم هذه المراكز في جامعات : برنستون ، وشيكاغو ، وهارفارد ، وكاليفورنيا ، وتجرى استعانتهم بأساتذة الجامعة العبرية .

وقد كان لهذا العمل أثره البعيد في الدراسات المطروحة في العالم كله عن العرب والإسلام والقائمة على تزييف التاريخ الإسلامي والواقع العربي ، وتستهدف هذه السيطرة العمل على :

أولا — طرح جوانب مسمومة من التاريخ الإسلامي والادعاء بأنها أعمال ثورية وإيجابية ، وخاصة منها ما يتعلق بالحركات التي قام بهـا خصوم الإسلام لضربه من الداخل كالقرامطة والزنج والبابكية ، وكانت الصهيونية قد عقدت مؤتمرا في جامعة بلتمور عام ١٩٤٥ لهذا الغرض

اتجه كثير من المستشرقين وأتباعهم من دعاة التغريب إلى دراسة هذه الحركات وتصويرها في مؤلفات كثيرة على أنها ثورات إسلامية ، وكان الدكتور طه حسين هو أول من حمل لواء هذه الدعوة حين كتب عن دعاة الحرية ودعاة العدل في مجلة « الكاتب المصري » التي تبين من أن إحدى الشركات اليهودية الصهيونية هي التي كانت تتولى إصدارها.

ثانيا ــ التشكيك في الترابط التاريخي والصلة بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وولديه إسماعيل وإسحاق ، وذلك رغبة في حجب إسماعيل والادعاء بأن ملك إبراهيم قاصر على خلفاء ابنه إسحاق، وفي ذلك مؤامرة خطيرة لحرمان العرب من نصيبهم في ملك إبراهيم وإمامته العالمية .

وتجد دوائر المعارف الغربية ، بل ودائرة المعارف الإسلامية مسمومة الاتجاه فيهذه الناحية لسيطرة النفوذ الصهيوني على مادتها ، بل وعلى كتابها الغربيين ، وخاصة في مادة :

عرب ، إسلام ، إبراهيم ، إسماعيل ، فلسطين .

ثالثاً ــ التركيز علىالعلاقة بين العرب والإسلام من ناحية ، وبين مفهوم العروبة والمفاهيم العنصرية المرتبطة بالأوطان الضيقة كالمصرية والسورية والعراقية في محاولة إيجاد فواصل وخلق حواجز ، ولقد كان لهذا التيار اليد الطولى في ابتعاث صيحات الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام من فرعونية وأشورية وبابلية وغيرها من دعوات .

بل لقد كان من أبرز أعمال المستشرق اليهودي « برنارد لويس » محاولة تزييف صفة العروبة وإثارة الشبهات حولها ، وقد استحق بذلك جائزة إسرائيل التي أنعمت عليه في العام الماضي بالدكتوراه الفخرية ، لما أثاره من شكوك وما طرحه من شبهات في هذا الاتجاه .

رابعاً ــ ما طرحته الدوائر الأجنبية في السنوات الأخيرة مما يطلق عليه تفسير التاريخ الإسلامي بمنهج عصري ، هذا المنهج سواء أكان ماركسيا أم صهيونيا أم غربيا ، فإنه يعتمد اعتمادا أساسيا على الأساس المادي للبحث ، وهكذا نجد أن الاتجاه الاستشراقي يتضخم في أهدافه التبشيرية والاستعمارية والصهيونية والماركسية ، فيضمها جميعاً في تيار واحد ، يحاول إفساد مفهوم التاريخ رغبة في إثارة الشبهات في النفس العربية الإسلامية ، والعقل العربي الإسلامي ، وخلق أجواء من الانتقاص والاحتقار والاضطراب من شأنه أن يقطع هذه الصلة القوية بين الأمة وتاريخها وأمجادها التي انتصرت بها على كل محاولات الغزو، والمتصلة على التاريخ •

خامساً ــ غلبة التفسير العنصري للتاريخ على الدراسات الوافدة عن التاريخ الإسلامي ،وقد حاولت هذه الأبحاث تصوير أحداث التاريخ في صورة نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة من فرس وترك وبربر وغيرهم ، وذلك على النحو الذي سار عليه المستشرقون من أمثال : فان فلوش في كتابه « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات » وولهاورن في كتابه « الدولة العربية وسقوطها » اللذين أظهرا تاريخ القرن الأول الهجري ــ على حد تعبير الدكتور فاروق عمر فوزي ــ وكأنه صراع دموي بين الأسياد العرب وسكان البلاد المفتوحة وقد تأثر بهذا المنهج أتباعهم من تلاميذ المستشرقين ودعاة التغريب ، فطبقوه على حركات القرامطة والباطنية والحركة البابكية بالذات التي صورت في صورة انتفاضة قومية إيرانية •

وأبرز علامات فساد هذه المناهج أنها تجرد مثل هذه الحركات من سياقها التاريخي الشامل وتحصرها في جانب واحد مبالغ في إظهاره متناسية الجوانب الأخرى •

سادساً ــ كذلك كان من هذه الاتجاهات الخطيرة في تزييف التاريخ الإسلامي محاولة تطبيق « المذهب المادي » في تفسير الأحداث، واعتبار أسلوب الإنتاج وصراع الطبقات أساساً وحيداً لهذه الحركات والمظاهر التاريخية مهملين كافةالعوامل المتشابكة والفاعلة الأخرى من سياسية وروحية ونفسية وقومية واقتصادية واجتماعية وظروف بيئية •

سابعاً ــ ولقد أصبحنا نجد الآن عشرات المناهج الوافدة التي حاولت قوى الاستشرق الصهيوني فرضها على الدراسات العربية لبلبلتها وتزييفها وإفساد مقدراتها الحقيقية ، فنجد التفسير المادي للتاريخ ، التفسير الاقتصادي للتاريخ ، التفسير القومي للتاريخ، التفسير السياسي للتاريخ ، التفسير الأخلاقي للتاريخ •

والواقع أن هذه في حقيقتها جوانب من تفسير واحد لا يعرف التاريخ الإسلامي غيره ، وهو التفسير الإسلامي للتاريخ الجامع لكل هذه الجوانب ، والذي يضيف إليها عاملاً أساسياً هاماً هو عامل الوحي والنبوة وآثارها البعيدة في تحقيق كثير من النتائج وتغيير كثير من الأوضاع ، وهو مالا تعترف به المذاهب المادية •

ولا ريب أن كل هذه المحاولات التي تفرضها الصهيونية على دراسات التاريخ الإسلامي العربي إنما تستهدف تدمير النفس الإسلامية العربية وتزييف الحقائق بغية إقرار مفهوم مخالف ومعارض للفطرة والعقل واتجاه التاريخ •

أما المحاولة الأخرى فهي تستهدف السيطرة على الفكر الغربي من أجل خداعه عن الحقائق الأساسية وفرض مفهوم التلمود والصهيونية وزرعه في العقل الغربي ،ويتمثل هذا العمل في :

أولاً ــ إثارة العاطفة الدينية المسيحيةبتأكيد الربط بين العهد

القديم والعهد الجديد في الكتاب المقدس وطبعهما معاً ، وفرض مفاهيم العهد القديم على الطلاب في مختلف مراحل التعليم بهدف إقناع العقل الغربي منذ الصبا بأن هناك نبوءة زائفة ترمي إلى عودة اليهود إلى أرض الميعاد التي طردوا منها ، وأن مايحدث الآن في فلسطين هو تحقيق هذه النبوءة • ولقد سيطرت هذه الفكرة المسمومة على الجماعات المسيحية البروتستانية ، وخاصة في انجلترا والولايات المتحدة • وقد حـاول الكثيرون من الفاهمين لزيف الدعاوى الصهيونية كشف هذا الخطـأ ، ولكن أصواتهم ماتزال ضعيفة ، بل إن الكنيسة قد أعلنت في السنوات الأخيرة عن تبرئة اليهود من محاولـة قتل سيدنا عيسى عليـه السلام « ولا نقول من محاولة صلبه ، فإنه في الحقيقة لم يصلب ، وإنما صلب بدلاً منه تلميذه الذي حاول أن يدلهم عليه ، أما المسيح عليه السلام فقد رفعه الله إليه » •

وأعتقد أن من واجبنا أن نفهم هـذا المفهوم حيث نجد الصحف تضحي بهذه الحقيقة العلمية في سبيل اتهام اليهود بما لم يحدث حقيقة ، وهو الصلب الذي لا يقره الإسلام ، والذي أعلن القرآن صراحة أنـه لم يقع بالنسبة لسيدنا عيسى •

ثانياً ـ محاولة خداع الأجيال الغربية الجديدة بما يصفه اليهـود بأنه مأساة قتل ستة ملايين يهودي خلال الحرب العالمية الثانية على يـد الألمان ، وقد كشفت الأبحاث المتعددة أخيراً من المؤرخين المنصفين على زيف هذا الادعاء الذي اتخذه اليهود تكأة لهـم للسيطرة على فلسطين وتهجير ملايين كثيرة بحجة الهروب من أفران التعذيب ، ويؤكد المنصفون من المؤرخين أن الذين قتلوا من اليهود لايزيد عددهم على مئات •

وتستهدف الصهيونية من تضخيم هذا الحدث إلى التأثير في الفكر العالمي وفرض عقدة الذنب على الأمة الألمانية ، وإخفاء تأثيرهم في تدمير

ألمانيا كلها التي كانت قد عارضت نفوذهم معارضة شديدة ، وحرصت على أن تكون قادرة على تدمير نفوذهم الربوي الاقتصادي المتسلط ، وهذه هي الحقيقة التي يحاولون إخفاءها بالحديث الدائم عن النازية وجرائمها •

ثالثاً — تصوير الثورة الفرنسية بأنها عمل من أضخم الأمجاد التاريخية ، وقد كشفت الأبحاث التاريخية عن أن اليهود كان لهم أثرهم البعيد في تأجيج هذه الثورة للقضاء نهائيا على عزلتهم في الجيتو ، وأن هذه الثورة إنما حققت لهم إعلاء أمر المواطنة على أمر الدين ، وبذلك بدأت سيطرتهم السياسية والثقافية على مقدرات أوروبا كلها •

رابعاً — إن اليهودية الصهيونية إنما تستهدف تزييف الفكر الغربي المسيحي واحتواءه ، والتمهيد لسيطرتها العامة على مقدرات البشرية عن طريق ما يسمونه بالحكومة العالمية • ويبدو هذا واضحاً في المذاهب الاجتماعية والسياسية المسيطرة الآن في الغرب وقادتها يهود : ماركس ، ودوركايم ، وفرويد ، وسارتر وغيرهم •

ويبدو هذا في معارضتهم الصريحة لصيحات التي تحاول أن تجدد من وجود الفكر الغربي المسيحي ، ويبدو هذا في حملة جورج شتائير اليهودي على « س • ت • اليوت » في كتاب « في قلعة ذي اللحية الزرقاء » ، وفي هذا الكتاب محاولة الصهيونية الواضحة في احتواء الفكر الغربي وتحويل مجراه في الاتجاه الذي تستهدفه بروتوكولات صهيون ، ويتصل بهذا محاولة خلق دور حضاري مختلق لليهود ليجعل منهم حملة ألوية المدنية عبر التاريخ ، وذلك ما ينكره البحث العلمي الصحيح •

الفصل الثاني

أبعاد خطّة تزييف تاريخ العرب والمسلمين

ماتزال خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين لحساب الصهيونية التلمودية من الأعمال الضخمة التي قام بها الاستشراق الغربي «المسيحي واليهودي» والتي لم تستكشف بعد أبعادها الواسعة ، وفي كل يوم نجد خيطاً جديداً يضاف إلى سابقه ، فتبدو الصورة أشدّ خطراً مما كان متصوراً من قبل ، ولا ريب أن المثقفين المسلمين في حاجة إلى متابعة الكشف عن هذه الخطوط والأبعاد حتى يعرفوا مايراد بهم ، ومدى خطة الاحتواء ، ومدى زيف تلك الشبهات والسموم التي أصبحت كالمسلمات ، بينما هي من افتراءات الإسرائيليات الجديدة التي جددت الإسرائيليات القديمة ، ومنطلق البحث أنه قبل إبراز فكرة الصهيونية في العصر الحديث لمخطط متجدد ومنبعث عن «التوراة» التي كتبها حكماء اليهود إبان السبي البابلي و «التلمود» الذي جاء بعد تدمير الرومان للقدس ، هذا المخطط هو «بروتوكولات صهيون» التي عرفت لأول مرة عام ١٨٩٧ ، وفي خلال إعداد هذا المخطط كانت هناك محاولات جبارة تعمل على وضع مفهوم الصهيونية التلمودية في داخل كتب التاريخ والموسوعات العالمية ، وإدخالها في مناهج المدارس والجامعات الغربية ومعاهد الإرساليات في العالم الإسلامي ، وقد تمت هذه المحاولة الخطيرة بواسطة مجموعة ضخمة من المفكرين الغربيين الذين أحتوتهم

الصهيونية : شلومر ، بروكلمان ، رينان ، دوركايم ، ديزي .. الـخ . وذلك بالإضافة إلى الاستشراق اليهـودي الصهيوني « مارجليوت ، وجولدسيهر، وبرناردلويس .. الخ» وقد حاولت هذه الخطة تحقيق عدة أهداف :

أولاً — ابتكار فكرة « السامية » التي نسبت إليها كل أمجـاد التاريخ العربي القديمة قبل الإسلام وسلبه مـن أصحابـه الحقيقيين ، وخاصة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وأبناءه وأحفاده ، وإضافة هذا المجـد الى مصدر غامض ليس لـه سند علمي ، ويستمد مصدره الأساسي مـن التوراة التي كتبها اليهـود بأيديهـم ، وليست التوراة الحقيقية المنزلة على موسى عليه السلام ، وذلك بهدف إشراك اليهـود مع العرب في هذه الأمجاد بينما لا يوجد لليهود أي اتصال بإنشاء هذه الحضارة . ويستتبع هذا الخطر إيجاد صلة ما بين العربية والعبرية علـى النحو الذي حاوله الكتاب الذين كتبوا ما أسموه : « تاريخ اللغـات السامية» وقاموا بتدريسه في الجامعات وهـم : إسرائيل ولفنسـون ، وشاخت ، ثم الدكتور مراد كامل .

ثانياً — محاولة التشكيك في رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز وإقامة ابنه اسماعيل وزوجته هاجر بمكة ، وهذا يبدو واضحاً من تجاهل التوراة لهذه الواقعة التاريخية ، ومحاولة إثارة الشبهات فيها ، وقـد ردد الدكتور طه حسين هذا القول في كتابه « في الشعر الجاهلي » .

ثالثاً — محاولة اعتبار « التوراة » مرجعاً للبحث العلمي ، مـع أن شهادات كل علماء الغرب تؤكد مانراه نحن المسلمون من أن التوراة الموجودة الآن قد كتبها أحبار اليهـود ، منهـا ما كتب أيام المملكـة الإسرائيلية ، ومنها ماكتب في المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبـل الميلاد بنحو ثلاثة قرون .

رابعاً ــ محاولة خلق تصور زائف بأثر اليهود في الجزيرة العربية وفي الأدب العربي •

خامساً ــ محاولة إيجاد ترابط بين العرب واليهود ، والقول بأنهما أبناء عمومة ، وذلك كله يستهدف التمهيد للدعوة إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين •

سادساً ــ إعلاء شأن « إسحاق » على « اسماعيل » وهما ابنا ابراهيم عليه السلام ، وأكبرهما إسماعيل الذي هاجر به وأمه إلى مكة والذي أقام معه القواعد من البيت الحرام ، والذي امتحن بذبحه ،وجاءه الفداء من السماء ، والهدف هو إخراج ابناء إسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه ابراهيم من ربه ، وقصر الوعد على أبناء إسحاق وإسرائيل تحت اسم أسطورة « شعب الله المختار » •

هذه هي أطراف المؤامرة الخطيرة لتزييف تاريخ الإسلام والعرب قبل الإسلام لحساب الصهيونية التلمودية ، وقد جرى تطعيم دوائر المعارف وكتب التاريخ ومناهج المدارس والجامعات بهذه المفاهيم واستكتاب عشرات الكتاب لبحوث متعددة منوعة ، تدور حول هذه الشبهات لخلق أدلة مضللة لتثبيتها في الأذهان •

وتكاد فكرة السامية أن تكون أخطر هذه الشبهات وأسوأ المحاولات التي اتخذت لتزييف تاريخ إبراهيم والحنيفية : ذلك الأثر الضخم في الجزيرة العربية والعرب جميعا جزء منه منذ ذلك الوقت البعيد ، وعلى امتداده إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي عبارة أو مصطلح لم يرد مطلقا في كتابات العرب والمسلمين على مدى التاريخ ، وقد استمدت أساساً من نص من نصوص التوراة المكتوبة بأيدي الأحبار ، وفي ظل تقسيم وهمي للأجناس البشرية مستمد من

أسماء أبناء آدم إلى البشر : « سام ، وحام ، ويافث » وقد برز هـذا المعنى في ظل تقسيم مستحدث ظهر في أوروبا إبان استعلاء نزعةالعنصرية الأوروبية التي قسمت العالم إلى ساميين وآريين لتضع العرب والمسلمين في قائمة موازية للجنس الآري صانع الحضارة الذي وصف بكلصفات العبقرية والعظمة والاستعلاء على البشر • وخضوع الأجناس الأخـرى إليه ، وكان هذا التنظير الذي ألبس ثوب العلم ، إنما يستهدف اعطـاء الاستعمار « مبرراً » علميًا لسيطرته على الأمم المغلوبة الملونة غـير الآرية الأوروبية •

غير أن المحاولة التي حاولت أن تضع عبارة : السامي والساميـة بديلاً للعرب والعربية ، أو للإبراهيمية الحنيفية ، كانت محاولة ماكرة خطيرة استهدفت حجب أمجاد التاريخ القديم عن العرب وإلصاقها باسم قديم لا يعرف التاريخ الصحيح له مصدرا واضحاً ، والغربيون يعلمون أن التوراة الصحيحة مشكوك فيها ، ولذلك فإن الاعتماد عليها في إقامة نظرية تعطي كل هذا القدر من التوسع والنـمو والسيطرة في دوائـر الثقافة والعلم والجامعات ، هو أمر لا أساس له من منهج العلم الصحيح، ولقد كانت اليهودية الصهيونية من وراء هذه النظرية في سبيل طمس التاريخ العربي السابق للإسلام وتزييفه بفرض دور وهمي لليهـود في الحضارة ، وفي الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وإحياء اللغة العبريـة وإعطائها رصيداً زائفاً من الصلة باللغة العربية هو أكبر بكثير من حجمها الطبيعي ، وفكرة السامية تدور حول القول بأن هناك أصـلاً واحداً مشتركاً للعرب واليهود،ومحاولة إعطاءالعبريين أثراً ومكانة غيرصحيحة في حضارات الشرق القديم ، وقد كان « شلومر » هو أول كاتب غربي استعمل مصطلح السامية في النصف الثاني من القرن الثامـن عشر ، واعتمد في هذه التسمية على نص من التوراة ، وقد كانت الصهيونيـة

وراء هذه الفكرة ، ومن ثم فقد اتسع نطاق هذه المقولة ، وأقام عليها الكتاب الموالون للصهيونية والاستعمار ما أطلق عليه اسم « علم الأجناس » ولغياب الفكر الإسلامي في هذه المرحلة فقد اتسع نطاق الفكرة الإسرائيلية ، وسيطرت على مناهج الجامعات ودراسات الثقافية جميعاً ، وفي كلية الآداب بالجامعة المصرية تقررت دراسات اللغات السامية لتمكين اللغة العبرية،وقام على هذه الدراسات مستشرقون يهود في مقدمتهم : يوسف شاخت ، وإسرائيل ولفنسون اللذان أخذا يخدعان شبان المسلمين بقولهم: إن العربية ليست سوى عبرية مقلوبة، وإن العرب انما اتخذوا اسمهم من « عربة » التي هي في العبرية بمعنى الصحراء ، وكان الهدف هو خلق مفهوم زائف للصلة بين العرب واليهود من ناحية ، وبإعطاء اليهود مكاناً زائفاً في مجال الآداب والعلوم .

وقد كانت مؤامرة السامية هذه موضع نقد الباحثين العرب والمسلمين منذ وقت طويل، فلم تفتهم تلك الخطة الماكرة التي استهدفت اعتبارها منهجاً من مناهج الدراسة الجامعية ، وإعطاء شبهاتها صيغة المسلمات ، وقد جاء ذلك في الوقت الذي حمل فيه الدكتور طه حسين لواء الدعوة إلى تجديد دراسة الأدب وفق المناهج الحديثة ، والبحث في الشعر الجاهلي ، فقد كان الهدف من ذلك هو القول بأن اللغة العربية ، لم تكن لغة واحدة في الجزيرة العربية ، وأن هناك لغة في الجنوب ولغة في الشمال ، وهي محاولة مضللة تستهدف التشكيك في وحدة اللغة العربية قبل الإسلام ، وإثارة الشبهات حول نموها واتجاهها إلى اتخاذ مكانها الذي أهلها لتكون لغة القرآن ولسان الإسلام .

كذلك فإن الدكتور طه حسين قد هيأ لشاب يهودي استقدمه من فرنسا إعداد دراسات متعددة حول اليهود في جزيرة العرب ، وتاريخ اللغات السامية ليحشد فيها تلك المخططات التي أعدتها الصهيونية

لتزييف التاريخ الإسلامي ، وبذلك استطاعت الصهيونيــة العالمية أن تحمل نظريتها إلى قلب الفكر الإسلامي والأدب العربي لتضرب به ذلك المفهوم الأصيل الذي عرفه المسلمون ، واستوعبته آثارهم وتراثهم ، وقد عاش الدكتور طه حسين حياته كلها يحاول إقناع المسلمين والعرب بأن لليهود فضلا على أدبهم وتاريخهم وتراثهم ، ولقد عمل مبكراً لتحقيــق هذا الهدف حين أعلن عن أن وجود إبراهيم وإسماعيل ليس حقيقـــة تاريخية ، وإن ورد ذلك في القرآن ، وقد كذبته الحفريات الأثريــة . ومن عجب : أن يؤمن طه حسين بالتــوراة في شأن الساميــة ، ويكفر بالقرآن في شأن إبراهيم وإسماعيل ، وقد دعا طه حسين في محاضراته المتعددة المسجلة في مجلة الجامعة المصرية وغيرها إلى ما أسماه : فضل اليهود على الأدب العربي ، وأنهم قالوا شعراً في الدين ، وهجاء العرب، وأثبتت لهم سابقة في الجاهلية ، وردد ذلك إسرائيل ولنفنسون في كتابه « اليهود في جزيرة العرب » الذي قدمه طه حسين بعبارات التمجيــد ، ونقده الدكتور فؤاد حسنين نقداً علمياً في مقدمة كتابه الذي ترجمه عن الدكتورة سجريد هونكه . « شمش الله تشرق على الغرب » .

ولا ريب أن الهدف هو طمس الرابطة بين الإسلام الذي جاء بــه محمد صلى الله عليه وسلم في القرن السادس الميــلادي ، وبــين دعوة إبراهيم التي بدأت منذ ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وذلك أن إقامة ابراهيم ابنه اسماعيل في قلب الجزيرة العربية في مكة وبناء الكعبة علامة خطيرة في تاريخ العرب وتاريخ العالم كله ، ولها تأثيرها الواسع على النظريـــة الزائفة التي تدعو إليها الصهيونية العالميــة ، ولقد تجــاهلت التوراة المكتوبة بأيدي الأحبار ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز ، وبنــاء البيت مع ابنه اسماعيل ، وقد عمد اليهود إلى طمس حقيقة وعد الله تبارك

وتعالى لإبراهيم ، فجعلوه قاصراً على إسحاق ، وتجاهلوا ابنه الأكبـر إسماعيل،وحاولوا اخراجهوإخراجأبنائهالإثنيعشرمنحقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه ، وابتكروا أكذوبة شعب الله المختار القاصر عـلى أبناء إسرائيل ، والواقع أن تاريخ هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم عليـــه السلام « ١٧٥٠ قبل الميلاد » هو تاريخ الحنيفية الإبراهيمية العربيـة الذين أطلقتهم الجزيرة في موجات متوالية أمتدت من حدود الفرات إلى المغرب ، وأن فكرة السامية التي اصطنعها اليهود لحساب الصهيونية ، ورددها طه حسين ، وقررها للدراسة في الجامعات تحت اسم اللغـات السامية ، لم تكن شيئاً معروفاً لدى العلماء والباحثين العرب وغيرهم ، و لاتوجد أي إشارة إليها في أي كتاب من الكتب أو حفرية منالحفريات أو الأسانيد المكتوبة على الأعمدة أو الآثار القديمة • وإن جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصحيحة في كتب اليونان والرومان وأسفار العهد القديم منذ ألفين وخمسائة سنة « أي منـذ ألف سنة » قبـل الإسلام، وتدل على هذه النقوشوالمدوناتالقديمة،وإناللغةالعربيةهي اللغة التي تكلم بها سكان الجزيرة والنازحون منها منذ ألف وخمسائة سنة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها أو بعدها قليلاً أو كثيراً عن اللغـــة الفصحى •

ولا ريب أن هذا كله لا يغيب عن فطنة الدكتور ممد رجبالبيومي الذي يجب أن يضع في اعتباره هذا الدور الخطير الذي قام به الدكتور طـه حسـين •

الفصل الثالث

التحديات التي تواجه التاريخ الإسلامي

كان من أخطر ما أعلنته مناهج الإرساليات في معاهدها وجامعاتها منذ وردت أرض الإسلام أنها تلقن التاريخ، وتعلمه لطلبتها كأنه علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقرار ، فلا يكفي النقل فيه بل يجري تطبيقه على قوانين الاجتماع الجديدة •

وهذا التصريح ثابت لأحد مؤسسي هذه المعاهد ، وهو الخطة التي اعتمدت ، وسار العمل عليها خلال هذه السنوات الطويلة التي أتست المائة منذ وطئت هذه المعاهد أرض الإسلام ، وسيطرت على عدد كبير من مثقفيها وشبابها وما تزال •

وما تزال دراسة التاريخ في معاهد الإرساليات والجامعات من أخطر التحديات التي تواجه المسلمين والتي هي بعيدة الأثر في تكوين أجيالهم وشبابهم عاما بعد عام وعصراً بعد عصر •

والقضية ليست في محاولة تفسير التاريخ تفسيرا ماديا صرفا ، وإنما القضية أبعد من ذلك كثيرا لأنها تبدأ بالشباب المسلم من غير المنطلق الصحيح له ، فهي تفرض أساسا : وهو أنه ليس عربيا ولا مسلما ، ولذلك فهي تعلمه تاريخ العالم من وجهة نظر غربية ، ثم

تسير معه إلى إعلاء شأن حضـارة اليونان والرومان مقدمة لإعـلاء حضارة الغرب الحديثة .

فاذا جاء ذكر العرب والمسلمين ، فهو لا يرد الا في باب الأمـم المستضعفـة التي سيطر عليها الغرب رغبة في تمدينها ونقلها من عالـم التخلف إلى عالـم التحرر ، ومن ثم تنبني في تفكـير الشباب المسلم مسلمات بعيدة عن الحقيقة ، أو تبني وجهة نظر الغربي نفسه في النظر إلى العرب والمسلمين حيث يجري تبرير استعماره لأرضه واحتلالـه لبلادهـم .

فاذا ما أريد إعطاء دور للعرب والمسلمين ، فإنما هو دور تابـع أو تكميلي ، فالنظرية الغربية تقوم على أن البحر الأبيض المتوسـط هو صاحب الحضارة قبل الإسلام بألوف السنين ، وأن الاسلام حين جاء إنما كان جزءا من هذه الحضارة ، وذلك من المفاهيم الخاطئة التي يراد بهازعزعة إيمان المسلم والعربي بذاتيته وحضارته وتاريخه .

ومن ثـم فإن هذه الأجيال المتواليـة التي تعلمت في مدارس الإرساليات قد آمنت بوجهة النظر الغربية الاستعمارية هذه عـلى أنها هي الحقيقـة العلمية ، بينما اختفت الحقيقـة وراء ركام ضخـم من النظريات الزائفة .

ولا ريب أن كل أمـة لها تراثها ومنهجها وقيمها : تكون لهـا فلسفتها التاريخية ونظرتها إلى الكون والحياة وتطور الأمم ، فلم يتبن ّ المسلمون والعرب وجهة نظر الغرب التي هي في أقل الفروض مختلفـة تماما عن وجهة نظرهم ان لم تكن متعصبة ومخطئة .

وذلك أن الفكر الغربي قد شكل مفهومه التاريخي في ضوء التفوق الذي أحرزه في القرون الأخيرة ، وفي ظـل اندفاعته الاستعمارية إلى

أرض المسلمين للسيطرة على ثرواتهم وخاماتهم وأسواقهم .

ومن ثم فانه يحاول أن يبرر موقفه من خلال نظرية تاريخية يفترض منها تخلف هذه الأمم ، ليكون ذلك مبررا لسيطرته ، ثم إنه يحاول أن يلقن هذا المعنى لأبناء هذه الأمة ليخلق منهـم أتباعا يؤمنون بـه ، وينبهرون لعظمتـه ، ويرون رأيه في أن مستقبل هـذه الأمة مرتبط بحضارته ومعطياته ، وليس الأمر كذلك في الحقيقة ، فإن المسـلمين والعرب لهم ماض وحضارة وتاريخ بعيد المدى في أحقاب الخليقـة ، وهم الذين قدموا للبشرية هذا الميراث الضخم من المعرفة والعلم والخبرة قبل أن ينشأ الغرب ، من خلال رسالات النبوة التي توالت قبل الإسلام فلما جاء الإسلام كانت أوروباتعيش عصورها الوسطى المظلمـة التي أخرجها منها المنهج العلمي التجريبي الإسلامي ومعطيات الفكر الإسلامي التي حررت الغرب من الوثنية والعبودية والرهبانية ودفعتها إلى مجال النهضـة .

وما من علم من علوم العصر إلا وللمسلمين فيه أثر وعمل وإضافة، وكل هذا مما تغمط حقه دراسات التاريخ التي تقدمها معاهد الإرساليات وجامعاتها ، حيث تقدم الصورة من نحو آخر ، كأنما الغرب هو وحده العالم ، وأن تاريخه هو تاريخ العالم ، ولقد ظلت مناهج الغرب تتنكر لفضل الإسلام وأثر حضارته وقتا طويلا ، وما يـزال الاستعماريون ينكرون هذا الفضل ويغمطون هذا الحق .

ولقد شكل التاريخ الإسلامي صفحات مشرقة من البطولة والنضال والكفاح ومقاومة الغاصب والمحتل والدخيل على مدى العصور ، وهذه الصفحة كلها ممـا تحجبه الدراسات العصرية الجامعية ، او تحـاول التشكيك فيها وإثارة الشبهات حولها ، بل إن بعض رجال الإرساليات يهاجم بشدة أن يتخذ التاريخ وسيلة للنهضة أو منطلقا إلى بناء الأمة ،

ولقد كان تاريخ الأمم ولا يزال عاملا هاما في إثارة النفوس إبان الأزمات ووسيلة هامة للتربية ، ولقد جددت الأمم الغربية أجيالها وشبابها بواسطة إحياء التاريخ وإعادة الكشف عن صفحاته الباهرات ، فكيف ينكر على المسلمين والعرب وحدهم أن يتخذوا هذا الأسلوب من أساليب النهوض والبنـاء .

نحن نعلم أن الغربيين أدخلوا على تاريخهم ــ كل على حدة ــ ما يرفع شأن الناشئة ، ويبعث في قلوبهم الحماسة ، وفي نفوسهم الإيمان بوطنهم وأبطالهم وقيمهـم ، وجعلوا هذا آمرا منفصلا عن دراسـات التاريخ الخاصة بتقييم الأحداث ، فماذا يمنع المسلمين والعرب من أن يفعلوا ذلك ؟ ولماذا يقدم التاريخ الإسلامي على أنه صورة الصراع بين الخلفاء والأمراء والقـادة ، وعلى أنه صورة التضارب بـين الفرق والاحزاب ، ولماذا الاصرار على إبراز هذه الزوايا وتجاهل عمل النهضة والتقدم ومعطيات الحضارة والتمدن ، ولماذا يتخذ هذا الأسـلوب بالنسبة لتاريخ الاسلام وحده ، ولا يتخذ في تاريخ ما قبل الاسـلام، وحينما تقرأ دائرة المعارف الاسلاميـة ، بروكلمان ، المنجد ، جرجي زيدان ، فليب حتى ، تجد هذه الشبهات وهذا الانتقاص ، وتشويه صور الحضارة الاسلامية وتجميع الافتراءات والاتهامات على الاسلام ونبي الاسلام ، ومن هذه المصادر يأخذ مدرسو التاريخ ، وعليها يعتمد أساتذة الجامعات ، وخاصة وأن عددا كبيرا من غير المسلمين يتـولى الآن تدريس التاريخ الاسلامي على أنه تاريخ عربي ، بينما لا يوجـد فاصل يفصل بين تاريخ العرب وتاريخ الإسلام منذ نزل الإسلام إلى اليـوم .

ولا ريب أن كثيرا من الباحثين قد تنبه إلى ذلك وأشـار إليه ، فالاستاذ يوسف العش يقول في مقدمة كتابه عن الدولة الأموية :

« لقد حاول الكثيرون أن يصموا تاريخنا بكثرة الفتن والحروب والمكايد والاضطرابات ، وليس هناك مجال للرد عليهم ، غير أن النظرة الصحيحة إلى التاريخ من خلال عوامله العديدة تعطي البيان الواضح عن أن هذه الوصمات لا أصل لها صحيح ، وأن كـل ما في الأمر أن هناك تفاعلات في المجتمع الإسلامي العربي تأخذ طريقها ، ولا بد أن تأخذ طريقها إلى ذلك المجتمع ، وأن هذه التفاعلات سنة من سـنن الله ،ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهي تفاعلات تحدث في كل أمـة ، بل إن الأمم الأخرى كانت تتلقاها بعنف أكبر مما تلقاها به المسلمون والعرب ، وتاريخ الأمم دائما ممزوج بالحروب والفتن والاضطرابات أكثر من التاريخ العربي » .

وإذا قارنا بين تاريخ الإسلام والعرب وتاريخ الأمم الأخرى لوجدنا فوارق عميقة ،فالتاريخ الإسلامي تاريخ كرامة وإيمان وسماحة وبطولة، لكنه بعيد عن العدوان والدماء والمقاصل ومحاكم التفتيش وأساليب القتل الجماعي الذي تحفل بها تواريخ الأمم ، ومن هنا فإنه جدير بأن يدرس على أنه نموذج لأمة كريمة ، وأهله أحق بأن يعرفوه على حقيقته، وأن يدرسوا انتصاراته وهزائمه على السواء ، فالانتصارات هي الضوء الكاشف للمسلمين والعرب إلى مواجهة المواقف المتجددة ، والهزائـم تدلهم على أوجه القصور والتقصي ، سواء في السلاح أو في الوحدة أو الايمان مما يدعوهم إلى أن ينتفعوا بها في حاضرهم ومستقبلهم .

وليس صحيحا كل ما يثار حول التاريخ الاسلامي من أن المسلمين يرغبون في الرجـوع إليه ، وما من عاقل يصدق أن التاريخ يرجـع القهقري ، وأكثر الناس فهما لتطور الزمن وتغيير البيئات والظروف هم المسلمون الذين تعلمـوا كيف يقيمون ترابطا صادقا بـين الثوابت والمتغيرات ، وبين الماضي والحاضر ، وبين التاريخ والواقع ، هذا فضلا

عن أنهم يفرقون تماما بين النظام الاسلامي والتاريخ الاسلامي ، فالنظام الاسلامي هو القانون الثابت ، أما التاريخ فهو تجربة التطبيق والممارسة، وفيها الخطأ والصواب ، وليس خطأ التاريخ في الممارسة راجعاً إلى النظام ولا يتحمل النظام عجزه وقصوره ، وإنما يتحمل المسلمون أخطاء انحرافهم وعجزهم عن مواءمة أنفسهم مع المنهج الأصيل الحق •

كذلك فنحن يحق لنا أن نذكر أن محاولات تزييف تاريخنا لم يتوقف ، وأن محاولات تفسيره تفسيرا ماديا أو اقتصاديا أو استعماريا لم يتغير ، وأن هناك محاولات للتشويه وللتجزئة وللاهمال وللتجهيل ترمي إلى عرض مقاطع مختارة لتصور على غير حقيقتها ، أو تمزق وصالها ، واهمال كل ما هو مدعاة للفخر والاعتزاز •

كذلك فقد جرت المحاولات لإحياء جوانب غامضة من التاريخ وإعطائها طابعا يوصف بالثورة أو التقدمية ، وفي مقدمة ذلك الاهتمام بالذين انقضوا على الدولة الاسلامية من الخونة الذين تعاملوا مع الأعداء كالقرامطة والزنج وغيرهم وتصويرهم في صورة حركات تقدمية •

وكان مما قرره مؤتمر بلتيمور الصهيوني في أمريكا : تنظيم ومضاعفة عمليات التزييف في تاريخ العرب وملء العالم بالمطبوعات والرسائل الدعائية التي تحتضن وجهات النظر الصهيونية •

كذلك هناك المحاولات المتعددة لإنكار فضل العرب والمسلمين عن النهضة الحديثة وإنكار أثر المسلمين في الحضارة الحديثة والدور الذي قاموا به في الأندلس وصقلية •

وبعد ، فإننا نؤمن بأن تاريخ الإسلام لا يحاكم إلى أي منهج من

المناهج الغربية ، وإنما له منهجه الأصيل المستمد من كيانه وأصوله ، وهو تاريخ يتسم بالتوحيد والطابع الإنساني ، ولذلك فهو يتعارض مع مناهج التفسير التاريخي التي تقوم على المادة أو العنصرية أو الوثنية ، وسوف يظل التاريخ الإسلامي ضوءا كاشفا لمسيرتنا ، وليس عبئا علينا، وسوف ننتفع ببطولاته وانتصاراته في طريق حياتنا ، كما سوف نبحث هزائمنا ونلمس منها العبرة التي لا نقع فيها بعد .

* * *

الباب السادس

تحدّيات في وجه المجتمع الإسلامي

اولا : ظواهر خطيرة في المجتمع الإسلامي

ثانيا : الهيبيون المحتجون على عالمهم المنهار

ثالثا : المقاييس المنحرفة في البطولة والفن والموت

الفصل الأول

ظواهر خطيرة في المجتمع الإسلامي

أبرز ما يكشف عنه إعصار الحضارة الغربية في مظاهرها التي اجتاحت البلاد العربية والإسلامية ، تلك الأجيال الساذجة البسيطة التي تواجه الحياة في غير اهتمام ، كأنما هي لعبة أو تسلية أو ساحة لهو وركض ، يلبسون ما يشاؤون ، ويأكلون كما يشاؤون ، ولا يرون لأمر من أمور الحياة نظاماً أو قانوناً ، ولا يجعلون من وراء عملهم أو حركتهم مساءلة أو وجهة أو خوفاً من خبراء ، كأنما ليس في الحياة إلا المتعة واللعب واللهو .

هذه النظرية اللاهية إلى الحياة دون تقدير المسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان ، إنما جاءت العرب والمسلمين نتيجة ذلك الإعصار الخطير الذي فرضته الحضارة الغربية في صورتها التي نقلت إلى بلادنا ، وهي ليست إلا ملبساً مزخرفاً ، أو أغنية طربة ، أو فكاهة تافهة . تلك هي الظاهرة التي سيطرت على المجتمع الإسلامي اليوم ، فعزلت المسلمين عن المفهوم الحقيقي للحياة ورسالتها وأسلوب العمل فيها على النحو الذي جاء به الإسلام .

فالحياة الإنسانية ـ في الحقيقة ـ ليست لعباً ولا لهواً ، وليست مراحاً يسرح فيه الناس كما يشاؤون: ساعات لاهية أمام مسرحيات ليست

من واقع الحياة ، أو مراقص أو شراب وسهر حتى مطلع الفجر ، ثم نوم حتى منتصف النهار ، أو هي حركة بطيئة كسولة منفصلة عن حركات الليل والنهار ، استهانة بها ، هذه هي السذاجة التي أدخلتها الحضارة الغربية التي تمر بأسوأ مراحل انحلالها على المسلمين اليوم عازلة لهم عن مفهوم الإسلام للحياة ومسؤوليتها وتبعة السعي فيها ، فالحياة مسؤولية جادة ، وأذان يؤذن للوقت حينما يحل ، يجعل المسلم مرتبطاً بالزمن ارتباطاً دقيقاً متصلاً ، ويجعل وقته محسوباً عليه ، وهو محاسب عليه ، هذا هو الشر الخطير الذي يجعل المسلمين في مجال السذاجة والغفلة حيث تضيق ساحة الفكر والنظر ، فتقصر على الأمور المعاشة والحدود الضيقة من الحياة ، بينما جاء الإسلام لينقل المسلمين إلى الفكر والنظر ومعرفة أبعاد الحياة في اتصالها بأول الوجود وآخر الحياة على وجه الأرض ، وما بعد الحياة من حياة أخرى فيها الحساب والجزاء .

لقد جاء الإسلام ليخرج الناس من ضيق المحدود المادي إلى الآفاق الواسعة الرحيبة ، ليجعل الناس قادرين على فهم الحياة في أوسع منطلقاتها ، معرفة عميقة لا يخدعهم بها أصحاب المطامع الذين يعملون على حبس الناس في المفاهيم المحدودة الضيقة ، فلا يكون لهم من مشاغل أو هموم سوى مطاعمهم وملابسهم وكلمات ساذجة يشغلون بها أوقاتهم وأيامهم ، بينما يضعهم الإسلام على آفاق العلم والفهم العميق للحياة ودور الإنسان فيها ، ومقدرة الإنسان على الانتقال من الأنانية إلى الغيرية ، ومن الأهواء إلى الأشواق ، ومن الأمور المادية الى القيم المعنوية .

إن أكبر ما أعطى الإسلام للإنسان الفكر والذكر ، وهذه هي نقلة البشرية بالإسلام من الوثنية والمادية والإباحية والأشياء الصغيرة التافهة.

لقد دعا الإسلام إلى الفكر والذكر ، وبذلك أعلن أن البشرية أصبحت قادرة على أن تدخل مرحلة المعنويات والأشواق العليا ، وتعرف خالقها تبارك وتعالى ، وتصل إلى ذلك عن طريق البيان ، فكان القرآن الكريم هو البيان المعجز : أعلى آيات البلاغة والدعوة الكبرى إلى النظر في الكون والتأمل والذكر والفكر ، ذلك الارتفاع فوق طفولة البشرية بالنظرة الشاملة ذات الأبعاد التي تربط بالأزل والأبد ،وبالدنيا والآخرة ، وتستمد أول منطلقها من الحق تبارك وتعالى ، ثم تعود إليه بعد جولتها .

ولقد كانت معجزة الإسلام هي القرآن معجزة بيان وفكر وذكر وأصالة ، فهي ميراث النبوة كله ، وعلامة رشد ، وارتفاعها فوق المادية، ومن هذا المنطلق أصبح المسلم أعلم الناس بواقعه وحياته وهدف حياته ورسالته التي وكل الله أمرها إليه ، داعياً للحق ، حاملاً الأمانة مدافعاً عن البيضة ، مجاهداً في سبيل ربه ، وفي سبيل كلمة التوحيد ، بائعاً نفسه وماله وكل ما يملك رضاءً لربه الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .

ونحن نأسف اليوم حيث نرى أن محصلة التمدن الغربي الذي وقع بالعالم الإسلامي كله ، قد نقل الناس إلى سذاجة الطفولة البشرية، ومحدودية الحياة ، حتى لم يعد الناس يرون إلا ما تحت أقدامهم ، وقد شغلتهم تفاهات الحياة ، وتكالبوا على فتاتها ، وباتت سعادة اللحظة العابرة عندهم ذات أهمية كبرى دون تقدير لما وراءها وما بعدها من حسرات السنوات والعمر ، كما غلبت النزعة المادية الجشعة والأنانية الفردية ، حتى أنكر الابن أباه ، والرجل أهله ، واندفعوا في سبيل تحصيل لذات عارضة ، والغلو في معطيات مادية تافهة ، أصبحت عندهم هي المثل الأعلى ورمز التقدم والارتفاع ، ومن ثم غلبت على الآداب : الأساطير ، والخرافات القديمة ـ وتجددت ، وغلا الاهتمام بالخيالات

عن تغييب الواقع وراء أغنية طائرة ، أو قصة خادعة ، أو سهرة فارهة ، يقول : أريد أن أنسى الواقع ، وما ذلك إلا لون من المخدر الـذي يتجاهل به الإنسان سير الأمور ، وما هذه الغيبية إلا محاولـة لتأجيل النظر في أمور ، سوف تعود من بعد ، وقد تراكمت وتضاعفت ، بينما الإسلام يطلب إلينا أن نواجه الواقع ، وألا نغيّب أنفسنا وراء أهواء قد تحجبنا ساعة أوساعات ، تعود أشدّ قسوة ، كذلك يطلب الإسلام إلينا ألاّ نغير واقع حياتنا بالخداع أو التعديل أو الإضافة « كما يفعل لابسو الشعر المستعار ، أو الذين يعملون على تجميل بشرتهم » فـإن ذلك كله إنما هو محاولة لانتقاص التطور الطبيعي للحياة ، وابتعاد عن الواقع الذي يجب على المسلم أن يواجهه في صراحة ، وأن يتكيف له ، ويصلحه بالوسائل الصحيحة .

ولا ريب أن المســرحية والأغنية وتلك الفنون المتصلـة بالقصة والسينما وغيرها هي من باب تغييب العقل ساعة أو ساعات عن واقــع الحياة ، أو محاولة إسعاد النفس بالوهم والمخدر . ثم إذا تعود بهـا مرة أخرى إلى طبيعتها ، وقد تضاعف الإحساس بالواقع الذي هــرب منه صاحبه ، تلك صورة الخطر الذي يواجه المجتمعات الإســلامية اليوم نتيجة ذلك الانفصال عن أصالة الإسلام وطابعه الاجتماعي جريا وراء دائرة الحضــارة الغربية المنهارة التي تمر بأسوأ مراحل أزمتهـا واضطرابهـا خروجاً من مقدراتهـا العلمية إلى انحرافهـا الأخلاقي والعقائدي ، ودخولاً في مرحلة الصراع والتمزق والاغتراب والغثيان .

الفصل الثاني

الهيبيون المحتجون على عالمهم المنهار

هذه الصفوف من الشباب التي تجوب الأمصار باحثة عن بديـل لعالم منهار ، لـو كانت جادة حقاً فإنـه ليس سوى الإسلام البديل الحقيقي لعالمهم الذي يرفضونه •

هذه الكلمات التي يرددونها عن الرائحة الكريهة المنبعثة من جسم الغرب المنهار والنزيف الدموي الداخلي الذي يسيل في أجساد الجيل الجديد والذي يبحث عن نهاية سعيدة ، نقول لهؤلاء وهؤلاء : ليس سوى الإسلام •

لقد جربتم خـلال سنوات طويلـة : الليبراليـة ، والماركسية ، والوجودية ، فما وجدتم إلا الانحلال والغثيان والضياع والغربة •

فما بقي من مذاهب ونظم وأيديولوجيات لم تجربوه إلا هـذا الذي يتصل مرده بالسماء ، ويرتبط بالفطرة ، ويحقق وجود الإنسان ، ويعترف برغباته المادية وأشواقه الروحية •

إن هذه الصفوف من الشباب الـرافض تقتحم الآن عالم الشرق والإسلام ، وتذهب إلى الهند باحثة عن فلسفة بوذا ، وعن مفـاهيـم الغنوصية ، وعن سر اليوجا ، ولن يجديها ذلك شيئاً ، ولن يغيّر هذا

من كيانها شيئاً لأنها تريد أن تستبدل الفكر البشري في مجال المادية بالفكر البشري في مجال الحدس ، وكلاهما منفصل عن جوهر التوحيد الذي هو المفهوم الحق الجامع بين الجسم والنفس ، والمادة والروح ، والقلب والعقل ، وليس على الأرض من يحمل رسالته الحقة غير الإسلام.

إن أحداً من الفلاسفة ، سواء أكان سارتر أو ماركوز أو أوتومونو، لن يستطيع أن يدلكم على الطريق لأنهم هم أنفسهم لا يعرفون الطريق ، إنهم غرقى في أوهامهم وظلام نفوسهم ، وهل يستطيع أن يضيء النور من ليس معه نور ؟ ، إنهم يذكرون أغنية الاحتجاج التي نظمها ديلان ، والتي يقول فيها : إن الجيل القديم يندهش لقلق الشبيبة وضياعها ، ولا يملك أن يرى عن قريب ذلك النزيف والاحتضار الناتج عن عالم متكالب آلي لا إنساني ،يموه حقيقة الصراع ،ويمتص الغضب الهادر أو يؤجله بعض الوقت ، نعم هو هذا ، لأن العالم القديم لا يملك شيئاً إزاء ما أحدثته مفاهيم فرويد وسارتر وماركس ودوركايم وماركوز ، وكلها مضللة باطلة ، اندفعت من منطلق تدمير قيم الأخلاق والدين والنفس والوجدان والعقل في الأمم ، إنها مؤامرة الجنس المختار على الأممية والجويم ، إنها محاولة تحطيم الجيل الناشيء حتى لا يكون قادراً على مقاومة مؤامراتهم وخطتهم الرهيبة ، إنهم قد تمكنوا في خلال مائة عام أن يسيطروا على الفكر الغربي ويحتووه ، ويحطموا كل ما فيه من قيم المسيحية والروح والأخلاق . وما كان يعرف بالفلسفة المثالية ، وذلك حين وضعوا خطة الفلسفة المادية ، وفرضوها على الاقتصاد والنفس والأخلاق والاجتماع والتربية ، ثم جاءت الماركسية لتكون نظاماً يحطم الدين ، ويفتح الطريق إلى الإلحاد ، وقد تسلمت هذه الشبكة كل الجوانب « فرويد ـ النفس » . « ماركس ـ الاقتصاد » . «دوركايم ـ الاجتماع » . « سارتر ـ الأخلاق » فاهتزت النفس الغربية تحت

ضربات المعاول ، وناءت بحربين عالميتين أكلتا من أهل أوروبا والغرب أكثر من مائتي مليون من البشر لحساب الصهيونية التلمودية •

هذه حقائق يجب أن يعرفها الشباب العربي الغاضب « شباب الهيبية » الذي يظن أنه يفعل شيئاً بصيحته الرافضة لمجتمعه وفكره ، ولقد نعرف أن هذا الشباب الغاضب يطالب بالبديل ، ولكن الفكر المادي الوثني الإباحي الذي ترسمه هذه المخططات لا يعطي البديل ، وإنما هو يغير فقط الشبهات ، ويملأ النفوس بالقلق والإزعاج والصراع والغثيان • ثم يترك القوم سكارى وما هم بسكارى ، حيارى ولا معين لهم ولا دليل ، فإذا أرادوا أن يبحثوا عن طريق تقدم الناصحون المبطلون فدلوهم على « البوذية » وماذا تعطيهم البوذية ، وهي سراب من علم الروح والعاطفة والخيال ، والاستسلام وقتل الإرادة والحرية دون أن تجد فيها ضوءاً واحداً يهدي إلى الله الحق خالق كل شيء ، ورب كل شيء ، الحقيقة الأولى والكبرى ، ومنطلق الفكر والنفس والوجود ، الذي أرسل رسله ، وأنزل كتبه لتهدي النفس إلى التوحيد الخالص ، ومنه هدى القلوب ونور البصائر ، وسكينة النفس حيث يعرف الناس سرّ وجودهم ورسالتهم في الحياة ، وإرادتهم الحرة ، وسعيهم ومسؤوليتهم وجزاءهم ، ودعوتهم إلى بناء المجتمع الرباني على الخلق والرحمة والإخاء البشري •

لا بد أن يعرف الجيل الغاضب هذا كله ، وليعلم أن علاجه في يد طبيب واحد ، وشفاؤه يرجع إلى دواء واحد ، وأن ذلك كله ليس في الغرب ولا في الشرق ، لا في المادية ولا في الروحية ، وإنما هو في الإسلام ، وأن القوى التي شمرت وجوده وأوقدت النار في قلبه وصهرته في الحيرة سوف تسد الطريق في وجهه حتى لا يعرف الطريق الصحيح

إلى الحق ، إنهم أحسوا بفشل الليبرالية الغربية ، والماركسية المادية ، وعرفوا زيف الوجودية ، وفساد الحضارة ، وآثام الفن ، وخطأ الاندفاع وراء الشهوات ، ولكن : هل عرفوا العودة إلى الله ؟ . إنه قريب منهم ، إنه موجود في ذلك الكتاب الذي مازال يربط السماء بالأرض ، كلمة الله التي لا تموت ، إنه بين أيديهم ، فلينظروا فيه ، وليطلبوا قبل ذلك هداية الله إلى الحق ، وإن الله لن يهدي إلا من أحب .

أما الطريق المادي الذي يسلكونه والأوهام الجديدة التي يعشقونها بديلاً عما هم فيه ، فإنها لن تصل بهم إلا إلى مزيد من الحرج والضيق .

فإن كان هؤلاء صادقين في الرغبة إلى التماس الطريق الصحيح ، فليس هذا هو أسلوب البحث ،ولكنهم يخطؤون حين يعلنون رفضهم لمجتمعهم ، ثم يذهبون إلى أبعد مما هو فيه من خطأ ودمار ، إلى إقامة مجتمع شديد مظلم قائم على العري والفحش والدمامة في الملابس والشعر والأظافر ، وموارده هو التسول .

إن هذا الأسلوب لا يدل على أنهم طلاب حق ، أو دعاة إلى معرفة، فإن أسلوب الباحثين عن الخير والحق لا يكون هكذا مزيداً من الانحراف ، ومن هنا نعرف أن من وراء هذه الصفوف الغاضبة التي تقطع الطريق جيئة وذهاباً بين الغرب والشرق من يحركها ويضللها ، ويحاول أن يستفيد بحركتها الرافضة مزيداً في زعزعة المجتمعات الغربية وحدها. ومن ثم تسقط تلك العبارات الباطلة التي يرددها بعض كتاب الشرق حين يصفون هؤلاء بأنهم « رافضون » يطلبون نوراً ، أو أنهم معارضون يطمعون في الوصول إلى الحق .

ولا ينخدع أحد من شبابنا المسلم إزاء هذه الصيحات الضالة المضلة ، وليعرفوا أنها ليست إلا صوراً من الإثم ، وأن دعوتها هي خلاصة فكر مسموم لا يهتدي إلى حق ، ولا يطلب إلا مزيداً من الظلام .

الفصل الثالث

المقاييس المنحرفة في البطولة والفن والموت

لا ريب أن حياة المسلمين في هذا العصر قد دخلتها دخائل كثيرة انحرفت بمفاهيمها عن الأصول الأصيلة لأمور الحياة والموت والبطولة وتقدير الناس ، وذلك راجع أساساً إلى تلك القيم الوافدة التي جاءت مع الاستعمار والتغريب والغزو الثقافي ، وفرضتها ظروف سياسية ، كان من شأنها أن تتعالى بالزعماء وقادة الأحزاب ، ثم امتد الأمر إلى أهل الفن ، فأصبحت لهم بطولات يشاد بها ويجتمع الناس حولها ، وذلك حتى تنسى حقائق الأمور ، وجهلوا بطولاتهم الحقيقية التي عرفها تاريخهم ، وغفلوا عن موقف الإسلام من البطولات ، ومن تقدير الناس ومن أصول الحقائق العامة .

لقد بعدت المفاهيم البشرية بعداً شديداً عن أصول الأمور ومفاهيمها الحقة خاصة في مسائل الفن وتقدير المغنين والممثلين والإشادة بهم ، ووضعهم في صور البطولة والشهرة حتى بلغ الشأن ببعض الشباب الغض أن اتخذوهم قدوة ومثلاً ، لقد انحرفت عن طريق الصحافة والبث اليومي المضلل فكرة تقدير العاملين في مجال الفن إلى الحد الذي أصبح أهل الفن مثلاً يقتدى في المجتمعات المسلمة ، وهن يوصفن في موضع النجوم الباهرة التي تتطلع المرأة المسلمة الحرة — كما يريدون — إلى

تقليدهن والإعجاب بهن ، وانقطع ذلك الخيط الرفيع الذي كان يفصل بين مجتمع الأمة الجاد الصارم القائم على قيم الإسلام ، ديناً وخلقاً ، وبين مجتمع أهل الفن ممن كان يسمى « مجتمع الإماء » من الراقصات والمغنيات والممثلات ، انقطع ذلك الخيط واختلط الأمر ، وبدا للناس أن في هذا المجال صور تحدٍ ، وأن أهلهـا يصلون ويتصدقون ويذكرون الله ، ولم يستطع أحد أن يفرق بين من يحترف هذا العمل ، وكيف يمكن أن يقوم بينه وبين الدين صلة ما ، والعمل نفسه مما نص الإسلام علـى حرمة الاشتغال به وحرمة موارده ، وفساد المتصلين به فساداً يجعلهـم لا يصلحون للشهادة أو كلمة الحق ، لقد ذابت هذه المفاهيم تحت تأثير الدعوة إلى الحرية والحضارة والتفتح، وهي من الأصول الأصيلة بفكرنا الإسلامي ، ومن الحدود العميقة التي أقامها الإسلام بين عالم الأمـة الإسلامية ، وبين عالم أهل الهوى والرقص ، وأغاني الغزل والأصوات الداعية إلى الشهوة المحرضة على الإثم ، واستطاعت الكتابات التـي يبثها أتباع دعوة التغريب سنوات متتالية أن تجعل لهذه الصورة مـن العمل الفني كرامةً وشرفاً ، وأن لا يضير الناس أن يتصلوا بهذا المحيط وأن يعملوا فيه ، ثم زاد الأمر شدة حين أصبح هذا المحيط مثلاً عالياً للمجتمع الإسلامي كله في أمور الزينة والملبس ، وأصبحت تحركـات هؤلاء قدوة تلتمس ، ومن ثم برزت من خلال هذا المحيط بطـولات لامعة ذات شهرة عالية ، وأصبح هناك من الأجيال الجديدة من تترقب هذه الأغاني وهذه السهرات ، ومن يطير ليشارك فيها أينما كان ، هذا هو وجه الخطر الذي له أبعد الأثر في الهزائـم التي أصابت المسلمـين والعرب في السنوات الأخيرة حين انحرفت مفاهيمهم عن فيصل العلاقة بين مجتمع الجرائد ومجتمع أهل الفن . وأخطر ما في هذه المفاهيـم

وأشدها أثراً ذلك التصور الذي يملأ نفوس الكثيرين ، والذي يخدع به الشباب من أن حضور سهرة غناء أو سماع حفلة أو حضور فيلم سينمائي أو مسرحية من شأن هذا أن يرفه عن الإنسان ، ويدفع عنه همومه وآلامه ومتاعبه ، ويخفف عنه ، وذلك هو الوهم الكبير الذي فرضه التعبير الغربي للفن وللقصة وللغناء ، وما أحسبه في حاجة إلى توضيح كبير ليظهر فساده ، فإن النفس الإنسانية المجهدة الشقية المتعبة لن يسعدها أن توضع في بوتقة من الوهم الكاذب والخيال المشبوه ساعة أو ساعتين لتعود بعد ذلك ، فتجد نفسها خلاء من كل أمل ، وإنما كانت تعيش في تهاويم من شأنها أن تزيد أشواقها حدة ورغباتها اندفاعاً ، ومن ثم يكون خطرها أشد وأعنف •

ذلك الأسلوب الوهمي الذي كان يعالج به الغرب قضاياه النفسية، وهو مختلف عن علاج الإسلام الذي يقوم على أساس مواجهة الواقع وإعلاء الرغبات • إذا لم تكن ميسورة التحقيق • وقد طال بالناس زمن، فظن أن كثرة ترديد الصحف للأسماء اللامعة ، قد يعطيها مكانة ، وقد يتحول الإعجاب إلى قداسة ، وقد يرى بعض في أهل الفن هداة للإنسانية ، خففوا عنها متاعبها ورفهوا عنها آلامها ، وليس الأمر كذلك حقيقة ، وإنما هذا هو الوهم الكاذب الذي تفرضه تلك القوى التي تريد تدمير المجتمعات الإسلامية بإشاعة صيحات الهوى والحب والعشق واللقاء والحرمان ، كأنما هذه الأشياء هي وحدها الأمور التي تشغل الناس ، وتشغل الأمم ، وأن الناس ليسوا إلا جماعة من المخمورين أو المغيبين بما يذهب الوعي من مخدر ليعيشوا خارج نطاق أنفسهم وقيمهم ، وأمامهم من يقدم لهم هذا السم في إهاب براق وملابس زاهية وأضواء لامعة وموسيقى مدوية •

لقد بلغ الأمر بالخداع والعجز عن فهم معنى البطولة والعظمة ،

وقيم الإنسان أن تجد من يقول لك : إن هذه المغنية أو الممثلة أو الراقصة ــ التي تقف وسط الجماهير لتحرك جسدها وصوتها ويدها ــ لسيدة عظيمة ، ذلك هو أخطر ما تشاهده الآن من انحراف في مقاييس البطولة وتقدير الناس وتصنيفهم كأبطال وعظماء ، وأن يكون للهوى النفسي والرأي الذاتي والنظرة الخاصة والصلة الخاصة أثرها في هذا التقدير المبطل ، وليس للعمل نفسه . وليس لأن يكون هذا الفكر الإنساني ، وهذه الأمة هي صاحبة الحق في معرفة أبطالها وخصومها ، الذين يعطونها من ذات أنفسهم قوة وصموداً وبناءاً ، والذين يأخذون منها ، أو الذين يهددون أحلامها ، ويثيرون أوهامها ورغباتهـا في صيحات هيستريـة قاصفة ، ويقف هؤلاء حملة القماقم ليحولوا بين أن يعرف الناس هــذه الحقائق ، متدخلين بأهوائهم الخاصة وبأهدافهم العامة ، وهكذا يرتفع بعض الناس إلى مكان لا حدّ له استمداداً من هذه الصلات الخاصة ، أو المصالح المادية المشتركة ، فالنظرة ملونة بلون العاطفة أو الهــوى ، وهذا من شأنه أن يفسر التقدير الصحيح لذلك الإنسان في نظر العامة البسطاء الذين لا يعرفون أبعاد المسائــل ، ولا يصلــون إلى الخلفيات المدفونــة .

ومن ذلك من يقول عن مشهور أو مشهورة في إبان النزع وحشرجة الروح : إنه لن يموت ، فإذا مات قال عنه : إنه سيعيش بفنه واسمه ، وإنه دخل في مرحلة الخلــود ، وذلك دون تقدير لمفهــوم الكلمات أو مضمونها ، وأين الخلود من هذه الأمور كلها ، وماذا يمكن أن تعيش أغنية مغن ، أو كلمة شاعر عصر أو عصرين ليكون ذلك معناه الخلود ، كذلك نجد زيفاً آخر شديداً في تصريحات الأطباء الذين يبالغون في أمر مقاومة إنسان ما للموت ، وهل في قدرة الإنسان الضعيف العاجز الذي

توقفت خلايا مخه أن يقاوم الموت ، وهو نائم في جهاز لا يدري من أمر ما حوله شيئاً ؟ ، وهل يمكن للإنسان أن يقاوم الموت ، وهو الحق الغالب الذي لا يغلب ، وحكمة الله العليا التي حيرت ألباب العلماء ؟ . ومن ذلك قول أحد الأطباء : إن هذه المقاومة لم تكن غريبة على هذه السيدة العظيمة التي كانت معجزة في عالم الغناء ، ويصل الطبيب في خداعه لنفسه وعجزه عن فهم حكمة الموت حتى يقول : إنه لم يسر عليه مريض استطاع أن يقاوم الموت قبل هذا ، شيء سافر ومضحك ومضلل ونفاق ، تلك هي منطق المفاهيم الزائفة التي أدخلتها الصحافة ، وأدخلها الغزو الفكري على القيم،فانحرفت بها عن أصولها الصحيحة،وتحطم ذلك الفاصل الدقيق الذي كان يفصل بين المجتمع الإسلامي والمجتمع الذي صاغته مفاهيم الفن الزائف ليكون قوة تضرب كل القيم .

ولقد كان لترديد هذه المفاهيم وانتشار صحف الفن والرقص والغناء ولتصوير حيوات هؤلاء وأولئك على أنها نماذج من الجمال والبطولة والعظمة ، إن صدق الناس ذلك وتقبلت النفس العربية في مرحلة أزمتها هذا الزيف كله ، وظنت أن هذه صناعات ماجدة ، وأن ماحولها من زخرف ومال وزين يمكن أن يفاخر به ويعجب مع أنه في صميم مفهوم الإسلام حرام وزيف وتجارة بائرة مردودة مالها حرام ، ومكسبها سحت ، وزخرفها باطل ، وحسابها عسير ، وتصل من هذا إلى إلقاء نظرة على الموت نفسه .

لماذا هذا التهويل الضخم الذي يواجه به الكتاب : حدث الموت لعظيم من العظماء أو مشهور من المشهورين كأنما يمكن أن يرد هذا الموت ، أو أنه عدو غاصب، ينتزع الإنسان من سعادته .

لماذا هذا الفهم الزائف للموت ؟ ، ذلك لأننا التمسناه من مفهوم

الوجودية والمادية والاتجاه الحديث الذي يريد أن يجد وسيلة للقضاء على الموت ، لقد كان حقاً على المجتمع الإسلامي أن يواجه الموت مواجهة الحق والصدق والتسليم والإذعان ، ذلك أن الموت نهاية حتمية لهذه الحياة وبرزخ إلى حياة أخرى خير منها ، فلماذا هذه الصيحات الهيستيرية إزاء الموت ، وهو أمر لا سبيل إلى التراجع فيه مهما ضجت الأصوات .

إن فهم الناس لعبرة الموت مازال قاصراً ، ومازال بعيداً عن مفهوم الإسلام ، وهو بعيد عن مغالاة ومبالغة وجهل ، لا يليق أبداً بالمسلمين الذين علمهم دينهم أن الموت حق ، وأن عليهم أن يعملوا له يوماً بعد يوم ، وأن ينتظروه ساعة بعد ساعة ، فإذا جاء سلموا أنفسهم له راضين طائعين ، بل فرحين لأنهم سيلقون وجه الله الكريم ، ولكن أهل هذا الزمن إنما يزعجهم الموت لأنهم لم يعملوا له ، فهو حين يداهمهم يحسون بالخطر الذي يأخذ بخناقهم .

وهذه المرحلة التي يقتضيها الإنسان في حالة الغيبوبة وقبل أن يموت نهائياً ، هل عرف الناس حقيقتها ، وهل هي موضع أمل في العودة إلى الحياة ، أم أن استطالتها دليل على أن سكرات الموت شاقة على الميت نفسه ، وأنه يعاني فيها الكثير ، وأن المؤمن الصادق هو الذي تسهل عليه سكرات الموت ، وقد تخرج الروح في لحظة واحدة .

فإذا عرفنا أن الميت في هذه المرحلة قد واجه أخطاراً كثيرة وشديدة من شلل وانتفاخ وسواد وجه ، فهل توصف هذه الأشياء بأنها قدرة على المقاومة وصمود في وجه الموت ؟ ، وهل في استطاعة الإنسان أن يقاوم؟ وهذه الآلات التي تنظم النبض وغيره : هل يمكن أن تطيل عمر الإنسان لحظة ؟ ، تلك هي سخرية الادعاء الحديث وعجزه ودعواه العريضة

الضالة ، وتلك منتاهى سذاجة الفكر وبساطته ، لأن الذين يقدمون لنا هذه المادة من الكتاب لا يعرفون حقائق الموت كما رسمها لنا الإسلام ، لو عرفناها على أصولها لكان موقفنا مختلفاً مع الموت ومع الميت نفسه، ولعرفنا من رضي الله عنهم ومن سخط .

إن على المسلمين أن يعلموا أن الموت حق، وأنهم يجب أن يواجهوه ليس بالاستسلام ، بل بالرضى الكامل ، لأنهم لو لم يفعلوا ، فإن أمره نافذ فعلاً رغما عنهم ، كذلك فإن تقدير البطولة والشخصية والعظمة ما زال في حاجة إلى تحديد وتوضيح ، هل الشهرة المدوية يمكن أن توصف بأنها بطولة ؟ ، إن هذه الشهرة إنما يخلقها المجتمع لأناس بعينهم، وفي ظروف بعينها ، وليحقق غايات بعينها ، فالبطولة هنا ليست بطولة عطاء حقيقي أو عمل صميم يجعل صاحبه أهلاً لها .

وبعد فقدتمشى الملايين في جنازة ميت مشهور ، ويهتف له ما يشاء من عبارات التكريم والتمجيد ، ولكن هل هذا هوالتقويم الصحيح لعمله في نظر الأمم وفي نظر الله سبحانه وتعالى ؟ ، إن الأمر لا يعدو لحظات تتفرق بعدها هذه الملايين ، ويسلم الميت نفسه إلى محاسبيه ، وما من شيء من هذا كله يمكن أن يرد عنه حقيقة موقفه في الدنيا إلا عمله وحده ، وقد يكون هذا الميت قد بلغ من الشهرة أبعاداً لا حد لها، وكسب معرفة الملوك والأمراء ورؤساء الدول ، وحشدت له الحشود الجرارة ، ولكن ذلك كله ليس مقياساً حقيقياً لحياته ولا لعمله ولا لجزائه ، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن المرء لينشر له من الذكر ما بين المشرق والمغرب ما يساوي عند الله جناح بعوضة) . ويتحدث الناس عن أعمال الخير التي يقوم بها الميت المشهور من إحسان وصدقة وبرّ وخدمة للناس ، وبناء مستشفيات ومساجد ، لكن هذا كله ليس له قيمة إلا إذا كان قد تم في دائرة العقيدة الصحيحة

والإيمان بالله ، وجرى في نطاق الزكاة المفروضة ، وأداء حق الله ، وأن يكون المال نفسه قد جاء من الحل الطهور ، وأي قيمة لمسجد بنى من مال حرام ، وأي قيمة لعمل إزاء ملايين مدخرة في خزائن من مال عشرات السنين ، وأين حق الله في هذه التحف والذخائر والملابس المزركشة .
وبعد فإن شأن المشهورين أن تكون لهم حياة خاصة لا يقتحمها أحد ، وحياة عامة توصف دائماً بالبر والإحسان والصلاة ، ولكن كثيراً ما يكشف الله للناس عن أطواء الحيوات الخاصة ، وما فيها من انحراف، وقد يجيء ذلك في توجيه من طبيب أو علاج من مرض ، ذلك أن النفس الإنسانية حين تعطى من الشهرة والمال والذكر ما يحقق لها نعماء الحياة، إنما تتطلع إلى الاستعلاء والسيطرة ، وتحقيق أقصى رغبات الحس والمتعة ، وقد يتم ذلك خارج القواميس الطبيعية ، والظروف العادية ، ومن هنا فإن أمر ذلك لا يخفى وينكشف في علامات وآثار تظهر على الجسم أو الوجه أو العينين .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى عن الناس تعلم

ويكون الأمر أشد خطراً إذا استعبد الجنس نفسه ، وسيطر صاحب النفوذ والمال على من ليس له نفوذ ولا مال ، أو من يلعب معه لعبة المتعة التي حرم منها في حياته الخاصة .

ولقد دعا الأطباء كثيرين من المشهورين أن يسلكوا الطريق الطبيعي في حياتهم الخاصة حرصاً على استمرار صحتهم وسلامة أبدانهم ، ولكن الهوى دائماً أغلب .

الباب السابع

تحديات في وجه الشباب المسلم

أولا : تساؤلات الشباب

ثانيا : أمانـة الإسلام في تكوين الأجيال

ثالثا : تزكية الشخصية المسلمة وتأهيلها لقيادة البشرية

الفصل الأول

تساؤلات الشباب

تدور في نفوس شبابنا وفي أذهانهم وعلى ألسنتهم كلمات حائرة وتساؤلات مستفهمة عن كثير مما يقرؤون في كتابات مترجمة تملأ الأسواق والمكتبات جاءت من بلادها، وتعرضت لقضايا أممها، ولكنها في نطاق الرواية. إنما تمثل فكراً عالمياً يستوحي النفس الإنسانية، ويستعرض مشاعرها، فإلى أي حد يستطيع هذا الفكر أن يطابق النفس العربية المسلمة قبولاً أو رفضاً؟، وكيف يجد هذا الشباب السبيل إلى الاقتناع بأنه يستعرض نفساً مختلفة في دوافعها وعقائدها ومشاعرها عما يراه في مجتمعه ويعيشه في حياته؟.

إن هذه الكلمات أحياناً تدير الرؤوس وتلهب العواطف، وتدفع إلى غايات وأهواء، وتصور الحياة بصورة قلقة، وهي تلتقي مع الشباب المسلم العربي في مطالع العمر، وفي سن المراهقة ووسط أجواء حافلة بالصور العارية والقصة المكشوفة، والفيلم الماجن، والمسرحية الصارخة، ومن خلال مجتمع مضطرب: فيه الملابس الكاشفة والصدور العارية، والكلمات الجريئة والزحام الشديد، والاختلاط الغريب، وكل ما يقرأ أو يسمع يعين على الغواية، ويدفع إلى التقليد، ويجري على التجربة، ومن وراء ذلك نتائج قاسية خطيرة.

إن هذا الشباب الريفي المليء بالحياة والخلق ، قد جاء إلى المدينة ووقع على « كامي، وسارتر ، وفرويد » ومن ورائهم عشـرات الكتب القصص ، ووجد من يروج لهذا كله ، ويعرضه في فصول وكتابات وفي مسرحيات وشعر وقصص ، وهو يريد أن يعرف : هل هذا كله يمثـل أنفسنا ، أليست النفس الإنسانية واحدة ؟ هل نحن في حل من أن ننطلق وراءه في دعوته إلى الانطلاق حيث لا توجد حدود توقف ولا أبواب تحول ؟ ثم هو لا يلبث أن يجد الكاتب من صميم بلده ودينه ، صورة طبق الأصل • بل ربما أشد عنفاً من هذا الكاتب الغربي ، فهذا كلـه يفترض أن المجتمع كله قد دخل دائرة الرغبة واللذة ، وأن هذه الظاهرة التي لا تعدو واحداً في المائة في مجتمعاتها قد أصبحت تستوعب المجتمع كله ، وأن الناس لا يلتقون إلا ليتحدثوا في هذا الأمر ، بل إنهم يسخرون من أولئك الذين ما زالوا مقيدين بقيود الدين والأخلاق •

هذه هي القضية التي تتطلب إيضاحاً وتسأل عن حل ، وتتطلع إلى معرفة وجه الحقيقة ، ومن الحق أنها قضية ، بل هي معضلة من معضلات عصرنا، وأزمة من أزمات المجتمع الإسلامي في العصر الحديث ولكنه لكي نستطيع أن ننظر في الأمر علينا أن نعرف أبعاد القضية وخلفياتها وتاريخها في العلاقة بين مجتمعنا الإسلامي العربي ، وبين مجتمع الغرب ، وبـين الظروف التي حكمت بأن يسـيطر الغرب عن طريق الاسـتعمار على هذه الأرض ، فيعمل على فرض مفاهيمه وأفكاره ونظرياته في الاجتماع والأخلاق والنفس والتربية إيماناً منه بأن هذه الأمة لا تقاد إلا من حيث تجرد أولاً من عقائدها ومفاهيمها ، وأن تحتوي في دائرة فكر الغرب نفسه حتى يسلس قيادها ، وتكون تابعة راضية بتبعيتها •

ومن هنا كانت تلك الدعوة إلى وحدة الفكر البشـري ، ووحدة الحضارة ، ووحدة النفس الإنسانية ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر هذا كله ، لقد كان ذلك صحيحاً ولكن بني البشر لم يقبلوا هذه الوحدة حين

أنشؤوا فكراً بشرياً مختلفاً عن الفكر الرباني الذي هدتهم إليه الأديان ورسالات السماء • ومن هذا وقع الخلاف • فقد ذهبت النفس الإنسانية وراء أهوائها ، وعمدت إلى الضوابط التي أقامتها الأديان بالحدود والأخلاق حماية للكيان الإنساني نفسه من الانهيار، فحطمتها باسم التحرر من القيود ، ثم حين ذهبت وراء مطامعها إلى التماس متع الحياة على النحو المسرف المندفع دون تقدير لحق الناس جميعاً في هذه المعطيات ، ثم حادت عن فهم رسالة الإنسان في الحياة ومسؤوليته والأمانة التي وكلت إليه ، فأرادت أن ترى الحياة متعة خالصة تجري وراءها ، وأن الخطأ والصواب « جبرية » للمجتمع لاحساب للفرد عنها ، وأنه ليس وراء هذه الحياة حياة ، وأن الموت بالمرصاد من وراء الحروب والذرة ، فليندفع الناس إلى الحياة يقتحمون متعتها قبل أن تزول •

ومن أجل أن تحقق النفس الإنسانية أهواءها ، فقد كان عليها أن تبرر ذلك بالعقل والفلسفة ، فتقطع علاقتها الكاملة بالمسؤولية فتنكر ما وراء الواقع المحسوس ، وتعلن كما فعل « نيتشه » « موت الإله » وترى الدين « أفيون الشعوب » وتحتقر الأخلاقه وتراها ضعفاً وذلة ، وهكذا جاءت الفلسفة المادية لتحرر الإنسان من تبعته ومسؤوليته وأماناته ، ولتطلقه وراء لذاته وأهوائه ومطامعه • ومن هنا كانت فلسفة اللقمة «الماركسية» وفلسفة الجنس «الفرويدية» وبينهما تعيش النفس الإنسانية ، ومن هذه المفاهيم يصدر : كامي ، وسارتر ، وعشرات من كتاب القصه والمسرحية والشعر •

هذه النفس الإنسانية ليست هي النفس المسلمة التي ما تزال تؤمن بالله ، وتؤمن بمسؤولية الإنسان في الحياة وجزائه الأخروي وأماناته وتؤمن بالضوابط والحدود والأخلاق التي تصنع الإطار الذي يتحرك فيه ، ولهذا فإن ذلك كله غريب عليها ، معارض لها ، وهي حين تقرأ

ما يكتب هؤلاء إنما تحس بالدهشة ، والدهشة مزيج من الخوف والشوق . أما الشوق فيصدر عن هذه النفس الشابة في سن المراهقة المتطلعة إلى اللذات والرغائب . أما الخوف فيصدر عن ذلك الإحساس الداخلي بالإيمان بالله والجزاء والحساب ، وهي بين ذلك تتدافع وتتراجع . ولكنها لا تسقط إلا إذا فقدت عنصر الإيمان الذي كونته الأسرة وصنعه الأب والأم . ولقد تتراوح النفس المسلمة بين الخطاء والصواب. والضلال والهدى. ولكنها إذا ماعرفت الحقيقة التي هي كامنة في الأعماق . عادت إلى طبيعتها وأصالتها وفطرتها ، هذا هو سر القلق الذي يملأ مشاعر شبابنا حين يقرأ عبارات لكامي أو سارتر أو فرويد تخالف فطرته الإسلامية الأصيلة ، غير أنه نتيجة عجزه عن معرفة « خلفيات » هؤلاء الكتاب يظن أنهم يكتبون بحسن نية ، والواقع غير ذلك . فهم — أولا — يصدرون عن مجتمع مختلف عن مجتمعنا ، ومن خلال رد فعل لتحديات لم نمر بها ، ذلك أن الفكر الديني الغربي الذي فرضته تفسيرات المسيحية ، وهو ليس مفهوم الدين الحق المنزل ، وإنما من عمل القائمين عليها قد أوجد سوء فهم للعلاقة بين الانسان والحياة ، والانسان والمرأة . ومن هنا ظهرت بادرات الرهبانية التي أنكرت التعامل مع المجتمعات كلية، والتي افترضت في المرأة جنباً غريباً نجساً يحسن تجنبه والانصراف عنه .

هذه القضية كان لها أبعد الأثر في تدمير المجتمع الغربي وسقوط الحضارة حتى جاء الإسلام وبلغت أشعته أوروبا ، وأعادت مفهوم الإرادة الإنسانية والعمل ، وكان للعلوم الإسلامية أثرها في النهضة الغربية الحديثة ، ومن ثم بدأ التحول أيضاً في مفهوم المرأة التي كرمها الإسلام، وأعاد لها اعتبارها ، غير أن المجتمع الغربي في اندفاعاته الخطيرة قد تجاوز حدود الإعتدال ،وانتقل من الثورة على المرأة إلى « ثورة الجنس » كما يطلقون عليها الآن ، وجاءت آراء الفلاسفة الماديين دافعة

إلى الانطلاق والتحرر من كل القيود ، وجاءت نظرية فرويد الذي ردّ كل تصرفات الإنسان إلى الجنس ، وهدد البشرية كلها بخطر الأمراض العصبية إذا ترددت في الانطلاق •

وهكذا نرى أن المجتمع الغربي له خلفيته فيما نراه اليوم من كتابات وفلسفات وقصص ، إنما هي تطبيق للقاعدة المعروفة : ردّ فعل مساوٍ في القوة ، مختلف في الغاية . فقد عاشت أوروبا قروناً تحت مفهوم كراهية المرأة ونجاستها ، وعادت اليوم إلى مفهوم الانطلاق في العلاقة بها إلى أبعد الحدود ، وإخراجها من كل الأوضاع السليبة للأسرة ، وإغرائها بالعري والإباحة ، ودفعها إلى المواخير وشواطىء البحار ، وساحات الرقص واللعب.تلك قضية الغرب وحده . وما كان لنا فيها من مشاركة ، ولم تكن هذه القضية واردة في مجتمعنا الذي كرّم المرأة ، وأعلى شأنها ، وأقام الأسرة وحماها بالشرف والعرض والكرامة ،والذي لم يقع في مشكلة الكبت أو التحلل . غير أن للقضية بعداً آخر ، هو دوافع التلمودية الصهيونية ، هذه الدوافع التي أعلت من شأن الجنس والمادة ، وجعلت لذلك كله قوانين وفلسفات ومناهج عقلانية ، حتى تبرر وجوده والاستمرار فيه ، ومن هنا نرى أن فلاسفة الجنس كلهم من اليهود والدعاة إلى تحطيم نظام الأسرة ، وتحطيم الدين ، وتدمير الأخلاق ، وإفساد المجتمعات : دوركايم ، وسارتر ، وليفي بريل ، وماركوز بالإضافة إلى فرويد وماركس ، هذه الخلفية جديرة بأن تكون في نظر شبابنا، وهم يسألون عن هذا الركام المتدفق على اللغة العربية، والذي يدير الرؤوس لأنه مكتوب على ورق لامع وغلاف أنيق ، وثمن رخيص ، ولأنه يتصل بالنفوس الشابة قبل أن تكتمل قدرتها على الفحص ، وتجربتها التي تعرف بها الزيف والصواب ، فضلاً عن القصور الشديد الذي يواجهه مجتمعنا عن وضع كتب طيبة طلية في أسلوب عصري عن معضلات النفس والحياة في أيدي شبابنا ، تطرح أمامهم

وجهة نظر الإسلام التي تلتقي دائماً مع العصر والبيئة ، ولا تجمد أو تتخلف .

ومن الحق أن يقال : إن هؤلاء الشباب الذين تلمع أسماؤهم اليوم في ميدان القصة أو الشعر . والذين يجرون وراء هذه المدرسة إنما بدؤوا حياتهم في فراغ وتساؤل، فلما لم يجدوا أمامهم في فكرهم الإسلامي ما يجيب على أسئلتهم ، وجدوا كتابات نيتشه وماركس وفرويد يسيرة بفضل أمثال سلامة موسى وفيلكس فارس وغيرهم . فتقبلتها نفوسهم لأنها كانت تحس بالفراغ . بينما قصرت بيئاتهم وبيوتهم عن أن تمد لهم يد المعونة بالإيمان والعلم الصحيح .

وإذا كان لنا أن نقول شيئاً لأبنائنا الذين يتساءلون عن هذه الفلسفات المطروحة تحت اسم « النفس الإنسانية » فإنما نقول لهم : إن كل ما يبرق أمام أنظارهم ليس ذهباً ، وإن الأسماء اللامعة لا تخدعهم، وإن أحداً لم يستطع حتى الآن أن يقول للنفس الإنسانية الحق ، ويكشف لها عن جوهرها ، وهداها ، وطريقها وأمانتها إلا هذا الكتاب المنزل بالحق « القرآن » .

إن على شبابنا أن يعلم أن كل من يعطيه الرغبات المطلقة، والكلمات البراقة ، والأهواء الشائقة ، ومطامح الغرائز والشهوات ، إنما يضله ويسمم فكره، ذلك أن حقيقة العطاء إنما هي إيمان بمسؤولية الإنسان في الحياة ، في سبيل إقامة المنهج الرباني الذي يحقق الأمن النفسي والسعادة الحقة .

أما هذا العطاء البشري الذي يقدمه فرويد وسارتر ، فإنه لا يحقق السعادة ولا الأمن النفسي ، ولكنه يحقق القلق والتمزق والضياع والغثيان ، ذلك لأنه يفصل الإنسان عن نفسه ، ويمزق وجوده ، ويقضي

على تكامله ، وينفضي من شأن جانب فيه على حساب جانب آخر، وذلك هو خطر المادية وأهوائها ، وهو الطابع الصريح الواضح الآن للأدب الوجودي عامة ، هذا الإحساس بالخوف ، والمتمثل في أن الإنسان وحده في هذه الدنيا ، وذلك الخوف من الموت ، وتلك المشاعر القلقة المضطربة، إنما مصدرها الحقيقي هو انفصال الشخصية ، وإنكار الإيمان بالله ، ذلك أن الإنسان في تكوين ذاته نفس وجسد ، وعقل وقلب ، ومادة وروح ، فإذا جاءت الفلسفات المادية لتقول : إن الإنسان نفس وعقل ومادة ، فقد شطرت الإنسان ، وأعلت منه جانباً ، وتجاهلت الجانب الآخر ، هذا الجانب لايموت ، ولكنه يظل يرسل أحاسيسه ، ويملأ صاحبه غماً وقلقاً واضطراباً ، لأنه جانب موجود ، وله حق الحياة ، وتلك هي أزمة الحضارة والإنسان المعاصر •

أما المسلم فإن موقفه من ذلك يختلف تماماً ، فالمسلم يؤمن بأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ خلقه من طين ، ثم نفخ من روحه ، فهو متكامل التشكل : مادة وروحاً ، لا سبيل إلى إعلاء جانب منه على الآخر ، بل هو في الحقيقة حين يؤمن ينتقل من المادة إلى الروح ، فيكون قادراً على البذل والعطاء ، وتلك هي قدرته على التسامي من الفردية إلى الغيرية ، ولكنه في مفهوم الإسلام أيضاً له حق الحياة والمتاع بها دون انفصال عنها أو عزله عن المجتمع ، فهو متكامل جامع ، وهو في فهمه للحياة وتحركه فيها إنما يجمع دائماً بين الزمني والروحي ، والمطلق والنسبي ، واللانهائي والمحدود ، يجمع بين معطيات الدنيا وخلود الآخرة •

تلك مقدمات يسيرة بين يدي تساؤلات الشباب في مواجهة الفكر البشري من فلسفات ومفاهيم •

الفصل الثاني

أمانة الإسلام في تكوين الأجيال

يرسم الإسلام الطريق إلى تكوين الأجيال على نحو غاية في الأصالة، وغاية في التقدم في نفس الوقت فهو لا يدعو إلى تربية مغلقة جافة ، أو إلى تقليد الآباء ، وهو — في نفس الوقت — لا يطلق الأجيال دون أن تأخذ قدراً من الحصانة والحماية وفهم الوجهة والغاية .

ومن هنا فإن التربية الإسلامية تختلف في منهجها عن التربية التي تقدمها المناهج والمذاهب العالمية على السواء في أنها تجمع بين الدائرة الثابتة والدائرة المتحركة ، وذلك حتى لاتنفصل الشخصية الإنسانية عن جذورها التي شكلتها الأديان والعقائد والقيم والبيئة، ثم تكون لها القدرة من خلال هذا الإطار الثابت المرن على تقبل روح العصر من نمو وحركة وتطور وتقدم وعصرية ، شريطة أن يكون روح العصر قادراً على التشكل والانصهار داخل إطار روح الأمة الأصيل .

وتلك قاعدة أساسية من قواعد الفكر الإسلامي ، تقوم على التكامل والنظرة الجامعة ، وعلى ترابط العناصر وتفاعلها بحيث لايطغى عنصر منها على الآخر ، ولا يستعلي ، وبحيث تحقق في مجموعها الاستجابة لتركيب الإنسان نفسه الجامع بين المادة والروح ، والعقل

والقلب . وعنصر الثبات دائماً يتصل بالإنسان وبخالقه وبالكون وبالتاريخ وبأول الأشياء وبالقرآن وبالفطرة وبالدين ، أما عنصر الحركة المتغير ، فهو يجعله دائماً قادراً على الحياة في البيئة والعصر مع ظروف التحول والتغير والتطور ، وفي التربية تقوم القاعدة الإسلامية على ركيزتين متوازنتين :

الأولى : إعطاء الأبناء قدرة على الحركة إلى المستقبل .

الثانية : إعطاء الأبناء قوة على الثبات داخل قيم الدين والأخلاق .

وبغير هذا الترابط الجامع يسقط أعظم عامل من عوامل السلامة والقوة في بناء الأمم وهو عامل « الأمن النفسي » الذي اختفى تماماً من الأمم التي اتخذت من المناهج البشرية الجزئية والانشطارية منهجاً للحياة وللتربية ، ذلك لأن هذه الأمم قد قبلت مبدأ التغير الدائم ، والتحول المستمر ، ففقدت قاعدتها الأصيلة ، ومحورها الذي تدور في فلكه ، وبذلك ذهبت بعيداً في تيه من العسير استعادتها منه .

ولا ريب أن النظرة الإسلامية الجامعة ــ وهي نظرة ربانية ــ هي أقرب ماتكون إلى سلامة القصد ، وأكثر ماتكون قوة على حماية البناء الاجتماعي كله من أن يتبدد أو ينهار أو تتدافعه الرياح الهوج .

والمسلمون يؤمنون بالتقاء الأجيال وتكامل الأجيال ، ولا يؤمنون بصراع الأجيال . وهم يفرقون بين فريضة تقديم التجربة الكاملة من أهل جيل سابق إلى جيل جديد ، وبين ما يوصف بأنه وصاية على الأجيال الجديدة .

ذلك أن من حق الأجيال الجديدة على الاجيال السابقة أمرين : أمانة التجربة والالتزام بإضاءة الطريق أمام النشء النامي حتى يستطيع أن يمتلك إرادته ، ولفت نظره إلى ما في الطريق من عقبات ، أما الجيل الجديد فمن حقه أن يقبل التجربة القديمة أو ينقدها ، ولكنه لا بد

أن يبني على نفس الأساس ، وإن كان من شأنه أن يجدد أو يغير في الفروع والجزئيات . أما جوهر البناء فهو ملتزم به ، لأنه ليس ميراثاً عن الآباء فحسب ، ولكن لأنه إلى ذلك قائم على دعامة منهج أصيل متميز ، رباني غير وضعي ولا بشري ، ويجب أن لا يدفعنا أي دافع إلى التضحية بهذا الأساس إزاء وهم أو بريق خادع من شأنه أن يخرجنا عن الإطار والضوابط والحدود التي رسمها لنا الإسلام .

ويقتضي تكوين الأجيال أن تتوازى فيه عوامل ثلاثة : قدر من الإيمان ، وقدر من الثقافة ، وقدر من التجربة .

١- فالإيمان هو العامل الأول الذي يضيء القلب ، ويكشف عن المهمة الحقيقية للإنسان في الأرض ، لماذا جاء ؟ وما هي أمانته ورسالته وغايته ومسؤوليته هذا القدر من الإيمان لا يعطيه إلا الدين الحق ، والقرآن هو العامل الأول في بناء العقيدة وكشف الوجهة وتزكية النفس والقلب .

٢- ثم يجيء العامل الثاني ، وهو الثقافة الأصيلة التي تكشف للعقل عن دوره ومهمته في ضوء التوحيد والإيمان والوحي ، وتبسط أمامه الآفاق الواضحة لدور المسلم في الحياة ، وللتحديات التي تواجهه في هذا العصر ، وفي كل عصر حتى يعرف مدى المسؤولية الملقاة عليه ، ومدى الخطر المحدق بأمته وأرضه وعقيدته .

٣ - ثم يجيء العامل الثالث ، وهو التجربة التي تتكون مع ارتفاع السن والعمل ، والاتصال بالمجتمع والناس ، ومن شأنها أن تزيد الإيمان والثقافة عمقاً ، وأن تمنحها الرصيد الذي يؤكد الحقائق ويزيدها ثباتاً في النفس والعقل .

فإذا خرج الجيل إلى الحياة دون أن نزوده بالإيمان ، فإننا نكون قد فتحنا الطريق أمام الفكر البشري ليغزو هذه النفس الناشئة ، وليملأ

هذا الفراغ الذي عجزت عن ملئه الأسرة والأبوة والقدوة .

ومن هنا يبدأ الانحراف ويبدأ الخطر ، ثم تكون الثقافة الزائفة الملقاة على الأرصفة هي الزاد حيث لم يهيء له الزاد الأصيل .

وفي القصة والرواية والفلسفات شبهات وأخطار وصور براقة تنفذ بسرعة إلى القلب الغض والخيال الساذج ، وتجد قبولاً لأنها ترضي الغريزة والهوى والنفس الأمارة ، ومن ثمّ تحجب الطريق الصحيح ، ثم لا تكون التجربة بعد ذلك إلا في مجالات الأهواء والملذات والرغائب الصغيرة ، وهكذا تتعرض الأجيال الجديدة للخطر الذي يجعلها تتنكب طريق الخير ، فلا تعطي لأمتها ما تتطلع إليه من قوة دافعة ، بل تكون عاملاً من عوامل الهزيمة والانحراف .

ومن شأن التربية الإسلامية أن تنقل الأجيال من الأنانية إلى الغيرية ، ومن التطلعات الفردية إلى خدمة الجماعة ، فالأمة والرسالة ؛ فلا يكون الإنسان دائراً في إطار ذاته وأهوائه ورغائبه ، ولكنه يكون في خدمة هدف ورسالة وغاية تستوعب كل وقته وفكره وحياته ، ولا يتحقق هذا إلا إذا فهم الأبناء مسؤوليتهم إزاء ربهم وأمتهم وجيلهم . فليست الحياة متعة تساق ، ولا لذة تبتغى ، ولا تطلعاً إلى شهرة أو مال أو مجد شخصي ، وإنما هي رسالة ومسؤولية والتزام وأمانة ، الخدمة فيها موجهة باسم الحق ــ تبارك وتعالى ــ لإقامة المجتمع الكريم الذي يحقق منهج الله في الأرض .

إن أخطر ما تواجهه الأجيال في مطالع الحياة خطر يتصل بالعقيدة، وخطر يتصل بالغريزة ، وفي الفلسفات المنثورة تبرير للانحرافيين ،وفي التربية الأصيلة في مجال الأسرة منذ أول الخطو الحماية والحياطة وإقامة الجدار المكين الذي يحفظ العقل والنفس جميعا من مهاوي

التدمير التي تواجه الأجيال ، فإذا أمكن هذا التكوين السليم حفظ النفس والعقل جميعاً من أن يستعلي شيء على العقيدة ، فلا ترى النفس في تلك الصور البراقة الزاهية ما يخلب لبها أو يخدعها ، ذلك أن أول عوامل الوهن أن يحس المسلم بقصوره وقصور مجتمعه وأمته عن الأمم الأخرى ، فيخدع بالظن بأن هذا التخلف مرتبط بهذه العقيدة ، وما هو كذلك ، ذلك أن الحقيقة هي أن التراخي عن العقيدة هو الذي أحدث التخلف ، وليس العكس • ولذلك فإن أول البناء في تكوين الأجيال هو الإيمان بذاتية خاصة لها قيمها ووجودها وكيانها وتاريخها ، مختلفة عن غيرها ، وأن هذا التخلف القائم هو مرحلة من المراحل ،جاءت بعد مراحل من القوة والتمكن ، شأن دورة الحياة والتاريخ بكل الأمم والشعوب ، وأنها حالة مؤقتة ، وأن من شأن الالتزام بالأصل الأصيل والجوهر الرباني من شأنه أن ينهي هذه المرحلة، ويرد المسلمين مرة أخرى إلى مكانهم في التاريخ والبشرية ، وأن ما يطيل أمد التخلف هو التماس مناهج الآخرين •

إن منهج الإسلام جماع للروح والمادة ، والعقل والروح ، والدنيا والآخرة ، وهو وسيلتهم إلى النجاح وسبيلهم إلى التمكن ، وليس لهم من دونه طريق أو سبيل ، تلك هي أمانة الأجيال الحقة التي يجب أن يقدمها لهم هذا الجيل ليكونوا من بعد قادرين على الدفاع عنها والحفاظ عليها والقيام بها •

الفصل الثالث

تزكية الشخصية المسلمة
وتأهيلها لقيادة البشرية

في الوقت الذي يستشرف فيه العالم الإسلامي أفقاً جديداً بعيد المدى في آثاره المقبلة ونتائجه الحاسمة ، وكلما بدت علامات القوة الحيوية فيه نحو عودة المسلمين مرة أخرى إلى مكانهم العالمي الذي كانوا يحتلونه قبل قرن ونصف قرن من الزمان . نجد أن هناك عوائق كثيرة ماتزال تحول بينهم وبين امتلاك إرادتهم الفكرية والروحية التي هي مصدر القوة الأول لبناء مستقبلهم الجديد .

ذلك أن الاستعمار كان حريصاً على أن يزيل أسباب تميزهم الخالص وتفردهم المميز الذي تتمثل فيه شخصيتهم حتى يذيبهم في بوتقة الفكر العالمي ، فيصبحون جزءاً من هذا الكيان الذي يجرى الآن في نهاية أشواطه ، ويواجه أقوى أزماته بعد جولة طويلة امتدت أكثر من أربعة قرون ، جاءت ثمرة حصيلة الفكر الإسلامي لألف سنة كاملة حين استولت أوربا على مقدرات المسلمين العلمية في الأندلس ، وأهمها المنهج العلمي التجريبي ، وسارت به لتحقق هذه الانتصارات الميكانيكية

المتعددة التي أوجدت ما يطلق عليه « حضارة العصر » .

فمنذ هزمت تركيا الإسلامية أمام أسوار فينا في المرة الثانية ، كان ذلك علامة على تحول في ميزان التاريخ نحو الغرب ، وكانت تركيا الإسلامية قد أقامت امبراطوريتها الكبرى منذ نهاية الحروب الصليبية ، بل كانت هي انتفاضة العالم الإسلامي بعد هزيمة هذه الحملات ، وكانت قد سيطرت على جانب كبير من أوربا ظل تابعاً لها حتى أوائل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ لم ينفك عنها ، وكانت جولة الغرب بعد ذلك تحمل في أعماقها ذلك الإحساس بتفوق المسلمين خلال خمسة قرون كاملة حتى لقد ظلت المرارة قائمة في النفوس ليقول قائدهم عند دخول القدس سنة ١٩١٧ : « الآن انتهت الحروب الصليبيــة » . ومنــذ سقطت الأندلس بدأت أوربا جولة واسعة من الاستعمار ، امتدت حول افريقيا ، ومضت لتصل إلى حدود الصين باسم تطويق الإســلام من الخلف . ولكنها لم تجازف بالسيطرة عليه إلا بعد قرنين كاملين ، وكان استعمار الجزائر سنة ١٨٣٠م هو العلاقة المميزة لذلك الاستعمار الذي امتد حتى سيطر عام ١٩١٨ في نهاية الحرب العالمية الأولى على العالم الإسلامي كله ما عدا الجزيرة العربية وأفغانستان .

وقد صاحب هذه المرحلة من الاستعمار السياسي والعسكري محاولات من الغزو الفكري والاجتماعي تحت ما أسماه المستعمرون « التغريب » والذي كان يستهدف أساساً تغيير العقلية الإسلامية حتى تتخلص من مقوماتها الذاتية ، وتحويل النفسية الإسلامية حتى تذوب في الفكر الأممي ، ومن هنا تسقط تلك الميزات والعلاقات التي جعلت المسلمين قادرين مدى القرون على حماية وجودهم وكيانهــم ، وكان الإغراء دائما يجري باسم التقدم والعصرية ومحاربة الوجود العسكري بنفس مفاهيمه ، ومن نفس مصادر قوته ، وماذا علينا إذا خسرنا أنفسنا

في سبيل أن نكسب الحرية ، وأن نكون أنداداً للغرب ، وما تزال هذه المعركة ، ولما جاءت الصهيونية العالمية ظهر بوضوح أنها تستهدف تدمير الشخصية المسلمة ، لأنها هي التي حالت وما زالت تحول دون السيطرة، ومن هنا توحدت أهداف الاستعمار والصهيونية ، وتركزت في هذا الخطر ؛ واليوم المسلمون يستشرفون مرحلة جديدة من حياتهم على طريق القوة والنهضة ، فإن أول الأمور التي تحتاج إلى اهتمام عميق هو أن لا تحولهم المقدرات المادية عن وجودهم الذاتي وكيانهم الخاص وطابعهم الإسلامي ، وأن يكونوا قادرين على نقل أحدث مستحدثات العلم والتقدم والحضارة المادية لتكون مواد خامايصوغونها داخل إطار فكرهم وقيمهم ، وبذلك يصنعون الحضارة القادمة ، حضارة القرن الخامس عشر الهجري الذي أوشك أن يهل هلاله • والذي يتطلع المسلمون إليه كعلامة على عصر جديد تعود الكرّة فيه مرة أخرى إلى أيدي العرب والمسلمين •

إن أخطر ما واجه الحضارة الغربية الحديثة ، وأسلمها في وقت قريب إلى الأزمة الخانقة والصراع بين القوى مع ما امتلكته من أسباب التقدم المادي هو أنها كسرت الإطار الديني الأخلاقي الذي هو الحاجز الحامي لكل نهضة من التعثر والتصدع ، ومضت تواجه الحياة بغير سند يحمي ظهرها أو نور يضيء طريقها ، وبذلك صرعتها المادية الغالية، وانحرفت بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس وتغليب الترف والملذات والشهوات ، فانتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التي يتحدثون عنها ، ويبحثون لها عن علاج وهي « أزمة الإنسان الحديث » وصراعه وتمزقه وغربته وضياعه ، كل هذا الذي قاساه ويقاسيه من أهوال غيبة المعنويات : تجاهل أشواق الروح وتصدع النفس ، وتمزق الكيان الإنساني ، وفقدان الهوية والهدف ، وفهم الرسالة والأمانة والغاية

والمصير للإنسان المستخلف في هذه الأرض .

فليحذر المسلمــون اليوم وهم على الطريق إلى امتــلاك أدوات الحضارة الحديثــة وتراثهــا التكنولوجي والعلمي والميكانيكي أن تستوعبهم هذه الحضارة،أو يحتويهم هذا الفهم المدمر القاهر، وعليهم أن يبدؤوا من نقطة التوحيد في الفكر ومن اللغة العربية ، فينقلوا إليها كل معطيات العلم ، ومن الإيمان بوحدة البشرية والإخاء الإنساني ، والعدل والرحمة باعتبارها هي معطيات الإسلام للإنسانية ، وليجعلوا من هذا كله إطاراً يتحركون فيه ، ويخضعون العلم للأخلاق والتقوى ، وبذلك يحققون إرادةالله في بناء المجتمع الإنساني الحق الذي تتطلع إليه الدنيا جميعا بعد أن عاشت في الظلم والاستعباد عصراً طويــلاً شقيت به ، وليطلع المسلمون الناس على أنهم يمتلكون منهاجاً قادراً على إسعاد البشريةحقاً،وردها إلىطريق الحقوالعدل،وتحريرها من الجوع والخوف وتأمين النفس الإنسانية من القلق والتمزق ، وليس عليهم في سبيل ذلك إلا أن يظلوا قادرين على التمسك بقيمهم ، والمحافظة على ذاتيتهم من أن تنهار أو تستسلم أو تنصهر في الفكر الأعمى الذي يحاول احتياجهم حتى لا تفقد البشرية الأمل الوحيد والأخير في إنقاذها مما هي فيــه .

ولقد نرى اليوم الغرب ــ وهو في ساعات الحرج والاحتضار ــ يحاول أن يبحث عن مخرج لأزمته ، ويحاول أن يعدل طريقه ، ويريــد أن يجد في الإسلام عوناً وسنداً على ذلك بعد أن فسدت المناهج التي أنشأها بعيداً عن طريق الله ، وبعد أن تعددت هــذه المناهج وتضاربت وانتكست واحتاجت إلى التعديلات والتخريجات .

ولا ريب أن في الإسلام طلبته وحاجته ، ولكن هل الغرب قادر

اليوم وهو الذي تهاوى إلى أبعاد بعيدة من الظلم والتحلل ، هـل هو قادر اليوم على أن يغير طريقه كيف وهذه القوى التي أغرقته ما تزال تصرف أمره ، وما تزال التلمودية والصهيونية تفرض عليه مدارس علم النفس والاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة والقانون ، وتحتويـه على نحو يعجز معه أن يخرج من أزمته الخانقة إلا صريعاً .

وفي الحق أن مفكري الإسلام قادرون على أن يقدموا الإسـلام للغرب وللإنسانية كلها ، ولكنهم مطالبون أولا أن يقيموا النمـوذج التطبيقي له في بلادهم أولاً ، حتى يكونوا قادرين على التحرر مـن القيود المفروضة على إرادتهم التي ما تزال تعجزهم عن ان يضعوا الشريعة الإسلامية موضع التطبيق العملي بالرغم من توافر الحاجة إليها ، وتوافر الفهم لنفعها وصلاحها ، وبعد أن ثبت تماماً أنه ليس غير هذا الطريق طريق للمسلمين .

إن الإسلام في الحق ارادة في مواجهة الواقع : واقـع البيئـة وموروثاتها ، فهو القادر على تغيير هذا الواقع ، كذلك الإسلام إرادة في مواجهة الأهـواء والرغبات والمطامع التي يطلق عليها المزاج فهـو يدعو المسلم ألا يحكم المزاج في الاختيار ، وإنما يخضع في الاختيـار للحق الواضح المتحرك في إطار حدود الله ، حدود الحلال والحرام ، فلا يجعل للوسط ولا للظروف ولا للوراثة ولا للمزاج سيطرة على الإرادة في الحكم على أمر من الأمور بحيث يتجاوز الإنسان به حـدود الله ، وذلك هو مفهوم الإسلام الحقيقي ، ذلك أن العقل في غير إطار المفهوم الأصيل للوحي يمكنه اختلاق الأسباب واستخدام المنطق في تبرير ما يريـد الهوى . وميزة الإسلام أنه يحرر الإنسان من سلطان المـزاج بالتقوى الذي يصدع بالحق ، وهذا هو فهم الإسلام للإنسان وفهـم

الفلسفات التي تحاول أن تبرر أهواء المزاج النفسي ، فتنحرف بالحضارة من طريقها الصحيح إلى الأهواء المذلة ، وتلك غاية الغايات في الإسلام أن يدعو البشرية كلها إلى طريق سواء : مستقيم ، لاتتفرق بهم السبل، ولا تحكمهم أهواؤهم ، أو تسيطر عليهم العنصرية أو استعلاء الـدم والعرق ، أو تمتلك مقدرات الحياة ، وهي ملك لله تعالى ، والإنسـان مستخلف فيها بالحق من أجل إسعاد الناس جميعاً ، ذلك هو مفهـوم المجتمع الرباني الذي يجب أن يكون واضحاً في نظر المسلمين ، وهم ينتقلون من مكان إلى مكان الصدارة ، وإلى تملك إرادتهم ومقدراتهم، وحيث هم مدعوون إلى أن يمارسوا مكانهم مرة أخرى تحت الشمس (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكـاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) • [الحج : ٤١] •

* * *

الباب الثامن

أزمة التعليم والتربية والثقافة

اولا : ازمــة التعليم

ثانيا : علوم مقطوعة عن جذورها

ثالثا : ازمــة التربيــة

رابعا : ازمــة الثقافــة



الفصل الأول

أزمة التعليم

اخطاء المنهج الاستعماري :

« لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدرسة العصرية والصحافة ان يترك في المسلمين ــ ولو من غير وعي منهم ــ أثرا يجعلهم في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، ولا ريب ان ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ماتركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار » •

هذه هي الخلاصة التي استطاع (هاملتون جب) ومعه مجموعة من المستشرقين استخلاصها بعد بحث حال العالم الإسلامي بحثا وراء ما أمكن تحقيقه من خطة أطلق عليها « تغريب » الإسلام وأهله •

وبالرغم من أن الخطة موزعة الاطراف على مختلف ميادين الثقافة والفكر والأدب والصحافة إلا أنها كانت تحظى بتركيز شديد على « التعليم » ، ذلك أن التعليم كان هو المنطلق الحقيقي لخطة الغزو الثقافي ، وما زال ، وسيظل إلى وقت طويل ما لم يتدارك المسؤولون المسلمون هذا الخطر ، ويعملوا على إيقاف السيطرة الأجنبية الواضحة الأثر على التعليم في مختلف مجالاته ومختلف بيئاته • ذلك أن القول اليوم بتوحيد مناهج التعليم العربية ــ على ما بها من تبعية وأخطار

ومزالق وسموم ما تزال مسيطرة علــى جــوانب كثيرة من أساليب الدراسات والتعليم ــ هو أخطر كثيرا من الأثر الذي تحتــق فعلا في الأجيال الماضية ، ذلك أن الاستعمار كان يتخذ في كل قطر من الاقطار أسلوبا معينا في التعليم يستهدف به :

أولا ــ عزل هذا القطر عن أمته العربية ، ثم عزله عن العالــم الاسلامي كلــه .

ثانيا ــ الحيلولة بينه وبين الارتباط بالجذور التاريخية والادبية واللغوية بادعاء أن العصر الحديث بدأ بحملة نابليون،وأن هــذا العصر منفصل تماما عما قبله مما أطلق عليه زيفا « عصر الانحطاط » محاولة في إيجاد شعور نفسي بالكراهية والانسلاخ من الماضي كلــه .

ثالثا ــ بعد عزل القطر إقليميا ــ عن أمته العربية الصغرى ، وأمته الاسلامية الكبرى ، وعن أصول فكره الإسلامي القرآني الممتد وراء أربعة عشر قرنا ، تقوم الدعوة إلى احيــاء التاريخ الاقليمي الفرعوني والفينيقي والآشوري والبابلي وغيره ، ثم الارتباط بالغرب ، وحضارة الغرب ، وعظمــة الغرب ، وبطولاته وأمجاده ، هــذا الغرب صاحب الحضارة التي لا تقهر ، وممدن الشعوب المتأخرة .. الخ الخ .

رابعا ــ إعلاء العامية على اللغة الفصحى والاهتمام باللهجــة الإقليمية ، وما يتصل بها من حكايات وفلكلور ، وأزجال وموال وغيره إغراقا في العمق الإقليمي للحضارة التي لا تقهر ، وممدن الشــعوب الامتداد الطبيعي للأمة .

خامسا ــ إعلاء اللغة الاجنبية « الإنجليزية أو الفرنسية » على اللغة العربية والدعوة إلى تعلمها باعتبارها لغة الحضارة ، ثم السيطرة عن طريقها فكريا على المثقفين الذين يعتمدون بعد ذلك على فلســفات ومفاهيم الغرب .

هذه كانت خطـة التعليم العامة مع تغييرات يسيرة يختلف بهـا المنهج في مصر تحت سيطرة الاستعمار البريطاني ، عن المنهج في سوريا تحت الاحتلال الفرنسي ، ولكن الهدف العام واحد ، هو إزدراء الوطن والقوم والفكر العربي الاسلامي كله ، والالتفاف نحو الغرب صاحب الحضارة المستعمرة وبطولاته وأمجاده .

ثم حدث بعد الاستقلال وانتهاء الاحتلال تعديل يسير في هـذه المناهج ، ولكن هذا التعديل ركز على الوطنية الإقليمية ، وامتدادهـا السابق للاسلام ، وبقي جوهر الخطة التعليمية كما هو :

١ ـ الإسلام دين عبادة لا صلة له بالمجتمع أو الدولة .

٢ ـ محاولات الاستعمار التي هاجمت القارتين : الافريقيـة والآسيوية ، أطلق عليها اسم « الكشوف العلمية » .

٣ ـ التاريخ الاسلامي لم يزد على أنه قتال وخلاكات بين الحكام الأمويين والعباسيين والعلويين .

٤ ـ تعليب مفاهيم الفلسفة العربية المادية بما فيهـا من شكوك ومادية ومفاهيم متعارضة مع الفكر الاسلامي ، وبما يصور للطالب أنه ليس للمسلمين منهج في المعرفة يختلف عن منهج الغرب .

٥ ـ سيطرة نظريات المدرسة الاجتماعية والتحليل النفسـي والوجودية على علوم النفس والأخلاق والاجتماع والتربية، وكلها تقوم على الفكر المادي .

٦ ـ انفصال دراسات العلوم عن أصولها الأولى التي قدمهـا المسلمون في بناء المنهج العلمي التجريبي .

٧ ـ دراسة العلوم السياسية والاقتصاديـة والاجتماعية دون الإشارة إلى دور المسلمين في بنائها وتنميتها أو أن للمسلمين مناهـج مستقلة في السياسة والاقتصاد والاجتماع .

هذه بعض مناقص ومحاذير المناهج التعليمية التي كانت في البلاد العربية خلال أيام الاحتلال وبعده ، والتي لم تتغير كثيراً منذ ذلك الوقت ، فإذا جاءت اليوم الدعوة الى توحيد مناهج التعليم ، فإنما ستجعل مثل هذه المحاذير أخطاراً عامة ، تشمل البلاد العربية كلها ، ومنها الأقطار التي لم تتصل من قبل بمناهج الإرساليات التبشيرية أو تسيطر عليها مناهج التعليم الغربية « الدنلوبية » وغيرها .

ومن هنا: فإننا نواجه الآن فعلاً «أزمة التعليم» الجديرة بالدراسة والبحث في سبيل تحرير مناهج التعليم من أخطار المفاهيم التي بثها الاستعمار ، وأراد بها السيطرة على العرب والمسلمين بإكراهم على انتقاص تراثهم وتاريخهم ودينهم وقيمهم والإعجاب والتقدير البالغ المغرض للتاريخ الغربي وحضارة الغرب واعتبار المناهج التي تدرس في كليات العلوم والطب وغيرها ، وكأنها من نتاج الفكر الغربي وحده ، مع أن أصولها الأولى من نتاج الحضارة الإسلامية في الأساس مع إضافات قام بها الفكر الغربي الحديث .

كذلك فإن النظريات الخاصة بعلوم النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد إنما تدرس على أنها علوم ، وهي ـ في الحقيقة ـ نظريات قامت على أساس فروض فرضها الباحثون والفلاسفة في بيئات معينة ، واستجابة لتحديات معينة ، وفي عصر معين ، ومن هنا فليست لها ـ أولا ـ صفة الحقيقة العلمية التي لا تنقض ، و ـ ثانيا ـ ليس لها صفة العالمية ، ذلك لأن لكل أمة قيمها وعقائدها ومفاهيمها في مجال العلوم الإنسانية أو العلوم الاجتماعية ، واذا نظرنا إلى ما قاله هاملتون جب قدرنا تماماً مدى الخطر الذي أحيط بالمسلمين خلال السنوات المائة الماضية منذ سيطرت قوى الاستعمار ومن ورائها قوى الاستشراق والتغريب والغزو الثقافي ، وأداتها معاهد التبشير وجامعات الإرساليات

بمختلف صورها : أوربية أو أمريكية، كاثوليكية أو بروتستانتية، ومن ورائها الفكر التلمودي ، والاستشراق اليهودي الذي يستهدف غايات أخرى ، تختلف عن الغايات التي يطمع فيهـا الاستعمار ، والتي تقوم أساسا على مصدر واحد ، هو حرمان هذه الأمة الاسلامية من تطبيق شريعتها الإسلامية كمنهج حياة ، والحيلولة دون استمداد ثقافتهـا وتربيتها وتعليمها من مناهج القرآن الكريم •

إن الخطر الحقيقي الذي واجهته الأمة الإسلامية إنما بدأمن التعليم حين أرادت القوة الاستعمارية حجب الأزهر والزيتونةوالقرويين ومعاهد الحديث في مختلف أجزاء البلاد المحتلة ، وقيام نظام تعليمي جديد على الأساس العصري ، وبذلك خلقت تلك الازدواجية الخطيرة بين نظام تعليمي يقوم على الأساس الديني ، ونظام تعليمي يقوم على الأسـاس المدني ، ثم اعطاء الأخير فرصة السيطرة وحجب الأول عن التقدم إلى الحد الذي لم يعد في الساحة مكان للفكر الاسلامي الذي أصبح حتى الآن ظلا للتعليم المدني ، مع وجود الصراع والاختلاف ، بينما أن الأمور يمكن أن تسير سيراً طبيعياً بقرار واحد يحقق وحدة الأصل ، فيكون التعليم الأصلي ــ كما يطلقون عليه في الجزائر والمغرب ــ هوالأساس، ومنهيتفرعالتعليمالإسلامي المتخصص،والتعليم العلميأو الاجتماعي أو الاقتصادي المتخصص ، المهم أن يكون مصدر التعليم وقاعدته الأساسية هي الثقافة الإسلامية الجامعة بين العلم والدين ، والقائمة على أساس من القرآن الكريم الذي يجمع بينهما ، ويوحد ، ويحول دون الازدواج أو الصراع •

الفصل الثاني

علوم مقطوعة من جذورها

في المؤتمر الثقافي في بغداد المعقود عام ١٩٥٧ ، تحدث واحد من اشهر رجال التعليم في البلاد العربية فقال :

إن كتبنا ومناهجنا مليئة بالسموم الثقافية ، فما زلنا نتعلم ان والد العلوم الطبيعية هو « دالتون » وان والد العلوم الرياضية هو « نيوتن » وان والد علم الاحياء هو « دارون » .

ولقد آن لنا ان نتعلم ان هؤلاء جميعا تتلمذوا على علوم العرب وان نعلم اولادنا فضل «الخوارزمي» على الرياضيات، وفضل « ابن سينا » على الطب ، وفضل الفراء وابن رشد وابن خلدون وغيرهم ، وا ن هؤلاء وغيرهم من آلاف العلماء العرب والمسلمين قد شع فضلهم من بغداد ودمشق وشمال افريقية وقرطبة وغرناطه الى اواسط اوروبا ا . هـ .

وما أعتقد أننا بعد سنوات ليست قليلة من هذا التاريخ قد فعلنا شيئاً حتى تجددت إثارةهذا البحث فيالملتقى الاسلاميفيالجزائر«مايو ١٩٧٤ » وتواصى العلماء على ضرورة الدعوة إلى إنشاء مادة دراسيةفي المدارس والجامعات العربية والإسلامية ، يطلق عليها اسم « مقدمات

المناهج والعلوم ، » يتوفر لها باحثون غيورون ، يكون من شأنها أن تقدم في مناهج الجامعات في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون والطب والتربية دراسات تقدم الصورة الحقيقية لما قدمه المسلمون في هذه المجالات الانسانية كلها ، والذي هو دون مبالغة الإطار الحقيقي للفكر والحضارة والعلوم التجريبية والعلوم الاجتماعية والإنسانية قبل أن تنحرف عن طريقها الأصيل إلى الاستجابة لأهواء الذات ولمطامع البشر .

ذلك أنه من أخطر المناقص التي توجه لمناهجنا في الجامعات أن يدرس أبناؤنا هذه العلوم الحديثة مجتثة عن أصلها ، فيحسون إبان دراستها أنهم عالة على فكر غيرهم ، أو انهم يقتبسون العلم والفكر من الأمم الاخرى، بينما كان لآبائهم دور — أي دور — في تكوين هذا العمل وبناء هذا الصرح ، ولا ريب أن من حق شبابنا على جيلنا أن نكشف له هذه الحلقة المفقودة، ليعرف أن فكره القرآني الاسلامي كان — وسوف يظل — قادراً بالفعل على تقديم إضافات هامة وحاسمة على مدى الأزمان والأجيال .

ومن شأن هذا أيضاً : أن يجعل نظرتنا الى العلوم الفلسفية والانسانية التي تدرس نظرة المؤمن بأن له فكرا متميزاً ، وأن ما يقدم له من نظريات الغرب لا يمكن أن يكون من المسلمات ، أو يوضع موضع العلم الخالص ، أو يوزن بميزان العلم التجريبي ، وإنما هو — في حد ذاته — فروض قام بها الفلاسفة لبيئات وعصور وتحديات معينة ، فنحن حين ندرسها لانؤمن بها ، ولكنا نقارنها بما لدينا ونقف موقف الحيدة التامة ، فلا نعارضها ولا نستسلم لها ، وبذلك نكون قد أعلنا أن لنا علوماً إسلامية في النفس والأخلاق والاجتماع والتربية والاقتصاد والسياسة ، لها طوابعها ، ولها مقرراتها ، وهي تختلف عن نظريات الغرب

في أشياء وتلتقي في أشياء ، ولكننا لا نضعها موضع التطبيق لمخالفتها أولاً: لعقائدنا . وثانياً : لبيئاتنا . وثالثاً : للعصور والتحديات .

وكذلك في مجال العلوم التجريبية فإن للفكر الإسلامي أوليته الحاسمة في إنشاء المنهج العلمي التجريبي الذي تتبناه الحضارة والعلوم الحديثة ، ولذلك فإن من حقنا أن نستقدم علوم التكنولوجيا شريطة أن نعربها ، وندخلها إلى أفق لغتنا وفكرنا لتكون ملكاً لنا ، ولا نكون ملكاً لها .

ونحن نستطيع أن نكشف لشبابنا عن طريق المناهج الدراسية مدى الإضافات الضخمة والحاسمة التي قدمتها الشريعة الإسلامية في مختلف مجالات القانون والاجتماع ومنها مثلاً :

ما أعلنه أحد العلماء في مؤتمر لاهاي منذ سنوات من أن الإمام الشافعي هو أول من وضع نظرية التعايش السلمي ، وأن ما يقوم به علماء السياسة والاجتماع اليوم عن التعايش السلمي الحديث لا يختلف في الشكل والمضمون عما ذهب إليه الإمام الشافعي .

كذلك ما أعلن من أن الامام الماوردي هو أول من نادى بفكرة التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع ، والموازنة بين حقوق الأفراد وحقوق الجماعة من غير تضحية بأحدهما لحساب الآخر .

كذلك أعلن مؤتمر علمي منذ سنوات أن البيروني في كتابه « الجماهير في معرفة الجواهر » هو أول من قدم مفهوم الإسلام الاقتصادي في الادخار واكتناز الأموال وإنفاقها وفيما يتصل بعدم تركها للتداول وأثره في المجتمع ، وقد بين البيروني الخطر الذي يترتب على كنز الاموال ، وقال : إن الحركة من ضرورات الحياة ، فإذا وقفت حركة المال،وقعت الأزمات الاقتصادية،وقدقال هذاقبل رجال الاقتصاد في العصر

الحديث بأكثر من سبعمائة سنة ..

كذلك عرف أن الامام الغزالي سبق هربرت سبنسر في تصوير الدولة أو المدينة بجسم الانسان ، فقد شبه الغزالي الملك بالقلب ، وأصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم ، والشرطة بعصب الانسان ، والوزراء بحس الادراك ، والقضاة بالشعور .

كذلك قدم ابن القيم أبحاثه التي انتفع بها القانون الغربي الحديث في عدد من القوانين منها التعاقد ومنع الحيل في الاحكام وإحياء عمل الفضولي المحسن والمحافظة على أموال الفرقاء .

كل هذا وعشرات من مثله يدعونا إلى أن ندرس في الجامعات مناهج الإسلام ، وخاصة في الشريعة الاسلامية والاقتصاد الإسلامي .

٢ ــ ضرورة إعطاء المدرسة العربية والاسلامية طابعها المميز المختلف عن مدارس الارساليات والجامعات الاجنبية ، وليس هذا يعني دراسة مادة الدين في الجامعات فحسب ، وهو ما زال لم يؤخذ به بعد ، ولكن ضرورة أن تلتمس كل مناهج الدراسة مصدرها من الأصل الأصيل : القرآن الكريم ، فلا يكون الإسلام مادة دينية تدرس منفصلة عن غيرها ، وإنما يكون بمثابة روح يسري في جميع المناهج التعليمية لأنه القاسم المشترك الأعظم لها .

أليس الإسلام هو الذي فتح الآفاق أمام الفلك والطب والكيمياء والفيزياء .. أليس الإسلام هو الذي قدم مناهج علوم النفس والأخلاق والاجتماع والتربية على النحو الذي يختلف اختلافاً واضحاً عما كانت تعرف البشرية في حضارات الهند وفارس والرومان والجاهلية العربية.

هذا ــ إذن ــ هو منطلق التعليم الحقيقي ، وكل محاولة غير ذلك

لا تؤدي إلى تسلم المسلمين والعرب زمام أمتهم وإرادتها ومسؤوليتها وقدرتها على التحرر من قيد التبعية الثقيل والخروج إلى الرشد الفكري وإلى تقديم معطيات الإسلام الحقة للبشرية الحائرة •

٣ ـ ولعل من أخطر ما يتصل بهذا ذلك الأثر الذي حققه التخفف من دراسات علوم الجدل ومعرفة الشبهات ، وخاصة في الدراسات الإسلامية ، فلقد كانت دراسات العلوم الإسلامية التي عرفها الأزهر والزيتونة والقرويين ومعاهد الحديث والفقة كلها ترمي إلى تكوين العقل القادر على الإحساس بالشبهة وتنفيدها • وقد كان تراث صدر الشريعة ، والغزالي ، والآمدي ، والكمال بن الهمام، وابن حزم، وابن تيمية من أعظم ما قدم في هذا المجال ، هذه الكتب التي يراد لها الآن ان تتوارى وراء الملخصات الهزيلة والمناهج المبسطة ••

ولن يسعد خصوم الإسلام ، وخاصة المستشرقين بشيء قدر تواري هذه المناهج التي كانت تقاوم شبهاتهم ، وتفقأ أعين المكابرين منهم •

ذلك أن أبرز ما تتميز به الدراسات الجامعية الإسلامية البيان الإسلامي القادر على مواجهة حجج أصحاب الديانات والفلسفات المادية والوثنية ، وهذا هو ما كان يقدمه منهج الدراسة في الازهر قبل التطوير ، وقد استهدف التعديل تقليص وإنقاص هذا الجانب الهام في محاولة للقضاء على القدرة الذهنية في التمييز بين الصواب والخطأ في المناظرة، هذه الخاصية التي يريد الاستشراق أن تسقط حتى تنفذ شبهاتهم دون أن تجد من يرد سهامها •• ومن شأن تخفيف المناهج وتبسيطها أن يحول دون الاتصال بكتب السلف مما يقصر معه النظر الإسلامي ويتضاءل •

٤ ـ ان الكثير من بلاد العالم الإسلامي مايزال يخضع للمناهج التي

أقامتها حكومة الاستعمار أو معاهد الإرساليات ، وما تزال المحـاولات للخروج من هذا القيد صعبة ، فإن رجال المناهـج الحديثـة المتأثرين بمذهب « ديوي » ما يزالون يفرضون وجودهم على كثير من الهيئـات التعليمية ، ويحولون دون تطعيمها بالمنهج العربي الإسلامي.. فضلاً عن ضآلة الأثر الذي يحدثه هذا التطعيم ، والذي يقوم في بعض الاقطار على أساس إدخال مادة الدين في المدرسة معزولة منفصلة على أسـاس لاهوتي محض هو أن الدين صلاة وصيام وعبادة ، وليس هذا مفهوم الاسلام الصحيـح . فالاسـلام هـو روح التعليـم له ، ومـا مـن منهج من مناهجه من الحساب إلى الطبيعة إلى الكيميـاء إلى النفس والسياسة والاجتماع الا وللاسلام فيه مفهوم وأصل وكلمة . فهـل وضعت وجهة النظر الإسلامية على الأقل موازية لوجهة النظر الغربيـة في كل علم حتى يعرف المتعلمون المسلمون والعرب أن هذا منهجوافد ، وهذا منهج أصيل . وهل قدمت هذه العلوم الغربية المادية المصـــدر بمقومات تكشف عن وجهة نظر الاسلام فيها ، أم ما نزال ندرس فرويد وماركس ، وسارتر ؛ وديوي ودوركايمعلى أن آراءهم هيالعلمالخالص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ .

الفصل الثالث

أزمة التربية

هذه الاجيال الجديدة المتطلعة الطامحة المتمردة حينا والحالمة حيناً في عالمنا الاسلامي إنما تمثل بصيحاتها تلك الحاجة المتعطشة إلى منهج التربية الاسلامية الاصيل القادر على إعطائها مطامحها وتغذية تطلعاتها وتطمين نفوسها ، ذلك ان الحضارة الحديثة بعلمها وبمعطياتها قد ازعجت النفس الانسانية إزعاجا لاحد له ، فهي من ناحية قد فتحت له بابا من المعرفة يتصل بالعقل والعلم ، وعجزت عن ان يعطيه شيئا للنفس والروح ، وهي قد قدمت له ادوات المتعة والترف ويسرت له المظاهر الشابة الجديدة، تواجه تلك الظاهرة البراقة والدعة، فحرمته من الجهد والحركة والخشونة ، فاصبحت النفس الواضحة العميقة ظاهرة الصراع والقلق والتمزق والفراغ ، ذلك لان جانبا من الانسان قد نما واتسع ، وحشدت له القوى والامكانيات ، وهو جانب الجسد والعقل والمادة ، اما الجانب الآخر ، وهو جانب النفس والروح والمعنويات فقد اهمل وحجب ووصف بانه غيب وخرافة ومجهول ، وما هو كذلك في الحقيقة ..

وتلك هي أزمة التربية في عالمنا الاسلامي ، ذلك أن هذه الأمة قد تشكلت في جذورها العميقة وروحها الأصيلة على ذلك الجماع

المتكامل المتوازن من أمر الروح والمادة ، والنفس والعقل ورغبات المادة وأشواق النفس • وإذا جاءت اليوم معطيات التربية الحديثة ، فقدمت له ذلك العطاء المادي وحده ، وتجاهلت أمر الأخلاقيات التي هي من أصل العقيدة ، وحجبت التوحيد والإيمان بالله ، وهو عطاء السكينة والطمأنينة ، وفصلت بين الدنيا والآخرة ، فقد أعجزت النفس الإسلامية عن مسيرتها ، وهددت طريقها بالخطر والشر والمفازة المهلكة •

ولقد ينظر الناس في العالم كله اليوم بعد أن أعطتهم الحضارة هذا الفيض الغامر من معطيات المادة ونعمائها وترفها فيجدون أن جانباً كبيراً من حاجة الإنسان ما زال غامضاً ، وما زال محروماً ، لقد أعطت الحضارة في مجال الماديات ولكن النفس الإنسانية ما تزال حائرة ، مضطربة ، تتطلع إلى السكينة وإلى الأمن وتسأل عن وجودها وهدفها ومصيرها وغدها ، وهذا ما تعجز عنه الحضارة بمعطياتها المادية •

بل إن هذا العطاء المادي الحضاري مع الرخاء الذي تواجهه بعض بلاد الغرب إنما يدفع النفس الإنسانية إلى دمار لا حد له ، فهو يفسد الطبيعة الإنسانية بالخمر وإطلاق الغرائز والأهواء ، فلا يكون ارتفاع مستوى المعيشة أو ما يسمونه الرفاهية إلا بلاءاً يدفع إلى الانتحار والقتل والجنون •

ذلك لأن النفس الإنسانية عاطشة إلى عطاء مماثل لعطاء المادة ، مشوقة إلى التعرف على مطامحها متطلعة إلى أصولها الربانية السماوية التي حجبتها حضارة المادة والربا والاباحية •

وقد جرينا نحن في بلاد الإسلام ــ صاحب العطاء المتكامل للروح والجسم المتوازن بين المادة والروح ، الجامع بين الدنيا والآخرة ــ

جرينا نحن شوطاً وراء هذا المنهج من التربية ، فقدمنا أجيالا تحس اليوم بالتمزق والانحراف ، وتتطلع إلى السكينة والعطاء الروحي •

وليس أقدر على هذا العطاء من الإسلام نفسه الذي قدم للانسانية أصدق المناهج في التربية ، والذي أعد النفس الإنسانية لتكون للتعليم والثقافة ، وبنى فيها الهدف الأصيل الذي جاء من أجله الانسان إلى الحياة عاملا ومستخلفا لله سبحانه ، لعمارة الأرض وسياستها بالتقوى والمحبة والأخوة الانسانية والرحمة والإخاء بعيداً عن الجشع والاستغلال والعدوان واضعاً نفسه في خدمة أهله ومجتمعه ، مضحياً بكل ما يملك باذلاً منفقاً من أجل التطلع إلى جزاء أخروي كريم •

لقد أعدت التربية الإسلامية الإنسان بأمرين جهلتهما التربية الحديثة ، وعجزت عنهما لمصادرها المادية ، وهما قوام الحياة الحقة على هذه الأرض ، وأساس بناء الإنسان الرباني ، تلكما هما :

أولا ــ الإرادة والمسؤولية الفردية حتى يعرف الإنسان أنه قادر على أن يختار بين الخير والشر والحق والباطل ، وأن يمضي في موكب الحياة ويضع لبنات جديدة في ذلك الصرح الحضاري الإنساني ، وبدون هذه الإرادة والمسؤولية الفردية ، لا يكون الجزاء الدنيوي والأخروي بعد البعث والنشور ، هذه المسؤولية قائمة على غاية هي الجزاء ثواباً وعقاباً ، وبدون هذا لا يستقيم عمل الإنسان ، ولا يحفظ في دائرة التقوى من شر الأهواء والمطامع •

ثانيا ــ الالتزام الأخلاقي الذي يحيط بالإنسان وعمله إحاطة السوار بالمعصم ، فيدفعه إلى الطريق الصحيح والشريف ، ويحميه من أخطار المعصية والخطيئة والفساد والانحلال والاباحية ، ويجعله إنساناً قوياً قادراً على كل مواجهة كل خطر ، والوقوف في وجه كل عاصفة •

من خلال هذين السلاحين الماضيين رسمت التربية الإسلامية طريقها الحق في بناء الإنسان لنفسه رجلاً معتصماً بالإيمان بالله عن الخطأ والفساد ، وعلاملا لأسرته وجماعته دون أن تجرفه الأنانية الطاغية ،فهو بذلك كله يكون قادراً على حماية عقيدته ووطنه وأمته من كل ما يتعرض له من تحديات وأخطار ، سواء كانت في مجال الأرض أم في مجال الفكر •

أما حين تخلو التربية الحديثة من قيم العقيدة والأخلاق ، فإنها لن تكون إلا جرياً وراء الحياة وأخطاء المجتمعات دون أن يكون لها إطار تعرفه ، أو هدف تحديده ، أو غاية تعمل لها ؛ وذلك هو ما قصدت إليه القوى المتربصة بالإنسانية الشر ، الراغبة في تدمير المجتمعات قبل السيطرة عليها •

ومن هنا جاءت تلك الصيحات المنكرة التي تتردد بين حين وحين من أبواق التغريب والغزو الثقافي متهجمة على الاسلام والقرآن والرسول الكريم ، ذلك لأنها تعرف أن هذه هي القوى الباقية الصامدة الوحيدة في وجه ذلك الخطر الذي يتهدد البشرية جميعاً : خطر إفنائها وتدميرها واستعبادها مرة أخرى للعجل الذهبي وللربا والإباحية •

وسواء ترددت هذه الصيحات على ألسنة المستشرقين ، أم على ألسنة كتاب ممن يكتبون بالعربية ، أو على ألسنة من هم أكثر شهرة ومكانة ؛ فإن الغاية واحدة ، وإن الهدف واحد ، وإن هذه كلها قوى مجندة في سبيل خدمة المخططات التلمودية الصهيونية •

ولقد كانت القيم الأساسية للإسلام قائمة بالحق منذ أربعة عشر قرناً ؛ وفيها الردح الصريح الواضح على كل هذه الشبهات ، والدحض البيّن الصادق لكل هذا الزيف ، فالإسلام هو أول من علم الناس المسؤولية الفردية ، وربطها بالجزاء الأخروي ، ودعا أبناءه إلى بناء

الإرادة القوية بالإيمان والصوم والانفطام عن الشهوات والاستعلاء عن الصغائر ..

والفكر الغربي الممثل في مدارس علم النفس والعلوم الاجتماعية وغيرها ، هو الذي يدعو الناس اليوم إلى جبرية المادة ، وحتمية التاريخ، وهما علامتان على الاستسلام والخضوع وإنكار للإرادة الانسانية والمسؤولية الفردية والجزاء الأخروي ، وتحميل ذلك كله على المجتمع هربا من فكرة الجزاء ، وإنكاراً للبعث ، ولم يكن هذا المفهوم في يوم من الأيام سائدا إلا حين حمله التلموديون معهم من بابل القديمة ، وأذاعوه في الناس تمكينا لفكرهم الربوي الإباحي .

أما الإسلام وأما القرآن وأما رسول لله محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد حملوا الإنسان مسؤوليته حين أعلنوا حرية إرادته حيث هداه الله النجدين وقال له : « اعملوا ما شئتم » [فصلت : ٤٠] ، وحيث قال : « لا إكراه في الدين » [البقرة : ٢٥٦] وأن من « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ومن هنا تكون مسؤولية العمل على الإنسان ، فهو كسبه وصنع يده ، فاذا اتجهت أمة إلى الخير ، فتح الله لها طريقه ، وإذا اتجهت إلى الشر عاقبها عليه ، وما كتب الله لنا هو نتيجة عملنا ايمانا بالله ، أو انصرافا عن الحق إلى الباطل ، وآيات القرآن لا بد أن تفهم في مواضعها من العبرة ، وفي ارتباطاتها بما قبلها وما بعدها .

ولقد كانت عقيدة القضاء والقدر في الصدر الأول من الإسلام أكبر سلاح في سبيل البذل والاستشهاد إيمانا بأن الإنسان لن يقصر به الجهاد عمرا طائلا ، ولن يطيل عمرا قصيرا .

وما يزال دعاة التغريب يلحون على هذه المسائل ليفسدوا العقول ،

أو يثيروا الشبهات ، ولكن قوة الحق هي صاحبة الغلب في النهايـة •

وليس في ترديد هذه الدعوات وتكرارها جديد على المسلمين الذين عرفوا الآن من أين تأتي الأخطار ، ولكنه مدعاة إلى أن ينعقد العزم على إعادة أساليب التربية الإسلامية لهذه الأمة ، وحمايتها من هذا الخطر المتصل والمتجدد الذي يفسد عليها هذه الأجيال الجديدة المتطلعة إلى نور الله ، وإلى العلم والثقافة ، وإلى فهم الاسلام فهما صحيحا بعد أن تقطعت بها السبل ، وفشلت كل الأيديولوجيات التي قدمت لهـا من ثقافة الغرب وفكره ، سواء في مجال الديمقراطية أم الماركسية جميعا •

ونحن نعرف أنه بعد انتصارات العاشـر من رمضان التي هزت العالم الاستعماري والصهيوني جميعا ، لا بد أن تتجدد أساليب ، وتعلو صيحات تحاول أن تنال من هذه الأمـة التي اختارت وجهتها إلى الله ، وانتصرت بكلمة : الله أكبر ، ومن هنا ما نرى من خطب في مؤتمرات التربية ومن محاضرات في ندوة التخلف الحضاري ، ومن أصوات تحاول أن تقول : ان الاتجاه المؤمن هو من قبيل الغيبيات والجمود • ومثـل هـذه الصيحات وأشد سمعناها بعد النكسة ، ومع ذلك فقـد ضرب العرب والمسلمون عنها صحفا ، وعرفوا زيفها وفساد مصادرها ، وسوف يكون إصرار التغريب على ترديد شبهاته الفاسدة قوة جديدة تمـلأ قلوبنا بالثقة في عقيدتنا وفكرنا ورفضا جديدا لهذه المصادر التي تضللنا وتزيف حقائقنا حتى نعرف أنها مصادر العدو ، وأنها مرتبطة تماما بالخطر الجاثم في لب الأمة الاسلامية ، فلا تتوقف عن كفاحه ونضاله وكشف زيفه وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم الاسلامية من كل ما يشوبها من دخائـل •

ولا ريب أن الخطـر الذي يحاول أن يصرعنا الآن إنما بدأ من التبعية للتربية الغربية ولمناهج التعليم الوافدة ، وإن حريتنا مرتبطـة تماماً بكسر هذا القيد والتماس أصالة مفاهيم التربية الإسلامية •

الفصل الرابع

أزمة الثقافة

اختلف الراي في السنوات الأخيرة حول مفهوم « الثقافة » وانتهى إلى مقرر واضح يقيم لها ذاتيتها الخاصة ، ويحفظ لها كيانها المستقل في علاقتها بالمعرفة والعلم .

فالمعرفة إنسانية عامة تشترك فيها الأمم جميعها ، وترتبط بالفكر البشري في اصوله وجذوره ، والعلم « عالمي » ملك للأمم والشعوب ، ساهمت فيه الحضارات المختلفة خلال مراحل التاريخ المتصلة .

وكان للمسلمين والعرب في المعرفة دور ، وفي العلم اثر وفضل .

اما « الثقافة » فهي شيء آخر غير العلم وغير المعرفة ، إنها نتاج الأمة الخاص المستمد من عقائدها وتاريخها وقيمها والمتصل بكيانها وذاتيتها ووجودها ، ومن هنا كانت الثقافات خاصة ، وكانت المعرفة والعلوم عامة ، فلكل امة ثقافتها ومثلها العليا وخصائصها الذاتية التي تشكل طابعها وروحها ومزاجها ونفسيتها ، وقد تلتقي في جزئيات ذلك مع امم اخرى ، وقد تختلف ، ولكنها في مجموع عناصرها تمثل نموذجا خاصا يرسم شخصيتها العامة ، وفي كل مراحل التاريخ كانت الأمم تدافع عن ثقافتها وذاتيتها أن تنصهر او تحتوي او تذوب في ثقافات

الأمم ، وخاصة في عصور الضعف وفي مواجهة تحديات الغزو السياسي والعسكري والثقافي على النحو الذي تواجهه الثقافة في العالم الإسلامي اليوم .

ولقد ظلت « الثقافة » في العالم الإسلامي تواجه تلك التحديات الخطيرة منذ أكثر من قرن تقريباً في محاولة احتوائها أو تذويبها أو تزييف شخصيتها أو إفساد ذاتيتها على النحو الذي يجعلها تسقط فريسة الأممية أو العالمية ، وبالرغم من سقوط العالم الإسلامي تحت نفوذ الاستعمار الغربي بثقافاته الفرنسية والانجليزية والإيطالية والهولندية ، فقد استطاعت الجذور العميقة المرتبطة بالقرآن أساسا ، وبالميراث الإسلامي من سنة وفقه وأخلاق وعقيدة أن تحمي المسلمين من الاحتواء ، وإن لم تحل بينها وبين قيام دائرة تغريبية ما تزال تحاول بين الحين والحين أن تثير الشبهات وأن تزيف الحقائق ، وأن تفسد المقومات الأساسية للمسلمين بإدخال مفاهيم غريبة على القيم الأصيلة بغية إفسادها وتذويب الفكر الإسلامي في بوتقة الثقافات الغربية التي تمر في العصر الحاضر بأقسى مراحل التحدي والانحلال والخطر .

ومن هنا تأتي أزمة الثقافة في العالم الإسلامي نتيجة ذلك التحدي الخطير الذي فرضته سنوات طويلة من عمل الإرساليات التبشيرية في مجال التعليم وجهودمكثفة من عمل الاستشراق في مجال الفكر ، ومحاولات مستمرة من عمل التغريب في مجال التربية ، وقد تمثل الخطر في طبقة من أبناء هذه الأمة سيطرت عليهم مفاهيم الغرب ، فحسبوا أن بلاد العرب مثل أوروبا ، وأن الأديان مثل الإسلام ، وأن ما أجراه كتاب الغرب من نقد للكتب المقدسة ، أو ما عارضوا به تفسيرات العقائد، يمكن أن يجري على القرآن ، وغفلوا عن مدى الفوارق البعيدة بين الأمم وبين الثقافات وبين الأديان ، وجهلوا حقائق التاريخ وتحديات العصور التي مرت بالغرب في مواجهة الدين والكنيسة والإقطاع ، ومن

أخطار العبودية التي فرضتها الحضارة اليونانية والرومانية والوثنية التي شرعتها الهلينية الإغريقية ، والتعدد الذي فسرت به عقائد الأديان ، والرهبانية التي ابتدعت ، وما كتبتها أديان السماء على أحد ، جهلوا كل ذلك وتحدياته بالنسبة لطبيعة الإنسان الجامعة بين الروح والمادة ، والرابطة بين رغبات المادة وغرائز الحس وأشواق السماء ، ولم يحيطوا بذلك الخطر الذي فرض على ما أحل الله والقيد الذي وضع على طبيعة الانسان ، وأن ذلك كله ليس من الدين الحق المنزل ، وغفلوا عن الطبيعة الانسانية التي تستطيع أن تحطم القيود المخالفة للفطرة المجافية للعقل ، وأنها إذا لم تجد أمامها الحق الذي أنزله الله . أندفعت إلى الباطل الذي فلسفه الإنسان لنفسه إرضاء لهواه ، وأن كل ما قام به كتاب الغرب من نقد للدين أو معارضة للتوراة ، أو مهاجمة لتفسيرات العقائد ، إنما كان طبيعيا لأن ما قدم إليهم لم يكن هو الدين الحق الذي يوافق الفطرة ، ويتجاوب مع العقل ، ويطابق طبيعة الانسان .

ومن هنا كان خطر الذين نقلوا معارك الغرب في مواجهة العقائد إلى مجال الإسلام ، بينما كان الإسلام مخالفا لذلك كله ، معارضا لكل قيد غير حدود الله ، متسقا مع الفطرة والعقل وطبيعة الانسان .

فرسول الإسلام في فهم المسلمين الصحيح هو بشر أوحى الله إليه ، والقرآن كتاب الله المنزل بالحق الذي لم يصبه تحريف أو تغيير ، والمسلمون يؤمنون بالله الواحد الأحد الذي لا يتعدد ، ولا يندمج ، ولا يقبل الحلول أو الاتحاد ، خالق كل شيء من العدم ، ومصرف الامر كله ، كبيره وصغيره ، الذي يمسك هذا النظام كله ، ويدبره ، ويعلم أخفى ما فيه من دقائق الأشياء كما يعرف كبيرها .

فالاسلام يفرق بين الألوهية والنبوة ، ولا يقبل مفهوم تقديس الأبطال أو نقلهم إلى مجال العبادة ، والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ

كان حريصا في كل مواقف حياته على أن يقول : انه بشر يوحى إليه ، وإنه مبلغ ومنذر ، لا يعرف من الغيب شيئا ، ولا يدعي لنفسه أي حق أو سلطان تجاه المسلمين ، والمسلمون لم يعبدوا الرسول ، وإن كانــوا يحبونه أشد الحب ، ولكنهم يعرفون مكانــه من الحق تبارك وتعالى الخالق الاعظم وسيد الكون كله .

وفي مواقف كثيرة أكد الرسول موقفه ، وحرص على أن لا ينظر الناس إليه نظرة تختلف عن مكانة الإنسان المؤيد بالوحي والرسالــة .

ولقد غضب عندما مات ابراهيم ابنه ،وانكسفت الشمس في ذلك اليوم بعد أن حاول بعض الناس أن يربطوا بين الأمرين ، وخرج يجر ثوبه عجلا ليدعو الناس إلى كلمة يوضح فيها الموقف ، وكان مما قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد أو لحياتــه .

وهو الذي قال للرجل الذي أصابته رعدة عندما لقيه : « هــون عليك فما أنا الا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » .

ولقد كان المسلمون ولا يزالون حريصين على أن يكرموا رسولهم سيد الخلق وخاتم المرسلين ، ولكنهم لا يؤلهونه ولا يقدسونه .

ولذلك فقد أخطأ الذين حاولوا أن ينقلــوا مجال التعــارض بين الألوهية والنبوة من الفكر الغربي إلى الفكر الإسلامي ، بينما فصــل الاسلام بينهما في دقة بالغة .

كذلك فقد أخطؤوا حين نظروا إلى القرآن نظرتهم إلى الكتب المقدسة التي قرر الباحثون في الغرب أنها ليست من كتب السماء ، والتي نثرت عنها الدراسات الضافية لتكشف عن كتابها وعصورهم ، وما أضيف إليها وما حذف منها ، والتي أعتبرت نصوصا أدبية تقع موقع النقد بالإشارة

إلى ضعف أسلوب أو قوته وبراعة خيالها أو فساده ، لأنها من صنع البشر ، بينما لا يمكن أن يوضع القرآن هذا الموضع ، لأنه ليس من صنع البشر ، ولم يتعرض للتزييف أو التحريف أو الإضافة والحذف ما تعرضت له الكتب التي وصفت بأنها مقدسة .

ومن هنا كان خطأ رجال التغريب وأبناء مدارس الارساليات وأتباع النفوذ الاستعماري وأولياء الفكر المادي والملاحدة الذين يعبثون حين يحاولون مقارنة القرآن كتاب الله الموثق المنزل بالحق وخاتم كتب السماء والمهيمن عليها ، والذي سجل ودمغ بعبارة صريحة ما زيفت به بعض كتب السماء على النحو الذي أيدته أبحاث كتاب الغرب الحديثة ومن قبلها بأكثر من أربعة عشر قرناً .

وذلك عيب رجال عرب أو مسلمين من تلاميذ الاستشراق ، وممن تعلموا في معاهد الإرساليات أن يحكّموا مناهج البحث في الكتب المقدسة وتفسيرات العقائد الغربية ، يحكموها على الإسلام الذي يختلف عنها إختلافاً بيناً من حيث إنه نص موثق سماوي ، قد كفل الله له الحفظ والصيانة من التحريف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ومن دين يعترف برغبات الإنسان وأشواقه ويجمع بينها ، وينظمها ، فلا يقر الرهبانية كما لا يقر الانحلال في وقت واحد .

ومن نبي قال عن نفسه : إنه بشر يوحى إليه ، وإنه لا يملك للناس من الله شيئاً ، ولا يعلم الغيب ، بشير ونذير ليس على الناس بمسيطر ؛ وهو أول من قال بلسان القرآن : لا إكراه في الدين .

ومن هنا نجد أن أزمة « الثقافة » في العالم الإسلامي إنما تقوم على حملة التغريب الزائفة المضللة التي تريد أن تحاكم الإسلام إلى ما

حوكمت إليه تفسيرات الأديان التي أدخلت اليها ما لم يأذن به الله من أهواء الإنسان ووثنياته وإلحادياته وإباحياته وفكره البشري الذي حاول وما زال يحاول أن يصاول الفكر الرباني الذي جاء الإسلام ليصحح بـــه الأخطاء ، ويكشف عن الشبهات ، ويحرر الإنسانية من زيف الإضافات التي لم ينزل بها الله سلطانا •

ومن هنا نجد تلك الأصداء التي نسمعها بين حين وحين ، يرددها ذلك الاسم اللامع أو ذاك في دنيا الفكر أو السياسة أو الحكم ليزلزل الناس عن الحق الذي عرفوه ، ولكن الحق غالب على الباطـل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل •

□ ▽ □

الباب التاسع

التحديات في وجه العربية الفصحى

أولا : هل تصبح العربية لغة العالم الاسلامي

ثانيا : المؤامرة على الفصحى موجهة إلى القرآن

الفصل الأول

هل تصبح اللغة العربية لغة العالم الإسلامي ؟

منذ ان طوق الاستعمار العالم الاسلامي وسيطر عليه ، كان من أول خططه إيقاف اللغة العربية عن النمو حتى لا تساير الإسلام في حركة توسعه ، وكان ذلك من اخطر التحديات واضخم المحاذير التي واجهت حركة الإسلام النامية القوية المندفعة إلى الامام في محاور متعددة : إلى قلب افريقيا ، وإلى جنوب شرق آسيا وإلى الغرب . وما تزال تلك من اكبر القضايا الجديرة بالعناية والبحث لإزالة العوائق التي تقف في طريق تكامل النمو الإسلامي : دينا ولغة ، ذلك ان هذا الدين كتابه القرآن ولغته العربية ، وان اي نمو له بغير هذه اللغة معه من شانه ان يقلل من اصالته وعمقه، ولقد شهد التاريخ كيف سيطرت اللغتان الفرنسية ، والانجليزية في مختلف الأقطار الافريقية والآسيوية التي احتلها الاستعمار الغربي كما سيطرت اللغة الهولندية في اجزاء كبيرة من الملايو .

وفي العالم العربي سيطرت اللغتان الاجنبيتان ، واوقفتا نمو اللغة العربية أيضاً في بلادها غير ان إنحسار الموجة الاستعمارية والتفريقية في السنوات الأخيرة ، قد جدد الأمل في العودة إلى الخط الطبيعي الجامع بين الإسلام واللغة العربية بحيث تصبح العربية الفصحى هي لغة المسلمين

في كل مكان بعد لغتهم القومية ، لأنها لغة الفكر والثقافة والعقيدة ، ولأنها اللغة الأولى في بناء الوحدة الإسلامية التي هي — في أساسها — وحدة فكر وعقيدة وثقافة .

وفي الباكستان تظهر منذ سنوات أشعة كثيرة لهذا العمل ، ويحمل رجالها الدعوة إلى أن تصبح اللغة العربية لغة رئيسية في الثقافة الإسلامية الباكستانية التي تعتمد على اللغة الاوردية ، ويقرر الباحثون الذين حملوا لواء هذه الفكرة منذ أكثر من ثلاثين عاماً أن للغة العربية مكانتها العظمى لأنها هي التي حملت رسالة السماء القرآن هذه الرسالة التي أضاءت آفاق الكون برشدها ، وهم يردون الفضل إلى الامة العربية التي رفعت راية التوحيد وفتحت مشارق الأرض ومغاربها ، وحملت معها لغتها وثقافتها من حدود فرنسا إلى أرض السند ، مما أدى إلى انكباب الناس على تعلم العربية وثقافتها ، وخاصة في الشعبين العظيمين : الفرس والترك ومسلمي الهند ، ومن ثم تجلى أن اللغة العربية لغة لا تعرف الحدود الزمانية والمكانية ، لأنها حاملة لرسالة الإسلام ، ويقول (جل سعيد تام بن قريب الله) في بحث له : إن الباكستان دولة إسلامية ، غرسها العرب في أول رحلة لهم في فتح السند ، وها هي الشجرة تعطي ثمارها ، واللغة العربية بوصفها لغة القرآن والحديث ، فإن تعلمها فريضة على كل مسلم ، وأول ما يبدأ به مسلمو باكستان ، فهو تعليم أبنائهم القرآن الكريم ، ثم اللغة العربية ؛ كما يتعلم هؤلاء الأطفال اللغة العربية في المدارس العصرية ، ويقول الباحث : إنه إذا كانت اللغات المحلية تتصادم مع بعضها ، فإن هذه اللغات لا تتصادم مع العربية ، لأنها لغة مقدسة ، لها مكانها في نفوس جميع أبناء الأقاليم ، هذا فضلا عن أن اللغة الأوردية تكتب بالحروف

العربية ، كذلك فإن اللغات الاقليمية جميعها تكتب بالحروف العربية أقربها إلى اللغة العربية السندية التي تحمل ستين في المائة من ألفاظ اللغة العربية ، لأن أقليم السند الذي فتحه العرب قد انجب سفراء وأدباء ، ما زالت لهم شهرتهم المدوية أمثال : عطاء السندي الذي يعد من فحول الشعراء في الأدب العربي كما تصدر عدة مجلات وصحف باللغة العربية .

٢ — وفي أكثر من قطر في أفريقيا وآسيا تتردد الدعوة إلى وجوب جعل العربية لغة ثانية في البلاد الاسلامية التي لا تتكلم العربية، وإن في العالم الاسلامي حسبما أورده إحصاء أخير أكثر من ٣٥٠ مليونا من المسلمين يكتبون الحروف العربية وإن الحروف العربية قد انتشرت منذ جاء الإسلام ، وكتبت بها لغات إسلامية كثيرة ، منها الفارسية والافغانية والكردية والمغولية والبربرية والسودانية والساحلية ولغة أهل الملايو واللغة التركية قبل عام ١٩٢٦ ، وذلك عدا أكثر من مائة مليون عربي يكتبون بالخط العربي .

٣ — وتقول الدكتورة جاكين ماركس الاخصائية في علم اللغات في مدينة سان باولو — البرازيل بعد أن أمضت سنوات في دراسة لغات العالم : إن العربية من بين عشر لغات الأكثر انتشاراً ، وإنه لا يسبقها إلا الصينية ٦٠٥ مليون والانجليزية ٢٣٣ مليون .

٤ — ويشير الاستاذ (بيروجيرو) الاستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمدينة نيس : إن اللغة العربية أثرت تأثيراً ضخماً وعميقاً في اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية ، ويقول في كتابه الكلمات الاجنبية في اللغة الفرنسية : إن من بين الكلمات التي يرجع أصلها إلى

العربية كلمة «الكحول» و«الاكسيد» وهي كلمة تعني حجرا معينا يستعمل في العلاج ، وإن العرب قد كشفوا للعالم بصفتهم مبـرزين في ميدان الكيمياء والصيدلة عدة مواد ومحلولات مثل « الكافور » و « القطران الملاصق » و « النترون » و « البرنيز» الذي يستعمل في الصباغة ومادة العنبر التي تحتفظ بنفس الحروف في اللغات اللاتينية •

ويقول : ان عدة كلمات أجنبية يرجع أصلها إلى اللغة العربية قد دخلت إلى أوروبا عن طريق التجار العرب الذين كانوا يقصدون بـلاد إيطاليا وخاصة البندقية وتستعمل هـذه الألفاظ اليـوم في البحريـة والموازين والميدان العسكري كدار الصناعة التي تحولت إلى (أرسنال) وكنجـم الندير والزنيت وكلمة الصفر والكارا والقنطار ، وكلمـات الزعفران والخروب والسبانخ والغزال والببغاء •

ويقول : وقد بدأ يقل مفعول تأثـير الأدب العربي على الغـرب ابتداء من القرن الرابع عشر ، واقتصر تزويد القاموس الفرنسي عبـر أسبانيا وإيطاليا طيلة القرنين الخامس عشر والثامن عشر لعـدة كلمات ومفردات أثرت العلم الحديث واللغات اللاتينية لعدة كلمات ومفردات أثرت العلم الحديث واللغات اللاتينية لعدة مفردات وكلمات •

٥ ــ ويؤكد المستشرق «أرنة امبروس» (٣٠) أن الثقافة الإنسانية تعتمد على لغتين فحسب هما العربية واللاتينية ، ويقول : ان اللغة العربيـة بقيت عزيزة منيعة لم تتأثر بغيرها من اللغات بل على العكس لقد كان لها تأثير واضح في غيرها من لغات الأرض جميعا ، وأنه لا يمكن فهـم المصنفات الأدبية الفارسية أو التركيـة بدون العـودة إلى الكلمات العربية ، وذلك أن وحي القرآن الكريم الذي لا يجارى يعـد بلا ريب أساس عقيدة الإنسانية والثقافة البشرية •

ويقول : لقد صدق قول « وليم رول » من أن اللغة العربيـة لم تتقهقر قط فيما مضى أمام لغة من اللغات التي احتكت بها ، وذلك ان لها لينا ومرونة تمكنانها من التكيف وفقا لمقتضيات العصر ، ويقول : إن تأثير اللغة العربية في لغات الأمم المسلمة أمر طبيعي ، فبفضل القرآن بلغت العربيـة من الاتساع مـدى لا تكاد تعرفه أي لغـة من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية وحدها هي اللسان الذي أحل لهم ان يستعملوه في صلاتهم ، وبهذا اكتسبت العربية مـن زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع اللغات الأخرى التي تنطق بها شعـوب إسلامية •

ويشير هذا الباحث إلى الكلمات العربية التي اقتحمت اللغـات الغربية كلها ، ووصلت إلى أكثر من ألف وخمسمائة كلمة في مجال العلم والحديث اليومي •

وبالاضافة إلى الكلمات : الكحـول وأمير المـاء ، والقنطـرة ، والقاضي ، فإنه يضيف كلمة بنزين وكان الناس في أوروبا يعتقدون انها جاءت تكريماً للصناعي بنز ، ومنها كلمات مشتقة مثل بنزول وغيره ولكن العلامة اميروز يبين ان كلمة بنزين معروفة قبل هذا ، فما هو أصلهـا ؟ يقول : لقد اكتشف أن عبارة «لبان جاوي» العربية تعني « المادة الطيارة العطرية » ثم حرفت هذه الكلمة عند انتقالها الى البندقية لكي تصبح « بان جاري » ونظرا لأن الأسبان والبرتغاليين يلفظـون الجيم زايـا اصبحت « بان زوي » وهي الكلمة الاسبانية المرادفة للبنزين ، وثمـة مثال آخر كلمة «Luate» فهي من العود ، وتعني نفس الشيء ، ولقـد جاءت من البرتغالية « لاوده » المأخوذة عن العربية •

وكلمة « Jopp » وهي تعني كساء ، ومنها « Jupe » الفرنسيـة وهي من العربية «الجبة» •

أما حرف « x » في الرياضيات والذي يرمز إلى المجهول ، فانه مأخوذ عن اللاتينية التي تلفظه « ش » وقد اخذته ترجمة عن العــرب عندما استعملوا هذا الحرف عوضاً عن كلمة « شيء » للدلالة على المجهول في الرياضيات .

٦ ــ ولا ريب أن هذه النماذج من تقديرات الغرب اليوم للغة العربية ليكشف بوضوح عن حقها الوافر في أن تصبح لغة المسلمين بعــد ان حجبها الاستعمار أكثر من ثلاثمائة عام عن النماء في مختلف أجزاء العالم الإسلامي ، وهو خير ما يرد به على الدعوات الهدامة التي تحاول أن تدعو إلى استبدال الحروف العربية بالحروف الــلاتينية ، أو مشروع اللغة العربية الأساسية الرامي إلى إحلال العامية مكان اللغــة العربية الفصحى ، ولا ريب ان هذه دعوات قديمة تتجدد ، ولكنها في حاجــة دائمة إلى اليقظة وإلى الكشف عن زيفها وردعها .

ولا ريب أن الترابط بين الاسلام واللغة العربية هو ترابط جذري، وان كانت الحوائل قد حالت دون استمرار الخطوة الواحدة ، ولكن ما يتحقق الآن في أفريقيا بالذات من انتشار جماعات حفظ القرآن الكريم ونموها ، سيحقق العودة إلى الارتباط الطبيعي بين الإســلام واللغــة العربية مما يؤهلها في وقت قريب لتكون لغة المسلمين في عالــم الفكر الثقافة والعقيدة .

الفصل الثاني

المؤامرة على الفصحى موجهة إلى القرآن والإسلام

(ما تزال المؤامرة على اللغة العربية الفصحى مستمرة لم تتوقف ، لها خيوطها المرتبطة بالاستعمار والاستشراق والتبشير والتغريب ، ثم تضاعفت الدعوة إليها وتنوعت مرتبطة بالصهيونية والماركسية ، وهي مؤامرة تلبس في بعض حلقاتها ومراحلها ثوب البحث العلمي ، وتحاول أن تدعي أنها تستهدف الخير والتقدم .. والصورة المعروضة اليوم تخدع الكثيرين ، وربما تجد لها من بعض الشباب الذي لم يلم الماما كافياً بخطوات المؤامرة استجابة ساذجة .

وقد كانت المؤامرة على اللغة العربية أساسا تستهدف الدعوة الى العامية ، أو كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وأخذت في بعض الاوقات الدعوة إلى معارضة مفاهيم النحو أو نطق الكلمات ، وجرت في خلال السنوات الطويلة الممتدة منذ حمل لواءها المبشر الانجليزي وليم ويلكوكس في مراحل متعددة ، وانتقلت من مصر إلى المغرب إلى الشام ولبنان ، واستطاعت أن تجد لها دعاة ممن يكتبون بالعربية خلفوا أولئك الأجانب الذين حملوا اللواء أول الامر .)

والذين ينظرون اليوم في مشروع العربية الأساسية الذي تقدمت

به بعض الهيئات الأجنبية في حزيران ١٩٧٣ في مؤتمر برمانا ، ومنذ أن ارتفعت صيحة الدكتور عمر فروخ ، بالكشف عنه وأذاعتـه واهتمت الجهات المختصة به ، حتى أصدرت احدى الهيئات الإسلامية ــ وهي مجمع البحوث بالازهر ــ تحذيرها الخطير بتوقيع الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الازهر . أقول : إن الذين ينظرون في هذا المشروع اليوم يجدونه مرتبطا كل الارتباط بما أعلنه اللورد دوفرين في تقريره الذي وضعه عام ١٨٨٢ بعد الاحتلال البريطـاني لمصـر حين دعا إلى معارضة اللغة الفصحى، لغة القرآن وتشجيع لهجة مصر العامية واعتبارها حجر الزاوية في بناء منهج الثقافة والتعليم والتربية في مصر .. وحين قال في تقريره بالحرف الواحد :

« ان أمـل التقدم في مصر طالما ان العامة تتعلم اللغة الفصيحـة العربية ــ لغة القرآن ــ كما هي في الوقت الحاضر » ..

ثم لم يلبث المبشر وليم ويلكوكس الذي كان يعمل مهندسا في الحملة الاستعمارية على مصر أن دعا في خطابه المشهور ١٨٩٣ بنادي الأزبكية إلى نشر اللهجة العامية والتأليف بها ، وقد أطلق على خطبتـه اسما خطيراً هو :

« لماذا لا توجد قوة الاختراع عند المصريين » !

وكانت إجابته بالطبع : إن السر في ذلك هو اللغة العربية الفصحى، وان سبيل إيجاد قوة الاختراع هو اتخاذ العامية بديلا .. !

وتوالت المحاولات الماكرة اللئيمة التي كانت تستهدف أمراً واحداً عزل المسلمين عن بيان القرآن وعن اسلوبه وشق وحدة اللسان والكلمة باعـلاء العاميات في مختلف أنحـاء البـلاد الإسـلامية حتى تنمـو تلك العاميات وتصبح لغات منفصلة ، وعندئذ يصبح القرآن تراثاًيترجم

ويقرأ عن طريق القواميس .

وهم يضعون تجربة اللغـة اللاتينية بالنسبة للانجيـل في أوروبا كصورة نموذجية للمحاولة ، ويجهلون مدى الفارق البعيد بين اللغتين ، وينسون ان الانجيل لم ينزل باللغة اللاتينية أصلاً وإنما ترجم إليها ..

ولما عجزت خطة العامية ، قدمت خطة الكتابة بالحروف اللاتينيـة واصطنعت المحافل اللغة الرسمية في تقديم عشرات من المشروعات ، كان أخطرها مشروع عبد العزيز فهمي باشا ، الذي قوبل بالسخط والنكـير من جميع حماة اللغة العربية والذائدين عنها وان كان أتباع التغريب من أمثال لطفي السيد وطه حسين عجزوا عن أن يعلنوا رأيا صريحاً قاطعاً ، ذلك ان لطفي السيد نفسه كان من أوائل المصريين الذين حملوا لواء الدعوة إلى العامية بعد أن مهد لها : «ويلكوس ــ ويلمور ــ دنلوب» .

ثم كانت هناك خطة ثالثة هي « اللغة الوسطى » وتلك دعوة حمل لواءها فريد أبو حديد وتوفيق الحكيم وأمين الخولي ، وهي محاولـة ماكرة لفصل اللغة العربية الفصحى عن لغة الكلام ولغة الكتابة باعـلاء اللهجات واعتماد اللغة الصحفية لغة أساسية ، فلا هي عامية ولا هـي فصحى ، ولكنها تنزل درجة عن الفصحى لتفصلها عن بيـان القرآن ، ولتكون مقدمة لمرحلة أخرى تصل بها إلى العامية .

وجاءت بعد ذلك محاولة خطيرة تولاها وتصدى لها الدكتور طه حسين : هي تبديل الخط العربي وقواعد النحو باسم (تطوير اللغـة) تحت اسم تهذيب أو تيسير أو اصلاح أو تجديد ، وهي أسماء لبقة مرنة تخفي وراءها هدفا خطيراً هو ــ كما عبـر عنه الدكتور محمد محمد حسين ــ « التحليل من القوانين والأصول التي صانت اللغة خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد » ، وهي القوانين التي ضمنت لنا القدرة على مطالعة

فإذا ما تحققت هذه الخطة التي تسمى بالتطـوير أو التهـذيب ، وتحللنا من هذه الأصول والقوانين والقواعد التي صانت اللغة هـذه القرون ، كانت النتيجة هي تحقيق الهدف ، في تبلبل الالسنة بين المصري والشامي والمغربي كما بين الإيطالي والإسباني ٠٠ وتصبح قراءة القرآن والتراث العربي والإسلامي متعذرة على غير المتخصصين من دراس الآثار ومفسري الطلاسم ٠٠ وعندئذ تصبح وحدة العرب مقدمة لوحـدة المسلمين عمل باطل ٠٠ !

يقول الدكتور محمد محمد حسن : ليس الخطر في الدعوة إلـى العامية ، ولا في الدعوة إلى الحروف اللاتينية ، ولا إلى إبطال النحـو وقواعد الإعراب أو إسقاطها ، وإنما الخطر في هؤلاء العتاة الذين يعرفون كيف يخدعون الصيد بإخفـاء الشراك ٠٠ إن الخطـر الحقيقي هو في الدعوات التي يتولاها ــ خبثاً الهدامون ممن يخفون أغراضهم الخطيرة ويضعونها في أحب الصور إلى الناس ، ولا يطمعون في كسب عاجـل ولا يطلبون انقلاباً كاملا سريعـاً ٠٠ ان الخطر الحقيقي هـو في قبول « مبدأالتطوير » نفسه ، لأن التسليم به والأخذ فيه لا ينتهي إلى حد معين أو مدى معروف يقف عنده المتطورون ، ولا ريب أن التزحزح عن الحق كالتفريط في العرض » ٠

وكانت هناك ولا تزال خطة أخرى ، (وهذه الخطط كلها تعمـل داخل المؤسسات : مؤسسات اللغة والتعليم، تلك هي بدعـة إصـلاح اللغة ، وقد ظن الكثير من البسطاء أن المسألة يراد بها سهولة الأداء ، فالمصطلح خادع وماكر وسيىء النية أيضاً ، وقد كشف هـذه المؤامرة

الدكتور علي العناني حين قال : إن الإصلاح في الألفاظ والتراكيب والأساليب لا يكون إلا بتغييرقواعد أبنية اللغة ، وهي « الصرف » وتحوير ضوابط إعرابها والأحوال العارضة على الألفاظ باختلاف الوضع في الجملة ، وهو « النحو » وتبديل الوضع اللفظي في المفرد والمركب من حيث الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية ، وهو «البيان» وبتغيير وإهمال ضوابط الفصاحة والبلاغة ، وهي « المعاني » ويعني إصلاح قواعد الصرف انتقالا من الصعب إلى السهل ، إنما يعني أن نهدم علم الصرف من أساسه وننسخه نسخاً تاماً لتعدد قواعده وتنوع ضوابطه ، وبعد أن يتم الهدم يبني المصلحون على أنقاضه صرفاً جديدا محدود القواعد قليل التنويع ، خفيفا على العقل والفكر ، سهلا على الذهن والفهم .. وكذلك الأمر في إصلاح قواعد النحو ، وإصلاح علوم البلاغة ..

وبهذا يكون معنى الإصلاح في اللغة نسخ العقلية العربية وما فيها من ثقافة نظرية وعملية ، ذلك أن الإصلاح هو التغيير ، والتغيير يعني الإزالة والوضع .. ويقول الدكتور العناني : إن تغيير قواعد اللغة العربية صرفاً ونحواً بالوضع فقط أو بالوضع والإزالة معناه إحداث لغة جديدة بقواعد جديدة ، وهذه اللغة العربية الجديدة إن صح اتصالها بالعربية الحالية المدونة اتصال اللهجة بالأم ، فانها تبعد عنها شيئاً فشيئاً حتى تختفي معالم الصلات بينهما ، أو تكاد ، وعندئذ تكون اللغة العربية الحالية من اللغات الميتة ..

ونقول : إن هذا ما يحلم به سعيد عقل وأنيس فريحة ولويس عوض ... وما كان يتمناه سلامة موسى ، والخوري مارون غصن ، وطه حسين ، ولطفي السيد .. ومعنى هذا أن يصبح كل تراث العربية البالغ عشرات الآلاف من الكتب في مختلف مجالات الشريعة الإسلامية والأدب

والحضارة والفكر والفن عبارة عن توابيت فيدار الآثار والمتاحف ..

ويقول الدكتور علي العناني : إن قواعد اللغة العربية وضعت طبقاً لنصوص القرآن والحديث والمسموع عن العرب ، فالتغيير في هذه القواعد هجر للقرآن والحديث ..

كذلك فإن الدين الإسلامي — وهو عقيدة وشريعة — قد استنبطت أحكامه فيما يختص بالعقيدة والتشريع في العبادات والمعاملات من الكتاب والسنة وعمل الرسول والقياس والاجتهاد ، وكل هذه الأركان والينابيع لا يمكن أن يستنبط منها حكم إلا بوساطة مبادىء خاصة وقوانين معروفة بعلم الأصول ، وأساس هذه المبادىء والقوانين الراسخ أو دعائم علم الأصول إنما هي فهم لغة العرب :لغة القرآن والرسول بما وضع لها من القواعدالصرفية والنحوية وضوابط علوم البلاغة ، وإذا أصلحت هذه الضوابط وتلك القواعد بالإزالة والوضع ، انهدم أساس علم الأصول وتداعت دعائمه ، وإذا انهدم الأساس وتداعت الدعائم انهدم أيضاًما يرتكز عليها ، وهو هذا العلم .. وإذا وصل هذا العلم الأساسي في استنباط أحكام العقيدة ومسائل الشريعة إلى التداعي تداعت معه أيضاً طريقة الاستنباط وفهم ما استنبط ودون بالفعل ، وضاعت العقيدة ، واحتجبت الشريعة وعدنا الى الجاهلية الأولى ..

هذه هي خلفية الصورة البراقة التي نراها اليوم يحدوها مجموعة من أعداء الاسلام واللغة العربية ، ويدافعون عنها ، وينقلونها من ثوب إلى ثوب ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، كلما انكشف لهم جانب أعادوا تشكيلها في صورة أخرى ، وهم الآن على أبواب التعليم ، وهي خطوة خطيرة إذا سمح بها وأعين عليها ، ومن هنا نجد عبارة شيخ الأزهر واضحة في معارضة المشروع حين يقول :

« إن هذا المشروع واضح الهدف في هدم معالم اللغة العربية ،

وتبعاً لذلك البعد بها وبأهلها عن القرآن الكريم ، ثم ما ينتج عن ذلــك من مساس بالإسلام وأصوله ، كما هي مصونة في كتاب الله وسنةرسوله الكريم ، ذلك إلى إيجاد الهوة الواسعة بين ما تؤول إليــة اللغة ــ لا قدر الله ــ وما احتوته من تراث في صورتها السليمة يمتد عبر أربعـــة عشر قرناً في نحو أربعة عشر إقليماً ..

ولذلك فإن مجمع البحوث الإسلامية يرى في هذا المشروع خطراً داهماً على اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، فهو من شأنه أن يقطـع صلة المسلم بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الفقهى الذي يعتمد فيما يعتمد عليه على دلالة المفهوم والمنطوق وأساليب القصر والتقديم والتأخير ، وما إلى ذلك مما لا يتحقق في لغة أساسها العامية ، بل إنــه يقطع صلة المسلم بالتراث العلمي الإسلامي بصفة شاملة ..

ومن يطالع تقرير الدكتور عمر فروخ يحس بالخطر الكامن واضحاً في عبارات صريحة يقول :

وفي أثناء الجلسات الرسمية للمؤتمر ، وفي الفترات المتعددة بــين الجلسات ، جرت بحوث واقتراحات وملاحظات جعلتني أوجس خيفة شديدة من المشروع .. إن كل ما دار في مؤتمر برمانا كا يولــد في شعوراًبأن الغاية الأولى والأخيرة من المؤتمـــر كان الاهتمام باللغـــة العامية .. لقد حضر هذا المؤتمر عدد قليل من اللبنانيين ، ونفر مــن العرب غير اللبنانيين ،وكثرة من الاجانب لفتت نظري ، إن جلهم مــن الرهبان اليسوعيين ..

ونحن نقول : إنها حلقة جديــدة من حلقات المؤامرة ، أخشى أن تقف منها المجامع العربية موقف الصمت أو التردد ، حيث نرى بعض رجالها يؤمنون بما يؤمن به هؤلاء المستشرقون ويدفعون عنه ، وخاصة

في محاولة تطبيق علم اللغات الحديث على اللغة العربية ، وهو علم قامت نظرياته ومستخلصاته على أساس دراسة واسعة للغات الأوروبية ، وهذه اللغات لها تاريخ وتحديات وطريق • أما تاريخها فإنها مشتقة من اللغة اللاتينية ولغات أخرى ، وقد كانت في أول أمرها لهجات عامية ، ثم استقلت بنفسها تحت تأثير عوامل كثيرة •• أما التحديات فإن ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات القومية الأوروبية جعل الموقف جد مختلف بينها وبين العربية •• أما الطريق فهو أن اللغة العربية ارتبطت بكتاب منزل أعطاها وحماها ، وجعلها ليست لغة العرب وحدهم ، وإنما لغة الثقافة الإسلامية بعامة • •

ومن هنا : فإن محاولة القول الذي تردد كثيراً على ألسنة طه حسين وسلامة موسى ولطفي السيد ، وما يزال يترددعلى ألسنة بعض من يتولون أمر اللغة ، بأن اللغة العربية لغتنا ، ونحن أصحابها ، ولنا حق التصرف فيها ،هو قول باطل وغير صحيح ومردود ، ويرده واقع التاريخ ومنطق البحث العلمي ، وربما كان قولا صحيحاً بالنسبة للغات الأوروبية ، أما بالنسبة للغة العربية ، فإنه أمر جد مختلف ، ذلك أن اللغة العربية منذ أن نزل التنزيل بها ، فقد أعطاها أبعاداً تختلف وواقعا خاصاً • •

فاللغة العربية منذ ارتبطت بالقرآن الكريم أصبحت ليست لغة أمة هي العرب فحسب ، بل هي لغة فكر وعقيدة ودين وثقافة للمسلمين جميعاً الذين يبلغ تعدادهم الآن ألف مليون •

ومن هنا ، فإن ارتباطها بالقرآن هو وحده الذي حماها من أن تتحول لهجاتها إلى لغات مستقلة ، وأن يقرأ تراثها بقاموس ، وسيظل الترابط بين المسلمين ولغة الضاد الفصحى : لغة القرآن قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها •

الباب العاشر

التحديات في وجه الشريعة الإسلامية

أولا : الشريعة الاسلامية والمؤامرات الاستعمارية

ثانيا : مؤامرات في مواجهة العودة للشريعة الاسلامية

ثالثا : نصيحة عالم قانوني للمسلمين

الفصل الأول

الشريعة الإسلامية
والمؤامرات الاستعمارية

قال مكسيم رودنسون فيلسوف الحزب الشيوعي في كتابه « ماركسية القرن العشرين » : إن خير الطرق لهدم الإسلام هو الدخول فيه وإثارة الشبهات في فرعياته بغية تقويضه من الداخل •

وتحت عنوان « الثوابت والمتغيرات في الأديان » كتب كاتب يقول : إن هناك في الأديان مسلمات لا يدور حولها جدل أو حوار ، وهي العقائد ، وإن هناك قضايا تكون محل خلاف في الرأي ، هي تلك المتعلقة بالمصالح ، والتي تتغير بتغير العصور والمجتمعات وقد فوض الأمر فيها للانسان •

هذه هي الواجهة الجديدة للغاية المسمومة التي ما تزال تسيطر على دعاة التخريب يوماً بعد يوم ، والتي تظهر في صور مختلفة ، سواء في دراسات القانون أو في مؤتمرات الثقافة والفكر ، أو في صحف الشيوعيين والماركسيين •

وأول الخيط هو الادعاء بأن الإسلام دين وعبادة ولاهوت ، وأنه لاصلة له بالحكم أو المجتمع واحتيال النصوص وتصيد البراهين لإقامة منطلق لهذا الغرض الذي سقط فيه — مع الأسف — بعض علماء الدين.

فكان ذلك بدءا لهذه الخطة الخطيرة التي تلقفها الاستشراق، واحتضنتها الماركسية باعتبار أن معارضة حكم الشريعة الإسلامية في بلاد الإسلام هدف أساسي للقوى الثلاث : الصهيونية ، والماركسية ، والاستعمار •

وفي السنوات الأخيرة وتحت ضغط حركة اليقظة الاسلامية ونظرا لتزايد الجرائم في بعض المجتمعات أحس المصلحون والمفكرون أن السبيل الأمثل لحماية الشباب والأمة من هذه الأخطار هي تطبيق الحدود الإسلامية وفق نظام الاسلام، وقد شاهدوا صورة الأمن والطمأنينة في المجتمعات الإسلامية التي طبقت هذه الحدود، ومن ثم فقد تضمنت دساتير بعض الدول العربية نصوصاً جديدة بالإضافة إلى النص القائل بأن دين الدولة الرسمي هو الإسلام ، تشير إلى أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للقوانين ، وكان من المرغوب فيه السعي الحثيث لتحقيق ذلك وخاصة بالنسبة للقوانين الوضعية الخاصة بالعقوبات وذلك سدا لما فيها من نقص حول السرقة والزنى والخمر حماية للاعراض والانساب وصيانة للعقول والأموال ، واعترافاً بأن ضعف العقوبات في القوانين الوضعية قد حال دون سلامة المجتمعات ، بل لعله كان من وسائل الإغراء بالمعصية •

ولقد هال هذا الاتجاه قوى الاستعمار والشيوعية والصهيونية ولذلك فقد حمل أتباعهم على الحدود الإسلامية ، وأخذوا يرمونها بالقسوة ، وغفلوا عن أن الشارع قد أحاط هذه الحدود بشروط وضوابط وقيود من شأنها أن تجعل تنفيذها يتم في دائرة ضيقة ، وأن العقوبة الرادعة الواحدة من شأنها أن تقضي على الجرائم على اختلاف أنواعها ، وأن هذا التهويل كان كاذباً ومصطنعاً •

ولما فشل هذا الاتجاه ، جاءت المحاولة الجديدة التي ما تزال تتردد

على ألسنة كتاب لا يثق أمسهم فيهم ، لتاريخهم الطويل في محالفة الاستعمار والتخريب والشيوعية والدفاع عن أهداف الفكر التلمودي والوثني ، واتشحوا بلباس العلم والتقنين ، وأخذوا يثيرون القضية على نحو جديد هو ما أطلق عليه بعضهم : قضية الثوابت والمتغيرات في الأديان وما أشار إليه الآخرون من أن الأحكام الشرعية تتغير بتغير الزمان والبيئات ، وذلك كله قد جرى اعتماداً على فقرات مبتورة أخذت من هنا وهناك من كتابات الشيخ محمد عبده ، ورشيد رضا ، وربما الإمام الشاطبي ناسين أن تلك الكتابات كانت لها ظروفها ، وكانت هناك القضايا المثارة التي حاول هؤلاء الاعلام الرد عليها أو الدفاع عنها .

ولقد حاول واحد من رجال القانون في كتابه « أزمة الفكر السياسي الإسلامي » أن يقنن هذه المحاولة ، فذكر أن الثابت في الشريعة هو العدل والحرية والشورى وغيرها من قيم ، أما طريقة تطبيقها فتلك متروكة للعصر والبيئة ولأهل البلاد ، وأنه قد فوض للناس الأمر في هذه الأنظمة .

وقد جاء بعد ذلك كثيرون يأخذون هذه المفاهيم ويفسرونها ويوسعونها في هدف واضح صريح يريدون من وراء ذلك كله أن تطبق المجتمعات الإسلامية الأنظمة العصرية الحديثة ما دامت تسير في حدود العدل والحرية والشورى ، وقد تصدى لهذا الاتجاه كثير من مقنني الشريعة الإسلامية وحماتها ، وكشفوا عن الفوارق العميقة بين العدل في الإسلام ، والعدل في الماركسية ، والعدل في الأنظمة الغربية ، وكذلك فوارق الحرية والشورى وغيرها ، وكيف أن عدالة الإسلام وحريته وشوراه نابعة من نظام رباني يستهدف سعادة البشر جميعا وحمايتهم جميعا ، ولا يستهدف إسعاد مجموعة معينة منهم ، دون الأخرى .

وفي هذا يقول الاستاذ زكريا البري : ليس معنى تغير الأحكام بتغير

الزمان، أنها تتغيربناء على شهوات الناس ونزواتهم وأغراضهم الفاسدة وما جرت عليه أعرافهم الفاسدة التي لا تدعو إليها مصلحة ولاضرورة ولاحاجة مما جاءت الشرائع لإصلاحها وتصحيحها ، كذلك العري الفاضح الذي تجري عليه أزياء المرأة في بعض البلاد حين تخرج إلى المجتمع انثى فاتنة لنفسها ولغيرها لا إنسانة عاملة نافعة لنفسها ولمجتمعها . فإن هذا التصرف عرف فاسد مصادم للنصوص الشرعية ولمقاصدها الاجتماعية، عرف يهدم المجتمع الفاضل الذي تريد الشريعة بناءه ، والشريعة تريد من المرأة أن تحفظ أنوثتها وجسدها لزوجها تحقيقا للسعادة والعفة،وأن تعطي المجتمع من عقلها وعلمها وعملها النافع مايكمل رسالة الرجل والأسرة والمجتمع ، وحين تتغير الأحكام بناء على هذه الأعراف الفاسدة ، فانما تتغير باتخاذ أحكام جديدة تزيل أسبابها ، وتمنع الناس خطرها وشرها بعد أن فشلت الجهود الفردية في تصحيحها » .

وقد أكد الفقهاء أن الأحكام المعرضة للتغيير والتبديل معظمها يتعلق بالجزئيات دون القواعد الكلية التي تبقى ثابتة واحدة في جميع البلاد والعصور ، أما ما يريده دعاة التخريب فانه يستهدف القبول بالاوضاع الاجتماعية المنحرفة في المجتمعات الآن ، والمخالفة لأصول الشريعة العامة وأعمدتها الثابتة الأصيلة وخاصة في مجال الربا والزنى والخمر وما يتعلق بذلك من الحدود ، ويستهدف هذا وضع المجتمع الاسلامي في إطار كاذب من مفهوم العدالة والشورى والحرية وغيرها دون أن يلتزم المسلمون بالحدود والأوضاع الخاصة بالعرض والمال وحماية الأنفس والأرواح وحقوق المرأة والأسرة .

هذا هو الهدف ، أي انه يرمي إلى تأويل الشريعة بحيث تكون قابلة للاوضاع الفاسدة في المجتمعات ، لا أن تكون أداة لتحرير هذه المجتمعات من تلك الأوضاع المخالفة لما أحل الله .

ونحن نعرف أن الحملة على الشريعة والمؤامرة ضدها ما زالت مستمرة منذ أكثر من قرن تقريبا ، ومنذ دخلت قوى الاستعمار البلاد الاسلامية ، وسيطرت عليها ، وغيرت من قانونها الإسلامي ، وأقامت القوانين الوضعية ، وغيرت من أعراف الأمة حين أباحت الربا والزنى والخمر والميسر •

فقد أوقفت قوى الاستعمار تطبيق الشريعة الإسلامية ، وأقامت القوانين : وخاصة القانون الجنائي ، والقانون المدني لوضع المجتمع تحت سيطرة القوى المحتلة ، سواء من ناحية الفساد الاجتماعي أو الربا، وبذلك أعطت حصانة لتوغل قوى الاستعمار في كيان الأمة •

فلما تنبه المسلمون إلى مدى الخطر الذي وقع فيه مجتمعهم ، هذه صورته في كل الصحف تصور آثار « الجريمة والجنس » بدأت المؤامرة تتحول إلى القول بالثوابت والمتغيرات على النحو الذي فصلنا •

وعندما أزمعت الأمم على إعادة تقنين الشريعة ، ظهرت مؤامرة مسمومة تدعو إلى تعديل القوانين الوضعية القائمة وتطعيمها بالنصوص الجديدة ، ولا ريب أن إبقاء القوانين الوضعية مع تنقيتها من الأحكام المخالفة للشريعة الإسلامية من الأمور الخطيرة ، ذلك أن مصطلحات القانون الوضعي ، وأعرافه ، وروحه ، وفلسفته ، تختلف تماما عن مصطلحات وأعراف وروح القانون الاسلامي ، وان إقرار ما يبدو منه ـ في ظاهره ـ متفقا مع الشريعة الاسلامية يجر حتما إقرار للروح الغربية التي صدر عنها القانون الوضعي ، فالقانون الوضعي لا يصلح أصلا لمشروع تشريع إسلامي ، ولا بد من صياغة الشريعة الإسلامية ابتداء في مواد قانونية ، كذلك فإن القوانين الوضعية لا تجدي معها تنقيتها لانعدام الصلة بينها وبين الشريعة الاسلامية حتى في الأحكام

التي يبدو أنها تتفق مع أحكام الشريعــة ، ونحن عندما ننفي القانون الوضعي مما فيه من أحكام متعارضة مع أحكام الشريعة نكون قــد أسبغنا الشرعية على باقي الأحكام مع اختلاف تسيج القانــون الوضعي عن القانون الرباني •

ولقد صدع رجال القانون الاسلامي بهذه الآراء في مواجهة تلك الحملة المزدوجة ، تلك التي تريد أن تحيل الشريعة الاسلامية مسايرة لقاعدة تغير الأحكام بتغير الزمان بينما هناك عمد ثابتة وأحكام وحدود لا ســبيل إلى تجاوزها ، وتلك التي تريــد أن تنقي القانون الوضعي وتستبقيــه •

وقــد كتب فيها الدكتور مصطفى كمال وصفي والاستاذ محمد عطية خميس مما أشرنا إليه ، وكشفا عن فساد فكرة « تطوير الاحكام تمشيا مع روح العصر » وروح العصر نفسها فاسدة معارضة لحق الله وحكمــه •

وهل يمكن تحريم الخمر أو الربا أو الزنى مراعاة للتطور •

وقد رد هؤلاء العلماء ذلك الاتجاه المشبوه الذي يتعجل «تطوير» الشريعة الاسلامية ، ولا يعترف بالتزام الحدود ، وأشار دكتور مصطفى كمال وصفي إلى أن من يقومون بهذا الاتجاه ناس ليسوا في الأصل من ذوي الدراسات الإسلامية الأصيلة ، بل هم من المثقفين الذين يرغبون في أن يحملوا للإسلام ما أعجبهم من حضارة العصر •

وعندنا أنهم أرادوا وضع الشريعة الإسلامية في موضع خدمــة العصر أو تبرير الحضارة الغربية التي تمر بأسوإ مراحل أزمتها ، وما كان الإسلام يوما أداة تبرير ولا خادما للمجتمعات أو مبررا لوجود

الحضارات ، وانمـا كان نظاما حاكما متكاملا ، إما أن يؤخذ كلـه أو يترك كلـه •

ولذلك فإننا نكشف عن زيف هذه الاتجاهات المنحرفة ، ونأبى تلك الدعوات المضللة التي تحاول أن تتخذ من نصوص متقطعة وأهواء دخيلة ــ لها ثوب براق تحته طابع علمي زائف ــ وسيلة إلى خداع من لا ينخدعون من المسلمين ذوي الأصالة والفهم الذي يقوم على أن دينهم له ذاتيته الخاصة المنفصلة عن مفهوم الدين بمعنى اللاهوت ، وذاتيتـه ترفض أن ينصهر في الفكر البشري أو يذوب ويحتوي في الفكر الأممي: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) [البقرة : ١٣٨] وهو الضياء الوحيد الباقي للانسانية ، والذي يجب أن يصان « منفردا » ليهـدي الأمم الحائرة التي تجد اليوم نفسها في فراغ شديد بعد أن تصدعت كل الأيديولوجيات والمناهج والمذاهب والنظريات ، ولم يبق أمـام البشرية إلا طريق واحد : طريق الحق ، طريق القرآن ، نور الإنسانية الأبقى إلى أن يرث الله الارض ومن عليها •

الفصل الثاني

مؤامرات في مواجهة العودة
إلى الشريعة الإسلامية

يتخذ الفكر الغربي في التعامل مع الفكر الاسلامي أساليب مختلفة:

التمويــه : وهي محاولـة الحصول على جزئيات من نصوص متباعدة مقتضبة في محاولة لتشكيل حقيقة زائفة .

التشويه : وهي محاولة تفسير نص ما في غير ظروفه الحقيقية ، أو أحواله الطبيعية لنقله من أن يكون عملا ايجابيا ليكون عملا باطلا .

المغالطـة : وهي التماس وجـوه نظر ليست لها أصالـة ما ، لاتخاذها سندا له في إذاعـة فرية أو هدم حقيقة أو تكذيب روايـة صحيحـة .

وقد استعمل الفكر الغربي كل هذه الأساليب في دراسته للفكر الإسلامي واقساها يتمثل في المغالطة التي تقوم على استغلال عبـارة لكاتب ما من الشعوبيين أو الباطنيين ، أو من أصحاب الفرق المغالية أو من هنا أو هناك لاعتبارها مظهرا يستخلص منه ما يؤيد هدفا من أهدافه في ضرب الفكر الإسلامي ويكون هذا الأمر أشـد قسوة عندما يستعمل واحدا من أهل الفكر نفسه ليكون سلاحا لضرب فكر قومه باسـم التجديد أو العصرية غافلا عن أنه يثبت أقدام الفكر التلمودي الصهيوني،

وأبرز ما يتمثل هذا في قضية مقررة عن الإسلام في اختلافه عن الأديان في أنه « دين ودولة » وهناك عشرات النصوص لعشرات من كتاب الغرب ــ ومنهم خصوم الإسلام الذين لا يترددون في الاعتراف بهذه الحقيقة التي تكاد تكون الدعامة الاساسية للاسلام وفكره وتاريخه وهي وجه الخلاف الأكبر بينه وبين الفكر الغربي ، وبينه وبين المسيحية الغربية ، ولكن مراصد الفكر الغربي الدقيقة تظل ترقب الأمور حتى تجد الفرصة لالتقاط كلمة ما تصدر عن موتور أو حاقد ، أو في سبيل خلاف حزبي أو أمر سياسي ، أو أي شيء آخر ، مما يوصل إلى ضرب هذه الحقيقة ، وقد جاءت هذه الكلمة في يسر شديد على لسان علي عبد الرازق الذي خرجه الأزهر مع الأسف ، وكان قاضيا شرعيا في كتاب « الإسلام وأصول الحكم » ، وقد جاء في مجال معارضة ترشيح ملك مصر للخلافة ، ولكن دوائر الفكر الغربي دقت الطبول لتقول : إن الإسلام ــ في رأي بعض علماء الدين ــ منقسم إلى أنه دين فقط ، دين روحي لاهوتي كالمسيحية ، وهو ما يقول به عالم كبير ، وإلى أنه دين ودولة الخ .

ولكن إذا كان الاستشراق ورجاله من دعاة التبشير المسيحي والاستعمار يقولون هذا ، فما بال رجال القانون من المسلمين الذين يعرفون باطل هذا الادعاء ، ما بالهم يسيرون في هذا الطريق ؟

ذلك لأن الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي والتغريب يستخدم رأي من يدافع عن وجهة نظره من أهل القضية نفسها ، ثم يجيء المستشرق ليبني على هذا الكلام مدعيا أنه قد أخذ عن المصادر الإسلامية .

يقول الدكتور عبد الحميد متولي في كتابه « أزمة الفكر الاسلامي » :

إن هناك رأيين متنابذين عن الإسلام ، الأول : ــ ويقدم رأي علي عبد الرازق ــ يرى أصحابه أن الإسلام دين فحسب ، والثاني : يرى أصحابه أن الإسلام دين ودولــة •

ثم يقول : إن زعيم الأول هو علي عبد الرازق ويلخص في قوله أنه « ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعــة ملك ولا دعوة لدولة وأن الإســلام وحدة دينية ، والنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ دعا إلى تلك الوحدة، وأتمها بالفعل قبل وفاتــه، ولــم يكن الرسول إلا رسولاً صاحب رسالة أو دعوة دينية فحسب » •

وهنا نجد الباحث ، وقد غلبه هواه في مواضع كثيرة :

أولاً ــ إسراعه في تقديم رأي علي عبــد الرازق على الرأي الإسلامي الموثق القائم منذ أربعة عشر قرنا مع أن رأي علي عبد الرازق لم يزد على أربعة عقود من الزمان •

ثانياً ــ قوله بأن هذا الرأي يرى أصحابه كأنهم جماعة ، فمن هم هؤلاء غير عبد الرازق ، إنه لا يوجد أحد آخر سوى بوق من أبواق على عبد الرازق ، جاء بعده بأكثر من عشرين عاما •

ثالثاً ــ كيف يمكن التسوية بين رأي مبطل قوبل منذ اليــوم الأول بالمعارضة الشديدة للمسلمين الفاقهين للإسلام ، وبين رأي صحيح موثوق بــه •

رابعاً ــ كيف يمكن اعتبار علي عبد الرازق إماما له رأي ، وهو الرجل الذي لم يعتمد في بحثه على أي مرجع من أمهات الكتب الإسلامية وآراء الفقهاء ، وإنما اعتمد على كتب الأدب وبتر النصوص •

خامساً ــ كيف يمكن اعتبار ما صدر عن الدولة التركية إبان

إلغاء الخلافة مما كتبه الدونمة وأعداء الإسلام مرجعا لتأييد حكم يمكن أن يوصف بأنه خرق في الإسلام .

ان مؤلف كتاب « أزمة الفكر الاسلامي » إنما رمى من هــذا التقديم الذي قدمه إلى غرض أبعد من هذا ، إلى أن يقول : إن الإسلام ليس له تشريع ، وانه قد جاء بمجموعة من القيم يمكن أن يقوم الحكم على أساسها دون تقييد بنظام معين .

وهذه هي الدعوى التي عمل لها مجموعة من رجال القانون الذين خدعوا الناس فترة من الزمن بالحديث عن الشريعة الإسلامية ، وفي مقدمة هؤلاء عبد الرزاق السنهوري الذي دعا إلى أن تصاغ الشريعــة الاسلامية داخل القانون الغربي العالمي .

ولا ريب أن هذا الاتجاه انما أريد به مقاومة الاتجاه الذي مات عليه الأبرار ، وجاهد من أجله المجاهدون ، وهو تحقيق قيام نظام إسلامي على أساس الشريعة الإسلامية ، فيقول المؤلف بعد ذلك ، ويبني على ما أورده عن شيخ من علماء الازهر : إن الدين — وهو يسمي الإسلام دينا ، والإســلام ليس دينا بالمعنى اللاهوتي الغربي — هو عبارة عن حقائق خالدة ، لا تتغير بينما الدولة نظم تخضع لعوامل التطور والتبدل الدائــم .

وتلك فكرة يحاول أن يروج لها بعض المتصلين بالدراسات الإسلامية وترمي إلى ما يصوره الكاتب : « الملائمــة بين الأحكام الدستوريــة الشرعية وظروف الحياة المتغيرة المتطورة بحيث لا تغدو تلك الأحكام معارضة لمصالح الناس ، بل تصبح محققة لها مدعمة مبادىء العدالة واصلــة حيالهــا » .

ثم يأتي بعد ذلك الحديث الذي يتردد دائما عن فضل باب الاجتهاد

وما يسمونه نزعة الجمود التي سادت الفقه الإسلامي •

كل هذا كلام له خبء ، ثم يجيء إلى الشريعة ليقول : إنها تتعلق بالعصر ، وإن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان • ثم يردد الشبهات الغربية البائرة عن الحكومة الدينية التي لم يعرفها الإسلام ابدا ، وظل الله على الارض ، وفشل تجربة الحكومات الدينية ، وكل هذا منقول من أفق غير أفق الفكر الإسلامي أو التاريخ الإسلامي •

ثم يشير الكاتب إلى أن في الاسلام مبادىء عامة لنظام الحكم هي الشورى والحرية والمساواة والعدالة ، وهي مبادىء صالحة للبشرية جميعا في مختلف الأزمنة والأمكنة ، وهي تتشكل في مختلف العصور والبيئات •

وهذا هو الهدف الحقيقي لهؤلاء الذين يتصدرون للحديث عن الشريعة الإسلامية من رجال القانون ليخدموا هدفا ، وليحولوا بين المسلمين وبين ذلك الاتجاه الجامع الذي يكاد أن يوضع اليوم في مختلف البلاد الإسلامية موضع التنفيذ •

وليس هذا يعني أن هؤلاء الكتاب تأثروا بالقانون الغربي ، ولكنهم يجرون إلى شوط أبعد من هذا يحاولون أن يصوروا الشريعة الإسلامية للناس على أنها ذلك الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي في إطار القانون الغربي الوضعي الذي يتنكر لعشرات من القيم الإسلامية الأساسية على أساس تبرير الوضع بأنه ما دام الأمر يحقق الشورى والحرية والمساواة والعدالة ، فإنه مقبول •

والواقع أن ما يطلبه المسلمون وما يدعو إليه دعاة الإسلام هو الشريعة الإسلامية بمفهومها الصحيح ، لا نقول كما يقولون ساخرين : إعادة عصر أبي بكر وعمر ، فنحن نعرف أن إعادة التاريخ ليست صحيحة

وليست مطلوبة ، ولكنا نعرف أن التشريع الإسلامي هو قانون مضبوط محكم ثابت الدعائم والأطر ، وإنه متقبل لتطورات العصر وتغيرات البيئة التي لا تخرجه عن حدود الله ولا عن الضوابط التي تحمي القوى والجماعة .

وكل محاولة للتضليل أو التمويه باطلة وغير مقبولة ، وكل تحريف للآراء عمل زائف لم يعد يقبله أحد من مثقفي المسلمين والعرب ، وأن ما قال به علي عبد الرازق أمر باطل قد رد عليه وكشف عن زيفه وخطئه ولم يكن مع علي عبد الرازق جماعة ، ولم يكن هذا الرأي بمثابة عمل يجعل هناك أي مظنة للقول بأن هناك رأيين متنابذين،فالواقع أن هناك رأياً واحدا : مصدره القرآن وكل رأي آخر يخرج عليه ، فهو رأي زائف لا يمثل جماعة ولا فرقة ، وقد توارى الشيخ علي عبد الرازق أكثر من أربعين عاما بعد أن قال قولته ، وعندما طلب منه إعادة طبع كتابه في أواخر أيام حياته رفض ، وقد جلى الدكتور ضياء الدين الريس هذه القضية بأوضح بيان في كتابه عن الخلافة الاسلامية .

وفي مواجهة العودة إلى الشريعة الإسلامية نجد الاستعمار والغزو الثقافي والتغريب والاستشراق والتبشير ، تنشط كل هذه القوى لترد المسلمين عن هذا الطريق وقد سحبت شريعتهم من المحاكم ، وطبقت القوانين الوضعية قبل أكثر من مائة عام .

وهناك تتجدد الآن كتابات جولد زيهر ، وشاخت ، وجب ، وغيرهم في مهاجمة الشريعة الاسلامية ، وما كتبه طه حسين وسلامة موسى ، ثم يركزون على علي عبد الرازق لأنه من علماء الأزهر ، وإن كان الأزهر قد سحب منه عالميته، وعندما ردوها كان ذلك عملا سياسيا ، ولكنه فعلاً كان قد انتهى كعالم إسلامي .

ولقد كذب السنهوري ومن رددوا قوله حينما قال : إن الفقه الإسلامي لا يزال في دور الطفولة ، ذلك لأن القانون الغربي المطبق

في الغرب والذي استقدموه إلى بلاد المسلمين ، وانما هو وليد الفقه الإسلامي ، وهناك من الأدلة والشواهد على أنه أخذ فعلا من مذهب مالك رضي الله عنه .

ويعلق عبد الحميد متولي على كلمة السنهوري في بذاءة شديدة فيقول :

« لا يزال ذلك الطفل في المهد يحبو لا يكاد ينهض حتى يكبو » .

كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، وليته يعرف أن هذه الكتابات التي ربما جاءت بغير تقدير قد أصبحت مرجعا لمن حاربوا الإسلام ، وأن كتب عبدالحميد لطفي كانت مرجعا لرجل هاجم الإسلام وفكره وشريعته في مؤتمر عقد في الجامعة في الكويت هو محمد النويهي فقد اعتمد على مثل هذه الصغائر ، وكبرها ونفخ منها .

ونحن نعرف أن الشريعة الاسلامية قدمت وما تزال تقدم للبشرية وللفكر الانساني ولعالم القانون العام مصادر ودلائل وشرائع ما تزال تنهض بالأمم ، وتحقق لها الخير ، وسوف تكون مناراً للإنسانية تهتدي بها بعد أن هزمت كل النظم والايديولوجيات والنظريات البشرية .

الفصل الثالث

نصيحة عالم قانوني للمسلمين

لا تطلبوا مستقبلكم في تقليد النظامات الأوروبية فاطرحوها وأمعنوا في مشهد ما نحن فيه من الفوضى الخداعة ، واطلبوا من دينكم مفتاح مستقبلكم .

من أكبر المفارقات الخطيرة التي أحدثها النفوذ الأجنبي في العالم الإسلامي هي محاولة ضرب الشريعة الإسلامية واتهامها وإثارة الشبهات حولها ، وذلك بعد حجبها عن المجتمعات الإسلامية لأول مرة منذ أربعة عشر قرنا ووصفها بأنها شريعة صحراوية ، أو مؤقتة ، أو استنفدت أغراضها .

كل هذا يحدث في البلاد العربية والإسلامية عن طريق رجال الاستعمار والتبشير وأتباعهم من تلاميذ التغريب في نفس الوقت الذي تكشف فيه الأبحاث العلمية الجادة في الغرب عن صفحات باهرة من عظمة هذه الشريعة وجلالها حتى ترتفع عقيرة أعلام القانون الأجنبي في فرنسا وألمانيا وغيرها بتقدير هذه الشريعة وتكريمها ، وبالتخلي عن كثير من الدعاوى بأن الفقه الغربي استطاع استخراج قوانين جديدة ، وذلك عندما كشف الباحثون المسلمون أن مصادر هذه القوانين الفقه الإسلامي نفسه .

ولقد كان من العجيب أن يجتمع مؤتمر القانون الدولي في جنيف ليقرر أن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة حيـة ، ليست مأخوذة من تشريعات رومانية وغيرها ، ثم يجتمع في نفس المكان وعلى مدى زمـن يسير رجال الاستعمار ليلزموا إحدى البلاد الإسلامية العربية بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية أن تلتزم بالقوانين الوضعية ، وأن لا تطبق الشريعة الإســلامية .

هذه مرحلة تاريخية يجب أن يراجعها المثقف المسلم ليرى كيف كان الاستعمار والنفوذ الأجنبي حريصا لتثبيت نفوذهما في حجب الشريعة الإسلامية عن التطبيق في بلادها بعد أربعة عشر قرنا فقط ، وإنما لاحتواء المجتمع الاسلامي واخراجه من هذا التراث الضخم الذي وقف أكثر من سبعين عالما من علماء الفقه الغربي على مدى أكثر من ثمانين عاما ، ومن خلال أكثر من عشرين مؤتمرا بتحية الشريعة الإسلامية ، وتقدير عطائها ، ولوم المسلمين على تجاهلها ، وقبول القوانين الوضعية ، وإن كانت هذه المحاولة قد تقلصت كثيرا ، إلا أن العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ما زالت تواجه عقبات ضخمة ، غير أن الشريعة الاسلاميـة لأنها كلمة الله الحق ، فقد وجدت دائماً ــ حتى من غير أهلهـا ــ من اعترف بها وأشاد بها .

واذا ذهبنا نبحث عما كشفت الأبحاث القانونية الجديدة من جوانب الشريعة الإسلامية وذخائرها وكنوزها لوجدنا الكثير من المادة الخصبة لقوانينها ، بل إن القانون الروماني الحديث إنما أخذ من الفقه الإسلامي مما نقله علماء القانون من اسبانيا وما نقلـه علماء الحملة الفرنسية من فقة الإمام مالك ، وقد ظل الغرب لا يعترف بهذه الحقيقة أمدا طويـلا ، ولكن بعض المنصفين في السنوات الأخيرة قد أشاروا إلى أن الغربيـين استمدوا قانون حرمة المساكن من نصوص الفقه الإسـلامي استمدادا

من آية القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) [النور : ٢٧] قال المسيوفرنان داجين : يكاد يكون الاعتقاد السائد في فرنسا أن احترام المسكن لا يشغل في تقنين العالم الإسلامي إلا مكانا حرجا ، وقد ثبت أن الشريعة الإسلامية تحرم مثل هذا الانتهاك تحريما مطلقا ، ولقد كشف عمر لطفي في دراسة له قدمها إلى جامعة باريس أن القرآن حرم على كل شخص أن يدخل بيت الآخر بغير رضاه إلا في أربع حالات :

١ ـ إذا كان مرخصا له الدخول فيه عادة .

٢ ـ إذا دعي إليه ، فان الدعوى تساوي الإذن بالدخول .

٣ ـ إذا دعي في حالة حريق أو فيضان أو ارتكاب جناية .

٤ ـ إذا كان البيت مفتوحا للأفراد كالحانوت والحمام ، وكل من ينتهك حرمة مسكن استحق التعزير ، والتعزير هو عقاب لكل جريمة ليس لها حد ، حده الأول : التوبيخ ، والأقصى: القتل حسب جسامة الجريمة ، وحال المجرم ، ومع ذلك فإن تحريم دخول المساكن من غير استئذان ليس قاصرا على الأفراد ، بل يتناول السلطة الحاكمة .

كذلك ظن الغربيون أو حاولوا القول بأن نظريات أخرى هي من صنع عقولهم ، ثم تبين أنها مأخوذة من الفقه الإسلامي ، فإن نظرية التعسف في استعمال الحقوق التي يفخر بها القانون الألماني قد ثبت أنها مأخوذة من الإمام الشاطبي الذي أثبت بعد تحليل وتفصيل دقيقين أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعا إذا لم يقصد منه فاعله إلا الاضرار بالغير ، وفي هذا الموضوع قدم الدكتور محمد فتحي اطروحة دكتوراة في فرنسا إبان الاحتلال البريطاني لمصر عن مذهب الاعتساف في استعمال الحق ، وقد علق العلامة كيهلر العالم القانوني على هذه الرسالة فقال :

لقد كان العلماء الألمان يتيهون عجبا على غيرهم في ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها في القانون المدني ١٧٨٧ م أما وقد ظهر بحث

الدكتور فتحي ، وأفاض في شـرح هذا المذهب عنـد رجال التشريع الاسلامي وبان لنا أن رجال الفقه الإسلامي تكلموا طويلا ابتداء من القرن الثامن الميلادي ، فإنه يجدر بالعلم القانوني الألماني أن يترك مجد العمل بهذا المبدإ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية ..

كذلك فقـد أعلن منذ وقت بعيد أن نظرية الظروف الطارئـة ونظرية تحمل التبعية، ومسؤولية عدم التحيز وكلها نظرياتقانونيةحديثة لها أساس كبير من الشريعة الإسلامية .

وقد قدم عمر لطفي بحثا أثبت فيه أن قوانين الدعوة الجنائية ، وحرية المنازل ، وحق المرأة ، وحق الدفاع كلها ذات مصدر أساسي من الشريعة الإسلامية .

وقد كشف ذلك في مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤ وقد أدهش ذلك علماء القانون العالميين حتى قال العلامة شال ميرمر :

اسمحوا لي ان انصح لجميـع المسلمين في شخصكم ان لا يطلبوا مستقبلهم في تقليـد النظامات الاوروبية والمسيحية ، فاطرحوا هـذه النظامات وامعنوا النظر في مشهد ما نحن فيه « نحن الأوروبيين » مـن الفوضى الخداعة ، واطلبوا من دينكم الذي هو اسمح دين ، وأكثر مساواة مفتاح مستقبلكم ، ولا تفضلوا ان تستعيروا منا الا الاكتشافات العلميـة الخاصة بانماء سعادتكم المحلية .

ومنذ ذلك الوقت بدأ علماء القانون الغربيون يصدعون بهـذه الحقيقة ، حقيقة عظمة الشريعة الإسلامية في نفس الوقت الذي كانت كلمات كرومر في امتهان الفقه الاسلامي يتداولها كتاب أمثال محمود عزمى ، وطه حسين ، وعلي عبد الرازق وغيرهم في إنكار فضل الإسلام دينهم الذي ولدوا عليه ، وعرفوه ، وعاشوه ، ولما استطار أمر الشريعة

الإسلامية في الغرب وأخذ المسلمون يطالبون بالعودة إليها وتطبيقها ، وبدأت بعض الدساتير العربية تنص على ذلك ، قامت قوى النفوذ الأجنبي بمحاولة خطيرة هي : « صهر الشريعة الإسلامية داخل إطار القانون الغربي » وقد حمل لواء هذه الدعوة الدكتور عبد الرازق السنهوري ، وجرى في هذا المجرى مجموعة من الغربيين لاحتواء دعوة الأصالة في عودة المجتمع الإسلامي العربي إلى تطبيق الشريعة الاسلامية، تمثلت هذه الدعوة في القول بأن الشريعة ثابتة في العقائد متغيرة في المعاملات ، واتخذوا من بعض النصوص التي وردت في فترة ما من الفترات دفاعاً عن مقدرة الشريعة على التجاوب مع الأحداث والعصور على استغلال الشريعة الاسلامية لتبرير أوضاع المجتمعات الفاسدة أو تقبل أوضاع الحضارة الغربية ، وخاصة في مجال الربا والفساد الاجتماعي وخاصة في العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة والأسرة بهدف كسر الضوابط والحدود التي وضعها الإسلام لحماية الأعراض والأنسال ، ثم جاء القول بأن الشريعة الإسلامية يمكن أن تنصهر في الفقة العالمي والقانون الغربي ، وذلك بالدعوة إلى ما يسمونه تطوير الشريعة بجعلها ملائمة للأوضاع القائمة وأنماطها المعقولة من الغرب ، وقد غاب عن هؤلاء استحالة خضوع الشريعة الإسلامية الربانية المنزلة من السماء بالقوانين البشرية التي هي جماع أهواء البشر ، والذي كان لليهودية العالمية دخل كبير من أجل إقامة أمبراطورية الربا ، ثم جاء خطر جديد ثالث هو محاولة تطعيم القوانين الوضعية القائمة الآن والمطبقة في البلاد الإسلامية بالشريعة ، وفي ذلك ما فيه من خطر بقاء الأهداف والغايات البشرية ، وما في ذلك من خطر الحيلولة دون قيام المجتمع الإسلامي الأصيل الذي يستمد مقومات وجوده من الشريعة أصلا : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) [البقرة : ١٣٨] •

ولقد كان من أبرز مادعت إليه حركة اليقظة الإسلامية هي العودة

إلى الشريعة ، وقد كونت في خلال سنوات طويلة رأيا عاماً قوياً استطاع أن يحقق خطوات في مجال إقرار مبدأ الشريعة مصدراً للقانون وقد كان معلوماً بالطبيعة تلك الفوارق الواضحة بين الشريعة والقانون الوضعي وأثر ذلك في بناء المجتمع الإسلامي وحمايته من الأخطار التي تهدده ، بل لقد أعلن غير واحد من المسؤولين في البلاد العربية أن تطبيق الشريعة الإسلامية هو الوسيلة الوحيدة لتقويم مافي المجتمع من أعوجاج ، وأنه من اللازم التعجيل بإصدار قوانين الحدود ، وخاصة في جرائم السرقة والزنى ، وهناك ضرورة عاجلة لتعين الأنظمة الاقتصادية، وخاصة فيما يتعلق بإلغاء نظام الربا وإقامة المصارف الإسلامية ذات المفهوم الأصيل ..

وقد بات واضحاً أن للشريعة الإسلامية ذاتية أساسية تختلف عن القانون الوضعي ، وقد كشف المرحوم الاستاذ عبد القادر عودة عن مدى عمق الفوارق بين الشريعة والقانون في كتاب ضخم في ثمانمائة صفحة من القطع الكبير من حيث إنها تخاطب الحاكم والمحكوم على قدم المساواة ، فالمسلم في الشريعة الإسلامية مكلف بأن يرعى المصلحة العامة (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) [التوبة : ٧١] والخطاب الإلهي الموجه للمؤمنين خطاب وحد ، والحاكم والمحكوم أمام الخطاب الواحد على قدم المساواة على حد تعبير الدكتور مصطفى كمال وصفي ، فالخطاب من الله ، والإلزام رباني للجميع ؛ والطاعة فيه لله تعالى وإن الدولة الإسلامية وليدة الشريعة .

وإن الثبات والشمول هما الصفتان البارزتان في مشروعية الإسلام، وهي مشروعية ثابتة وشاملة وأصيلة وغير قابلة للتلاعب ، ولا للأهواء السياسية ، وهي مشروعة مبنية على المثل العليا وغاية ما يقال : إن الشريعة الإسلامية تتميز بالجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية، والجمع بين المصلحتين : العامة والخاصة ، والجمع بين التطور والثبات ..

الباب الحادي عشر

التحديات في وجه الأدب العربي

اولا : مفهوم الادب العربي في ضوء الإسلام

ثانيا : التحديات التي تواجه الادب العربي الحديث

الفصل الأول

مفهوم الأدب العربي في ضوء الإسلام

ركز الغربيون على أدب التصوف والإباحة في وقت واحد ، فأولوا الإهتمام بإحياء التراث القديم فيما يتصل بكتاب ألف ليلة ، والحلاج ، وهما يمثلان التجاوز الخطير الذي خرج بالأدب العربي والفكر الإسلامي خارج دائرة الأصالة .

لم يعرف الإسلام هذه العناصر الشرقية : من الزينة والإسراف في المتعة ، والتحلل ، كما لم يعرف تحقير الدين ومحاربة البدع ، وتحريم الطيبات واعتزال الناس .

وكان إهتمام الغربيين بالبخور وليالي ألف ليلة ، وسحر الشرق ، وشهرزاد الغاوية ، لا يزيد عن تصوير هذا الشرق ، وكأنه مباءة للإباحة والجنس .

وكتاب « الأغاني » لم يكن يوماً مصدراً علمياً يدرس منه تاريخ المسلمين في عصر من العصور ، ورباعيات الخيام لم تكن في الحقيقة إلا شعراً أنشأه شعراء مجهولون قبل الإسلام ، وفي ظل مجوسية

الفرس ، ثم جمع ونقد ونسب إلى هذا العالم الفلكي الذي خلت حياته من مثل هذه الأهواء .

إن الخيامية والباطنية وصوفية وحدة الوجود والحلول والاتحاد، وليالي ألف ليلة لم تمثل الأدب العربي أو الفكر الإسلامي بحق،ولم تكن تحمل صورة المجتمع الإسلامي الذاخر بعناصر القوة والإيمان والعلم .

لقد نشأ الأدب العـربي في حضانـة الإسلام ، وتشكل في إطار القرآن ، وعبر عن نفسه باللغة العربية ، وكل ما يوصف بأنه أدب عربي مما سبق الإسلام لا يتجاوز أن يكـون شعراً قاله الشعراء في نطـاق القبيلة ، ووفق مفهوم البيئة وتحدياتها إلى جانب سجع الكهان .

وإن الأدب العربي الذي يمثل أمة قد بدأ حقيقة مـع الإسلام ، ولذلك فقد استقرت قيمه على دعائم التوحيد والإيمان بالله ، والمسؤولية الفردية والإلتزام الأخلاقي ، والتكامل وترابط القيم ، والإيمان بالبعث والجزاء ، وبذلك اختلفت الأدب العربي عن الآداب الأوروبية والغربية في أشياء كثيرة منها :

التوحيد في مواجهة التعدد . والصدق في مقابل الأساطير .

الإيمان في مقابل الشك . والمسؤولية الفردية في مواجهة الجبرية.

الإلتزام الأخلاقي في مواجهة الإباحة والكشف .

الإنسانية في مواجهة العرقية والعنصرية والفردية المغرقة .

التكامل في مواجهة الانشطارية والفصل بين القيم .

الاعتقاد بالبعث والجزاء في مواجهة الدهرية .

الحرية ذات الضوابط في مواجهة الحرية المطلقة .

الروحية المرتبطة بالمادية في اتساق في مواجهة المادية الخالصة .

التفاؤل في مواجهة التشاؤم . والأصالة في مواجهة الانفصال عن الجذور .

البرهان في مواجهة التفكير • ثبات القيم في مواجهة نسبية القيم•

ترابط العلم والعمـل • والذاتيـة الخاصة في مواجهـة الأممية والعالميـة •

الاعتراف برغبات الإنسان مع تنظيمها في مواجهة الإباحيـة أو الرهبانيـة •

ترابط الإسلام والعروبة • وقوامة الرجل في مواجهة هدم القوامة•

ولا ريب أن الأدب العربي قد شكلته قيم ومفاهيم تشهد مصادرها من العقل العربي والنفس العربية والأرض العربية ، ومن تاريخ طويـل أصيل وتراث عربي ، وأبرزمفاهيمه تأكيد إنسانية الإنسان كفرد ، وبناء نفسيته على أساس أنه عضو في مجتمع ، مع الدعوة إلى التقدم المستمر في حدود الأخلاق ، وفي إطار الأخوة الإنسانية ، ومن خلال الإيمـان بالله • وكانت أبرز مفاهيم الأدب العربي إيقاظ ضمائر الناس على الحق والخير والعدل •

فالعرب ـ قبل الإسلام ـ كانوا موحدين بدعوة إبراهيم ، ثـم سقطوا في وثنية ساذجة ، وبقي طابع التوحيد قائماً في أعماقهم ، وكـل ما لديهم من أخلاق ؛ إنما صدرت من ذلك الأصل القديم ، ثم جددها الإسلام ، وأعطاها مضموناً رباني الطابع ، إنساني المظهر •

ويجب أن نذكر أن النفس العربية التي عاشت في الضوء والنهار ، والوضوح والصراحـة ، والتي كانت أبداً صادقـة في التعبـير ، لا تجد حرجاً في أن تقول كل شيء ، والتي كانت متطلعة أبداً إلى المروءة والنجدة والشجاعة ونصرة الجار ، وإكرام الضيف والـذود عن طالب النصرة • وهي في هذا تختلف عن النفس الأوروبية الغربية التي عاشت في ظلال السحب وركام الغيوم وظلام الليل الطويل في الجبال وعـواء الذئاب •

والأدب يتحرك في إطار الأخلاق وقانونه القائم على حراسة المجتمع، والأدب لا يجوز له أن يعدو طوره ، أو يتدخل فيما ليس من اختصاصه من المباحث الاجتماعية والدينية ، يقول العلامة فريد وجدي: إن مولدات الخيال في الأدب لتستطيع أن تخرج ثلاثة أرباعه بضاعة زائفة ظاهرها أنيق ، وفي باطنها السم الذي لا يبقي ولا يذر ، دفع كاتبيه إلى تصيد الرزق بالتملق لأخس شهوات النفس ، وتناسي التبعة الملقاة على عاتق كل ممسك بقلم » •

وكان أبرز ما أعطى الإسلام الأدب العربي عمق المعرفة التي تدور على تحرير الأدب العربي من الأساطير والخرفات ، وإيقافه عند الحقيقة دون مبالغة في تصوير الواقع على النحو الذي كان يعرفه الشعر الجاهلي• كما أعطاه الاحتياط في إعتبار الشعراء أصدق معبر عن العصر الذي يعيشون فيه ، فلا يستطيع الأدب العربي أن يبني الأمة إلا بعد أن يصحح نفسه ، ويلتمس ذاتيته ، ويتحرك في إطار أصالته ، إن التجديد من سنن الحياة ، ولكنها تتحرك في دائرة ثابتة هي دائرة الأصالة •

الغربيون ينظرون إلى اللغة كوسيلة إلى غاية ، عربة نقل ، تجمع المعاني على جناح الكلمات ، أما نحن فننظر إلى اللغة كغاية في ذاتها ، لأنها جزء من كيان الفكر •

فاللغة العربية لغة أمة ولغة فكر : فهي لغة أمة هي الأمة العربية ولكنها لغة فكر يضم ألف مليون من المسلمين •

إن أساس الخلاف بين منهج الأدب العربي والآداب الغربية يقوم على أساس اختلاف مفهوم الدين بين المسلمين والغربيين ، ومفهوم العلاقات الاجتماعية ، ومفهوم التكامل في الفكر الإسلامي في مواجهة الانشطارية في الفكر الغربي والتركيز العربي الأساسي على طابع الالتزام بالأخلاق والمسؤولية الفردية وتنحية العواطف الشاذة والأهواء •

فضلاً عن أن الأدب العربي لا يلتزم بالاقليميات ، ويتجنب التعبير عن العواطف للشخصية المتميزة « على حد تعبير المرحوم الدكتور يوسف العش » .

فضلاً عن تكامل العصور وترابطها : فالأدب العربي المعاصر لا يمكن فصله بحال عن الأدب العربي في صدر الإسلام ، إذ هو إمتداد له وكل محاولة لفصله إنما هي عمل من أعمال الغزو الثقافي والتغريب .

□ ▽ □

* المعاصرة في إطار الأصالة ص ١٤٤ وما بعدها

الفصل الثاني

التحديات التي تواجه الأدب العربي

عندما نرى الانحراف الشديد الذي يواجه الادب المكتوب باللغة العربية في السنوات الاخيرة نعود إلى تحديات الصهيونية ، تقول بروتوكولات صهيون في مادة (أدب) :

« وفي خلال القرون التي تنعت بقرون النور والتقدم ، وضعنا في ايدي الناس ضروبا من مادة الآداب المنشورة بالطباعة ، هي غاية في التفاهة والقذارة والفثاثة ، وبعد ان نقيم مملكتنا ، فهذه الانماط من مادة الادب ستظل على حالها سارية مسراها ، نروجها ونحث عليها » البروتوكول ١٣ .

ولقد تناولت البروتوكولات رؤوس موضوعات هامة ، وخاصة فيما يتعلق بالحرية والصحافة والتعليم والشباب وغيرها من القيم والمؤسسات التي يندفع في العمل بها بعض من يظنون انهم يخدمون أمتهم وأوطانهم ، وهم — في الحقيقة — يخدمون الاهداف الصهيونية بغير ثمن ، وهم ما أطلقوا عليهم تعبير « العميان » .

ولقد جرى في السنوات الأخيرة تساؤل عريض ، هو : لماذا لا يمثل الأدب المكتوب روح هذه الأمة ؟ ، ولماذا تخلف وسقط وانحرف

وضعت قدرته على التعبير ، وضعف نقاده عن الأداء الصحيح ؟ ٠

والمسألة أبسط من البساطة : ذلك أن هذا الأدب الذي نراه،سواء في مجال الشعر أو القصة أو المسرحية ، لا يستمد روحه من قلب هـذه الأمة ، ولكنه يستمد مادته من الفكر الوافد ، وأغلب الذين يكتبونه لا يمثلون هذه الأمة ، وهم منحرفون في أساليب الأداء الوافدة ، فضلاً عن أنهم رافضون لقيم هذه الأمة ومقدراتها ، إن أغلب هذه الكتابات هي حصاد الهشيم ، وهي ركام الشعوبية الحاقدة الضروس ، وهناك القليل والقليل جداً الذي حاول أصحابه أن يعبروا بإخلاص ، ولكنهم ضاعوا في غمار التيار الأسود الذي حجب ضوء الشمس سنوات طويلة٠

ونحن نرى اليوم ان معظم ما يكتب تحت اسم أدب وشعر وقصة، هو شيء مليء بالغثاثة والتفاهة والقذارة حقاً ، ونرى تلك الأسماء اللامعة التي ما زال يسوقها الاستشراق شرقاً وغرباً من مؤتمر روما إلى مؤتمر انجلترا إلى مؤتمر هذه العاصمة أو تلك من بلاد العرب ، يحملون معهم أحقادهم وخصومتهم وكراهيتهم للغة العربية وللعرب وللإسلام ، ولعامود الشعر ، وللخليل بن أحمد ، وللمتنبي ، وللبارودي في العصر الحديث ٠ ولا ندهش عندما نجد واحداً منهم يقول :

« أدعوا إلى قتل الفصاحة وإلى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منهـا شر كثير » وما يقوله هذا في العقد السابع من هذا القرن ، لا يختلف عما قاله جبران وزملاؤه المهجريون في العقد الثالث : « لي لغتي ، ولكم لغتكم » ٠

ولقد كان لتلك الفترة التي سيطرت فيها الشعوبية على الفكـر الإسلامي والأدب العربي قبيل النكسة وبعدها ، أثرها البعيد في تلك الضربات التي وجهت إلى الأدب العربي ، والى اللغة العربية ، وظهور

هذه الصيحات المريضة التي حملت لواء كتابات أطلق عليها قصيدة النثر أو الشعر الحديث أو غيره من أسماء ، سرعان ما وجدنا من يـدرس هذه الحثالات ويصنفها ويؤرخ لها ويعطيها طابع الظاهرة ، وكـم من ظواهر كاذبة ظهرت في أفق الأدب العربي ثم انهارت وسحقت لأنهـا لم تكن تملك حقيقة النسب الصحيح وهو الأصالة ، ولم يكن هناك بد من أن يتصدى مستشرق مثل « جاك بيرك » إلى هذه المحاولات ، ويهلل لها ، ويكبر في كتابه في الأدب العربي المعاصر الذي أصدره عام ١٩٦٦ • وقد ظن وظنت معه مؤسسة الاستشراق أن ما كانوا يطمعون فيـه من قضاء على البلاغة والأصالة في الأدب العربي قـد تحقق على يـد هذه المجموعة من الشعراء والقصاصين، وظنوا أنه إذا فتحت الصحف والمجلات ذات الألوان الزاهية أبوابها لمثل ذلك ، فإنما دخل هذا كله التاريـخ ، وأصبح حصاداً موجوداً وتيارا واضحاً •• وكذبوا ، فقد كان ذلك كله من خداع النظر ووهم الخاطر •

ذلك أن هذه الأمة قد عودتنا دائما أنها في خلال الأزمات الضخمة لا يستجيب الأدب لها ، ولا يستطيع أن يعبر عنها ، وإنما الذي يعبـر عنها حقيقة هو الفكر ، وآية ذلك ما وصل إليـه الباحثون فيما يتصل بأحداث مماثلة كالحروب الصليبية ومقاومة التتار والفرنجة وغيرها •

ان هذه اللوحات التي تقدم ،سواء في القصة أو الشعر هي في تقدير الكثيرين « غثاء » لأنها لا تمثل حقيقة هذه الأمة ولأن أغلب الذين كتبوها لم يكونوا إلا أتباعاً لهذا المذهب أو ذاك : ماركسية أو وجودية أو ليبرالية ، وكلها مذاهب غريبة عن وجودنا العربي غير قادرة على تصور أعماق أمتنا وجوهرها الحقيقي •• فضلاً عن أن الذين تصدوا لتقويم

هذا النتاج كله والنظر فيه ونقده ، إنما هم من هوامش هذه الأمة لأنهم لم يطبعهم فكرها ولا تراثها ولا قيمها ، وهم — في الأغلب —شعوبيون يحملون في أعماقهم الحقد والخصومة ، ويتطلعون إلى أن تسيطر على هذه الامة الماركسية أو الصهيونية أو غيرها ، فتقضي على ذاتية هذه الأمة وكيانها . وقد كان هذا أملهم قبل النكسة وبعدها ،ولكن أسقط في أيديهم عندما وجدوا هذه الأمة قد عرفت طريقها الصحيح ، وبذلك انهار كل هذا الذي قدروه ودرسوه وقننوه ، مما يسمى « الشعر الحديث إلى أين » أو الأدب الواقعي أو مذاهب كذا وكذا مما طرحت في آفاق الأدب العربي لتعايش أدبا هي غريبة عنه ، وهو في مجموعه لا يمثل مشاعر هذه الأمة .

وخير ما يمكن أن يصور هذه المرحلة تلك العبارات الواضحة الدلالة لواحدمن القادرين على فهم نفسية هذه الأمة .

نحن العرب لنا قيم وتقاليد .. لقد تصور البعض أن من مظاهر التقدم أن يهدم هذه القيم والتقاليد تحت ستار التقدمية ، وأن في الإمكان أن يسقط تراثنا ،و لا يلتفت إليه ، وأصبح العهد والوفاء والإخلاص نوعا من الغيبيات ، لا يصلح في عصر العلم والتكنولوجيا ، وكان طبيعيا أن ينقسم العالم العربي : فريق يرفض ويتشبث بقيمه وتقاليده وتراثه .. وفريق يحاول أن يركب الموجة الجديدة منفصلا تماما عن ماضيه وتاريخه وقيمه الموروثة ، في هذه الفترة وفي هذا الخضم من التيارات المتناقضة كدنا نفقد شخصيتنا ومقوماتنا ، أصبحت التقدمية هي تجاهل أو طمس كل القيم وكل التاريخ وكل التراث ، واستحداث لون جديد من العلاقات الاجتماعية لم نألفه ولا نرضى به لأنه يتجاهل كل شيء نشأنا عليه ، وأصبح كل منا يرفض الاندفاع مع التيار الجديد إما رجعيا أو عميلا أو متحالفا مع الاستعمار ، والأغلبية الساحقة من أمتنا ليست لا متحالفة

مع الاستعمار ، وليس لهـا انتماءات لقد رفضت هذه الأغلبية الدعوة الجديدة لأنها بعيدة عن تقاليدنا وقيمنا .

ولقد بدأت هذه الدعوة توجه ضرباتها في ظل مفاهيم مثارة عن العروبة تلتمس مذاهب الغرب في القومية ، وهي مذاهب ليست صالحة للتطبيق على العلاقات الجذرية القائمة بين العروبة والإسلام .

وفي ظل هذه النظريات الوافدة كان دعـاة الأدب يدعـون إلى الإقليمية أو إلى التجزئة أو إلى القوميات الضيقة ، ويقسرون هذه الأمة على ما ليس من طبيعتهـا الأصيلة التي لا تعرف إلا الترابط الفكـري الإسلامي الواسع الجامع بين العرب والترك والفرس والمسلمين جميعا تحت إطار « لا إله إلا الله » .

ولقد سقطت دعوة الإقليمية والقوميات الضيقة والوافدة ، لأنها اعتمدت مذاهب لم تجد تقبلا من ذاتية هذه الأمة ، ولا ريب أن الأدب الذي كتب في ظل هذه المحاولات القسرية الباطلة هو أدب مضلل فاشل .

وكذلك الحـال عندما طرحت في إطار بلاد الإسـلام الدعوات الماركسية والوجودية ، وحاول أصحابها أن يستقطبوا مجموعة من الكتاب والأدباء والشعراء والمسرحيين وغيرهم ليصنعوا منها تراثا لهذا التيـار الذي عجز عن أن يجد قبولاً في النفس العربية ، والذي كان مفروضاً بالقسر دون أن يجد استجابة حقيقية .

ومن هنا فإن هذا النتاج الأدبي كله لا يمثل حقيقة هذه الأمة ، ولا جوهر نفسيتها أو مشاعرها ، أو يستمد من روحها ووجودها .

إن من أكبر ما حاوله بعض النقاد وأساتذة الأدب في الجامعات هو محاكمة الأدب العربي الذي صدر عن النفس المؤمنة بالله ، والتي تعرف حقيقة الإنسان وجوهره الجامع روحا ومادة ومسؤوليته الفردية ، والتي تؤمن بالجزاء والحساب ، من الخطر أن يحاكم مثل هـذا الأدب وفق

النظريات المادية والماركسية والوجودية والفرويدية التي تعتبر الانسان حيوانا باحثا عن الطعام وباحثا عن الجنس ، أو أنه جزء من المجتمع ، وليس له ذاتيته الخاصة •

ومن أسوإ آثار النظريات الوافدة في نقد الأدب العربي ومحاكمته: تلك الدعوى المسمومة التي حاولت أن تفصل الأدب العربي الحديث عن مسار الأدب العربي كله منذ فجر الإسلام إلى اليوم ، فكل الدراسات تحاول القول بأن عصر الحملة الفرنسية هو أول العصر الحديث للبلاد العربية ، وأن ما سبق ذلك إنما يمثل عصر الانحطاط !!

ونجد أمامنا اليوم خطرا ماثلا هو ذلك الأسلوب الذي يكتب به بعض الأدباء العرب ، ويخضعون فيه للأسلوب الغربي المزدوج الذي يكتب به دعاة التغريب ، والذي يصبغ الجملة العربية صياغة غير أصيلة • ومن عجب أن بعض المجلات الأدبية والإسلامية تنشر لأمثال هؤلاء ومع الأسف بعضهم من خريجي الأزهر ، وقد يظن هؤلاء أن هذا تقدم،ولكنه من المحاذير الخطيرة التي يساق إليها كتابنا دون أن يدروا ، ذلك أنهم إنما يباعدون بين الأسلوب العربي وبيان القرآن ، ومن ثم تحدث تلك الفجوة التي يتطلع إليها دعاة التغريب مقدمة لعزل هذه الأمة وأسلوبها العربي عن نطاق البلاغة العربية الصحيحة ، ومن ثم تبدأ مرحلة تحول اللهجات العربيــة إلى لغات ، وهنا يكمن الخطر الذي يعد كل عربي ومسلم مسؤولاً عنه إن وقع •

الباب الثاني عشر

التحدّيات في وجه منهج الإسلام

اولاً : حقيقة الاسلام

ثانياً : لا بد من صمود المسلمين في وجه الايديولوجيات

ثالثاً : موقف البشرية من المنهج الكامل والنظريات المجزاة

ربعاً : دحض شبهات مثارة حول معطيات الاسلام

الفصل الأول

حقيقة الإسلام

تنوع في إطار الوحدة وحركة في إطار الثبات

حين يكتب التاريخ الإسلامي من خارج ، فإنه يحتاج إلى مراجعة دقيقة ونظرة فاحصة ، فإن الشعور التلقائي أن كاتبها له هدف واضح وغرض مبيت • ومن هنا تختلف أغراض النظرة باختلاف الدول ، وقد وجدنا كتابة انجليزية لتاريخ مصر والسودان والعراق ، وكتابة فرنسية لتاريخ سوريا والمغرب ، وفي كل هذه الكتابات كانت روح الانتقاص وطابع الاستعلاء واضحة ، كذلك فإن هناك كتابات أخرى تحاولها قوى طامعة في العصر الحديث بالاضافة إلى الاستعمار الغربي منها الشيوعية بتفسيرها المادي ، ومنها الصهيونية بتفسيرها الشعوبي ، وقد طرحت في أفق الدراسات الاسلامية في العصر الحديث كتابات ماركسية ، وصهيونية بالإضافة إلى الكتابات الاستعمارية •

إن الهدف الذي تقصد إليه هذه التفسيرات ، هو القول بأن هذه الأمة ، قد عرفت احتلال الفرس والرومان وغيرهم من الأمم ، وأن ذلك يبرر احتلال الغرب لها •

والواقع أن الأمة الإسلامية منذ كانت ، فإنها لم تقبل الاستسلام

لأي غزو ، ولم تمكن أي قوة من السيطرة عليها إلا بقدر ما امتلكت ارادتها من جديد ، وكذلك كان موقفها من الصليبيين والتتار والفرنجة .

كذلك فإننا نجد المحاولة الصهيونية ترمي إلى القول بأن هـذه المنطقة قد حفلت بعناصر غريبة جاءتها من الشرق أو من الغرب ، ولذلك فانه ليس من الغريب أن تقوم فيها اسرائيل ، ولكن الحقيقة التي تغيب عن حملة هذه الأضاليل ، أن مصير أي تجمع مثل إسرائيل ، فإن مصيره دائما الانهيار والزوال .

أما في المحاولة الماركسية ، فإن التفسير المادي للتاريخ يحاول أن يتجاهل دور العقيدة في بناء الأمم والحضارات ، ويفسر الأمور تفسيرا ماديا أو اقتصاديا صرفا ، بينما لم يكن الاقتصاد إلا واحدا من عوامـل عدة منها : العامل المعنوي الذي يقوم على الدين ، والذي يضحي فيـه المؤمنون بأنفسهم وأموالهم في سبيل فكرة .

أما الذين يطرحون فكرة قيام المنطقة الاسلامية على التعدد ، فإنهم لا يلتمسون الحقيقة ، لأنهم لا يريدونها ، ولا يحبون أن يعرفها الناس ، وإنما يفسرون الأمور بأهوائهم ومطامعهم ، والواقع أن هذه الأمة منـذ أقامها الاسلام فهي وحدة تامة تقوم على أساس وحدة الفكر والعقيدة والثقافة والمجتمع والتاريخ ، وأن التعدد الذي يقع فيها ، إنما يتصـل بالكيانات السياسية وحدها ، هذه الكيانات التي تحمل طوابع الاختلاف في الجنس أو العرق أو الدماء ، وهي خلافات جذرية يعترف بها الإسلام ولا يردها ، ولكنه يدعو إلى أن تكون عامل تعارف وإخاء ومحبـة ، والتقاء وتبادل من حيث أن هذه الشعوب يجمعهـا المعنى الاسمى ، والروح الاعلى ، روح التجمع حول فكرة أساسية ، هي فكرة التوحيد والبعث والجزاء والإيمان بمفهوم واحد في رسالة الإنسان في الحياة ، وإرادته ومسؤوليته والتزامه الأخلاقي .

فهي لا تفهم اختلاف الأجناس فهماً عنصرياً غاليا ، ولا ترى بين الأمم المختلفة صراعا أو خصومة ، تستدعي إعلاء الماضي القديم السابق للإسلام من فرعونية أو فينيقية أو بربرية أو زنجية ، فإن كل هذه العناصر قد صهرها الإسلام في بوتقة التوحيد وفي إطار الفصحى لغة القرآن ، التي هي لغة العقيدة والفكر والعبادة والثقافة •

ومن هنا فإن المسلمين في الأمة الإسلامية لا يرون الفوارق بين العرب والترك والفرس والهنود كيانات خاصة أو عنصريات متعادية ، أو صراعات دموية ، ولكنهم يرون ما علمهم ربهم ودينهم وقرآنهم : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) [الحجرات : ١٣] دون أن يكون وراء أي جنسية استعلاء بلون أو عرق أو لغة ، وإنما التفاضل بالعمل النافع •

والذين يرون أن هذا التعدد في الأجناس من شأنه أن يمزق هذه الأمة ، ويعيدها إلى ما كانت عليه قبل الإسلام من عنصريات وكيانات متعادية ، هم ضالون ومضللون • فإن الإسلام قد عمق بينهم الوحدة والأخوة أربعة عشر قرناً ، فلم يعد في إمكان أي قوة أن تهدم هذا الجدار ،أو تحطم هذه الجذور الموغلة في التربة الإسلامية ، ولقدأثبتت حقائق التاريخ ووقائعه- لأهواء الصهيونية أو الشيوعية أو الاستعمار الغربي - بأن هذه المنطقة قادرة على مواجهة كل الموجات التي ترد إليها من الشرق أو الغرب ، وأن تصرعها وتحتويها أو تصهرها في باطنها ، وأنها منذ ألف عام ، وقبل أن يزداد نموها ، ويتسع نطاقها على النحو الذي هي عليه الآن ، استطاعت أن تصهر القوة التتارية العارمة، وأن تهزم القوة الصليبية الضخمة وهي الآن -وبعد مرور هذا الزمن واتساع رقعة الإسلام - أشد قدرة على هذه المواجهة وهذا الحصار ، وأن

المرحلة التي مضت في مواجهة اسرائيل والصهيونية خلال ثلاثين عاما ، لم تكن مرحلة استسلام للوجود الدخيل ، وإنما هي مرحلة استكشاف وتجمع وإعداد على النحو الصحيح ، بعد أن خدعت القوى الأجنبية المسلمين والعرب عن أسلوب الأصالة ، وعن الطريق الصحيح ، وعن منهج القرآن الذي علمهم كيف يواجهون العدو الزاحف والغزو المندفع نحو أرضهم ٠

ولا ريب يعرف خصوم الإسلام أن أي موجة من موجات الهجرة، لن تستطيع أن تصهر هذه الأمة مهما بلغت قوة وعتوا ، وأن أي موجة من موجات الغزو لن تستطيع أن تقضي على هذا الكيان ، مهما استعملت أحدث أساليب القتال ، ذلك لأن الركيزة الأساسية العميقة القائمة في ضمير هذه الأمة ، سوف تبعث في الوقت المناسب بالقوة القادرة على دحر الظلم والعدوان ، وإن كانت المظاهر الخارجية اليوم لا تعطي هذا المفهوم ، ولكن التاريخ يرسم صوراً متعددة لمثل هذه المواجهة ، نراها واضحة عبر تاريخ الإسلام كله ، فهي ظاهرة صحيحة أصيلة لا تتخلف ، هي قدرة هذه الأمة على الانبعاث من داخلها في مواجهة الأزمات في اللحظة الحاسمة ٠

كذلك فإن محاولة القول بالتعدد يبطلها الإطار الاسلامي العام القائم على الوحدة ، والذي يسمح بالتعدد في داخله على أساس طبيعة الحضارات ، وسنن المجتمعات ، هذا التعدد الذي لم يكن خطرا على الوحدة الأصيلة القائمة إلا إذا عمدت القوى الغازية والوافدة على تعميقه ودفعه إلى طريق الخطر ٠

أما تعدد الأديان في عالم الإسلام فهو أمر قد حسم الإسلام الموقف فيه بنظام الشريعة الإسلامية العادل الكريم ، بالنسبة لأهل الكتاب ،

وأصحاب النحل والأديان الأخرى ، من حيث العدل والتسامح والرحمة، لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا . ولما كان الاسلام يعترف بالاديان السابقة له ، والكتب السماوية المنزلة ، فان هذا التعدد لن يكون مصدر صراع أو أزمات ، إلا إذا حاولت القوى الاجنبية استغلال الاقليات على النحو الذي يقوم به الاستعمار والصهيونيـة والماركسية في العصر الحاضـر لإثارة القلاقل والاضطرابات .

ومن طبيعة المجتمعات الكبرى أن تتنوع فيهـا الأجناس ، وان تتعدد فيها الاديان ، ولكن المجتمع الاسلامي يستطيع أن يحسم ذلك ، وأن يقيمه على أساس صحيح لأنه يصدر عـن عقيدة سمحة كريمة ، تشجب العنصرية ، وتنكر الاستعلاء بالدين ،وتقيم العدل على جميـع الطوائف والعناصر في إطار الإخاء والرحمة والسماحة والمساواة .

ولذلك فإن محاولات تفسير التاريخ على هـوى الصهيونية أو الشيوعية أو الاسـتعمار لن يحقق شيئاً إلا إثارة الشبهات في نفوس الذين لا يعرفون حقيقة الإسلام ، أو لا يعرفون محاذير الفكر الوافد ، وأخطار الغزو الخارجي الذي يتعرض لها عالم الإسلام دوما وفي كـل العصـور .

ولا ريب أن محاولة السيطرة الصهيونية على أرض المسلمـين ، وفي قلب عالم الإسلام، عمل يتعارض تماما مع سنن الحضارات ،وقوانين قيام الأمم ، لأنه يفقد عناصر الصلاحية ودعائم الوجود الحقيقي ، فهو يعتمد على نص تاريخي زائف في تفسيره ، وعلى محاولة سيطرة قامت بالغصب ، وعلى وجود يستمر بالمعونة الخارجية وحدها ، ولا يستطيع امتلاك إرادة الحياة وعلى كراهية شاملة مـن الجيرة العربيـة في خط المواجهة الاول ، ومن الجيرة الاسلامية في خط المواجهة الاكبر .

ومن هنا فإن هذا الوجود لا يبقى ، إذ أن عوامل إقامته سوف تنقطع حتماً ، وأن عوامل التخلص منه سوف تنمو حتماً ، وسيجد نفس

المصير الذي وجدته المملكة اللاتينية التي قامت في نفس المكان قبل ثمانمائة عام، وانهارت لأنها فقدت أسباب وجودها .

ولن تتمكن قوة مغتصبة تقوم على التسلط والتوسع، من فرض وجودها على أمة أصيلة عميقة الجذور تسير مع طريق التاريخ لا ضد تياره .

كذلك فإن محاولة القول بتعدد المذاهب في الدين الواحد، هي محاولة باطلة مضللة بالنسبة للإسلام الذي لا يجعل من اختلاف مذاهبه أدياناً مستقلة أو نحلا منفصلة، بل إن اختلاف المذاهب الاسلامية كان وما زال سعة ورحمة، ذلك أن هذه المذاهب جميعاً تلتقي في الأصول العامة، وتقيم قاعدة واسعة من التوافق والالتقاء، ولا تجعل الخلاف إلا في الفروع، والاسلام يختلف عن تعدد المذاهب في المسيحية، بين الكاثوليك، والبروتستانت والارثوذوكس، حيث تبدو كل فرقة وكأنها دين مستقل .

ومن هنا نجد أن كل أوهام الاستشراق ومفسري تاريخ الإسلام على الهوى والغرض زائفة باطلة لا تقف لحظة واحدة أمام حقائق العلم أو الفطرة أو وقائع التاريخ نفسه .

الفصل الثاني

لا بُدّ مِنْ صمُود المسْلمين في وَجه الايدْيولوجيّات

كانت الفلسفة قبل الإسلام قد شكلت نظريــة أو عدة نظــريات أعتمدت فيها على الأهواء المجردة المتحررة من مفهوم الدين الحق الذي جاء به الأنبياء والرسل منذ بدء الخليقة . وقد تمثل في هذه الفلسفة ما يمكن أن يسمى بالفكر البشري الذي يختلف اختلافاً واضحاً عن الفكر الرباني الذي جاء به الوحي إلى الانبياء والرسل من لدن الحق تبارك وتعالى .

وهكذا عاشت البشرية في صراع شديد بين حقائق التوحيد وبين شبهات الفكر البشري الذي اعتمد على مصدر من مصدرين : مصــدر عقلاني ومصدر حدسي ، وقد عرف اليونان بالفكر العقلاني منذ قرون ستة سالفة للمسيحية ، كما عرف الشرق بالفكر الحدسي منذ وقــت مقارب لهذا ، ثم جاءت مدرسة الإسكندرية ، فصهرت الفكر العقلاني مع الفكر الحدسي بغية إيجاد فكر بشري موحد ، وقد حاولت ولــم تتمكن .

وقد جاءت حركة الفكر البشري كلها سابقة لدعوة إبراهيم عليه السلام ، وظلت على صراع مع رسالة السماء ، فقد هاجم إبراهيم مــن الدعوات البشرية الوثنية : عبادة التماثيل ؛ وعبادة النجوم والكواكب ؛ مما كان معروفاً في أرض بابل ، وجاء برسالة التوحيد وعبادة الواحد

الأحد ، ثم جاءت رسالة السماء إلى موسى عليه السلام ـ بالتوراة شرعة وعقيدة إلى قومه بني اسرائيل حتى ختمت فيهم برسالة عيسى عليه السلام الذي جاء بالانجيل ، والذي جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسول من بعده اسمه أحمد .

وقد تداخلت الأهواء في رسالة السماء ، فحوّلها الذين استحفظوا عليها بعد الأنبياء إلى دعوات عنصرية ، وربطوها بهم ، فاتخذ اليهود من رسالة موسى عنصرية يهودية لها مفهومها الخاص في الإله ، وفي الأمة ، وفي الحياة ، وفي علاقتهم بالناس والأمم .

ثم جاء بعض أتباع عيسى عليه السلام ، فاتخذوا من رسالة الرحمة التي جاءت لتكسر جمود المادية اليهودية ، رسالة خاصة لها مفهومها في الإله والنبي والأمة والناس ، وكلا المفهومين اللذين وصل إليهما أتباع رسالة عيسى وموسى مخالف لصحيح الرسالة نفسها ومعارض لها .

ولقد اختلطت اليهودية بالفكر البشري البابلي ، واختلطت المسيحية بالفكر البشري اليوناني ، فتداخلت مفاهيم الفلسفات القديمة في دين الله ، فصدر من ذلك نتاج مضطرب ، سرعان ما تعارض مع الفطرة ومع العقل البشري ، وخاصة بعد أن دخل العقل البشري في عصر العلم .

ولقد جاء القرآن الكريم ليحسم الرأي في كل ما أثارته الفلسفات والفكر البشري من قضايا وتحريفات واضافات وانتقاصات ، ورد في عديد من مواضعه على مختلف التصورات الزائفة التي حولت الدين الحق إلى غير ما قصد به .

وقد زيف القرآن كل ما سوى (لا إله إلا الله) من نظرية ، سواء أكانت دعوة إلى الدهرية أو التثنية أو التثليث ، وأقام شرعة الله الحق

التي جاءت بها كل الأديان وكل رسل الله منذ بدء الخلقية ، وهي التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء ، ودعا المسلمين إلى الإيمان بكل نبي أرسل وكل كتاب أنزل : (لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) [البقرة : ١٣٦] .

كذلك فقد جاء الإسلام للبشرية كلها وللانسانية جميعا ، رسالة خاتمة ، وكتاباً خاتماً ونبيا خاتما ، به انتهت رسالة السماء في الوحي والنبوة ، وختمت بالمفخرة الكبرى الباقية على الدهر التي تحدى بها الحق تبارك وتعالى الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله ، وقد عجزت البشرية وما تزال عاجزة وما يزال التحدي قائماً ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

عرف الفكر الغربي البشري بالنظرة المادية والعقلية ، وعرف الفكر الشرقي الهندي والفارسي الوثني بالنظرة الحدسية ، وعجز كل من الفكرين أن يجمع بين العقل والقلب والروح والجسد وفق نظرة الفطرة التي جاءت بها الأديان ، فأصبح كل فكر معادياً للآخر ، لـه شطر نظرة ، يقف عندها ، ويتعصب لها ، وقد نكب الفكر العقلي بالمادية والدهرية والقصور على المحسوسات والظواهر ، بينما عجز الفكر الحدسي عن النظرة الكاملة ، فقد نكب منذ البداية بمذهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

ومن ثم فان كلاالمذهبين قد حطم الانسان ، وهو يدعي تكريم الإنسان ، حطمه الفكر الغربي المادي بأن أنكر إرادته ومسؤوليته ، وحطمه الفكر الشرقي الحدسي بأن عزله عن الحياة تماماً .

ولقد حاول اليهود الادعاء بأن لهم إلماماً خاصاً ، وأن لهم وعداً خاصا وانهم شعب الله المختار ، وان الأممين هم كل من سوى اليهود ، أقل منهم قدراً ، ومن حقهم التسلط عليهم ، و لايمثل هذا المفهوم إلا

هوى العنصرية البغيضة ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو رب العالمين جميعاً ، وليس هناك وعـد إلا للصالحين ، وقد مـنّ الله على إبراهيم والصالحين من ذريته :

(وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس اماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) [البقرة : ١٢٤] .

ولقد حاول النصارى الادعاء بأن الله هو المسيح ، وأن الله ـ جل شأنه ـ له ولد ، ولقد دحض القرآن دعواهم ، وزيفها ، وأعلن بطلانها كما ادعوا تصليب المسيح ، وقد دحض القرآن دعواهم ، كذلك فان من دعاواهم الباطلة أيضاً : الخطيئة الأصلية خطيئة آدم ، وقد زيف القرآن هذه الدعوى ، فقد عصى آدم ، وتاب الله عليه ، وأعلن أنه لا تزروازرة وزر أخرى ؛ وأن كلا مسؤول عن عمله ، وأن توبة الله على آدم تنفي هناك خطيئة مرتبطة بالبشر جميعاً ، وبالتالي : فإن ذلك ينقص القـول بأن المسيح جاء ليكفر عن هذه الخطيئة الموهومة .

ولقد جاء الإسلام محرراً للناس مـن الفكر البشري في زيوفـه واضطرابه وفساده وما اختلط فيه بالإديان كاشفا عن انحراف اليهودية، وخروج المسيحية عن طبيعتها بوصفها دعوة مكملة لرسالة مـوسى ، إذ أخرجها بولس من نطاقها الطبيعي إلى ديانة عالمية ، وأفسدها بالتثليث والصلب والخطيئة .

وأعلن الإسلام تحرير عقل الإنسان وفكره من الوثنية وتحطيم القيود والأغلال المتراكمة الموروثة ، كما أعلن تحرير الإنسان نفسه من العبودية التي فرضتها عليه الحضارات الرومانية والفارسية والفرعونية ، وأعلن الإخاء الإنساني ، وبذلك شجب زيف الجاهلية كلها، وبدأ صفحة جديدة للبشرية ، هي عصر الرشد الفكري الإنساني المتقبل لرسالـة

عالمية خالدة ، تقوم على أساس الإقنـاع العقلي ، وتكون معجزتهـا معجزة بيان وكتاب وقلم وأولها (اقرأ) •

وبذلك بدأ خطاب العقل والقلب ، وبدأت دعوة التأمل والفكر ، وبدأت حركة السعي إلى النظر في الكون (قل أنظروا ماذا في السموات والأرض) [يونس : ١٠١] (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق) [العنكبوت : ٢٠] (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) [الروم : ٤٢] •

وكانت دعوة التوحيد القرآنية أبسط الدعوات وأقربها إلى الفطرة والعقل والعلم ، ومنها بدأت حركة العلم حيت خرجت البشرية من منهج اليونان الفطري التأملي إلى منهج جامع بين النظر والتجربة ، كان من شأنه أن أبدع « المنهج الإسلامي التجريبي » قوام الحضارة الحديثة والعلم التكنولوجي •

أبطل القرآن سلطان الأحبار والرهبان ، والوساطة بين العبـــد والرب ، وجعل العلاقة بين الله والعباد خالصة : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) [البقرة : ١٨٦] ليس هناك من كهنوت يملك التحليل أو التحريم أو الغفران •

ودعا الإسلام اتباعه إلى العمل وبناء الإرادة ، وحملهم المسؤولية الفردية والإلتزام الاخلاقي مقدمة للجزاء والحساب بعد البعث في حياة أخرى بعد هذه الحياة •

علم القرآن أتباعه أن يواجهوا الحياة بواقعية ورباطـة جأش لا مثيل لهما في الأديان الأخرى ، وحثهم على الإقبال عليهـا والزهد فيها في آن واحد في توازن مدهش ، لا تفريط فيه ولا إفراط ، شعاره الدين والدنيا معاً •

واعطى الانسان النفس الإنسانية السكينة والطمانينة : بما يحول دون الفزع والتمزق والصراع والضياع والخواء ، الذي خلقته الوثنية قديماً وحديثاً ، فقد جاءها بالأمل والعزيمة والمثل الأعلى .

ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) [المائدة : ٧٨] .

حدد القرآن مسائل ما وراء الطبيعة « عالم الغيب » تحديداً واضحاً ، ورسم دائرته رسما كاملاً بما يشفي صدور المؤمنين ، ويكفي حاجتهم العقلية والنفسية ، وحتى لا يذهبوا وراء البحث بأداة العقل التي تعجز عن اختراق هذه الحجب ، وأعلن قصور العقل الانساني عن التوصل إلى الماهية : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا » .

وربط بين الوحي والعقل ، وجعل العقل سراجاً يستضيء بالوحي .

كذلك اعتمد القرآن في طريقه الإقناع على الفكرة لا على الجدل، وخاطب في الناس عقولهم ومشاعرهم وقلوبهم ، وقدم لهم براهين التاريخ وعبرة القصة في أسلوب محيط بكل ملكات الإنسان .

ونشأ الفكر الإسلامي كله من مصدر القرآن .
فمن النظر إلى قوانين القرآن وشريعته نشأ علم الفقة .
ومن النظر إلى آيات الكون والغيب نشأ علم الكلام .
ومن النظر إلى أخلاقياته نشأ الزهد والتصوف .
ومن النظر إلى نظامه في بناء الجماعة والدولة ، نشأ علم السياسة .
ومن النظر في أسلوبه وبيانه نشأت علوم اللغة .

وتشكل منها الفكر الإسلامي كله قبل أن تترجم الفلسفة اليونانية

أو الفلسفات الفارسية والهندية .

وعجزت وثنية الإغريق ومجوسية الفرس وغنوصية الهنود وإشراقية الشرق كلها عن أن تطغى على جوهر التوحيد الخالص ، وإن دخلت معها في معركة ضخمة انتهت بتحرير الفكر الإسلامي من كل الزيوف ، وذلك بعد أن انصهرت كل الإيجابيات من معطيات العلوم القديمة في إطار التوحيد .

وإذا كان الفكر الإسلامي قد واجه الفكر الإغريقي المادي والفارسي والهندي الوثني في القرن الرابع عشر ، فإنه من أوائل القرن الرابع عشر إلى اليوم ، وهو في مواجهة صارمة للفكر المادي الغربي والفكر الماركسي والفكر الصهيوني التلموديالذي احتوى الفكر الغربي بشقيه .

وقد تجددت المعركة في مواجهة التوحيد الإسلامي في محاولة ضخمة لاحتوائه ، وما تزال قوى الفكر الإسلامي تواجه التحديات في قوة ، وتكشف عن زيف الفكر البشري وعجزه عن الإحاطة بالنظرة ، أو تمكنه من اعطاء الانسانية السكينة والطمانينة النفسية ، أو اعطائها منهجاً من مناهج الحياة الاجتماعية يحقق لها العدل والحرية معاً .

وكما جاهد الأشعري والغزالي وابن تيمية والشافعي في رد دعاية الفتنة اليونانية على أصالة الإسلام وفكره ، فإن عدداً كبيراً من رجال هذه الأمة يدافعون عن التوحيد كاشفين زيف الوثنية والمادية والاباحية والإلحاد مثلاً في عشرات من المذاهب والايديولوجيات مؤمنين بأن المسلمين لن يجدوا إلا طريقاً واحداً هو طريقهم الحق ، وان كل هذه المناهج والايديولوجيات سوف لا تحقق لهم شيئاً إلا الهزيمة والاندحار ومزيداً من النكسة وامتداداً للازمة : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) [الأنعام : ١٥٣] .

الفصل الثالث

موقف البشرية
بين المنهج الكامل والنظريات المجزأة

عندما قدم أهل نجران على النبي — صلى الله عليه وسلم — يتشاورون في أمر الانضمام إلى الإسلام ، شرطوا شروطاً وطلبوا أن يقبلوا من الإسلام ، وأن يحتفظوا لأنفسهم بأشياء من تراثهم الفكري ، وكان انضمام هؤلاء القوم يعد نصراً كبيراً ، ويرجح كفة الإسلام الناشيء غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — رفض التجزئة ، وطلب إليهم أن يقبلوا الإسلام كاملاً ، وأن يتخلوا عن كل ما يتصل بتراثهم الفكري أو وضعهم القبلي ، وقال كلمته المشهورة المدوية التي ما تزال مثلاً يحتذى وقاعدة لا تلين : « إن هذا الأمر لا يصلح له إلا من أحاطه من جميع أطرافه » واليوم نرى المسلمين — بعد مرحلة طويلة من مؤامرات التغريب ، والغزو الثقافي ، وعوادي الدعوات والمذاهب والنظريات — يعيشون واقعاً ممزقاً ، فهم يقبلون من الإسلام أشياء ، ويتركون أشياء أخرى ، ولا يربطون بين الأجزاء كلها في إطار واحد ، وهم —في الأغلب— يقبلون العبادات،ويتراجعون في المعاملات والشريعة والأخلاق ، ويرجع ذلك الفصل إلى الدعوة الملحة التي بدأها الاستعمار

ومؤسسات التبشير والاستشراق والتغريب بأن الإسـلام دين عبادة ، ولذلك فإن أمر هذه العبادات لا يرتبط مطلقاً بأمور التعامل في الحياة ولا بعلاقة الأفراد بالمجتمع ، وبذلك يتعرض الجانب الأكبر من الإسلام لخطر كبير ، وهو ما يتصل بالتعليم والتجارة والسياسة • وفي هـذا المجال تجد المسلم يتجاوز شريعة الله ومنهجه في هذه الميادين • ثم يرى أنه ما زال مسلماً ، ولا بأس من أداء الصلاة والعبادات ، كذلك نرى المرأة تخرج في ملابس عصريـة ، وتسلك سلوكا يتجاوز حقوقهـا ومسئوليتها وعملها الطبيعي دون أن ترى في ذلك شيئاً ، وهي لا تدري أنها قد تجاوزت شريعة الله ومنهجه في الحياة ، وكذلك نرى هناك من يعامل الناس معاملة طيبة ، ويتصدق ، ولكنه لا يرى أن لذلك علاقـة بالصلاة أو الزكاة •

وأغلب المسـلمين الآن يرون أن الإسـلام دين عبادة وصلاة ، ويتجاهلون أنه نظام مجتمع ومنهج حياة ، وأنه لا بد للمسلم أن يطبقه في مختلف أمور تعامله الاجتماعي والاقتصادي والقانوني ، وأنـه لا مفر من أن يطبع هذه الحياة كلها ، وهذا التعامل كله روح أخلاقيـة تعلو عن الحقد والحسد ، وتؤثر الناس بالخير وتتسم بالرحمة والسماحة، وذلك حتى يكون كل مسلم قد طبق الإسلام على نفسه وأهله ومجتمعه كاملاً : عقيدة وشريعة وأخلاقاً • وفي هذا نقول للمسلمين ما قالـه رسول الله « إن هذا الأمر لا يصلح له إلا من أحاطه من جميع أطرافه » •

ولا ريب أن هذه هي ميزة الإسلام الكبرى : ذلك التصور الجامع المتصل بين الروح والمادة والنفس والجسم ، والفرد والجماعة ، والدنيا والآخرة • وهو مخالف للتصورات التي انحرفت إليها تفسيرات الدين في بعض العصور السابقـة حيث اقتصر الدين على العلاقة بـين الله والإنسان • ومن ثم سمحت هذه الأمة لنفسها أن تضع مناهج للسياسة والاقتصاد والقانون والاجتماع تستوحيها من ظروفها ومن أوضاعها •

هذه المناهج التي ما تزال تصطرع في عنف شديد، وتقسم البشرية إلى دعاة فردية، ودعاة جماعية. أما دعاة الفردية فهم لا يرون للمجتمع حقاً ما. وأما دعاة الجماعية فلا يرون للفرد حقا ما. والإسلام غير ذلك فهو جماع الفردية والجماعية في توازن مضبوط، ونظام قوامه التكامل والمواءمة الكريمة، ولا ريب أن هذا التكامل الجامع إنما يستمد فطرته وطبيعته الصحيحة من الإنسان نفسه الجامع في تكوينه بين الروح والمادة، وما زال الإنسان منذ أنشأه خالقه من الطين، ونفخ فيه الروح، وهو يسير على جناحين من المادة والروح، فله رغباته ومطامحه المادية، وله أشواقه ورغائبه الروحية، والجوانب المادية لا تفصل الجوانب الروحية، ولا إعلاء لإحداهما على الأخرى، بل توازن وتكامل من شأنه أن يجعل الشخصية الإنسانية سوية راضية مطمئنة مليئة بالسكينة والرضى.

وهذا هو ما تفقده اليوم المجتمعات التي أعلت من شأن المادة وحدها، والتي جعلت هناك فاصلاً بين الدين والمعاملة، أو بين العقيدة والشريعة، ولا ريب أن الإضطراب الذي يسود المجتمع الإسلامي في هذه السنوات المتوالية منذ فرض الاستعمار نفوذه ونظمه، إنما ترجع إلى هذا الانفصام، وهو انفصام معارض للطبيعة الإنسانية، ولأمر الحياة نفسها الذي يقوم على الوحدة بين الأجزاء والتكامل بين العناصر. والإسلام وحده هو الذي يستطيع أن يعطي البشرية هذا المنهج الجامع المتكامل الذي تعجز عنه المناهج والفلسفات المختلفة التي تأخذ شطراً، وتعلي من شأنه، وتترك الشطر الآخر، أو تقصر عن استيعاب النظرة الكاملة، وهو المنهج الذي قامت به السموات والأرض، وقامت به رسالة الله إلى البشر على يد جميع الأنبياء والرسل والكتب، وهو الذي أعطى البشرية دفعتها الخالصة إلى الحق والخير، وهو العروة الوثقى

الجامعة للإنسانية تحت حكم الله وفي ظل شرعته ، وهو منطلق نهضة العلوم والمعارف لتكون في خدمة الناس جميعاً ، لا في خدمة فئة أو طائفة أو جماعة .

والخلاف اليوم في الغرب إنما يقوم بين جزئي المنهج خلاف بين المذهبين : الاجتماعي والفردي ، يمتد إلى الأدب والتاريخ والاقتصاد ، ويعجز فيه كل فريق عن فهم الفريق الآخر ، فما يزال الصراع بينهما محتدماً ، وفي مجال الفكر يحتدم الصراع بين الرؤية العقلانية والرؤية الوجدانية ، وقد انقسمت الفلسفات قديما إلى هيلينية عقلانية ، وإلى غنوصية وجدانية ، وما تزال الأولى صفة الفلسفة الغربية ، والأخرى صفة الفلسفة الشرقية ولكن الإسلام غيرهما ، الإسلام يجمع بين أطراف العقلانية والوجدانية تحت ضوء الوحي ، ويربط بين الروح والمادة في إطار « لا إله إلا الله » ، ويجعل للأمر نقطة إنطلاق ومدار حركة ، فلا يقصر على الثبات وحده ، ولا يقصر على الحركة وحدها ، ولكنه يجمع بينهما في توازن دقيق ، قوامه قاعدة ثابتة ننطلق منها ونعود إليها متصلة بين السماء والأرض ، ومتصلة بين الشرق والغرب ، ومتصلة بين أزل الوجود وأبده لا تنفك عنها ولا تنفصل ، هذه القاعدة هي التوحيد كلمة الله بالوحي والنبوة ورسالة الله في كتبه ورسله ، وعالم الغيب الذي لا يرى بالبصر ، وعالم البعث والجزاء . وفي إطار هذا الإيمان وهذه النظرة تبدأ الحركة حرة بإرادة الإنسان الذي يجزى على سعيه ، والمكلف بتعمير الأرض وإقامة المنهج الرباني فيها عدلاً وإخاءاً ورحمة وسماحة ، وهذه الأرض هي تجربته وامتحانه ومقامه الذي أبيح له فيها نعماء الله وزينته بالحق في حدود وضوابط وقوانين تحمي وجوده الفردي ، وتحمي وجوده الاجتماعي في مواجهة

الأخطار التي لا تتوقف ، وقد أتاح له الدين الحق رغائبه المادية وأشواقه الروحية معاً ، ودله على الطريق في المواءمة بينهما رغبـة في الارتفاع إلى أن يكون أهلاً لحياة أخرى من طراز آخر ، لا تتحقق إلا للقادرين على الارتفاع بأنفسهم عن الأهواء والمطامع المؤهلين للتسامي والاستعلاء على الدنايا وبذل النفس والمال في سبيل الله خالصة به نفوسهم •

ومن ذلك فإن هذه النظرة البعيدة الآفاق ، الجامعة بـين عوالم الروح والمادة القادرة على الموازنـة بينهم ، هي النظرة القادرة على اقتحام عقبة الامتحان العسير ، المهيأة للارتفاع فوق كـل الأهواء من أجل دعم المجتمع الرباني وإقامته بالعزة والتمكين ، ومن أجل حيـاة أخرى أكثر بهاءً وحسناً •

وحين ننظر إلى النظرية البشرية نجدها تفصل كل شيء ، وتقيمه بذاته ، وتدفعه دفعاً متراكضاً كأنما هو منهج الحياة كلها ، فالنظـرة النفسية الفرويدية ، والنظرة الجماعية لدوركايم ، والنظرة الاقتصادية لماركس ، والنظرة القائمة على المنفعة البرجماتية ، والنظرة الوجودية التي تعلي شأن الفرد لسارتر ، وهذه أبرز المذاهب المعاصرة ، ونجدها كلها نظرة جزئية انشطارية ، لأنها متوجة إلى حالة واحدة من حالات متعددة للوجود الإنساني ، فتجعل منها قاعدة عامة ومنهجا كلياً ، بينما تتجاهل كل الجوانب والنظريات الأخرى ، ثم تتصارع هذه النظريات ، وتسقط وتقوم ، ويعد لها أصحابها ليواجهوا بها المتغيرات الدائمـة والتحولات المستمرة ، ثم هم يعجزون عن هذه المعالجة ، ويبدو فشلهم وعوارهم •

أما النظرة الإسلامية الجامعة فإنها تبقى قائمة كالمنار المرتفع ، لا يستطيع أن يعلو عنه ضوء ، وهو المشع الدائم القادر على العطاء في كل العصور ولكل البيئات ، لأنه واءم بين جوانب الفطرة الإسلامية وجوانب

الحياة كلها منذ بزغ فجرها ، وما زال وسيظل قادرا على العطاء بما لا يتعارض مع المتغيرات مهما بلغت ، وعلى امتداد العصور لأن قوالبه واسعة وإطاراته مرنة ، ولأنه يضع القواعد الكلية ، ويترك للناس في العصور المتغيرة القدرة على الاجتهاد والحركة واتخاذ الأزياء المناسبة لبيئاتهم ما دامت كلها لا تخرج عن الدائرة ذات الضوابط والحدود الربانية •

كذلك فإن ميزة الإسلام بنظرته الجامعة المتكاملة الوسطية أنه يعطي الإجابات الواضحة للنفس الإنسانية والعقل البشري في كل القضايا أو المسائل وإزاء التحديات والأزمات ، فهو دائما قادر على الإجابة التي تشفي الصدور والعقول بإزاحة الآثار التي يرتبها التغير الدائم من دون إخلال بالقواعد الكلية ، وهنا نجد الخلاف الواضح بين المناهج الغربية العاجزة عن الإجابة ، القاصرة عن العطاء ، لأنها لا تملك أو لأنها لا تريد للبشرية أن تجد طريقها إلى النور ، فهي تكتفي بأن تصور الواقع وتتجمد ، فإذا تساءل أصحاب الأزمة عن الحل وعن الطريق وعن المخرج ، وقفت هذه الفلسفات والمذاهب جامدة تكتفي بإثارة الشبهات وإحراج الصدور ، فإذا هدت فإنما تهدي إلى مزيد من الضلال والإرباك والإثارة ، وهكذا سقط المجتمع العربي في براثن أزمة الإنسان الكبرى قلقاً وتمزقاً وصراعاً ، لأنه عجز عن الاهتداء إلى الضوء الكاشف •

* * *

الفصل الرابع

دحض شبهات مثارة حول معطيات الإسلام

هناك شبهة مطروحة في أفق الفكر الإسلامي تحاول أن تتخذ من تاريخ الغرب مثلا يحتذى على بعد الفارق بين واقع الأمر في عالم الغرب وعالم الإسلام • ذلك هو القول بان الفكر الغربي لم ينجح في أن ينفض عنه الخمول الذي نشره طغيان الفكر اللاهوتي على الروح الغربية ، وان الحضارة الغربية لم تعرف طريق النهضة إلا بعد أن حطمت قيود الكنيسة التي فرضتها على الفكر ، وتخلصت من استبداد رجال الدين الذين حبسوا العقلية الغربية داخل نطاق التعاليم المسيحية الروحية التي تخالف اتجاهات الغرب •

هـذا القول يجري طرحـه في أفق الفكر الإسلامي عن طريق التغريبيين والمستشرقين ، كما أنه يخدع أهل الأصالة ، فما أبعد الفارق بين مفهوم الإسلام ومفهوم الأديان ، بـين روح الإسلام التي أعطت التحرر من العبودية والوثنية ، وقدمت للبشرية أصول المنهج التجريبي الذي صنع حضارة الغرب الحديثة ، وبين تلك الصورة التي كـانت تعيشها أوروبا قبل أن تلتقي بالقيم الإسلامية التي أحدثت النهضـة ، وحررتها من الأغلال •

ولا ريب أن هذه الصورة لا تصلح للتطبيق على الفكر الإسلامي، ولا تخدع أحدا في أن يتصور أن الإسلام شبيه بذلك فيما يدعو إليه بعض الناس ، ذلك أن الإسلام ليس دين عبادة ، ولكنه دين عبادة ونظام مجتمع في آن واحد ، وأن التفسيرات المغلوطة التي قدمت للغرب هي التي أدت به إلى الخمول والزهادة والرهبانية ، وأخرجته من مفهوم الدين الحق ، هذه التفسيرات قد عجزت أن تتصل بالإسلام الذي حفظ الله كتابه ونصه الموثق على نحو جعله غضا طريا ، كأنه نزل من السماء اليوم ، وأن مفهوم الدين الحق ـ كما جاء به الاسلام ـ قد علم الإنسان مهمته في الحياة ومسؤوليته واعطاه حرية الإرادة ، وشجب الوساطة بين الله والناس ، وأقام نظاما قوامه : « لا إكراه في الدين » [البقرة : ٢٥٦] « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

هذا المفهوم يجعل الفارق بعيدا بين التحدي الذي واجه الغرب إزاء المسيحية وبين التوافق الذي يجده العالم الاسلامي إزاء الإسلام على النحو الذي يجعل المقارنة غير صحيحة والموقف متباينا . ذلك أن الإسلام بمفهوم الدين الحق لم يكن قيدا على الفكر أو حصارا للامم أو تحديا للمجتمعات أو حصرا لها في إطار الخمول والجمود ، بل إن الاسلام نفسه هو الذي حرر الانسان من عبودية غير الله من البشر أو الأحجار ، ثم هو الذي دفعه إلى النظر في الكون والتجريب ، وإلى فهم حرية الإرادة ومسؤوليتها وجزاءها في نفس الوقت .

ولكن لماذا يحرص النفوذ الأجنبي على طرح هذه المفاهيم المضلة في أفق الإسلام ويخدع بها المسلمين ؟ لا ريب أن الهدف هو إفساد عقيدة المسلمين في دينهم وتاريخهم وقيمهم التي أقاموا عليها بناء حضارتهم منذ أربعة عشر قرنا ، والتي كانت العاصمة لهم من كل التحديات والأخطار .

إن أهم نكبة أصابت المسلمين في العصر الحاضر هي محاولة الاستشراق والغزو الفكري خلق شعور بالنقص وترويج إحساس يتهم المسلمين بالتخلف وغشهم وخداعهم عن طريق التقدم الحقيقي بدعوى ان طريق التقدم هو التقليد الأعمى لما جاء بـه الغرب المسيحي المادي ـ وتلك صنعته الحقيقة اليوم ـ من آراء ونظريات وأيديولوجيات هي نفسها من نتاج مشاكله وتحدياتـه ، وهي ما زالت عاجزة عن أن تقدم له علاج أدوائه •

مع أن حقيقة الأمر أن تخلف المسلمين إنما يرجع إلى التماسهم منهجا غريبا عنهم ، وترك منهجهم الأصيل ، وطريق النجاة الوحيد •

وإن أي محاولة للنهوض من خارج نطاق منهجهم القرآني الرباني هي محاولة باطلة وفاشلة ، ولن تحقق شيئاً •

وعلى المسلمين أن يلتمسوا وسائل التقدم العلمي والتكنولوجيا ولكن عليهم أن يديروه داخل لغتهم وفكرهم ومعتقداتهم ، وأن يصنعوا منها منهجا اسلاميا ربانيا ، يختلف مع المنهج المادي الغربي الذي يسوق البشرية إلى الدمار •

ولعل من أخطر أهداف التغريب والغزو الثقافي العمل على انتقاص التراث الإسلامي ومحاولة إثارة الشبهات حوله ، ومحاولته طمس معالم التاريخ الاسلامي ومجد الماضي العريق إيمانا بأن إحياء مجد التاريخ هو مصدر الانبعاث والتجدد في الأمم ، فهم يحولون بين المسلمين وبين تاريخهم الصحيح ، بتلك التفسيرات المسمومة التي يسوقونها ، بينما لا يمكن تفسير التاريخ الإسلامي إلا وفق منهج التفسير الأصيل •

ولقد كان من عمل التغريب والغزو الثقافي إلى جانب التفسير الفاسد لتاريخ الإسلام ، محاولة تقديم الجوانب السلبية منه ، وحجب جوانب القوة والنماء ، وقد أعانهم على ذلك امتلاك قدر كبير من كتب

التراث الإسلامية في مكتباتهم وجامعاتهم ، فهم حريصون كل الحرص على إحياء أسباب الخلاف والنزاع ، وتاريخ الفرق ، وخاصة الضالة منها والمنحرفة والدعوات الهدامة .

لقد حرص النفوذ الأجنبي على السيطرة على هذا التراث والتسلط عليه ،فقد أحرق في ساحات غرناطة وبين أيدي الصليبيين في الشام ، وأغرق بيد التتار في دجلة ، وما سلم منه نقله المستعمرون إلى أوربا ، ولكي نتعرف على مدى سعة هذا التراث وعظمته،فلنذكر قول طاشكبري زاده فيكتابه « مفتاح السعادة » حين قال : ان العرب قد كتبوا في ستة عشر وثلاثمائة علم .

ولقد كشف التغريب عن هدفـه من حرب التراث بانه يعمل على تفتيت وحدة الفكر الاسلامي ، وتوهينالقيم الإسلامية ، وإثارة الخلافات بين الشعوب الإسلامية والعربية ، ووضع اسفين ضخم بين عناصر الامة الإسلامية ، وبعثرةالقوى التي تجمعها وحدة الفكر وتضليلها عن حقيقة وجودها .

ولقد كان الاستشراق حريصاً على البحث عن الثغرات في التراث الإسلامي ونقاط الضعف وإذاعتها ، وكان حريصاً على محاربة الاتجاه الصحيح في تقييم التراث والكشف عن جوانبه البناءة ، لأنه سيحطم خطط الغزو ، ويحمل المسلمين إلى الطريق الصحيح . ذلك أن الهدف من دراسة التراث بواسطة الاستشراق والتغريب ، إنما هي تفريق الصف وتمزيق الوحدة وإثارة الشكوك .

ومن هنا كانت محاولة البحث عن الفساق والمجان والملاحـدة والمعطلة وغيرهم من الفرق الضالة .

والواقع أن أي نهضة في محيط العرب والمسلمين لابد أن تنبع

من الميراث والتراث ، وأن كل نهضة تقوم على خصومة التراث أو بدونه لا تستطيع النمو والحياة والامتداد ، ولقد كان دعاة الإسلام وقادة حركة اليقظة منتبهين تماما إلى الوقوف في وجه أمرين :

الأول : الاتجاهات المعادية للفكر الإسلامي ، سواء في الشرق أو في الغرب ، ووقوفهــا موقف العداوة والبغضاء منها ، وقد عاش دعاة الإسلام يجالدونها أشد مجالدة ، ويجاهدونها أعنف جهاد ، ويكشفون زيفها ، ويفرقون بين الفكر الرباني القرآني الأصيل وبين الفكر البشري الزائف القائم على الوثنية والماديــة .

الثاني : الحذر من الإسرائيليات التي تسربت إلى كتب التفسير والتاريــخ ، فشوهت الصفحات الوضاءة ، فضلا عن ذلك القــدر من الأساطير الذي تدفق على كتب الملاحم والمغازي ، فالتبس فيهــا الحق بالباطل ، والواقع بالخرافات ، وقد سجل الامام أحمد بن حنبل حكمه الدامغ في هذا المجال حين قال : ثلاثة لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي ، أي : أنها ليست ذات أسانيد صحيحة متصلة .

وبعد فان تاريخنا في بساطته ويسره أعظم قوة نعتصم بها ، وهو ليس محتاجا إلى زيف أو زيادة من الخيال أو الوهم ، وان عقيدتنــا قادرة دون أضافات إلى العطاء الثر المتصل للنفس الاسلاميــة والعقل الاسلامي معــاً .

فما أحرانا أن نكون قادرين دائما على مواجهة هذه المحاولات المسمومة التي يثيرها الاستشراق والتغريب والغزو الفكري في محاولة لوضع الفكر الاسلامي القائم على التوحيد موضع الحكم والتشبيه والتفسير بمذاهب دخيلة وافدة .

وما أحرانا أن نثبت على مناهجنا القائمة على الأصالة والتفسير الصحيح لمعطيات الإسلام ووقائع التاريخ وتقويم التراث .

الباب الثالث عشر

التحدّيات في وجه الوحدة الإسلاميّة

أولاً : الوحدة الاسلامية من الأسلوب الوافد إلى الاسلوب الاصيل

ثانياً : محاولات التقارب والحوار

الفصل الأول

الوحدة الإسلامية
من الأسلوب الوافد إلى الأسلوب الأصيل

كان العرب في مستهل دعوتهم الموحدة في القرن الماضي لا يعرفون إلا رابطة الدولة الاسلامية الجامعة التي كانت تحمل اللواء في مواجهة حركات الغزو الاستعماري ، وهي الدولة العثمانية التي كانت تجمع بين العرب والترك تحت قيادة تركية ، مع قيام الحكم الذاتي في مختلف الأقطار العربية .

وحتى نهاية حكم السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ كان الموقف له طابعه الخاص ومفاهيمه العامة .

أما ما جاء بعد ذلك في ظل حكم الاتحاديين ، فإنه تأتي بسبب مفاهيم جديدة ، ذلك أن قيام الاتحاديين بعد إسقاط السلطان عبد الحميد إنما كان يعني أن القوة التي شكلها النفوذ الغربي لتحمل لواء هدم الوحدة الإسلامية وإقامة عديد من أنظمة الإقليميات والدعوات القومية الضيقة ، إنما كانت قد بلغت قدرتها واستطاعت أن تنقل هذه الدعوة إلى مجال التنفيذ .

ولقد تعالت الدعوة إلى « الطورانية » في الدولة العثمانية في هذا الوقت كبديل للوحدة الإسلامية التي كان يحمل لواءها السلطان عبد الحميد ، ولما أخذ الاتحاديون في تنفيذ الطورانية وتتريك العرب لغة

وتعليماً وقضاء ، كان ذلك أول الانشقاق والخلاف الذي دعا العرب إلى حمل لواء الدعوة إلى العروبة لحماية كيانهم من الانصهار في بوتقة دعوة ، تتخذ من تاريخ الطوران القديم دليلا لها ومثلاً ، وتحاول أن تقضي على تاريخ الإسلام والدور الذي قام به في الترابط بين العناصر التركية والعربية ، وكان هذا هو هدف القوى الاستعمارية عن طريق التغريب والغزو الثقافي .

وهذه أول نقطة من نقط الافتراق بين الوحدة الإسلامية الجامعة، والاقليميات والدعوات القومية المتعصبة الضيقة .

ولكن العرب ـ بالرغم من الظروف التي فرضت عليهم للعمل في دائرة العروبة الجغرافية بعد تحول الدولة العثمانية إلى الدعوة العنصرية الطورانية في عهد حكام الاتحاد والترقي ـ كانوا لا يرون في هذا الاتجاه إلا حالة طارئة وضرورة مؤقتة ، فاذا ارتفع صوتهم بالعروبة ، فإنما هي العروبة الاسلامية أو العروبة في داخل إطار الإسلام ، أو العروبة الحامية للفكرة الإسلامية دون أن يطرأ على فكرهم ذرة من شك أو شبهة في العروبة بناء إسلامي ، وكيان شكله الإسلام، وأن العرب هم مادة الإسلام ، وأنه لولا الاسلام لما كان للعرب كيان قط .

وكانوا يفهمون أن الوحدة العربية التي يدعون إليها هي حلقة من حلقات الجامعة الإسلامية ، وأن ترابط العرب وتجمعهم هو ضرورة يقتضيها الوقوف في وجه الزحف الاستعماري الذي حطم قاعدتهم الإسلامية ووحدتهم الكبرى ، وأنهم عن طريق هذا التجمع العربي يعدون أنفسهم للعودة إلى الوحدة الإسلامية .

ولقد كانت مفاهيم ذلك الرعيل الأول الذي عايش هذه الفترة منذ ذلك الوقت وحتى انتهاء الحرب العالمية الاولى « ١٩٠٩ ـ ١٩١٨» من أمثال رشيد رضاء وعبد العزيز جاويش ، ومحمد فريد ، وشكيب

أرسلان ، ومحب الدين الخطيب وغيرهم ـــ على اختلاف فيما بينهم ـــ هي أن العروبة شطر الوحدة الاسلامية ومكمل لها ومستمد منها ، هذا المعنى الذي ظل حياً في أقلام كل المفكرين العرب المسلمين حتى بعد أن طرحت الدعوات التغريبية مفهومها الزائف للقومية الذي استمد مفهومه من التجربة الغربية ـــ تجربة إيطاليا وألمانيا وفرنسا ـــ •

ويمكن القول : إنه خلال فترة ما بين الحربين « ١٩١٩ ـــ ١٩٣٩م» كان مفهوم العروبة ما زال متصلا ومترابطاً بمفهوم الإسلام غير منفصل عنه ، على نحو يمكن أن يقال بأن الدعوة إلى العروبة إنما تعني قيام اتحاد بين الدول العربية من شأنه أن يزيل حاجز الإقليمية الذي فرضه الاحتلال ، وحاول به أن يفصل بين الأمة الواحدة في كيانات ضيقة وتعميق هذه الفواصل حتى لا تعود إلى الإلتقاء في الوحدة العربية التي هي بالطبع مقدمة للوحدة الإسلامية •

ولقد كانت فلسطين واتساع حركة استيطان اليهود كلها مـــن العوامل الهامة في إرتفاع الصوت العربي ، ذلك لأن الصهيونية حاولت ـــ وما زالت تحاول ـــ أن تقهر الإسلام والعالم الإسلامي مـــن خلال إطار العروبة ، والأمة العربية ، واللغة العربية والدول العربية المواجهة لفلسطين المحتلـــة •

ومن هنا كان لا بد أن يرتفع الصوت باسم العروبة ••

غير أن المؤامرة التي فرضت على هذا المفهوم العربي الذي اضطر العرب إليه سقوط الكيان الاسلامي الذي كان موحداً لهم ، وهو دولة الخلافة ، ومحاولة إيجاد كيان بديل في دائرة أصغر ، هي دائرة البلاد العربيـــة •

هذه المؤامرة كانت تحاول أن تعلي من مفهوم العروبة لتنحرف به إلى مفهوم القوميات العربية •

ومن هنا بدأت تذكي حوله نار العنصرية والعصبية والاستعلاء بالتاريخ القديم السابق للاسلام ، وبإثارة الخلافات بين العرب وجيرانهم المسلمين وإيجاد الشحناء والخصومة وإثارة الاحقاد ، كل هذا كان خروجاً بمفهوم العروبة عن دائرته الإسلامية المرنة ، السمحة التي تقوم على أساس الالتقاء مع الأجزاء الإسلامية والترابط منها بحكم عوامل الثقافة والوجدان والعقيدة أولا ، ثم بحكم التراث والتاريخ المشترك ثانياً ، ثم بحكم عوامل الجغرافيا والجوار والتعامل الاقتصادي ثالثاً •

وهذا كله هو ما قصد الاستعمار — عن طريق الاستشراق والتبشير وعن طريق الصحافة والثقافة والمدرسة — اثارته في النفس العربية حجباً لها عن كيانها الأصيل ومفهومها الكامل ، ورابطتها الإسلامية الجامعة ، وكأنما أراد أن تكون القومية بديلا نهائياً للوحدة الإسلامية التي لم تكن الوحدة العربية منها إلا مرحلة مؤقتة •

هذا ما حاولت الدعوات الزائفة التي حملت اسم القومية إثارته ، وبه خدمت عمليات الاستعمار القديمة والمتصلة في تمزيق هذه الأمة الإسلامية والحيلولة دون التقائها في وحدتها الفكرية والاجتماعية الكاملة •

وكانت الرابطة الإسلامية قد علا صوتها قبيل الحرب العالمية الثانية نتيجة الوعي الإسلامي القوي الذي كان ذائعاً في البلاد العربية ، وكان لأزمة فلسطين أثرها ، ثم كان لظهور دولة باكستان واستقلال سوريا أثر آخر ، ثم كانت الدولة الاندونيسية أيضاً عاملا أضيف إلى هذه العوامل ، وكانت لأم القرى وما تحمله من دعوة التوحيد المتجددة أثر أي أثر في بروز هذا الكيان الإسلامي الذي أوشك أن يحقق بعض نتائجه المرجوة في طريق الوحدة الاسلامية •

غير أن الاستعمار لم يلبث أن أعادها جذعة ، فأعلى من جـديد صوت الاقليميات والقوميات الضيقة ، ملبسة بروح العنصرية والصراع واستعلاء المفهوم القومي الوافد المتشبع بالعروبة ، وكأنها كيان عنصري معاد لما حوله ، قائم على مفهوم الحاضر وجوه ، حتى بدأ وكأنه يحجب تماماً ذلك التاريخ المتصل بالامة العربية في حركتها الممتدة منذ انفصلت عن الحركة الطورانية الاتحادية ، وهي تقيم فكرها العربي في إطـار الإسلام ، كمابدا كأنه يحجب تماماً ذلك الفكر الاسلامي في مفاهيمه الاجتماعية والسياسية وشريعته وأخلاقياته واستبدال ذلك كله بفكر غربي علماني المظهر ، ولكنه مادي المضمون ، ينقل الى العالم الاسلامي طوابع وأساليب ونظما تتعارض تماماً مع قيمه وذاتيته ومفاهيمه ، وكانما يراد بالقومية على هذا المعنى الوافد أن تنتزع العرب من تاريخهـم وماضيهم وعقيدتهم لتجعلهم صرعى في البوتقة الكبرى للعالمية : وحتى يمكن احتواؤهم فيذوبوا في كيان الامم •

غير أن هذه الأزمة وإن طالت ، إلا أن فكرتها الوافدة لم تجـد في النفس العربية والعقل العربي ــ وهما إسلاميان ــ أصلا وقراراً ، لم تجد تقبلا حقيقياً ، بل وجدت معارضة دائبة ، ولقد تبين بعد لأي أنها كالبذر تبتلعه الأرض ، ثم لا ينبت ، وكان شأن المفهوم القـومي الوافد شأن كل ما قدمه الغرب من نظريات ، ربما بدا في أول الأمر أنها متقبلة ، غير انها مع الممارسة يثبت زيفها •

ولقد استطاع هذا المفهوم الوافد الذي طرح أن يجد من الدعاة والورق والأصوات العالية ما لقي ، غير أن ذلك كله لم يستطع أن يزحزح العرب خطوة واحدة عما يضاد فطرتهم ، وما يناقض مفهومهم الاصيل للعروبة باعتبارها ذات إطار إسلامي من حيث الإمتداد الجغرافي مع عالم الإسلام كله ، وباعتبارها ذات مضمون إسـلامي من حيث الامتداد

الفكري والروحي والثقافي والعقائدي مع الاسلام نفسه على مدىأربعة عشر قرناً ، ومن خلال اللغة العربية ، والشريعة الإسلامية ، ومن خلال القرآن نفسه .

وقد وجد المفهوم الغربي المطروح للقومية ما وجدته النمـــاذج السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية التي طرحها الغرب على مدى هذا التاريخ الطويل ، من فشل وتراجع ، إزاء أصالة الأمة العربية ذات المصدر القرآني الإسلامي حيث نجدها سرعان ما تحررت من هذه القيود ، وحطمتها بعد أن كشفت نكسة ١٩٦٧ أنه من الضروري عـلى الأمة العربية أن تلتمس طريقها الأصيل ، ولقد صاحبها الفشل والنكبة والهزيمة عندما التمست الأسلوب الوافد ، وظنت أنه الطريق الـذي يؤدي إلى النصر ، ولقد كان اتجاه العرب إلى الأسلوب الصحيح بعد ذلك في الالتقاء بالمفهوم العربي الاسلامي الذي تحمله دعوة التضامن الإسلامي هو الدليل على أنه وجد الطريق الصحيح .

* * *

الفصل الثاني

محاولات التقارب والحوار

١ ـ في « ٢١ ابريل ١٩٧٣ » كتبت جريدة لوموند بأحرف كبيرة هذا العنوان على رأس مقال هام من مقالاتها ، وجاء في مقدمة المقال من بين جميع المواضيع العديدة المنوعة التي عرضت على البابا كجدول أعمال المجلس البابوي لعام ١٩٧٤ الذي سيعقد في روما اختار هذا الموضوع بالذات : آفاق ٢٠٠٠ لتمسيح العالم المعاصر ، وهناك خريطة وإحصائيات لآفاق عام ٢٠٠٠ مسيحية ، وهناك عنوان آخر « المسيحية تنزلق إلى الجنوب » ويقول : ان نسبة المسيحيين في الجنوب أي في افريقيا وجنوب شرقي آسيا بصفة أخص ستكون أكثر مما هي في أوروبا، هذه الإحصائيات وهذه الآفاق والتقديرات يعطونها بكل صراحة ، وتنتشر ، ولا تكذب حتى الآن من طرف روما ، ولم يعلق عليها بشيء وهذا يعني أنها صحيحة وجادة •

نقلنا هذا النص من كتاب « ابنة وأصالة » للاستاذ مولود قاسم وزير التعليم الأصلي الجزائري ، وهو منقول من الوثائق الرسمية لحكومة الجزائر التي تواجه الغرب مباشرة ، وتتصل بكل دقائق التحركات الفكرية والدينية في فرنسا وإيطاليا وأوروبا جملة وتراقبها •

٢ ــ فإذا أضفنا إلى هــذا ما نشرته جريــدة الصليب في فرنسا عام ١٩٧١ من أن الذين تسحوا في المدة الاخيرة في اندونيسيا مــن عام ١٩٤٧ أي منذ استرجاع الاستقلال حتى الآن أحد عشر مليونا •
وقالت : إنه بعد عودة البابا من اندونيسيا والفيلبين فإنهــم يركزون بالدرجة الاولى على اندونيسيا كما يركزون على بنغلاديش كما يركزون على أفريقيا : جنوبهــا ، وشمالهــا ، وشرقها ، وغربهــا ، ووسطها ، وحواشيها •

إذا أضفناهذه الوثيقة أيضاً ــ وهي مما أورده مولود قاسم ــ يبين لنا أبعاد الصورة الخطيرة التي نواجهها في جنوب شرق آسيا •

٣ ــ وقد نشرت مجلة الاعتصام القاهرية بحثاً في هــذا الشأن تحت عنوان « مؤامرة على الإسلام في جنوب شرق آسيا » أشارت فيه إلى أن المؤامرة تستهدف المنطقة كلها « الفيلبين وأندونيسيا وماليزيا » وفي كل مــن المناطــق الثلاثــة اسلوب مختلف • وقد اشارت بعض التصريحات إلى ان زمناً لا يتجاوز العشر سنوات ، وأن الأسلوب الذي اتخذ في الفيلبين هو التصفية الدموية ، أما في اندونيسيا فهو التبشير المسيحي • وأما في تايلاند فهو أسلوب التــدمير الاقتصادي لكيــان المسلمين •

وعمليات التصفية الدموية في الفيلبين سائرة منذ ١٩٧٠ لم تتوقف، وما يراد باندونيسيا فان الأخبار تنقل منه ما يذهــل ويلهب النفوس الحية •

ولقد ترددت منــذ وقت أخبــار الحصــار الصليبي التبشــري لاندونيسيا منذ سقوط سوكارنو ، والدعم المادي الذي تقوم به دول ومؤسسات مختلفة لهذه الحركة مما يجعل بعض طوائف التبشير تطمع

في السيطرة على جاوة الشرقية « ٦٠ مليون مسلم » وإن هناك نشاطاً تبشيرياً واضحاً في جاوة الوسطى •

كتاب : واجبنا في اندونيسيا اليوم :

٤ ــ وهناك وثيقة هامة كشف عنها الملتقى الاسلامي في الجزائر، هو وجود مخطط واسع قام به مجلس الكنائس الاندونيسي ، وجعل عملية تنفيذه تمتد ما بين عشر سنوات وعشرين سنة هو كتاب « واجبنا في اندونيسيا اليوم » يضم هذا الكتاب البرامج والطرق والأساليب التي يمكن استعمالها كدليل ومرشد لشن حملة تبشير شاملة في اندونيسيا المسلمة •

وقد أشار التقرير الذي تلقته رابطة العالم الإسلامي إلى أن الفاتيكان قد عين كاردينالاً وواحداً وعشرين اسقفا للإبقاء على حركة هذه الإرساليات التبشيرية ونشاطها ، وإن الكنيسة الكاثوليكية قد شنت مؤخراً حملة واسعة في المناطق التي يكون بها المسلمون أكثرية سكانها ، وهي حملة مدعومة بقوى هائلة من السند والعون الماديين والماليين في البلاد الغربية ، وقد اتسعت على أثر ذلك نشاطات الإرساليات التبشيرية البروتستانتية أيضاً ، وأسرعت إلى بناء العديد من المدارس والمستشفيات والكنائس •

ومن النتائج التي تتصل بهذه الظاهرة ما يلاحظه المتخصصون والمراقبون من أن حملة التبشير في أندونيسيا اليوم وبعد الاستقلال أقوى مما كانت في إبان الاحتلال الهولندي ، والثانية أن حركة التنصير في اندونيسيا وجنوب شرق آسيا ليست حدثاً منعزلاً بل جزءاً من حركة أوسع ، هدفها النهائي تنصير العالم بأكمله •

والمعروف أن هناك إدارة في الفاتيكان خاصة بتنصير المسلمين ،

والمسؤول عن هذا القسم هو الكردينال كوينغ كوتج ، وقد أشـار السيد مولود قاسم في بعض كتاباته إلى أنه لمس عن قرب ما يهدفون إليه وقال :أنهم يركزون على ما يسمونه بالاطارات بدرجـة خاصة ، وبدرجة أخص على الطالبات وعلى المعلمـات والاستاذات والموظفات والمرأة عموماً . وهدفهم هو تخريب الاسرة ، وهذه هي عبارته .

٥ — ويستعيد الوزير الجزائري ذكريات الماضي المريرة ، فيشير إلى أول عمل قامت فرنسا به عند احتلال الجزائر وهو احتلال « جامع كيشاوه » وتحويله إلى كنيسة منذ يوم ٥ يوليو ١٨٨٠ ،وقد وضعت خطة اشترك فيها نابليون الثالث أمبراطور فرنسا الذي كلف الكردينـال لافيجري بتوسيع وتطوير جامع كيشاوه بعد تحويله ، وأهداه أشياء كثيرة من مال وأثاث ، كما ساهم البابا غريغوار السادس عشر مساهمة مباشرة في تهجير هذه الكاتدرائية ، وتولاها لافيجري ربع قرن ، وهو الذي استغل مجاعة عام ١٨٦٦ في الجزائر لتمسيح كثـير من اليتامى الجزائريين الذين كانوا مشردين ضائعين ، وما تزال هناك محطـات إذاعة تبشيرية في مرسيليا وموناكو بالعربية والدارجة ، تسمع في الجزائر والمغرب وتونس ، وما تزال منشورات كثيرة ترسل إلى الطلبة والطالبات بالدرجـة الأولى .

٦ — وفي السنوات الأخيرة عقدت مؤتمرات مختلفة في بـيروت ١٩٧٣ وفي تونس ، وفي قرطبة تحت اسم محاولات التقارب بين الأديان في مواجهة الإلحاد والشيوعية ، وقد كشف مندوبو الجزائر وتونس عن وجهة نظر أصيلة حين طالبوا الجانب الآخر بالتوقف نهائياً عن عمليات التبشـير كشرط أساسي لقيام تقارب ، أو التقاء على هدف واجهـة الأخطار التي تهدد الأديان ، وفي مقدمتهـا الصهيونية والشيوعيـة والالحاد ، وأشار الدكتور عبد الجليل التميمي إلى أن التبشير ما يزال

يقف حائلا دون حسن نية الجهات الراغبة في التقارب ، وما تزال آثار الدامية والقريبة موجودة في كل مكان في شمال افريقيا •

٧ — وما تزال أعمال المبشرين واضحة في مختلف الدراسات والابحاث التي تقدم إلى المسلمين، وهي حافلة بالتعصب والحقد والهوى والانتقاص والاحتقار ، فكيف يمكن أن يقوم مثل هذا التقارب من جهة ما تزال تصر على الاعتداء ؟ • وما تزال ترسم الخطط لمستقبل بعيد في تمسيح المسلمين أو تمسيح الإسلام نفسه ، وذلك بإخراجه عن أصوله الأصيلة إلى مفاهيم المسيحية ، وذلك بالقول بأن الاسلام دين عبادة ، و لاصلة له بالمجتمع أو الشريعة أو نظام الحكم ، هذه هي أولى السموم واشدها فتكا بعالم الإسلام ، والتي حملها معه الفكر الغربي عن طريق التبشير والإستشراق والتغريب •

كذلك فإن المناهج التي تدرس في الإرساليات تحوي كلها محاولات هامة لتمسيح الإسلام ، وذلك عن طريق فصله عن السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية •

وكذلك فيما يتعلق بفرض المناهج المادية في تفسير التاريخ والبطولة والنبوة ، والغيب ، وكلها مفاهيم يحاول طرحها في أفق الاسلام لإخراجه من تكامله وجماعيته وآفاقه الواسعة وحصره في محيط الانشطارية الغربية استهدافا للقضاء على رسالته وغايته واستقطابه في الفكر العالمي واحتوائه وصهره في بوتقة الفكر البشري الزائف ، ومن دعوات تمسيح الاسلام : القاديانية والاحمدية والبهائية ، وكلها تنزع عرف الإسلام ، وهو الجهاد ، كذلك فإن هناك ذلك المفهوم القائم في نفوس دعاة التبشير والذي يستهدف أساساً إخراج المسلم من الإسلام إلى الإلحاد أو الشيوعية أو غيرها ، وليس لإدخاله في المسيحية ، وقد

أشار الدكتور زويمر إلى حركة التبشير الأول إلى هذا المعنى حين قال : لا نقصد بنشاطنا التبشيري لدى المسلمين أن نجعل منهم مسيحيين بالضرورة ، بل هدفنا بالدرجة الأولى هو أن نجعلهم مذبذبين ، وأن نزعزع عقيدتهم ، وان نفقدهم ثقتهم بأنفسهم ، ونضعف تمسكهم بدينهم ونشككهم في أصالتهم بحيث يصبحون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فيخسرهم الاسلام ، وإن لم تكسبهم المسيحية .

فهذه أهداف واضحة مستمرة ممتدة ، نرى مظاهرها في أحداث الخاضر والمستقبل وندرسها منفصلة عن جذورها .

- ١٤٠٠ قس ومبشر ، أخرجهم عيدي أمين من أوغندا .
- السفينة لوغوس في مياه الكويت .
- معاهدة بين اندونيسيا وهيئة المعونات الكاثوليكية « ٩ملايين من الدولارات خلال ثلاث سنوات » .
- معاهدة جنوب السودان .

٨ — ونجد التركيز على جنوب شرق آسيا واضحاً ، ونجد التركيز على قلب أفريقيا واضحاً أيضاً ، فهاتان المنطقتان ، هما الطريق إلى مستقبل الإسلام ، فلا بد ان تبذل الجهود لتنصيرهما ، وفي أفريقيا ١٠ آلاف ارسالية تبشيرية بخلاف ١٦ ألف منظمة ، وخمسة ملايين ونصف يعملون لحساب هذه المنظمات ،.و٥٠٠ معهد تعليمي للمبشرين و ٤٩٨ كلية لتعليم المسيحيين ، ١٩١٢ دار لرعاية الأطفال ، ويبلغ عدد أبناء المسلمين الذين يشرف المبشرون على تعليمهم ٦ ملايين ، وعدد المستشفيات التابعة للإرساليات ما يقرب من الألف .

وفي جنوب السودان وبيافرا والكامرون صور متعددة لمعنى واحد، وقد قيل : إن ما رصده بابا روما لخدمة أغراض التبشير في البلاد

الإسلامية بلغ « ٥٠٠ » مليون دولار ، هذا بالاضافة إلى ما تنفقـــه الهيئات الأخرى •

٩ ــ ومع ذلك فنحن نقرأ : إن روما تستنجد بمكة لإنقاذهـا ن الكارثة حتى لا يسقط الحصن الأول للمسيحية في العالـم ثمرة ناضجة في أيدي الشيوعيين والأحزاب اليسارية ، وفي عام ١٩٢٦ تـم الاتفاق بين الدولة الايطالية والفاتيكان بعد خلاف استمر أكثر مـن مائة عام ، ودفعت ايطاليا للفاتيكان حصتها التي كانت مدخرة ، وتبلغ ملايين الجنيهات ، وسرعان ما أدلت جهات رسمية بتصريحات أن هذا المبلغ سينفق أغلبه في المشرق على التبشير ، وسرعان ما ظهرت حركـة ١٩٣٠ في مصر المعروفة التي جرت محاولات التنصير فيها بالتنويـــم المغناطيسي ووسائل أخرى ، ووقف عبد القادر الحسيني خريج الجامعة الاميركية ليعلن أن هذه المؤسسة تعلم طلبتها حرب الإسلام •

١٠ ــ وفي السنوات الاخيرة كانت هناك محاولات لزيادة اعتماد كبرى الارساليات التبشيرية في بيروت ، وقال المدافعون عنها : إن دورها كان هاما في بقاء إسرائيل ، وفي العقيدة التي يعتنقها عدد كبير من رجال البلاد العربية الذين تعلموا بها ، وهي عقيدة ود وصداقة بين المسيحية والصهيونية والديمقراطية الغربية ، ولا بأس أن يتكشف بعد ذلك أن هناك جذورا عميقة بين الصهيونية والشيوعية ، وأن الأولى صانعـة الأخرى وأن هناك محاولات خطيرة لتهويد المسيحية واحتوائها بعد أن احتوت اليهودية التلمودية الصهيونية الفكر الغربي كله •

١١ ــ وبذلك نجد أن كل محاولات التبشير المسيحي الحاليـة محتواة لحساب الصهيونية العالمية ، وأن هناك جذورا عميقة واضحة لذلك ، فكيف يمكن أن تبدو على السطح فكرة الحوار التي تحـاول

أن تأخذ مكانها الآن بين بعض المفكرين من المسلمين والمسيحيين تحت علم « بيت المقدس » الذي يراد أن ينزع من أيدي الصهيونية العالمية .

والواقع أن هناك حلقة مفقودة غائبة يجب الكشف عنها وتوضيحها :

١٢ — وهي هل يمكن حقيقة إجراء حوار بين الإسلام والمسيحية، أو بين الإسلام والماركسية ، بينما نجد أن المسيحية والماركسية لا تقران بالنقطة الأولى في أي لقاء ، وهي أن الإسلام هو من عند الله ، وأنه خاتم رسالات السماء ، وأنه ليس دينا بشريا ، وأن منهجه الرباني المنزل بالوحي لا يمكن أن يقارن مع المناهج البشرية كالماركسية أو التفسيرات البشرية كالمسيحية .

ولذلك فليس غريبا أن يقول خيري الباز في جريدة (ديبا) الفرنسية : ان الغاية الأساسية من التقارب بين الكنائس المسيحية هو العمل على تحطيم الإسلام ، ويضاف إلى هذا أن محاولات التقارب إنما تريد أن تفهم أركان الدفاع في الإسلام للعمل على تشويهها وإثارة الشبهات حولها وتزييفها .

١٣ — ولا ريب أن هناك محاولات واسعة للتقارب بين اليهود والمسيحية ، وأهمها ذلك الربط العجيب الذي استطاعت الكنيسة البروتستانتية أن تقوم به في أميركا وانجلترا بين العهد القديم والعهد الجديد ، والإيمان بالهدف الذي رسمته التوراة بعد عهد السبي البابلي الذي يجعل وعد الله لإبراهيم قاصراً على ابنه اسحق دون ابنه الأكبر اسماعيل أبي العرب وجدّ محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعل هذا الوعد عنصرية يهودية على النحو الذي تقوم عليه فكرة الصهيونية الحديثة .

١٤ — ونرى في السنوات الاخيرة محاولات خطيرة تهدف إلى تمسيح الأدب والثقافة ، فتقول جريدةالنهار في أحد أعدادها تحت عنوان

« المسيح بعد غياب يملأ الادب العربي » ما يأتي : نزفُ البشرى بكتاب يسوع في زمانه لدانيال دربس : ان المسيح الذي كان غائبا عن الفكر العربي المعاصر عكس بقية الفلسفات والآداب بدأ يصير حاضرا فيـه ، ينفد كتاب نصري سلهب « في خطى المسيح » وكتاب « يسوع المسيح بالانجيل » و «الايقونة» لغسان تويني،ويوسف الخال،ها هو الاب حبيب يونس ينقل كتاب دانيال دربس الضخم ، ويتصل هذا بالمحاولة التي كان يقودها يوسف الخال وجماعته في محاولة خلق شعر عربي له مفاهيم مستمدة من التوراة والإنجيل ، متعارض مع مفاهيم الإسلام ، والتي سار فيها عدد كبير من الشعراء المسلمين دون تنبه إلى مدى الخطر الذي كان يترصدهم والتي استوعبت أدونيس وغيره .

١٥ ـ بل ان كتاب نصري سلهب الآخر « في خطى محمد » قد كشفت الدراسات وجهه الحقيقي على أنه كتاب تبشيري محض يهدف إلى التبشير بالدين المسيحي تحت ستار الدفاع عن الإسلام ، واذا كان هذا الكتاب قد ضم في صفحاته الاولى تبجيلا وتعظيما للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه في الصفحات الأخـيرة كان يذخر بأكاذيب وافتراءات ترمي إلى القول بأن الاسلام والمسيحية توأمان ، ولا فرق بينهما ، فهو يحاول أن يطبق ما يعتقده المسيحيون في عيسى على محمد صلى الله عليه وسلم، فالمسيحيون يقولون بحلول اللاهوت في الناسوت، أي : أن الله ـ جل وعلا ـ قد حلّ في عيسى ، فيحاول أن يطبق هذا على الرسـول ، فيزعم أن الله ـ سبحانه ـ قد حل في جسم محمـد حيث يقول ما نصه : فالله ملأ عقل محمد وقلبه ، مـلأ خاطره ، مـلأ كيانه ، وهو ـ جل جلاله ـ في عروقه دم بشري » .

كذلك فإنه أخطأ حين قال : إن مقصد المسلمين في حروبهم كان المغانم ، وإن حروب المسلمين مع الروم لم يكن لنشر الإسلام ، وإنمـا هي خلافات سياسية أدت إلى نشوب الحرب بينهم .

١٦ ــ ولعل أعجب من هذا أن نجد من يتصدر للحكم على الفكر الإسلامي والأدب العربي ممن تقصر ثقافته عن فهم الإسلام واستيعابه ، وشأن هؤلاء شأن المستشرقين تماما ، ولقد تصدر عدد كبير من هؤلاء مجال الصحافة والأدب والثقافة ، وحملوا معهم أحقادهم وتعصبهم ، ومن ثم عجزوا عن أن يستوعبوا المفهوم الإســلامي للفكر والأدب جميعا ، وكانت آراؤهم قاصرة ، ولم يكن من الطبيعي أن يقودوا حركة الفكر أو الثقافة أو النهضة ، وإن الذين تابعوهم كانوا قاصري النظرة حيث لم يستطع الإسلام أن يملأ قلوبهم أو عقولهم ، ومن ذلك ما نراه من استعلاء موجات الكتابة التوراتية في عصر جبران ونعيمــة ، ومن سيطرة أمثال سلامة موسى ، ولويس عوض ، ومن تزعم ميشيل عفلق وأنطون سعادة وهكذا .

وبعد فانه يمكن القول : إنوراء محاولات التقارب والحوار خطة واضحة لتمسيح العالم المعاصر ، وإن الخطة محتواة للصهيونية العالمية ، هذا ما أرجوا أن نواصل البحث فيه .

الباب الرابع عشر

تصحيح المفاهيم



الفصل الأول

تصحيح المفاهيم في حركة اليقظة العربية

رجوت أن تلتفت حركة اليقظة في هذه السنوات الباقية من القرن الرابع عشر الهجري إلى قضية هامة جدخطيرة ، ألا وهي تنقية الفكر الإســلامي من الشوائب التي أثارتها العصبيات والنعرات الطائفيــة ، وأذكتها المحاولات الشعوبية ، وتصحيح مادسه التغريب والاستشراق في تاريخ العرب والاسلام من سموم ، فقد استغل المستعمرون أسباب الفرقة بين المسلمين أسوأ استغلال ، وراحو يبعثون من قبور التاريخ أســباب الفرقة والبغضاء ، وينفخون في نار قد خمد أوارها منذ زمن بعيــد .

لقد بدأ الغزو الثقافي من نقطة الدين ، وتقسيم العلوم إلى دينية ودنيوية ، واستهدف بذلك تمزيق وحدة الفكر الإسلامي ، والقول بأن العلوم الدينية هي التي أعطت صفة الجمود ، وإطلاق كلمة « ديني » على كل ما يتصل بالإسلام .

هذه النقطة هي التي أعطت كـل المفاهيم ذلك الخطأ الواضح المستمر المتصل في مفاهيم التاريخ والثقافة ، والهدف هو فصل الدين عن المجتمع ، وفصل الأخلاق عن السياسة ، وجعلها علاقة « لاهوتية »

خالصة . بينما جاء الإسلام منهاجا متكاملا ، جامعا بين الروح والمادة ، والعلم والدين ، والعقل والجسم ، والدنيا والآخرة ، وكان هذا هـو أخطر منطلق لدعوة التغريب .

وقد غاب عن أهلينا وأخوتنا أن لأمتنا الاسلامية منهج حياة ونظام مجتمع ، يدعوها إلى أن تتحرر من التبعية الاجتماعية والثقافية للفكر الغربي ، ويطالبها بأن تعرف ذاتها ، وتؤكد وجودها ، إن لنا ــ نحن المسلمين ــ نظرة أصيلـة في الاجتماع والنفس والتربيـة والأخلاق والاقتصاد ، علينا أن نعرض عليها الفكر الوافد ، فننظر في هذا الفكر على أنه يخص الآخرين ، وانه مستمد من بيئتهم ، وعلينـا أن نقف في ضوء أصول فكرنا لا نستسلم للأضواء ولا للانصهار في بوتقة الفكر الأممي أو العالمي .

ولقد كان الفكر الاسلامي قادرا دوما على الخروج من التبعيـة ، والتماس الأصالة ، والعودة إلى المنابع ، فهو لم يستسلم أبـدا خلال حياته الممتدة العريضـة للنظريات الوافدة ، ولم يقبلها أو يسلم بهـا تسليما مطلقا ، بل كان معها حاسما كريما في نفس الوقت ، فهو لم يرفض كـل ما قدم إليه ، ولكنه استصفى منه ما أضافه إلى كيانه ، ممـا لا يتعارض مع قاعدة التوحيد ، وتخلص مما يتعارض معه .

لقـد ظل الفكر الإسلامي دوما ، وجيـلا بعد جيل ، يواجـه النظريات الوافدة ، ويوضح وجهةنظره ، لا يتوقف عن المعارضـة ، ولا يتراجـع عن الاحتفاظ بذاتيته ، والانتفـاع بالأساليب والأطر والمتطلبات دون أن يقبل النظم والمناهج ، لأنه في غنى عنها ، ولأن لديه منهجه الأصيل .

إننا نطالب الآن بتقديم الفكر الاسلامي من منابعه وأصولـه ، خاليا من ذلك الركام المضطرب الذي اختلط به ، وعلينا تصفية هـذه الجوهرة المستمدة من القرآن والسنة من تلك الخلافات والمصارعات

والمصادمات ، التي خالطت نقاءه ، وتقديمه للأجيال الجديدة صافيا نقيا ، زبدة وعصارة ، وجوهرا خالصا ، ذلك التراث الذي صنعته عقول مؤمنة ونفوس مسلمة ،وقلوب صادقة ، وعيون انكبت عمرها على البحث والنظر واستخلاص الحقائق ، فهو في جوهره كل متصل ، لم ينفصل لا في فرقه المعاصرة ، ولا في مراحله المتصلة جيلا بعد جيل ، ذلك هو مطلب العصر .

إن حركة الأصالة المتجددة قد نمت شجرتها ، هذه الأصالة التي جعلت منهجها فهما قرآنيا ، لا فلسفيا ولا وجدانيا ، وإنها ثمرة المدرستين المحافظة والوافدة ، وثمرة ذلك النضال الطويل بين الولاء للتقليد القديم ، والولاء للتقليد الغربي .

إن حركة الأصالة الإسلامية لا تؤمن بما كانت تقول به المدارس السابقة ، التي لم تكن تعرف أبعاد حركة الغزو ، ولا المخططات التلمودية حين كانت تدعو إلى المزج بين الشرق والغرب ، أو القديم والجديد ، أو بين الماضي والحاضر ، ولكنها تؤمن بأن لهاأسسا أصيلة من منزج القرآن ، ترسم الطريق في عالم الفكر ، وفي ميدان الحضارة ، وفي مجال المجتمع ، وفي ضوء هذه الأسس تواجه النظريات والمذاهب والمناهج ، وتحاكمها في ضوء الإسلام .

إن لنا في كل مقومات الفكر أصولا ومفاهيم مرنة سمحة ، ذات أطر واسعة ، وذات ضوابط كريمة ، ولنا قيم في الدين واللغة والعقائد والتربية ، ولنا مفهوم أساسي يربط العلم بالحضارة ، ويربط المعرفة بالتوحيد ، ويربط الفكر بالإيمان .

ليس التمسك بالقديم وحده هو الحقيقة ففي القديم زيف كثير ، يحاول التغريبيون إحياءه اليوم ، وهو ليس من مفهومنا الأصيل ، وليس

التعصب للوافد هو الحق .

إن هناك ضوءاً كاشفا أمام القديم والوافد هو القرآن ، وأكبر شاراته هي التوحيد . وإن بين القديم والجديد صلة التاريخ والنماء والاتصال .

إن الحقيقة التي تقول : « إن الغرب يريد تغريب الشرق وصهره في حضارته ، ولذلك فهو لا يقره على نهضة فكرية مستقلة ، لأنه لا يريده أن يحيا ، بل يريد تجريده من كيانه ، حتى لا يصبح ندا ولا خصما » .

هذه الحقيقة يمكن اكتشافها بوضوح ، في تلاحق الأحداث يوما بعد يوم ، وإن كلمة الحق لتجري أحيانا على بعض الألسنة ، فتكون أشد وقعا من السهام . يقول ولفرد كانتول سميث : ما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدينين به شعورا بالعزة ، كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع ، وإن العربي لا يفهم الإسلام حق الفهم ، إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة ، تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا ، وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بتفكيره .

ومن هنا نعرف أن لكل أمة مميزاتها الخاصة في الأخلاق والعادات والتقاليد والآداب والذوق والروح ، وكلها أمور متميزة في كل أمة ، ولذلك فإنها تتباين وتختلف . وهي ترجع إلى عوامل ذاتية ، أبرزها العقائد مع الأخلاق ، وهي عميقة الجذور ، بحيث يصبح من المستحيل فرضها على الأمم ، أو نقلها من أمة إلى أخرى .

إن أخطر ما أعاده الغزو الفكري هو خلق العصبيات الإقليمية ، وتحويلها إلى كيانات وطنية ، فغدا أبناء كل وطن يقدسون وطنهم ، ويخصونه بالتمجيد ، ويجعلونه غاية الجهاد وقدس الأقداس ، أما

الدين فهو تابع للوطن وملحق به •

وقــد اشتدت العصبيات القوميــة ، حتى انقلبت لدى بعض الشعوب الإسلامية إلى دوافع داخلية وخارجية ، إلى مذاهب عقائدية ، فتجاوزت مرحلة الوحدة إلى العقيدة ، حتى أصبحت رابطة القومية هي العليا ، ومن شأن هذا أن يحجب إلى وقت طويل رابطة وحدة الفكر الإسلامي الجامع ، الذي يعين على الالتقاء الروحي والفكري •

إن المسلمين يؤمنون بوحدة الجنس البشري والإخاء الإنساني ، ويرون أن كل من اعتنق الإسلام هو وحده أمة ، وأن محاولة تمزيق المسلمين إلى عرب ومسلمين ، أو إلى وطنيات وإقليميات ، من شأنــه أن يؤخر وحدة المسلمين ، ويحول دون حل كثير من القضايا ، بل وينقد قضايا كثيرة حين يستعلي طابع العنصر والدم ، الذي جاء الإســلام للقضاء عليه ، ونحن نؤمن بأن المسلمين جميعا يلتقون على مفهــوم واحد جامع ، مصدره القرآن والسنة ، وأنهم بهذا المفهوم — شعوبا وقبائل — يلتقون على أساس التعارف والحب والإخاء ، أما الصورة التي عرفتها أوروبا لصراع القوميات ، فإنه مما لا يقره الإسلام ، ولا يتفق مع مفاهيمه الأصيلة ، إن العرب يؤمنون بأن امتدادهم في أرض الإسلام فكر وإخاء وصداقة ومودة ، ولا يرون لهم على المسلمين منــة و لاتميزاً غير ذلك الدور في حمل رسالة القرآن ، وكون هذه الأرض العربية هي التي خصها الله بظهور دعوته فيها ، وظهور نبيه منها ، ونزول قرآنه فيها ، وحيث يوجد فيها بيت الله الحرام ، ومساجده الثلاثة التي تشد إليها الرحال ، وهي : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد الرسول في يثرب •

لقد جاء الإسلام ليدعوا البشرية إلى نزع تعصب العنصريــة ، واستعلاء العرق ، وإقامة قانون جديد للتعامل ، هو التقوى والعمــل

الصالح ، الذي يميز الناس ويقدر منازلهم : « **لا فضل لأبيض على** أسود ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

ولذلك فإن من أسوإ التجارب تلك المحاولة التي فرضتها بعض المذاهب في المغالاة بالعروبة ، ونقلتها إلى مرتبة الدين والعقيدة ، تعريتها من روابطها العميقة بالإسلام ، والقول باللغة والتاريخ أساسا ، وما اللغة في العربية من شيء ، وإنما الفكر هو أساس اللغة ، ولم يكن من قبل للعرب تاريخ قبل الإسلام ، إلا ما كان مرتبطا بالحنيفية دين إبراهيم. وإنما هو الإسلام الذي صنع للعرب مجدهم وهويتهم ، ودفعهم إلى المجال العالمي .

إن عملية الاقليميات والقوميات الطبقية ، قد قيدت خطوات العمل لحل قضايا العالم الإسلامي وازماته ومعضلاته ، لأنها مكنت المستعمرين من إيقاع الفرقة والخلاف ، بما حال ويحول دون الالتقاء في الوجهة الواحدة ، ولم تأت عوامل الضغط وتأخير الحركة من طريق الاقليميات والقوميات وحده ، ولكن من طرق أخرى ، كأسلوب التعلم الغربي ، والقوانين الوافدة ، والعلمانية ، والاقتصاد الربوي وغيره ..

وستجد البشرية نفسها عائدة إليه طائعة أو كارهة ، لأنها لن تجد عنه بديلا بعد أن جربت عشرات المذاهب والدعوات والأيديولوجيات ، ولم تحقق ما طمعت فيه النفس من طمأنينة الروح .

ومن أجل هذا كله فإننا نتطلع في هذه المرحلة من ختام القرن الرابع عشر ومطالع القرن الخامس عشر الهجري ، إلى أن تقوى رسالة تصحيح المفاهيم ، وأن تكشف أمام العقل الإسلامي والنفس الإسلامية علامات الطريق إلى النهوض والتقدم الحقيقي ، على طريق الله تبارك وتعالى .

الفصل الثاني

تاريخ أبطال الإسلام ومحاولة تزييفه

كان من أكبر أعمال التغريب والغزو الثقافي في العصر الحديث طرح أرضية تاريخية وفكرية واسعة لإثارة الشبهات حول الإسلام ونبيه وتاريخه ودعوته وشريعته ، قام بها عدد ضخم من المستشرقين والمبشرين، وحرصت معاهد الإرساليات وجامعاتها على إذاعتها في أفق الفكر الإسلامي لإعداد أجيال من المبشرين والدعاة والتغريبيين العرب •

ولقد قام عدد من أتباع الاستشراق والتغريب بدور خطير حين نقلوا هذه الشبهات إلى دراسات باللغة العربية ، وكان من أشد هذه الأعمال خطورة ما أطلق عليه روايات الإسلام حيث حرص جرجي زيدان في خلال بضع عشرة رواية أن ينقل هذه السموم جميعا إلى شباب الإسلام عن طريق قصص تقوم على الحبكة والغرامية والتصوير الوجداني ، واستطاعت دار الهلال خلال أكثر من خمسين عاما من موالاة نشرها وطبعها وإذاعتها في مختلف أجزاء البلاد العربية كما قامت دور النشر اللبنانية بطبعها بالألوان والصور كمحاولة لتقريبها إلى مختلف المثقفين •

ولقد ظلت هذه الروايات تعمل عملها سنوات طويلة ، وكانت

هناك حراسة ضخمة حتى لا يكتب عن هذه الروايات شيء أو أن يقوم أحد بحذف أو تعديل بعض ما جاء بها من سموم ، بل إن ما ذهب إليه كتاب وأدباء كثيرون من بعد أمثال طه حسين ، وسلامة موسى ، ولويس عوض ، ومحمـود عزمي ، وحسين فوزي ، وزكي نجيب محمود من ادعاءات على الإسلام وتاريخه بالباطل ، إنما كانت مستمدة أصلا من هذه السموم التي طواها جرجي زيدان بحذر عجيب في هذه القصص التي سارت بها الركبان ، وقد كشف بعض جوانب الخطر التي تحتويهـا مؤلفات جرجي زيـدان كثير من الكتاب المسلمين ، أمثـال : أحمد السكندري ، وشبلي النعماني ، وكثيرون ؛ وكنا قد عرضنا لهذه الجوانب كلها في دراسة أعددناها في حينها ، وتأخر التحاقها بأصلها لظروف لم نكن نملك لها دفعا ، ولكن الجديـد في الأمر أن أطروحة قدمت إلى جامعة الأزهر تناول صاحبها روايات جرجي زيدان ، وكشف عن مـا فيها من سموم في أكثر من أربعمائة صفحة ، وصل فيها إلى حكم يجب أن يذاع على مثقفي المسلمين جميعاً ليحذروا هذا الخطر ، وليستبينوا هذه الشبهات ، وقد حكم على جرجي زيدان بما يلي :

أولا — إنه حور مواقف الشخصيات التاريخية .

ثانيا — إنه أثار الشكوك حول البطولات الإسلامية .

ثالثا — إنه تعمد إغفال الحوادث التاريخية المهمة .

رابعا — إنه أضفى هالات مثالية على الأديرة والرهبان .

خامسا — إنـه عرض تاريخ الإسـلام عرضا ممسوخا ، وصوره تصويرا باهتـا .

سادسا — إنه تلاعب بالمصادر والمراجـع ، وإنه من خلال روايات « أرمانوسة ، فتاة غسان ، الأمين والمأمون ؛ عروس فرغانة ؛ أحمد بن طولون ، عبد الرحمن الناصر ، الانقـلاب العثماني ، فتاة القيروان ؛

صلاح الدين ، شجرة الدر ، شارل وعبد الرحمن ، العباسة » قد أفسد حياة مجموعة من أعظم أبطال الإسلام وعظمائه ، هم :

صلاح الدين الأيوبي ، هارون الرشيد ، السلطان عبد الحميد ، عبد الرحمن الناصر ، أحمد بن طولون ، الأمين والمأمون ، عبد الرحمن الداخل . وإنه :

١ ـ صور الخلفاء والصحابة والتابعين بصورة الوصوليين الذين يريدون الوصول إلى الحكم بأي وسيلة ، ولو على حساب الدين والخلق القويم ، بالإضافة إلى تجريح الصحابة واتهام بعضهم بالحقد وتدبير المؤامرات .

٢ ـ مع تزييف النصوص التي نقلها من المؤرخين القدامى ، وحولها عن هدفها تحويلا أراد به السخرية والاستخفاف بالمسلمين ، وبنى عليها قصصا غرامية .

٣ ـ شوه الحقائق التاريخية وحرفها عن وجهتها .

ذلك أن جرجي زيدان ظل ينقب وينقر ويجهد نفسه في مزج الحق بالباطل وتقديمه في أسلوب براق جذاب معتمدا على فن أدبي ذي أثر بالغ ، وذلك هو فن القصة والرواية .

فمعظم الأحداث التاريخية في روايات جرجي زيدان قد حرفت وبنيت على أساس فاسد ، ولم يكن جرجي زيدان حريصا في أي من هذه الروايات على تحري الحقائق التاريخية قدر حرصه على الحبكة القصصية وخلق الحوادث المثيرة خلقا ، ثم ينثرها هناك وهناك ، وكان أخطر سلاح استعمله في هذه الروايات هو سلاح القصص الغرامي الكاذب الذي نسبه إلى معظم الشخصيات التاريخية الإسلامية زورا

وبهتانا ، وجعله مصدرا لتفسير الوقائع بل لوقوع الأحداث مع مباينة ذلك كله لما أورده المؤرخون الثقات في كتبهم ، وقد كشف صاحب الرسالة الأستاذ محمد الحسين عبد القادر عن : أن جرجي زيدان قد أعطى نفسه الحرية المطلقة في تفسير أحداث التاريخ في معظم رواياته استناداً إلى موقف الأديب من التاريخ ، فكانت تفسيراته كلها تافهة ومتعسفة ومتكلفة ، تثير في نفس القارىء مشاعر السخط ، وعمد إلى طمس معالم التاريخ الإسلامي بالدس والافتراء في نفس الوقت الذي عمد فيه إلى تقديم صور باهرة للكنيسة ورهبانها ، وأشاد بالأديرة ودورها حيث جعلها ملجأ القصاد وملاذ التائهين والخائفين .

وبالجملة : فقد أثار الشبهة بأن النبي — صلى الله عليه وسلم — قد أخذ تعاليمه عن الرهبان ، أو تأثر بتوجيهات الراهب بحيرا ، كما سخر واستخف بوثائق العهد النبوي ، ووصف حادثة شق صدر النبي — صلى الله عليه وسلم — بالغرابة ، وحاول إثبات قصة الغرانيق بصورة موهمة ومثيرة للشكوك ، وادعى أن كتاب النبي ختم بالطين ، وادعى نسبة ذلك إلى كتاب الأغاني ، وبيّن كذب هذا الادعاء وخلو الأغاني من هذا النص ، كما ادعى الخصومة بين خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح .

هذا ما أورده في رواية فتاة غسان ، كما أنه جرح الصحابة ، واتهم بعضهم بالحقد وتدبير المؤامرات ، كما اتهم السيدة عائشة بالميل إلى سفك الدماء والنزوع إلى الشر ، ووصف الخليفة عثمان بأنه رجل إمعة وذليل ومستسلم لابن عمه ، وافترى على سيدنا علي ، وقدم تفسيرا مغرضا لأسباب الفتنة ، واتهم ابن أبي طالب بالتهاون في المطالبة بدم عثمان « هذا ما أوردته رواية عذراء قريش » .

وفي رواية العباسة اتهم الرشيد بالاستهتار والمجون والاستبداد

والظلم وفسر مقتل البرامكة تفسيرا خاطئا ومغرضا ، إذ حاول تشويـه وتمزيق شخصية العباسة أخت الرشيد •

وفي رواية شارل وعبد الرحمن عن فتح الأندلس أرجع عامل النصر والفتح إلى قصة غرامية ، وأقام مواقفه كلهـا على الكذب والافتراء والتلفيق والتزوير •

وزعم بأن القواد وأمراء الجند من المسلمين كانوا مشغولين بحب فتيات النصارى ومفتونين بجمالهن ، وأن ذلك صرفهم عن أمر الفتح •

كما ادعى بأن جنـد المسلمين كانوا يهتمون بالغنائم أكثـر من اهتمامهم بالمعارك ، وأنهم كانوا يقتتلون عند توزيعها •

وفي رواية « أبو مسلم الخراساني » افترى ما أجراه على لسان أبي مسلم من أن العرب كانوا يحتقرون غير العرب ، ويسومونهم سوء العـذاب •

وقد حفلت هذه الرواية بكثير من المثالب والمناقض ، وتناثرت في جميع صفحاتها صور تتقزز منها النفوس ، وفاحت منها رائحة الحقـد والكراهية ، وشملت رواية « الأمين والمأمون » أباطيل عدة ومفتريات كثيرة ، أبرزها تشويه سمعة المسلمين ، واتهامهم بأن دولهم لم تقم إلا على الغدر ونقض العهد •

وعقد علاقة حب أو غرام مسف بين بنت الوزير جعفر البرمكي ، وبين رجل اسمه بهزار ، وجعل المحب يكافح بسبب هذا الحب ويعمل للانتقام لجعفر بقتل الأمين بن الرشيد ، وينتهي المؤلف إلى أن هـذه المغامرة الغرامية التي ليس لها أي سند تاريخي هي التي غيرت وجـه التاريخ في عهد بني العباس كما عمد إلى التحامل على العرب ، ووصفهم بالاستبداد وسوء التصرف مع الأجناس الأخرى التي تربطهم بها رابطة

الإسلام قبل كل شيء .

وادعى في رواية « عروس فرغانة » أن المعتصم أقام كعبة خاصة في سامرا « سر من رأى » بدلا من الكعبة المشرفة ، وادعى زيدان أن المعتصم لم يشيد هذه الكعبة إلا ليقطع علاقته بالعرب وليحرمهم من الكسب المادي الذي كان يأتيهم عن طريق الحجاج ، وكأنما لم تنشأ الكعبة إلا للكسب المادي .

وفي هذه الرواية أشار في استخفاف إلى كرامة المرأة ، وما فرضه الإسلام من ستر لها وصيانة لعرضها وكرامتها في مثل قولها « وكان الحجاب ضعفا وجبنا » كما حفلت هذه الرواية بالحديث المستفيض عن تعاليم المجوس وعباداتهم وعاداتهم ، وأعرضت عن تصوير عظمة الفتوح الإسلامية ، وفي رواية « أحمد بن طولون » بالغ المؤلف في تصوير الكنيسة ورهبانها مبالغة شديدة فقد عقد عدة فصول لتلك الإشادة :

الكنيسة — الاعتراف — دير القلعة — دير أبي مقار — البطريرك ميخائيل — عيد الشهيد .

وجميع المواقف التي صورها زيدان في هذه الفصول كانت خاصة بالنصارى وعاداتهم وتعاليمهم .

كما أنه أورد قضايا لا نصوص لها في كتب المؤرخين الثقات كقصة بناء المسجد بدون أعمدة .

ومع أن هذه الرواية عن بطل من أبطال الإسلام فان جرجي زيدان لم يعن بتصوير شخصية أحمد بن طولون عنايته بتصوير شخصية المعلم حنا أو البطريك ميخائيل ، وكان الهدف من ذلك التقليل من شأن الإسلام والمسلمين وتنفير أبناء المسلمين من تاريخهم الإسلامي .

كذلك فقد عمد إلى انتقاص شخصية عبد الرحمن الناصر في

الرواية المسماة باسمه ، بل أنه مزق هذه الشخصية تمزيقا ، وحاول أن يصمه بأنه رجل لهو وعبث وأعرض عن الحديث عن بطولاته وعن صموده أمام قوى المسيحية المدججة بالسلاح والعتاد ، وأخذ يركز على سقطات عبد الرحمن الناصر وزلاته ليقول للشباب المسلم : ليس جديرا بكم أن تفاخروا بأولئكم .

كما طعن في فقهاء المسلمين ، وأعلى من شأن القسس حيث اختار فقيها من كبار فقهاء قرطبة ، وهو ابن عبد البر ، وجعله وصوليا يتقرب إلى الحكام بطرق مشروعة وغير مشروعة .

كذلك فقد ادعى أن الخلفاء في الاسلام يتبادلون السراري والجواري مع اخوتهم وإعطاء اخواتهم الإقطاعات الواسعة .

وفي رواية « فتاة القيروان » عمد إلى التشكيك في أنساب الكثيرين من حكام المسلمين ، وفي نسب الخليفة المعز لدين الله ، وأقام قصة كاذبة تحت اسم حاكم سلجماسة الأمير حمدون الذي ذهب إلى قصر المعز لدين الله لتدبير مكيدة للفتك بجوهر وابنه ، ثم بالمعز نفسه .

ولا ذكر لكل هذا في كتب التاريخ ، بل إن صاحب سلجماسة في كتب التاريخ يختلف تماما عما جاء في رواية زيدان بما يؤكد ميل زيدان إلى التزوير والتحوير والتحريف ، وفي « الكامل » لابن الاثير : أن صاحب سلجماسة هو محمد بن واسول ، وليس الامير حمدون ، ولم يقل ابن الاثير : إن بنتا شغلت جوهرا كما ادعى زيدان .

وقد أعطى الكاتب لليهود في روايته دورا ايجابيا ، وجعلهم أصحاب الفضل الأول في إزالة الدولة الاخشيدية وإقامة دولة الفاطميين مقامها ، بل ادعى أن اليهود هم السبب في إنقاذ حياة المعز لدين الله من هلاك

محقق ، وادعى أن رسالة ليعقوب ابن كلسي اليهودي المقيم في مصر ، أرسلها إلى المعز كانت سبباً في نجاته ، وهذا مالم تورد منه كتب التاريخ شيئـاً .

ولعل هذا مما يصم كتابات زيدان بالتزييف لأن الخيال المسموح به في الروايات يجب أن لايتصل بالشخصيات الرئيسية أو بالأحداث الكبرى ،ويصل زيدان إلى قمة التزويروالافتراء عندما يتحدث عن صلاح الدين الأيوبي ، فقد سادت الرواية تلفيقات وتزويرات غاية في السوء مع تجن على الحقيقة واستخفاف وسخرية ، فقد ذهب جرجي زيدان إلى أن الخليفة العاضد لما ضعف أمره ، استدعى صلاح الدين، وأوصاه بأهله خيراً ، وأن صلاح الدين نقض هذا العهد بعد سويعات، وحاصر قصر الخليفة ، وأخذ كل ما فيه ومن فيه ، ولا ذكر في الحقيقة لهذه الرواية في كتب التاريخ ، وكل ما أورده ابن الأثير في « الكامل » أن العاضد أرسل إلى صـــلاح الدين ، فظن ذلك خديعـــة ، فلم يمض إليه ، والوصية التي ذكرها زيدان ماهي إلا تلفيق وتزوير .

وفي عدد من المواضيع زيف زيدان النصوص التي نقلها عن ابن الأثير ، وحولها تحويلا أراد به السخرية والاستخفاف بالمسلمين ، وبنى عليها قصصاً غرامية باطلة .

ولقد حاول زيدان في رواية صلاح الدين ــ كما يقول صاحـــب أطروحة رويات زيدان ــ التشويه والإساءة لتاريخ الإسلام والمسلمين بادعاء الفتن والمنازعات والجرائم والمؤامرات ، واستمد الكاتب كل تلك المواقف الإجرامية من طائفة الحشاشين على حين أن جماعة الحشاشين جماعة ضالة منحرفـــة ، ومن الظلم اعتبار تاريخ هذه الطائفة تاريخـاً للاسلام ، أو اعتبار هذه الفئة جزءاً من الإسلام ، فقد كان هدف زيدان أن ينسب فساد الحشاشين إلى الإسلام .

وبالجملة : فإنه لم يعن بتصوير شخصية صلاح الدين ، وظلمها كما ظلم ابن خلدون وعبد الرحمن الناصر والرشيد على الرغم من الجهد الضخم الذي قام به ، وهدفه انحراف الشباب عن الحديث عن الدور الذي قام بهصلاح الدين بالحديث عن مكايد الحشاشين وتهديدهم لصلاح الدين .

وقد حشد عددا من القصص الغرامية الكاذبة في الرواية ، وحاول أن ينسب إلى صلاح الدين شيئا منها مع أن صلاح الدين لم تكن له نأمة أو وجهة نحو مثل هذه الأمور ، وكفاه مسؤولية ذلك الهول الذي كان يواجهه .

وفي رواية « شجرة الدر » شوه الحقائق التاريخية وحرفها فقد جعل حياة شجرة الدر تدور حول مواقف غرامية ،وكل الدعاوى التي أوردها تختلف عن الحقائق الواردة في كتب التاريخ التي أرخت لهذه الفترة أمثال « النجوم الزاهرة » لأبي المحاسن ، و « المواعظ والاعتبار» للمقريزي و «صبح الأعشى » للقلقشندي ، ومن أسوأ ما وصل إليه أنه حاول أن يصور نساء السلطان الصالح نجم الدين أيوب بصورة النساء اللائي يتاجرن بأعراضهن في سبيل الحصول على ما يتطلعن إليه ، ومن أعجب المواقف التي تثير الشبهات حول أمانة جرجي زيدان هو أنه ما كاد الانقلاب العثماني يقع ١٩٠٨ حتى ترك سلسلته الإسلامية، وألف قصته التي هاجم فيها السلطان عبد الحميد هجوماً شديداً ، وحاول أن يصور نظام الخلافة الإسلامية في صورة بشعة كريهة ، فقد ركز على الأخطاء دون سواها ، وزيف الوقائع ، وعمد إلى الخيال لتشويه حياة السلطان عبد الحميد ، ومزق شخصيته شر ممزق ، وادعى أن إحدى القوادات من نساء السلطان فرت من القصر وأنها تريد قتله .

وقد كشف الباحث عن السر في تشويه تاريخ عبد الحميد واجتماع

كتاب اليهود والنصاري عليه ، لأنه وقف ضـد الصليبية والصهيونية بقوة ، واستهدفت هذه وتلك القضاء على النظام الاسلامي « الخلافة » وتفتيت دولة المسلمين بالإيقاع بـين العرب والترك ، واستطاع كمـال أتاتورك أن يلغي الخلافة ، وأن يفتح الطريق أمام الصهيونية إلىفلسطين وقد صدر أخيراً كتاب يكشف شخصية أتاتورك هو « الرجل الصنم ».

وهكذا نجد أن العمل الذي قام به جرجي زيدان ، والذي مازال في أيدي كثير من الشباب خطير ، وفي حاجة الى الكشف عن سمومـه تماما كأمر مؤلفات طه حسين ، وقد أحصى له صاحب الأطروحة عـدداً كبيرا من هذه الأخطاء والشبهات ، وفي مقدمتها التلاعب بالمصادر فقال: إنه درج على نقل بعض الفقرات من كتب التاريخ دون أن يجدد هـذا النقل ، أو يذكر اسم المصدر ، وأنه يعمد إلى فقرة صغيرة ، فيأخذهـا من المصدر ليوهم القارىء بأن الفكرة مأخوذة من ذلك المصدر ، وأنه عني بتقديم شخصيات معينة ، تمثل الصراع السياسي في كل مرحلـة « أبو مسلم الخراساني ، العباسة ، الامين والمأمون » وأنه أضفى هالات مثالية على الأديرة والرهبان ، وربط كل رواياته وشخصياته بالكنيسـة ورهبانها ، وسلط الأضواء على الاديرة والقسس ، وروج لتعاليمهـا ، وأنه تعمد إغفال الحوادث المهمـة مثل غزوات الرسول ، والفتوحات ، وركز على حوادث الفتنـة ، وعول على الأخبار الضعيفة عن الشـقاق والخلاف المزعوم بين الصحابة ، وحور مواقف الشخصيات التاريخيـة تحويرا لا يتسق مع الصدق الفني ولا الواقع التاريخي ، وانتحل امورا كثيرة لم يرد لها ذكر عن جميع المؤرخين ، اخترعها وتخيلها وانتقاها من أضعف الروايات التاريخية .

وأضاف المواقف الغرامية إلى ابن أحد الخلفاء الراشدين « محمد

بن أبي بكر » وخليفة من الخلفاء « هارون الرشيد » وحاكم من حكام المسلمين « الحجاج بن يوسف » وبالغ في تصوير تلك المواقف الغرامية مبالغة ينبعث منها العهر والفجور بحيث تجعل بطل الموقف غير مبـال بمواصفات الأمة وأحكام الشرع ، ولا ريب أن جرجي زيدان من حشد القصص الغرامية ذات المواقف المسفة داخل روايات عن تاريخ الإسلام، إنما يرمي بذلك إلى إثارة غريزة الشباب وتحريك شهوة المراهقين مستغلا ضعف ثقافة الكثيرين منهم وجعلهم بالغاية التي يرمي إليها في رواياته •

كذلك فقد جعل من أسلحته الاستشهاد بالأبيات الشعرية المسفة الساقطة التي تحرك الغرائز الدنيا •

وهكذا واجه تاريخ الاسلام وتاريخ أبطال الاسلام محاولـــه مسمومة لتزييفه وإفساده ، استطاعت حركة اليقظــة أخيرا أن تكشف عنها ، وتصحــح أخطاءها بالإضافــة إلى أعمال كثير مــن الشعوبيين والتغريبيين •

* * *

الفصل الثالث

حقائق خطيرة تتكشف

إن رسالة تصحيح المفاهيم وتحرير القيم في هذه المرحلة الدقيقة من حياة الأمة الاسلامية ، في أواخر القرن الرابع عشر الهجري ، ومطالع القرن الخامس عشر الهجري فقد حمل القرن الرابع عشر منذ مطالعة حملات عاصفة ورياحا ذات سموم لم تدع حقيقة من حقائق الاسلام « عقيدته ، وتاريخه ، ولغته ، ورسوله » إلا وأثارت الشبهات حولها ، وعملت على انتقاصها .

غير أن حركة اليقظة الاسلامية كانت بالمرصاد لكل هذه المؤامرات، فلم تتوقف عن دحضها وردها وكشف زيفها ، ولا تزال هذه المهمة : مهمة المواجهة الحقيقية الاصيلة المستمدة من منهج القرآن لتلك الخطط التي رسمها الاستعمار والنفوذ الأجنبي — غربيا وماركسيا وصهيونياً — تحت أسماء التبشير والاستشراق والغزو الثقافي والتغريب والمبثوثة في مجالات الصحافة والثقافة والتعليم هي المهمة الأولى والكبرى في هذه المرحلة الدقيقة من حياة الأمة الإسلامية ،فلا تزال الحربة موجهة إلى الأصالة الإسلامية ، وإلى الذاتية الخاصة التي أقامها الإسلام ، وبناها القرآن لأهل القبلة وأصحاب : لا إله إلا الله رغبة في صهرهم في الأتون

الواسع واحتوائهم في العالمية والأمية ، ولا يزال التحدي القائم أمامهم أن يكونوا قادرين على الاحتفاظ بذاتيتهم الخالصة المباينة لغيرها ، الواضحة المعالم ، ذلك أنهم إنما بعثت رسالتهم خاتمة للرسالات لتكشف هذه الحقيقة ، وتميزهم بالمنهج الرباني وتعزلهم عن المنهج البشري بوثنياته وماديته وإباحياته وعبادته للحياة وإغراقه في المتع والأهواء وانحداره إلى سلم الانحلال والتمزق النفسي ريثما يقيم المسلمون منهج الله في المجتمع وأنفسهم ، ويقدموه للبشرية خالصا سائغا نقيا •

وتتكشف في السنوات الأخيرة علائم كثيرة ودلائل كثيرة على صدق كلمة الله ، وتظهر عن طريق الكشوف العلمية والطبية والحفريات الأثرية بما يؤيد ما جاء به القرآن الكريم ، وما يزال العلم في فتوحه من خلال معرفة الطبيعة أو الجسم الإنساني أو علوم الفلك والكواكب يقدم لمن يريد أن يهتدي إلى الحق الدليل بعد الدليل على صدق رسالة الله الخاتمة ، وعلى أنها الحق •

١ ــ وفي بحث جديد عن تحليل التاريخ البشري وفهم مذاهبه يقول الباحثون : إن هناك فارقا عميقا بين فهم الديانات الوضعية للتاريخ، وبين فهم الديانات السماوية ، فالديانات الوضعية تقوم على تبرير الواقع ــ الديانات المصرية ، السومرية ، التاوية ــ وهي تتجه إلى تفسير نشوء الدين واستمراريته بتفسير نشوء العالم وربط هذا النشوء بإرادات عليا فوق مستوى البشر ، هذه الإرادات قررت مسبقا بقاء الوضع السياسي والاجتماعي كما هو عليه في الواقع دون تغيير ، أما الأديان السماوية فإنها تحاول تجاوز الواقع والتدخل في تغييره ، فهي تعطي صورة عصر ذهبي ، هو الذي أقامته رسالات الاديان عدلا وسماحة ، وتطمح إلى استعادة هذا العصر عن طريق التدخل في توجيه التاريخ الذي يمثل في تصورها انحرافا عن الخط المرسوم للدين الخالص •

هذا في النظرة العامة ، فإذا تعرض البحث للأديان كشف عن انحراف اليهودية وانحراف المسيحية بعدها ، فقد حاولت اليهودية أن تدعي أنها تقوم على فكرة السيطرة الإلهية عن طريق شعب الله المختار ، فكشفت بذلك عن غرورها وعنصريتها حتى يقول فولتير ساخرا منها : لماذا اختار الله بعنايته هذا الشعب الوضيع ليكون شعبه المختار ، فهم اذا انتصروا قتلوا النساء والأطفال ، وإذا هزموا نجدهم في الدرك الأسفل من الذل والهوان .

أما فكرة المسيحية فقد خرجت عن وحي السماء حين قامت على أساس سقوط آدم وماتنتج عن ذلك من الخطيئة ، ثم محاولتهم إدخال الله في التاريخ متجسدا في صورة بشرية ، وهما في كلا الفكرتين لا يستمدان الحقيقة من الدين الصحيح ، وإنما هي من تفسيرات الأحبار والرهبان ، فإن خطيئة آدم قد غفرها الله له ، وليس لها علاقة ما بأي فرد آخر من ذرية آدم ، أما السيد المسيح فهو نبي الله ، وليس شيئاً غير ذلك .

ويصل البحث إلى النظرة الإسلامية للتاريخ ، فيحاول أن يصفها في صورة صحيحة فيقول : إن للاسلام نظرته الخاصة إلى التاريخ حيث لا تجد في القرآن ولا في السنة تحديد تاريخ معين لبدء خلق العالم كما تجد في التوراة .

(بدء الخلق في التوراة ٤٠٠٤ ق.م)

ذلك أن نظرة الإسلام نظرة عالمية انطلاقا من أصل الانسان والبشرية الذي يرجع الى أب واحد وأم واحدة ، مع المزج بين المثالية والواقعية في آن واحد مثالية من حيث الأصل والهدف ، وواقعية من حيث تعاملها مع الحقائق التاريخية ذات الوجود المستيقن والأثر الواقعي الإيجابي ، فالإسلام يستجيب لعالم المادة ويبين طريقة السيطرة عليه بغية

الوصول إلى كشف أساسي لنظام واقعي للحياة •

هذه النظرة جعلت العنصر الاساسي في تدهور المجتمعات ، وزيفها هو عنصر أخلاقي ينبثق عن الإيمان بالله والتمسك بطاعته ، والتاريخ ــ حسب هذه النظرة ــ محكوم بنهاية محتومة هي يوم القيامة حيث يتم الجزاء •

لا ريب أن هذا المعنى قريب الى مفهوم الإسلام ، وهو دليل على فهم جديد في الغرب لفكر الإسلام وهو فهم من شأنه أن يفتح طريق الاسلام إلى قلوب متعطشة إلى أن تعرف الحقيقة وتبحث عن المعرفة •

٢ ــ فإذا أضفنا إلى هذا تلك المحاولات الجديدة لكشف الحقيقة حول طبيعة السيد المسيح ، وهي اليوم تجري في ضوء المفاهيم العلمية الجديدة ، فيصل إلى مفاهيم جديدة على الفكر الغربي لايعرف إلى أي مدى ستكون آثارها •

ولكنها ــ على كل حال ــ اقتراب واضح من مفهوم الاسلام الذي نادى به منذ أربعة عشر قرنا ، وأعلنه تصحيحا لمفهوم الفصل بين الألوهية والنبوة ، فالاساتذة موريس ، وإيلس ، ونانيهام في كتابهم « أسطورة تجسيد الإله » قد استعانوا في تأييد نظرياتهم بالبحوث العصرية التي تناولت محتويات الانجيل ، فقد أثبت عدد كبير من الخبراء والعلماء أن السيد المسيح لم يقل اطلاقا في حياته : إنه الرب أو ابن الرب أو غيره من الألقاب مثل المسيح وابن البشر وابن داود ، وإنما أضيفت هذه الكلمات إليه من قبل أنصاره وأتباعه الذين أرادوا بهذه اللغة الشعرية والميثولوجية أن يفسروا كم كان هذا الإنسان خارقا وفوق العادة ، وخصوصا كم كان تأثيره كبيرا على الآخرين •

والخلاصة : أن عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ ليس ابن الرب،

وإنما هو بشر كبقية البشر ، ولكن الله — عز وجل — كرمه وميزه عنهم .

وقال فرنسيس يونج : إن القديس بولس لايسمي في أي موضوع شخص عيسى عليه السلام بالرب ، ولا يجعله مساويا للرب ، ولكن علماء اللاهوت أدخلوا عبارة عيسى يعادل الرب على رسائل القديس بولس .

إن الألقاب التي أطلقها النصارى الأوائل على عيسى بن مريم ليست ابتكارا ابتكروه ، وإنما اقتبست من الحضارات اليهودية واليونانية والرومانية في ذلك العصر ، ذلك أن العالم الوثني لم يكن يستنكر أن يأخذ الرب شكل إنسان ، بل إن المثقفين كانوا يعتقدون أن أباطرة الرومان يتحدرون من سلالة الله .

ولا شك أن هذا الفهم ، وان كان لا يزال بعيدا عن فهم التوحيد الخالص الذي قرره الإسلام ، فإنه على طريق الشك والإنكار لتلك المحاولات التي استمرت أجيالا طويلة .

قالت مجلة شتيرن الألمانية تحت عنوان « المسيح ابن الله » :
إن هذا البحث قد أحدث ضجة كبرى ، ولقي رواجا منقطع النظير، ويرجع الإقبال عليه إلى الأسماء الثمانية الشهيرة التي اشتركت في وضعه ، وهم من مشاهير الأساتذة الإنجيليين في جامعة أكسفورد .

وقد تلقى العلماء الثمانية التأييد في صدق نظريتهم القائلة بأن عيسى — عليه السلام — ليس ابن الله، بل إنه لم يدَّعِ في أي يوم من أيام حياته بانه ابن الله . وقال الباحثون : إن إعطاء صفة الألوهية لإنسان ما مهما علا قدره ومواهبه شيء لا يصدقه العدد الأكبر من أبناء هذا العصر ، وقالت مجلة شتيرن : إن مايرمي إليه هؤلاء العلماء

اللاهوتيون هو تحرير الإنسان من ضياعه وتكريس جهوده إلى عبادة الله ، وفتح الطريق المستقيم الصالح لعبادة الله ويقول : إن هذه الفكرة ليست جديدة ففي عام ٣٢٥ ميلادية أرسل القيصر الروماني كونستانين لجنة فتوى إلى المدينة الآسيوية الصغيرة « نيزيا » ذلك لوقف النزاع الذي كان ناشبا حول شخصية السيد المسيح عليه السلام •

وتضيف إلى هذا تلك المحاولة الجديـدة التي قام بها الشاعر القروي الذي دعا إلى إحياء مفهوم « آريوس » للمسيحية ، وأعلن أنه يدعو إلى هذا المفهوم ، وكان آريوس هو الذي عارض فكرة تأليـه المسيح في إبان المعركة التي دارت خلال حكم قسطنطين •

ولا شك أن هذه العلاقات كلها توحي بتطور جديد في اللاهوت المسيحي ، وفي الفكر الغربي تجاه التوحيد وتجاه التفسير الإسـلامي للتاريـخ •

٣ ــ هذا في مجال العقائد ، كذلك فإن هناك في مجال تحرير القيم وتصحيح المفاهيم محاولات جادة من أبرزها ما ثبت من فسـاد النص الذي ظلت تردده كتب التاريخ عن العلاقات الدبلوماسية بـين الرشيد وشارلمان ، فقد تبين أنها وضعت بخبث من قس نصراني يدعى سانكال ، أراد بها إحداث ثغرة في التاريخ الإسلامي بين الرشيد وبين الأمويين حكام الأندلس في هذه الفترة ، وقد تبين للأستاذ محمـد سليمان العيده أن هذا الخبر ليس موجودا على الإطلاق في المصـادر الإسلامية ، وأن أول من أشار إلى هذا الدكتور يوسف العش في كتابه عن الدولة العباسية ، فقد أشار إلى ماتورده المصادر الغربيـة مـن أن الرشيد كان موفقا مع ملك الفرنجة شارلمان حسبما أورده مؤلفان أولهما « انهارد » في كتاب له يقول :

إن هارون الرشيد استقبل سفراء من شارلمان أتوه بهدية ، فأجاب

عنها بأن أرسل سفراءه بهدايا أيضا ، ومن جملتها ساعة مائية دقاقـة أعجب بها الفرنجة ، ويعلمنا المصدر الآخر ، وهو القسيس سـانكال أن بطريرك القدس تلقى سفراء من شارلمان بهداياهم أرسل هو بدوره هدايا ومعها مفاتيح بيت المقدس إلى شارلمان ، ويقول يوسف العش . إن هذين الخبرين يأتياننا من المصادر الأجنبية القديمة ، ولكن المصادر الإسلامية العربية لا تذكر عنهما شيئا ، وتعلق التواريخ الأجنبية الفرنسية على هذين الخبرين تعليقات شتى ، وتنسب إلى الرشيد رغبته في أن يضع أمام الخليفة الأموي عدوا حليفا لبني العباس ، وينسب إلى الحكم العباسي أيضا الرضى بأن يكون الإشراف على بيت المقدس لفرنسـا لك الفرنجة .

والخبران ضعيفان وصاحباهما غير موثوقين ، يخلطان في مسائل التاريخ ، ولا سيما القسيس سانكال ، وآية ذلك ما أورده بروكلمان في تاريخه حين قال : إن الخبر الأول لا يعدو أن يكون خبرا عن التجار اليهود الذين كانوا يحملون الهدايا إلى بلاط الخليفـة ، ولئن كانت هدايا ذهبت إلى شارلمان فقد ذهبت على أيدي تجار عاديين .

وقال : أما خبر مفاتيح بيت المقدس وكنيسة القيامة ، فالظاهر فيه الوضـع ، ولا يعقل بحال من الأحوال أن يعطي الرشيد ــ وهو الخليفة العميق الإيمان التقي ــ مفاتيح بلدة مقدسة إلى رجل غـير مسلم ، ويسمح له بحماية الأماكن المقدسة .

ومن جملة المراجعات الدقيقة يتبين أن الرشيد لم يراسل شارلمان ، وأن دعوى تسليم مفاتيح بيت المقدس إليه هي أكذوبة عالمية .

الفصل الرابع

علم النفس الإسلامي
وعلم الاجتماع الإسلامي

لا يستطيع الباحث الإسـلامي والمثقف المسلم ان يتجاهل ظاهرة القدرة على المواجهة والتحدي للسموم التي يطرحها الفكر الغربي الوافد في افق الفكر الإسلامي ، وخاصة في ميدان النفس والاجتماع حيث سيطر اليهوديان فرويد ودوركايم على هذا المجال منذ وقت بعيد ، وتركا آثارا ضخمة في مناهج الدراسة في الجامعات والمعاهد الإسلامية ، وكانت دعوتنا صريحة إلى ان نتجاوز فرويد وماركس ودوركايم وسارتر جميعا ، وحين يصـدر الدكتور حسن الشرقاوي دراسته الخصبة عن نحو علم نفس إسلامي جديد ، ويصدر الدكتور مصطفى محمد حسنين دراسته الممتعة عن المدرسة الإسلامية في علم الاجتماع نشعر باننا اصبحنا على ابـواب مرحلـة جديـدة ..

يرد الدكتور الشرقاوي على كبار علماء النفس الحديث بعامة ، ومدرسة التحليل النفسي بخاصة ، وعلى رأسهم فرويد ، والدراسـة تهـدم نظريتهم في الحتمية النفسية ، وتفتح باب الأمل أمام المرضى النفسانيين لأن التوبة ميلاد جديد لأنها تغسل ما قبلها ، ويرد الدكتور الشرقاوي على بعض ما ردده علماء التحليل النفسي أمثال : فرويـد

من أن هناك حتمية نفسية ، وأنه في إمكانهم إذا عرض عليهم طفل في سن ٨ سنوات أن يتنبؤوا بما سوف تكون عليه شخصيته في سن الكهولة ، وهذه هي الحتمية النفسية الباطلة ..

يرد عليهم علم النفس الاسلامي بقوله : إنه ليس هناك حتمية وإن التوبة ميلاد جديد ، فالتوبة تغسل ماقبلها ، وهنا نقطة الخلاف بين علم النفس الحديث الذي ينادي بالنظرية الحتمية والنفسية وبين علم النفس الإسلامي الذي يرجع إلى القرآن والسنة في قوله تعالى : « ومن تاب وآمن وعمل صالحا فانه يتوب إلى الله متابا » ..

كذلك فان علم النفس الحديث يربط الحاضر بالماضي ، فيربط الطفولة المبكرة بالرجولة والنضج بمعنى أنه يفسر التصرفات الحاضرة عن طريق الماضي داخل إطار الحتمية النفسية ، وهذا معناه أنه ليس هناك داع للتربية وللرسالات السماوية ، أو للهداية والإصلاح، ولا للعلم والتعليم ما دام الإنسان يخضع لقانون حتمي ، فلا توبة ولا ندم تحسن من أخلاق الإنسان أو تغير من مواقفه ، وبينما علم النفس الحديث لايحقق للإنسان الأمن والأمل بل يعمل على زيادة الاضطراب والقلق النفسي والخوف والرعب والفزع ، نجد أن علم النفس الإسلامي يحقق للإنسان الأمن والأمل ، ويقدم علاجا ناجعا للخوف ، وذلك مما يبثه من الطمأنينة والسكينة في القلب ، وتؤكد ذلك الآية الكريمة : « وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » [الأنفال : ١٠] وقوله تعالى : (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع إيمانهم) فهذه الآيات كلها يستدل منها علم النفس الإسلامي ليحيل الخوف أمنا ، ويبتعد عن الإكراه والضغط على حرية الإنسان ..

ويقول الدكتور الشرقاوي : إن فرويد وزملاءه يتحدثون عن

الجانب الشرير في الإنسان ، ويقولون دائما : إن أصحاب مكارم الأخلاق مرضى نفسيون ، ويقولون أيضا : إن الإنسان يحكمه من الداخل قانون الغاب ، ولذا يقر علماء النفس القول الذي يقول : إذا لم تأكل فأنت مأكول .. وهنا يقول : إن علماء النفس أسرفوا في فهم النفس الإنسانية أما علم النفس الإسلامي فإنه يقرر أن الوسط العدل هو الأساس للحكم تأييدا لقوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) [البقرة : ١٤٣] بمعنى أن أوسطكم أكثركم حكمة وأفضلكم رأيا .

فالأساس — في علم النفس الاسلامي — إنما هو الذي تقبله الفطرة السليمة والعقل الراجح والنفس المؤمنة ، لأن قانون الكون أو التشريع الإلهي يسير على هذا الوسط ، مثلا النبات يسير على قانون الوسط ، فإذا أضفت المزيد من الماء للنبات يموت ، وكذلك اذا رفعت عنه الماء يموت ، ومثل ذلك الحيوان .. والكون أيضا يسير في وسط عدل مثل النجوم والكواكب في السموات كلها بقدر معين . ونظام بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ، وتسقط وهذا ما لا يمكن حدوثه لأن لهذا النظام خالقا نظمه بقانون إلهي ، إذن لا بد للإنسان وقد وهبه الله عقلا وإرادة وقدرة على الاختيار أن يتمشى ويواكب القانون الإلهي ، لأنه إذا أسرف اختل النظام ، واختلت الفكرة السليمة، والتي من أجلها خلق الإنسان .

المدرسة الإسلامية في علم الاجتماع :

ويرى الدكتور مصطفى حسنين أنه حيث يجعل دوركايم الظواهر الاجتماعية أساس الدراسة ، وتجعل المدرسة الإنجليزية الأمريكية النظام الاجتماعي أساس الدراسة ، فإن الاسلام يجعل من واقعات العمران البشري موضوع الدراسة ، وقد أخطأ كثير من علمائنا في

ظنهم أن واقعة العمران البشري ــ كما عرفها ابن خلدون ــ هي بذاتها الظاهرة الاجتماعية عند دوركايم ، ولكن طبيعة الواقعة الاجتماعية تختلف في وظيفتها وبنائها الاجتماعي اختلافا جوهريا عن وظيفة المظاهر الاجتماعية وبنائها الاجتماعي ، وإن واقعة العمران البشري ــ كما قدمها ابن خلدون ــ نسيج وحدها في الوظيفة والتركيب الاجتماعي على السواء ، وإن دوركايم أهدر كل تقييم أخلاقي حتى أنه يقول : إن الجريمة ظاهرة ضرورية ، وهي ليست ظاهرة مفيدة ، ولا ريب أن هذا لا يستقيم إطلاقا مع النهج الإسلامي في النظر إلى مجتمع المسلمين ، بل هناك ماهو أسوأ ، فإن دوركايم ينتهي في نظريته في الظواهر الاجتماعية إلى القول بأن أصل الأديان أصل أرضي يرجعها إلى الطبيعة.

وهناك فارق آخر كبير بين المدرسة الإسلامية والمدرسة الاجتماعية يكشف عنه الدكتور مصطفى حسنين ، ذلك هو أن ابن خلدون يربط بين قيام الواقعة الاجتماعية ووظيفتها ربطا شديدا إذ جعل العمران في هدفها وغايتها ، وإذا كان الإسلام قد شد بين صالح الفرد وصالح الجماعة في نطاق واحد ، وجعل كل مصلحة منها تساند الأخرى وتدعمها، فإن ابن خلدون على أساس الفهم الإسلامي كان يتبنى واقعات العمران على أساس ما تحققه من مصلحة للجماعة والأفراد على السواء ، ويشير الدكتور مصطفى حسنين إلى أن بحوث دوركايم ، وإن جعل موضوعها العرب في شمال افريقيا وبلاد الشام والبدو بصورة عامة ، كانت تتجه إلى وصف هذه الجماعات على أنها بدائية متخلفة بالإضافة إلى آراء درركايم المرفوضة في الدين الوصفي.

من أجل هذا رأى الدكتور مصطفى حسنين أن يرجع إلى أساس المدرسة الإسلامية الاجتماعية التي أرسى دعائمها ابن خلدون ، ويقول : إنه لا بد لنا ونحن أصحاب المنهج الأصيل الأول إذا أردنا مقاومة هذه

الأفكار الهدامة ، ولكي نصلح أمرنا ، ونعود إلى الأصالة أن نؤكد على منهجنا في التفسير ، وأن نصد كل رأي مخالف بنفس الأسلوب الذي يتخذونه في محاربتنا ، إنهم يقولون : إنهم أصحاب أسلوب علمي ، ونحن نقول أيضا : إن لنا أيضا اسلوبنا العلمي المكين ، وأسلوبنا العلمي قائم على هذا العلم الذي هو فقه الشريعة الأصيل ، قرآننا وسنة رسولنا ، أسلوبنا واحد غير مسبوق بمثله ، لم يتبدل ، ولم يتغير هو القرآن الكريم ، وسنة الرسول صلوت الله عليه ، وذلك ما قام الدليل الشرعي عليه بأنه طاعة الله ورسوله •

والحق أن الأمة الاسلامية التي تشدها من أطرافها قيم أساسية واحدة ، تنبع من عقيدة الإسلام ، وتبنى على قواعده ، تتعرض هذه الأيام لغزو حضاري يكاد أن يعصف بكل نواحي الحياة عندنا ، وفي كل مجال ، وقد امتد أثره إلى الجانب الفكري والاقتصادي وعادات حياتنا اليومية ، وهو صراع حول قيمنا الأصيلة ، وليس من سبيل أمامنا الآن يعمد الباحثون الاجتماعيون إلى الكشف عن أسلم السبل وتخطيط الوسائل الناجعة ، وبأن يحول الصراع إلى أسلوب امتصاص سيبقى على الأصل الاسلامي القيم في مجتمعنا الإسلامي بكل ما يحمل بين طياته من خير •

* * *

الفصل الخامس

مؤامَـرَة الصَّمْت

من خلال آلاف الأبحاث التي كتبت عن خلفيات الحضارة الحديثة ومصادرها خلال أكثر من أربعة قرون ، نجد نغمة واحدة محبوسة في أفق ضيق من التعصب بعيــداً عن الحق ، ومن الانتقاص بعيــداً عن الإنصاف ، ومن التجاهل بعيداً عن الصدق ... هذه النغمة لا تني تردّد القول بأن هذه الحضارة الحديثة إنما قامت امتداداً للعلوم اليونانية والحضارة الرومانية ، وأنها غربية الأصل والطابع والمصدر ، وهي نتاج العقلية الآرية والجنس النوردي ، والدم الأبيض ، فإذا سال سـائل عن دور العرب فيهـا ؟ قيل له : إنهم لم يزيــدوا عن أن حفظوا كتب اليونان ، ثم عادوا فسلموها إلى أهلها مرة أخرى ، وأن فترة ما بـين سقوط حضارة روما وظهور عصر النهضة « الرينسانس » ليست إلا بمثابـة « العصور الوسطى المظلمة » Dark Ages ، وأن سـقوط القسطنطينية في أيدي المسلمين كان نهاية العصر القديم وبداية العصر الحديث ! ..

وما تزال هذه النغمة ــ نغمة التجاهل والانتقاص لدور الإسلام والحضارة الإسلامية ــ قائمة وواضحة في مختلف كتابات الباحثـين الغربيين ، وخاصــة المستشرقين الذين ترجمت أبحاثهم إلى العربية ،

وفرضت في معاهد الإرساليات والجامعات ، لتعطي العربي والمسلم ذلك الإحساس بالنقص والضآلة ، وما تزال حتى الآن مناهج الدرس في أغلب جامعات البلاد الإسلامية تصور العلوم الحديثة ، وكأنها نتاج الغرب وحده دون أن تشير أيما إشارة إلى دور المسلمين الأصيل في بناء القاعدة الأولى ، ليس للعلوم التجريبية وحدها ، ولكن للعلوم الإنسانية .

هذه الأزمة هي التي عبر عنها الكاتب الفرنسي « غارودي » بمصطلح : « مؤامرة الصمت على الإسلام والمسلمين » حين قال في إحدى كتاباته : « لقد كانت مؤامرة الصمت التي ارتكبت ضد الثقافة الإسلامية منظمة تنظيماً محكماً ، ونجد ذلك في تعريف « العربي » في « معجم أكسفورد » ، وفي عدد من الكتب التي فرضت على البلاد الإسلامية في عصر الاحتلال ، وخاصة في مصر والجزائر » .

هذه المؤامرة التي عمدت إلى أن تحجب ذلك الدور الواضح ، ولا نقول الخطير حتى لا نتهم بالحماسة ، وهو دور لا تستطيع النظرة الفاحصة المنصفة أن تتجاوزه بحال ، سواء في مجال الثقافة ، أو العلم ، أو الأدب ، والعلوم الإنسانية .

غير أن هذا الإصرار الشديد على الصمت والتجاهل لدور الاسلام في الحضارة الإنسانية ، بالإضافة إلى الانتقاص والتزييف ، لم يلبث أن خرق مرة بعد مرة ، حين ارتفعت أصوات منصفة بين الحين والحين ، تحاول أن ترد الحق إلى نصابه ، وتقرر في صدق مدى عظمة الأثر العربي الاسلامي .

ومن خلال هذا التاريخ الطويل نستطيع أن نسمع أصواتاً تعالت منذ أواخر القرن التاسع عشر ، تحاول أن تعترف بذلك الخطأ ، وتكشف

عن مؤامرة الصمت ، ومن هؤلاء « غوستاف لوبون ، ورابر ، وبريفولت وكلود فارير ، وهنري دي شامبون ، وسيديو » •

وفي السنوات الأخيرة نجد الأمر يتحول إلى اعتراف واضح ، حين ألقت الدكتورة « سيغريد هونكه » قنبلتهـا المدوّية : « شمس الله تسطع على الغرب » •

وأصبح مما لا يدهش الكثيرين أن يقف هذا الباحث الغربي أو ذاك ، في الجزائـر ، أو في دمشق ، أو في القاهرة ، ليعلن عن مـدى « الإثم » الذي ارتكبه الغرب من جراء « مؤامرة الصمت » التي امتدت أكثر من ثلاثة قرون، والتي كان الاستعمار العامل الأكبر في فرض ذلك الستار الكثيف على مكانة الدور الخطير الذي قام به الإسلام في بناء الحضارة الإنسانية ، وهو دور استمر أكثر من ألف عام تقريباً •

اولاً — الضربة الأولى في جدار الصمت :

وتعد كلمة « غوستاف لوبون » هي أول ضربة بمعول في جدار الصمت •• وتوالت بعدها الضربات • ويمكن أن يكون « تومـاس كارليل » قد سبق « غوستاف لوبون » ، ولكن في ميدان واحد هو : الاعتراف بمكانة النبي محمد صلى الله عليه وسلم •• أما « غوستاف لوبون » فهـو الذي كشف أول غطاء عن مؤامرة الصمت في كتابـه « حضارة العرب » ، الذي أصدره عام ١٨٨٤ م تقريباً : حين قال :

« عزيز على أبناء قومنا أن يقرروا بأن الرواية المسيحية « الغربية » لم تخرج من ظلمـات الهمجية إلا بفضل الكفار « المسلمين » ! •• وليس بهيّن قبول هذا الأمر المحصن ظاهراً ، إن استقلالنا الفكري لم يكن غـير الظواهر ، وإننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات ،

فقد تراكمت أوهامنا الموروثة عن الإسلام والمسلمين بتعاقب القرون ، فصارت جزءاً من مزاجنا ، وتشبه هذه الأوهام المتأصلة ـ التي أصبحت طبيعة ثابتة فينا ـ حقد اليهود الخفي العميق على النصارى ، فإذا أضفنا إلى أوهامنا الفاسدة الموروثة على المسلمين الزعم الباطل ، الذي زاد مع القرون بفضل ثقافتنا المدرسية التقليدية البغيضة ، وهو أن اليونان واللاتين هم وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي ، أدركنا السر في جحودنا لفضل العرب العظيم في تمدين أوروبا ، ويتراءى لبعض الفضلاء ، أن من العار أن تكون أوروبا مدينة في خروجها من دور التوحش للعرب الكافرين ، ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهمي وجه الحقائق » .

ويقول : « إن السهولة التي تنتشر بها شريعة القرآن في العالم باهرة ، والحكم حيث يمر يترك خلقه ودينه ، والإسلام ينتشر أينما حل . ولم تستأصل شأفة الإسلام ، بعد أن رسخ » .

ولقد أصاب مسيو دوفال حين قال : « من فضل الإسلام وحسناته زوال الأصنام والأنصاب عن الدنيا ، وتحريم القرابين البشرية ، وأكل لحوم الإنسان ، وحفظ حقوق المرأة ، وتقييد مبدأ تعدد الزوجات وضبطه ، وتوطيد أواصر الأسرة ، وجعل الرقيق عضواً فيها ، وفتح أبواب كثيرة لتحريره ، وتهذيب الطبائع العامة ورفع مستواها بالصلاة والزكاة ، وتثقيف المشاعر بالعدل والإنصاف ، وإقامة المجتمع على أسس قوية قويمة ، ومقاومة المنكرات بالعدل الإلهي » .

هذه ـ في اعتقادي ، وعلى قدر ما اتصل بمطالعاتي ـ أولى الصيحات التي هزت النفس الغربية ، وكشفت عن عجزها عن الإنصاف والاعتراف بالفضل .

ثانياً : الاعتراف بتأخر سير المدنية ثمانية قرون :

ثم جاء بعد ذلك اعتراف جد خطير ، كان بمثابة ضربة أخرى في جدار الصمت ، فقد اعترف عدد من الكتاب والمؤرخين المنصفين ، بأن معركة بلاط الشهداء « بواتيه » ٧٣٢ م ، قد أوقفت سير المانية في الغرب ثمانية قرون ، وأن المسلمين لو دخلوا فرنسا في ذلك الوقت ، لتقدم عصر النهضة عن موعده في القرن الخامس عشر الميلادي •

يقول هنري دي شامبون مدير « ريفاير لنتر » الفرنسية : إنه لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي في معركة بواتية على تقدم المسلمين في فرنسا ، لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي • ولولا ذلك الانتصار البربري على المسلمين ، لنجت أسبانيا من وصمة « محاكم التفتيش » •• ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون » •

ويستطرد هنري دي شامبون ، فيقول :

« ونحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة ، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على جميع الشعوب العريقة في الفضائل ، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري في مدة ثمانية قرون ، بينا كنا يومئذ مثال الهمجية ، وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف ، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى » •

وشهادة أخرى في المجال نفسه يقدمها العلامة كلود فارير ، حين قال :

« أناخت على الإنسانية بعد السبعمائة للميلاد كارثة ، لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى ، تخبط من جرائها العالم الغربي سبعة قرون أو ثمانية في الهمجية ، قبل أن تظهر النهضة ... هــذه الكارثة هي ذلك النصر الهائل الذي أحرزته في بدايتــه جماعات الهركاس المتوحشين ، يقودها شارل مارتل على فرق العرب والبربر . في مثل هذا اليوم المشؤوم تقهقرت الحضارة ثمانمائة سنة . وحسب المرء أن يذكر ما كان يمكن أن تصل إليه فرنسا ، لو أن الإسلام النشيط ، الحاذق ، الحكيم ، الرصين ، المتسامح ــ إذ الإسلام هو كل هذا ــ استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا تجد لها اسماً » .

هل كان للمسلمين أثر في الحضارة ؟

ويجيء « بريفولت » في كتابه « بناء الانسانية » ليسجل هــذا الاعتراف الخطير :

« إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ، ليس فيما قدموه إلينــا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم الغربي إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه مدين لها بوجوده نفسه .

فالعالم القديم لم يكن فيه للعلم وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم ، كانت علوماً أجنبية ، واستجلبوها من خارج بلادهــم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم في يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجــاً كلياً بالثقافة اليونانية،وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني .

أما ما ندعـوه العلم فقد ظهر في اليونان نتيجة لروح من البحث جديـدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظـة والمقاييس ولتطور الرياضيات ؛ إلى صور لم يعرفها اليونان • وهـذه الروح وتلك المناهج العلمية ، أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي •

إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الأندلس ، وليس لروجر بيكون ، ولا لسميه الذي جاء بعده ، الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي • فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم ومنهج الإسـلامية إلى أوروبا المسيحية ، وهـو لم يخل قط من التصريح ، بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد لمعرفـة الحق » •

وهكذا نصل إلى اعتراف كامل يحطم جدار الصمت حول حقيقة واضحة ، يجب أن تكون في مقدمة مناهج جامعاتنا ومدارسنا ، وهي أن المسلمين هم الذين وضعوا أصول « المنهج العلمي التجريبي » الحديث •

نعم : هذه هي الحقيقة التي تواترت حولها الاعترافات حتى جاء كنال ولف شحوماكو فقال : « حينما كانت أوروبا غارقة في دياجـير الظلمات ، نفذ إلى أوروبا شعاع من أشعة الحضارة المشرقة في بـلاد الإسلام • إن تعاليم القرآن وأحاديث النبي ، نفخت في الأمة الإسلامية روحاً قوياً أوجدت تقدماً باهراً ، ورقيا عظيما • هذه الروح سرعان ما تسربت إلى أوروبا ، ولاسيما عن طريق أسبانيا ، فهيأت عوامل نهضتها في أواخر القرون الوسطى ، وأوجدت مقاومة تجاه اضهادات الكنيسة • إن للإسلام في تاريخ الغرب معنى عظيماً وأهمية كبيرة ، لم يستطع أحد بعد إدراك كنه ذلك وغايته • وقد حاول البعض إنكارها ، تعصباً ، كما

فعلوا بتعاليم الإســلام وما فيها من العقائد الظاهرة وتربيــة الأخلاق العاليــة » •

ويقول الباحث الألماني هورتن : « كان العرب في القرون الوسطى تقريباً إلى عام ١٥٠٠ أساتذة أوروبا ، ولم ينشأ ظن الأوروبيين بأن الدين الإسلامي لا يتمشى مع المدنية إلا عن جهلهم بهذا الدين وعدم تعمقهم في حقائقه • ونحن نجد في الاسلام اتحاد « الدين والعلم » ، وهــو الدين الوحيد الذي يوحّد بينهما ، ونجد فيه كيف أن الدين موضوع بدائرة العلم ، ونرى وجهة نظر الفيلسوف ، ووجهة نظر الفقيه ، سائرين معاً باتحاد ، ومتجاورين كتفاً لكتف دون نزاع » •

في اللغــة ايضــاً :

ثم جاءت كتابات تؤكــد أثر اللغة العربية في اللغات الأوروبيــة

يقول سيديو :

« إن مغازي العرب وإقامتهــم ، في القرنــين الثامن والحــادي عشر ، في جنوب فرنسا ، أسفرت ـــ ولا ريب ـــ عن آثار لا تزول في لغتنا ، وإن نفوذ العرب كان بادياً في مختلف أدوار حياتنا ، لا فرق في ذلك بين زمن الغزوات الأولى وزمن الحروب الصليبية • ومن المؤسف أن جهل أفضل علمائنا باللغة العربية التي حافظت على صفائها ـــ بفضل القرآن ، وهي أدعى اللغات إلى العجب ـــ جعلها حرفاً ناقصاً عندهم ، حتى انــه لم يدر في خلدهم أن الكلمات التي يفرضونهــا ، إيطالية أو أسبانية أو برتغالية ، عن أصل لا تيني ••• قد اقتبست من العربية » •

وكيف الأمر عن اللغــة العربية نفسها ؟ :

ذلك ما نرى أرنست رينان يصوره في كتابه عن اللغات السامية ، حين يقول : « إن من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره ،

انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء ذي بدء ، فبدأت فجأة في غاية الكمال سلسة أي سلاسة ، غنية أي غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهم ، فليس لها طفولة ، ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها مستحكمة ، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين عاماً ، حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية » •

ثم جاءت « سيغريد هونكه »

ومن خلال هذه المعاول المتوالية على جدار الصمت ، جاءت الدكتورة سيغريد هونكه لتقول كلمة الحق في كتابها « شمس الله تسطع على الغرب » :

« يبدو أن الأوان قد حان بالنسبة للغرب كي يتحدث بكل صدق وإخلاص عن العرب ، هذا الشعب الذي أثر ، بكل عمق ، في مجرى الأحداث العالمية ، والذي يدين له الغرب والإنسانية جمعاء بالشيء الكثير ، ولعل التعصب الديني هو الذي حمل الغرب دائماً على تشويه منجزات المسلمين والعرب العظيمة ، وطمس مساهمتهم الأساسية في الحضارة الأوروبية ، إن طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي ـ منذ ظهور الإسلام إلى يومنا الحاضر ـ لتبين كيف يمكن للعواطف والأهواء أن تملي التاريخ بصورة معينة ، أي بصورة مشوّهة ، وأبعد ما تكون عن الصدق ، ولكن هذه النظرة التي كانت سائدة في العصر الوسيط ، لم يعد يمكن القبول بها في الوقت الراهن •

حين كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى وجهالتها ، وقف المسلمون والعرب على أبوابها يرفعون مشعل الحضارة طول سبعة

قرون ، لشدما يغبن حقهم حين يكتفى بالقول : إنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم الغربي ، بعدما حفظوه من الدمار ، فذلك يعني ــ في الواقع ــ التقليل من قيمتهم ، والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضاري، وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير .

والحقيقة أن سائر مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الغرب مدموغة بآثارهم ، لقد كشف انتصار الإسلام وجـود عالم متوجه منذ أكثر من ألف عام نحو الشرق ، فأسرع الغرب يرفع تجـاه الغزو الإسلامي شعاراً جديداً اعتصم حوله طوال قرون » .

هذه هي الصورة موجزة : صورة الفعل ورد الفعل من جانب واحد، فالغرب هو الذي فرض « مؤامرة الصمت » على الدور التاريخي والعلمي المهم ، الذي قام به المسلمون خلال ألف عام تقريباً ، والذي نقل أوروبا إلى الحضارة . وهؤلاء الكتاب المنصفون وغيرهم هم الذين ضربـوا بالمعول في حاجز الصمت ضربات متوالية أصابت منه .

ولكن هل كان ذلك الصوت القوي حائلاً دون استمرار مؤسسات الاستشراق والإرساليات والغزو الثقافي والتغريب ، من موالاة انتقاص حق الإسلام ورسوله وتاريخه ولغته ؟

لقد توالت هذه الحملات وزادت عنفاً في السنوات الأخيرة ،حين أخذ الاستشراق الصهيوني يسيطر على « دوائر المعارف » العالميـة ، وكتابات التاريخ ، والجغرافيا ، والسياسة العالمية حول مواد : إسلام ، وعرب ، وفلسطين ، والقدس ، وابراهيم ، واسماعيل . فهذه كلها مواد في « دوائر المعارف » قد زيفت نصوصها ، وحرّفت على النحو الذي يخدم أهداف الصهيونية الباطلة .

ونحن نعرف أن هذا التيار من الإنصاف قد وجد فعلاً ، ولكنه

لا يزال غير قادر على تصحيح المفاهيم في الغرب ، ولا هو قادر على إقناع مجموعات من شباب العرب والإسلام ما يزالون مخدوعين بالزيف والشبهات المثارة •

ونحن حين نرص هذه النصوص ونقدمها لشبابنا ، إنما نريد أن نطلعهم على الحقيقة التي تحاول مؤسسات التغريب أن تخفيها ، وأن تنال منها ، والسر في ذلك واضح ويسير ، ذلك أن القوى الاستعمارية والغازية ــ غربية وماركسية وصهيونية ــ يجمعها هدف واحد ، هو السيطرة على هذه الأمة الإسلامية ، والسيطرة لا تكون إلا عن طريق احتواء الفكر وتزييف الحقائق ، وتغريب المفاهيم • ولما كانت دعوى الغرب أنه يحمل لواء تمدين البشرية ، فإنه بالتالي يحاول أن يصور هذه الأمم التي تقع تحت نفوذه السياسي أو الاقتصادي بالتخلف والتأخر ، ليسوغ وجوده ، ودوره في محاولة تمدينها ، وهو لذلك لا يريدها أن تعرف حقيقتها ، ولا تراثها ، ولا دورها الضخم الذي قامت به في سبيل بناء الحضارة وتمدين البشرية منذ أربعة عشر قرناً ، حين جاء الإسلام بأول دعوة إلى تحرير الإنسان من رق نفسه ، ورق أخيه ، ورق البداوة ، فكان الإسلام أول من قضى على عبودية الرومان والفرس والهنود والفراعنة ، وأعطى الإنسان ــ لأول مرة ــ الحق في أن يكون سيداً ، ثم هو الذي حرره أيضاً من الوثنية وعبادة الأصنام ، ووجّهه إلى عبادة الله وحده لا شريك له • ثم كانت دعوة الإسلام للإنسان للنظر في الكون واكتناه أسرار العمران ، هو مصدر الاقتدار الذي أعطي للمسلمين ــ حين أنشؤوا المنهج العلمي التجريبي ــ دعائم الحضارة الإنسانية الآن ، ولم يكن قبل ذلك •

إن على شبابنا المسلم ألا تخدعه زيوف التغريب ولا شبهات

الاستشراق ، ولا أوهام الدعوات الهدّامة ، وليعلم حقيقة هذا الدين الذي هو بمثابة منهج حياة ونظام ومجتمع ، والذي نقل البشريـة من عصور الظلام إلى عصر المدنية ، ودفع الإنسانية كلها إلى عصر جديد .

إن « مؤامرة الصمت » التي عاشت أوروبا تحيك خيوطها أكثر من أربعمائة عام ، قد تحطم جدارها بأيدي الغربيين المنصفين الذين عرفوا جوهر الإسلام وحقيقته .

* * *

الفصل السادس

الإسلام الحضاري والثقافي لا يكفي

انكشفت في السنوات الثلاثين الأخيرة وثائق كثيرة ، غيرت كثيرا من المسلمات الخاطئة التي كان التغريب والنفوذ الأجنبي قد امضى سنوات طويلة في غرسها وسقيها والدفاع عنها حتى تنمو في النفس المسلمة والعقل المسلم حتى جاء الوقت الذي تحطمت فيه قواعد الباطل ، وكشف نفسه ، ولعل اكثر هذه الاكاذيب انكشافا ما وقع حين فضح الله السرائر ، فحوصرت بروتوكولات حكماء صهيون في بازل عام ١٨٩٨ فكشفت الاطار تحت تلك المخططات التي وقعت والتي كشفت عنها السنوات المتوالية من بعـد ، واضيف إلى هذا ما كشفه مؤرخ لويس التاسع : اللورد جرانفيل عمـا اطلق عليه وثيقة حرب الكلمة في مواجهة الإسلام ، وكان ذلك ثمرة هزيمة الغرب في الحروب الصليبية ، وهزيمة لويس في المنصورة ((راجع كتابنا : الاسلام في وجه التغريب)) ثم توالت انكشافات الأسرار الخطيرة حين اعلن عن عقد المؤتمر العالمي للبهائية عام ١٩٦٨ في إسرائيل ، فظهرت بوضوح جذور تلك العلاقة القديمة بـين البهائية والصهيونية ، فقد اقام عباس البهاء في حيفا خلال الحرب العالمية الأولى للتمهيد للصهيونية في فلسطين .

ثم كشف بعض الباحثين من علماء النفس مدى الصلة العميقة بين نظرية فرويد في التحليل النفسي وبين ما جاء في التلمود من مفاهيم مسمومة لتدمير الجنس البشري « الاميون » أو ما يسمونه « الجوييم » وقد كتب الدكتور صبري جرجس مؤلفا ضخما كشف فيـه عن الأصول الأصيلة من التلمود لنظرية فرويد التي تقوم على الحقد اليهـودي على البشرية كلها ، ومنذ سنوات طويلة ، ظهرت مؤلفات كثيرة تكشف فلسفة الماسونية ، منها ما كتبه رجال اشتركوا في محافل الماسونية ، ووصلوا فيها إلى درجات عالية ، ثم انفصلوا عنها ، وكشفوا عن المؤامرة الخطيرة التي تخفيها حين تجند المسيحيين وبعض ضعاف النفوس من المسلمين في سبيل هدفها الأساسي ، وهو إقامة هيكل سليمان والتحضير للصهيونية التي استطاعت ــ بفضل المحافل الماسونية ــ أن تحقق ثلاثة أهـداف ضخمة في القرنين الماضيين وهي : الثورة الفرنسية التي حطمت القيود المفروضة على اليهود في أوروبا والتي كانت تحجبهم وتحجزهم داخـل « الجيتـو » •

والثورة الروسية التي وضعت الماركسية صناعة اليهود في مواجهة العالم الغربي •

وإسقاط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية لتمكين إسرائيل من الوصول إلى القدس بعد أن وقف السلطان عبد الحميد في وجه هـذه المحاولـة •

كذلك فقـد تكشفت العلاقـة بين اليهوديـة ، والماركسية ، وأنهمـا من نبع واحـد ، وأن أمهمـا اليهوديـة العالمية ، وأنهمـا مخططان يتفرقان مظهرا الآن وخلال مرحلـة معينة لاحتواء العالـم ، فالصهيونيـة تعمـل في المجال الرأسـمالي الغربي وتضغط عـلى

الدول الإسلامية لتلقي بنفسها في أتون الشيوعية تحت اسم مساعدتها على التحرر من النفوذ الغربي والأجنبي ، كذلك فقد انكشفت منـذ سنوات العلاقة العميقة بين فرويد صاحب مذهب الجنس الرامي إلى هدم البشرية ، وبين هرتزل صاحب فكرة الدولة اليهودية ، كما تكشفت العلاقة العميقة بين ماركس صاحب مذهب الشيوعية ، وبين الفيلسوف هيس صاحب فكرة الصهيونية الأول ، وتبين من بعد تبعية دوركايم والمدرسة الاجتماعية الفرنسية لماركس ، وتبعية الوجودية للتلمودية والماسونية .

وتكشف أيضا أن القانون الوضعي الذي أنشأه الغرب في العصر الحديث ، والذي فرض على العالم الإسلامي بعـد الاحتلال كان من صناعة التلمودية اليهودية لأنه حمى أساسين من أسس المؤامرة اليهودية وهمـا :

١ ـ الربا .   ٢ ـ الزنى .

فحاول دون توقيع العقوبات عليهما بل أباحهما ، وبذلك وضـع الحاجز الخطير في وجه تطبيق الشريعة الإسلامية في البلدان التي وصل اليها الاحتلال الغربي ، وكان الاحتلال الغربي مقدمة للنفوذ الشيوعي الماركسي خلال الحرب العالمية بعد اتفاق البلشفية والدول الاستعمارية على غزو المانيا والقضاء على النازية .

كل هذه الخيوط تكشفت واحدة بعد أخرى ، وأخذت تقدم في مجموعها للعالم الإسلامي خريطة واضحة للمؤامرة التي تدبر من أجل احتوائه وصهره في بوتقة الأممية ، والقضاء على ذاتيته ، ومن هنا كانت الدعوة إلى العلمانية في العالم الإسلامي ثمرة هذا المخطط المتكامـل « النفوذ الأجنبي الغربي + الشيوعية + الصهيونية » .

ولا يزال العالم الاسلامي تحت سيطرة القوى الغربية ، وبالرغم

من انكشاف هذه الخيوط يواجه أخطارا جسيمة في مجال الاقتصاد ، وهو محاصر بالربوية اليهودية ، وفي مجال القضاء والتشريع ، وهـو محاصر بالقانون الوضعي،وفي مجال الثقافةوالتعليم والتربية،وهو محاصر بمناهج الغرب والشرق المفروضة على شبابه في الجامعات تحت اسـم العلـوم ، وما هي الا فلسفات الفرويديـة والدارونيـة والماركسية والرأسمالية ، بل إن هناك خدعة كبرى ما زالت تجوز على كثـير من مثقفينا ، تلك هي الدعوة إلى الإسلام الحضاري والثقافي ، وتلك غايـة من غايات النفوذ الأجنبي والتغريب لأننا إذا اكتفينا بأن يكون الإسلام حضارة وثقافة ، فإننا سنظل إلى وقت بعيد غير قادين على تطبيق المنهج الإسلامي كنظام للحياة والمجتمع الإسلاميين •

ومن هنا كانت صيحة حركة اليقظة الإسلامية التي تصم الآذان ولا تتوقف :

الإســلام الحضاري والثقافي لا يكفي ولا بـد من الإســلام العقائـدي •

ولا شك أننا خدعنا في مرحلة من مراحل البحث عن الحق ، حـين دعينا إلى مفاهيم يطلق عليها أصحابها الإسلام الحضاري أو الإســلام الثقافي ، وخيل إلينا حينا أن هذا هو هدف الإسلام في العصر الحديث ، وأن هذا المنطق كاف لأن يحطم النفوذ الأجنبي وقواعد التغريب وقوائم الغزو الثقافي التي كانت قد أرست أعمدتها في قلب فكرنا ومجتمعنا •

ثم تبين لنا فساد هذه النظرية ، وأنها أشبه بنظرية الدعـوة إلى الإسلام عن طريق المنهج الفلسفي ، وقد قامت هذه الدعوة زمنا تحت اسم المتكلمين الجدد أو المعتزلة الجدد ، بل إن هناك من حاول القضاء على الدعوة الإســلامية وحركة اليقظة بتقديم بديل خطير هو كتابـة السيرة الإسلامية بأقلام براقة لامعة في مرحلة كتب فيها هيكل والعقاد

وتوفيق الحكيم كتبا في السـيرة أو القيومات ، والواقع أن الدعـوة الإسلامية في حاجة إلى من يأخذ بها من جميع أطرافها ، وأن يؤمن بها إيمان المسلمين الأولين بها : **على انها نظام مجتمع ومنهج حياة وشريعة تطبق ، فـلا اسلوب علماء الكلام والمعتزلة كـان مغنيا عن منهج القرآن الأصيل ، ولا كتابة السيرة كان دافعا لان يؤمن كتابها بتطبيق الإسـلام شريعة للمسلمين ، وكذلك** فقد دعينا إلى الإسلام الحضاري والإسـلام الثقافي ، وكانت هذه الدعـوة قاصرة أيضا وناقصة ومبتورة ، ما زلت أذكر حين ظهرت كتب في السيرة وتاريخ الاسلام وبهرت الناس ، وخيل لأصحابها أنها ستكون البديل الذي يقضي على الأصيل وكان أصحابها يكتبونها ، وهم يعلمون أنها محاولة لوقف تيار الشيوعية أو الدفاع عن الديمقراطية الغربية إلى أن وقف عالم إسلامي جليل يفاصل القوم ويومها قال لهم :

هل تؤمنون حقا بالإسلام كمنهج ونظام حياة مجتمع ، إن كنتـم كذلك فتعالوا معنا ، فصمتوا وانكشف أمرهم .

ذلك أن هؤلاء القوم كانوا يتصورون الإسـلام على أنه « دين أخلاق فردية وأحوال شخصية » وكان هذا هو التصور الذي بثتـه قوى الاستعمار والاستشراق والتبشير والغزو الثقافي والذي كـان أساس المناهج المدرسية والجامعية والثقافية في أرض الإسلام ، والواقع أنه لو كانت مهمة الإسلام ــ كما يقول استاذ جليل ــ في هذا الكون هي فقط تهذيب وتشذيب أخلاق الناس لما كان هناك داع تاريخي لكـل الفتوحات الإسلامية ، ولكل جنـد الإسلام ، ولكل السرايا القتاليـة المدججة بالسلاح التي كان يباركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كانت مهمة الإسلام تنحصر في إطار الأخلاق الفردية لما أرسل طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق ــ بالمعنى الحرفي للكلمة ــ

بيت سويلم على من فيه حيث يجتمع بعض المنافقين الذين كانوا يثبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك ، ولو كانت كذلك لما غزا وقاتل سبعا وعشرين غزوة قاتل عليه الصلاة والسلام من تسع غزوات منها بنفسه « بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح وحنين ، والطائف » ولو كان داعيا إصلاحيا لما لقي ما لقيه يوم أحد ، لقد كانت دعوته إعلانا عاما لتحرير الإنسان في الأرض إعلانا حركيا وإيجابيا ، يراد له التحقيق العلمي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده لا شريك له • وإن المسلمين لن ينصلح أمرهم في آخرهم الا بما صلح به أمرهم في أولهم ، والغربيون المتآمرون على الإسلام يعرفون ذلك ، ويخشونه ويحولون بكل وسائلهم دون وقوعه ، وقد استطاعت تجربتهم أن تحقق ذلك لما يقع فيه المسلمون من غفلة إبان الأزمات ، وما اعتقد أن التجربة الخطيرة والمؤامرة الكبرى التي سجلها لويس التاسع في وثيقة له عن الاتجاه إلى حرب الإسلام عن طريق الكلمة والعمل على تزييف مفهوم الإسلام نفسه في نفوس المسلمين عن طريق التبشير والاستشراق والتغريب والقضاء على مفهوم الجهاد بمعناه الأصيل على النحو الذي حملته دعوات القاديانية والأحمدية والبهائية ، وعززته مناهج التعليم في البلاد الاسلامية المستعمرة ، وفتح باب التأويل للجهاد النفسي وغيره ، إنما كان كل هذا بهدف توهين إيمان المسلمين بقوة عقيدتهم ، هذه الخطة تبين أنها كانت أقدم من ذلك ، وأنها لم تكن على أثر الحروب الصليبية ، وإنما قبل ذلك في الأندلس في أيام ملوك الطوائف ـ وبينهما قرنين كاملين ـ تقول الرواية : إن الاتفاقات التي عقدت بين المسلمين والنصارى حملت بذرة الغزو الثقافي ، فقد اتفقوا [illegible] ما يسمى التبادل

الثقافي وإنشاء المدارس ، وكانت هذه هي نقطة الهزيمة ، فقد قال القائد براقـا : « **إن العرب يحافظون على دينهم وعـلى حريمهم ، وقـد تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكنهم قوم كرام صادقون يابون الكذب، فهم يخدعون بسهولة بالظواهر المموهة ، فاجعلوا بينهم وبينكم معاهـدة على حرية الدين والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لرهبانكم طريقا ، بها يبثون التعاليم بين اطفالهم ، فان لم يبتغوا دينكم ، فهم ـ على الأقل ـ يهملـون الحمية الدينية التي تحببهم إلى الحرب ، اما حرية التعليم ، فإنها تولد لهم غلمانا شـؤما عليهم لأنهم يكونون شغوفـين بحب معلميهم ، وبذلك يبتعدون عن محبـة وطنهم ، اما حرية التجارة فهي التي تضعضع شـيئا فشيئا تمسكهم بازيائهم فضلا عن تجارة الخمر ، فهي الآن محرمة ، فمتى شاعت فيهم اقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة ، وفشا بينهم الشر ، وساءت حالهم ، ولا تنس ان التانق في النعمة والبذخ والإسـراف في الشهوات وإهمال سير الآباء والاجداد من اقوى اساليب انحطاط الممالك القويـة** » .

وهكذا كانت المؤامرة في خيوطها المرسومة ، وقد جاءت النهاية محققة لما خطط ، وضاعت الأندلس لقد دخلت الأندلس في مجال الترف ، وغرق أمـراء إشبيلية وطليطلة وبلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء بالانحـلال والفساد ، نعال أفراسهم ذهب ابريز ، وقصورهم مليئة بالتماثيل من الفضة والذهب ، والمبشرون قد زادوا عن الالف ، واتسعت مدارسهم ، وأنفق البابا من خزينته خمسمائة ألف فلورين كل عام لترويج الخمر ، وأقبـل العرب عـلى مدارس التبشير المجانية ، واختلطـوا بالقسس والرهبان ، وانكسرت الذاتية الإسلامية وانصهر المسلمون في الفكر المسيحي الغربي، تلك هي خطـة انهيار الأندلس التي لا بد أن يكون قد رسمهـا لويس

التاسع ، وهو يضع وصيته المعروفة ، وكان هذا وذاك هو التراث الذي قامت عليه في العصر الحديث مدارس الارساليات التبشيرية ، ومعاهد الاستشراق والكوليج دي فرانس وغيرها من المعاهد التي احتوت شباب الإسلام الذي ذهب الى الغرب ، فعاد إلى بلاده يعمل باسم الحضارة والعلمانية ، ويحب خصوم أمته ، ويقتدي بهم ، ويرى أن تاريخهم هو تاريخ البطولة ، وأن لغتهم هي لغة المدنية ، وفي هذه المصيدة سقط كثير من أبناء المسلمين ٠

فليذكر قومنا ــ وهم على مشارف القرن الخامس عشر الهجري ــ هذا المخطط الرهيب ، وليكن لهم في انكشاف تلك الخيوط واحدة تلو أخرى حجة ومنار يقفون عنه ليجددوا خططهم على نحو يحفظ لهم أول ما يحفظ ذاتيتهم التي صنعها لهم الإسلام حتى لا يضيعوا في شتات الأمم ، ولا ينصهروا في الحضارات التي تمر بآخر مراحلها ، وليعلمو أنهم قد أعدهم القرآن أساسا ليقدموا رسالة التوحيد الخالص إلى البشرية ، وأن يقدموا من مجتمعهم نموذجا تقتفيه البشرية ، وتراه المنار العالي الذي يحررها من الوثنية والمادية والإباحية التي تتردى فيها الحضارة البشرية اليوم ٠

الفصل السابع

أخطر ما يواجه عالم الإسلام اليوم

إن أخطر ما يواجه عالم الاسلام المعاصر : تلك المحاولة الدائبة الخطيرة من الدوائر الأجنبية والوافدة ، وهي محاولة فرض وجهة نظر الغرب على العالم كله ، وخاصة في مجال الثقافة والاقتصاد والاجتماع .

وتتخذ تلك المحاولة أسلوبا ماكرا يرمي إلى احتواء الثقافات العريقة العريقة ، وذلك بالتشكيك فيها ، وإثارة الشبهات أمام قيمها الأساسية لتسقط في نظر أهلها ، وخاصة الشباب الذي لم تكتمل ثقافته والذي حجبت عنه المناهج الوافدة أبعاد حضارته الإسلامية ومقومات فكره الأصيلة من خلال ركام مسموم مطروح في سوق القراءة والمدرسة والصحافة ، يقوم على كتابات غير مسؤولة عن الجنس والمرأة والحب والهوى والاغتصاب تظاهرها القصة بكل صورها المترجمة والمؤلفة ، بالإضافة إلى ما يقدمه المسرح ، وتقدمه السينما ، وتقدمه الإذاعة والتلفاز من مسلسلات تستهدف التسليم ، ولكنها تنحرف عن الهدف لتقدم أفكارا ومفاهيم متعارضة تماما مع قيم الأخلاق والعقيدة وغير مطابقة تماما لقيم الأمم العربية الإسلامية التي تقوم على العرض والكرامة والغيرة والفضيلة ، ولعل أخطر وجوه الخلاف بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي

إنما ينصب على ركائزه الإنسانية وقيمه الاجتماعية التي تستمد وجودها من الفطرة هو حول الإنسان نفسه ، فمفهوم الإسلام للإنسان مفهــوم جامع متكامل ، يتناوله مادة وروحا ، ويعالجه جسدا وعقلا وروحا ، ولا يفرق بين مادياته ومعنوياته ، كما تفرق الفلسفات المادية التي تنظر إليه على أنه « حيوان جنسي أو حيوان طعام » على النحو الذي يقدمه فرويد وماركس في كــلا الفلسفتين الماركسية والغربية ، من شأن هــذا الخلاف بين مفهوم الإسلام ومفهوم الأيديولوجيتين الغالبتين على العالم الغربي أن يكون بعيــد الأثر في كل شــيء : في الاجتماع والسياســة والاقتصاد والأدب والفن ، فالمسلم يفهم أنه صاحب رسالة ومسؤوليــة والتزام أخلاقي ، وأنه يعمل لتحقيق المجتمع الرباني في الأرض وفق شرعة يعرف فيها الحلال والحرام والخير والشر والحق والباطل ، فهو لا يترك الحضارة تندفع في طريقها إلى الأهواء والشهوات والغايات المضلة ، ولكنه يحاكمها إلى شرعة الله ، فيذللها لتكون ربانية تحقق الخير للبشر جميعا ، وتوزع معطياتها على الناس جميعا ولا تخص به جنساً أو طائفة أو أمــة ، وتحرمه على الآخرين ، وهي لا توجه نتاج العلم إلى الحرب والابادة ، ولا تفرض وجودها بقوة الحديد والنار على الامم المستضعفة ، وهي لا تقبل من الحضارة الغربية في بلادها إلا تلك الجوانب الإيجابية ، وخاصة ما يتعلق بالعلم والتكنولوجيا ، وترفض في صراحة ووضوح اســلوب العيش الغربي الذي يقوم على أساس الإباحية والتحلل والترف ، وترى أنه هو مصدر أزمــة الإنسان المعاصر التي دفعته إلى التمزق والغربــة وتفكك الأسرة وفساد المجتمعات ، ويقف الإسلام موقفا واضحا صريحا وحاسما في أكبر هذه القضايا ، وهي قضية تحطيم الحاجز الخلقي بــين الرجــل والمرأة وتذليل المرأة لتكون اداة الفساد والاباحة تحت اســم

الحرية والانطلاق ، حيث تندفع المرأة لتقدم كرامتها وعرضها في سبيل الأهواء الاجتماعية المحرمة ، وحيث تفقد مكانها الأصيل في المجتمع ، ودورها الخطير ومسؤوليتها في بناء الأسرة والأطفال •

إن كل المحاولات التي نراها اليوم عن طريق المسرحيات والقصص والصور العارية ، والأغاني الجارحة إنما تستهدف هذه الغاية الخطيرة التي تحشد لها الماسونية والصهيونية واليهودية العالمية قواها كلها عن طريق الأفلام السينمائية الإباحية المبثوثة الآن في العالم كله ، والتي نرى الشركات السينمائية في البلاد الاسلامية والعربية تخضع لهذا التيار مع الأسف ، وتبلغ فيه أحيانا مرحلة أشد سوءا من الفيلم الأجنبي •

إن إخراج المرأة المسلمة من بيتها تحت أي تأثير أو إغراء ، إنما يستهدف أساسا تدمير هذا البيت وتحطيم الأجيال الجديدة التي هي في أشد حاجة إلى الرعاية الدائمة المستمرة ، لا أقول : يوما بعد يوم بالنسبة للاطفال ، ولكن ساعة بعد ساعة •

إن الغرب ــ بشقيه ــ ومن خلال مطامعه الصهيونية أو الشيوعية أو الاستعمارية والغربية ــ إنما يهدف إلى احتواء المجتمع الإسلامي واخضاعه لنفوذه عن طريق إخضاعه لفكره ومفاهيمه حتى يسقط في حمأة التبعية،وينصهر في بوتقة الأممية العالمية،وتنتسخ عنه تلك الذاتية الإسلامية الإنسانية الربانية التي يتميز بها عالم الإسلام ، والتي يجب أن يموت آخر مسلم في سبيل الحفاظ عليها وحمايتها والدفاع عنها ، وإلا فسيصبح المسلمون قطيعا هملا لا وزن لهم في الأمم ، لأن الأمم توزن بذاتيتها وقيمها وكيانها الخاص الذي قام على أساس عقيدتها ومفاهيمها • ولا ريب أن محاولة تدمير ذاتية الأمة الاسلامية اليوم هو من أكبر أهداف القوى الثلاثة •

علينا أن نذكر أن هناك خمس جداول من السموم تصب في نهـر الفكر الاسـلامي اليوم : أحدها : يتصل بالتعليم والتربيـة عن طريق التبشير الغربي .

والآخر : يتصل بالثقافة عن طريق الاستشراق .

والثالث : يتصـل بالعلوم الاجتماعيـة الانسانية ، وهو الفكـر الصهيـوني .

والرابع : يتصل بالاقتصاد والاجتماع ، وهو الفكر الماركسي .

والخامس : يتصل بالسياسة ، وهو النظام الغربي الليبرالي .

وهناك ثلاث تحديات : تحدي الجبريـة الوافـدة من التصوف الفلسفي القائم على وحدة الوجود والحلول والاتحـاد ، وهي مفاهيم متصلة بالأديان الوضعية والوثنية والمعددة .

وهنـاك تحـدي التغريب القـادم مـع المذاهب والفلسـفات والأيديولوجيات الوافـدة .

وهناك تحدي الشعوبية المنبعث من الفرق والنحل الداخلية مثل : القاديانية والبهائية والباطنية ، ومن أخطر ما يلقى في أفق الفكر الإسلامي:

١ ــ مناهج التربية الغربية خاصة منهج ديوي الذي يستبعد الدين والأخلاق ، وهو المذهب الذي توجد له مدرسة في البلاد العربية ، تدعو له وتقوم عليه ، وتعقد المؤتمرات لتستوعب رجال التربيـة والتعليم ، وتخرجهم من مفاهيم التربية الإسلامية ، وهم الذين يقولون : إن غايـة التربية ليست الأخلاق ، والذين يأخذون بالتجربة في المجتمع والتي تقيم مناهجها على اللادينية والتحرر والاختلاط ، و لاترى عيبا في التجربـة الجنسـية .

٢ ــ الدعوة إلى إطلاق التغيير والقول بأنه لا يوجد في الكون

شيء ثابت ، وكل شيء يتغير ، ويستهدف هذا القول إنكار القيم الدينية والأخلاق الثابتة وقيم الخير والشر والحق والباطل ، والحلال والحــرام والفضيلــة والرذيلــة •

ويقرر الإسلام أن هناك ثوابت أساسية ، وأن هناك متغيرات هي بمثابة الفروع التي تتصل بحركة الحياة والتي تتحرك في إطار ثابت •

٣ ــ القول بنسبية الأخلاق ، وبأن الأخلاق متصلة بالجامعــات ، والعصور تتغير بتغيرها ، والإسلام لا يقر هذه النظرية ، ويقرر أن الأخلاق ثابتة ومتصلة بالعقيدة ، وأنها من عند الله ، وأنها قائمة بالحق إلى نهايــة الحياة على الارض ، أما المتغير فليست هي الأخلاق ، ولكنها التقاليــد التي يضعها الإنسان ، وتقرها المجتمعات في مرحلة من المراحل أو عصر من العصور أو بيئة من البيئات •

ولقد حاول الفكر الغربي الوافــد ــ في مجال التغريب والغزو الثقافي واحتواء الشخصية الإنسانية الإسلامية وتدميرها ــ أن يقــدم عدة مفاهيم مسمومة يجب التحرر منها والحذر من خطرها •

فقد طرحت المناهج الفرويديــة نظرية المادية والإلحاد والشــك واللاارادية ، وطرحت فكرة مسمومة تقول بأن الأديان تنبت من الأرض ، ولم تنزل من السماء ، وأنها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، وهي نظرية فاسدة ، لم يقل بها إلا دعاة المادية وفلاسفة اليهود •

كذلك فقد طرحت هذه المناهج فكرة فاسدة تقول بأن البشريــة ميراث وثنية ، ثم عرفت التوحيد بنزول الأديان الثلاثة الموجودة الآن ، وهذه النظرية تغض من شــأن حقيقة خطيرة ، وهي أن البشريــة بدأت موحدة ، وأن الأديان السماوية تنزلت منذ أول البشرية ، ولم تتوقف ثمة ، وأن ظاهرة الوثنية كانت تحاول أن تظهر على ظاهرة التوحيــد ،

ثم تنهار ، وتظهر مرة أخرى ، وأن الأديان السماوية الثلاث المحصورة الآن لم تكن إلا المرحلة الأخيرة من دعوة التوحيد ورسالة السماء الممتدة من آدم ونوح ، ومن الأسف أن كثيرا من المفكرين لم ينتبه إلى هذه الحقيقة .

وهناك نظرية أخرى فاسدة ما يزال يرددها البعض ، وهي نظرية أن الدين مجرد علاقة بين الإنسان والله تبارك وتعالى فقط ، والحقيقة أن الدين الحق المنزل من عند الله كان دوما جامعا بين العلاقتين : العلاقة بين الخلق وبين الله تبارك وتعالى تحت اسم العقيدة ، وبين الخلق أنفسهم ــ المجتمعات ــ وهو ما يسمى الشريعة والأخلاق ، وأن فكرة تجزئة الدين وتصوره علاقة بين الإنسان والله تبارك وتعالى كان واحدا من نتائج المحاولات الغربية لتدمير مفهوم الإسلام وفرض القوانين الوضعية بديلا عن الشريعة الاسلامية إبان احتلال الغرب لبلاد الإسلام .

كذلك فان من أخطر الأفكار التي يروجها الاستشراق والتبشير الغربي هي فكرة أن الدين مانع من الترقي والتجدد ، وهي فكرة مصدرها الصدام الذي وقع في الغرب بين رجال العلم ورجال الدين ذلك أن الدين الحق هو مصدر التقدم ، والحضارات القائمة في العالم اليوم إنما قامت على أساس أديان ، وليس العكس هو الصحيح ، فان الحضارة حين تتحرر من ضوابط الدين ، فانها تفسد وتتحلل وتسقط .

وهناك دعوة المدرسة الاجتماعية التي تصدر عن الفكر المادي واليهودي أصلا إلى هدم الأسرة وذلك بالقول بأنها ليست الفطرة ، والواقع أن الأسرة كانت وما زالت ــ على مدى العصور ــ مقوما أساسيا للمجتمعات ، وقد دعت الأديان إلى حمايتها وتأكيد وجودها .

ومن محاولات التغريب والغزو الثقافي لهدم المجتمعات الاسلامية

إثارة العصبيات والعرق والعنصرية عن طريق دعوات متعددة ونظريات متضاربة ، قوامها مفهوم الإقليمية أو القوميات الضيقة أو نظريات الغرب في مجال الأمم والشعوب ، وللاسلام مفهومه الجامع الواسع الذي يقوم على التقاء الأمم وتعارفها والترابط بينها ، خاصة ما كان منها متصلا بالعقيدة والفكر والثقافة واللغة ، وجامع ذلك كله القرآن .

كذلك فان هناك محاولة لإخراج اللغة العربية عن مفهومها الخاص بوصفها لغة القرآن وفرض مناهج علم اللغات ــ المستمد من اللغات الغربية ــ للتحكم فيها ، وهي مناهج غير صالحة لأن القرآن قد أعطى اللغة العربية مفهوما مزدوجا ، فقد جعلها لغة مائة مليون عربي في مجال السياسة والاقتصاد ، وجعلها لغة ألف مليون مسلم في مجال العقيدة والثقافة .

الباب الخامس عشر

الكلمة المسلمة

أولا : الكلمة المسلمة

ثانيا : نظرة الإسلام (التكامل ـ التوحيد ـ الذاتية)

الفصل الأول

الكلمة المسلمة

إن أبرز ما تمثله الكلمة المسلمة أنها واضحة نقية لا تختلف الآراء فيها ، ولا تحتمل الحق والباطل ، وأنها تهدي القلب والعقل ، وليست ذات طابع علمي براق ، يحاول أن يخفي من ورائه الزيف ، وأن الصدق تعبير لها ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » إنها هي الكلمة المتحررة من الذاتية وأهوائها المتلاقية مع الفطرة ومع العقل ومع سنن الكون ، ومع طبائع المجتمعات ، ذلك لأنها من عند الله الحق . ولذلك فهي تختلف عن النظرية البشرية وعن القصة الفنية ، لأنها لا ترمي إلى تحويل أهوال البشرية إلى منهج اجتماعي أو تحويل الخيالات والأساطير والأوهام إلى صورة الحياة،ذلك أن الاسلام إنما يريد أن يكون الانسان ربانياًوأن يعيش واقعه ، ويكره له أن يزيف الواقع ليخرج من مسؤولية الحياة إلى خداع الخيال وحذر الخرافة ، أو أن يبدل خلق الله وصوره الواقعة ، ولا يقر الإسلام محاولة إقامة عالم جديد خيالي مختلف عن عالم الواقع وتحكيمه قضايا المجتمعات والإنسان والحياة .

إن أبرز ما في الكلمة أنها دعوة إلى المسؤولية الفردية مرتبطة بالجزاء ، فهي لا تحمل مسؤولية العمل في الدنيا لا إلى خطيئة فردية ولا إلى مسؤولية أحد غير الإنسان نفسه المكلف الذي حمل الأمانة ،

واستخلف في الأرض ، والحق في الإسلام واحـد ، فالإسلام يرفض نظرية ازدواج الحق ، والإيمان في الإسلام واحد ، فلا يكون المسلم مؤمناً بضميره ، كافراً بعقله ، كما يقول فولتير ودعاة الإلحاد والإباحية .

والمسلمون ليسوا مثاليين يعيشون في خيال النظرة المطلقة وصورة الأيتوبيا التي لا تتحقق أبداً ، وليسوا واقعيين بمعنى قبول الأمر الواقع ، ولكنهم إنسانيون يجمعون بين المثل الأعلى الذي جاء به القرآن والنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ويحاولون إصلاح الحياة لتسير عليه وتقترب منه ، وهم لا يبررون الواقع ، ولا يقبلون من الحضارة ما يختلف مع الأصول العامة لدينهم ، ويرون التقدم جامعاً بين المعنوي والمادي ، وأن للمادي القدرة على سحق المعنوي ، وكذلك أمرهم بالنسبة للنفس والجسم ، وبالنسبة للدنيا والآخرة ، مواءمة وتوازن والتقاء بين الأطراف دون إعلاء الوجدان على العقل أو العقل على الوجدان ، وإدراك لقدرة العلم في تفسير ظواهر الأشياء وعجزه عن معرفة أسرار الوجود ، وإيمان بأن العقل مصباح وزيته الوحي الذي يستنير به ، وأنه جهاز له قدرته المحدودة ووظيفته الخاصة ، فليس له أن يواجه ما فوق قدرته من البحث في عالم الغيب أو ما وراء المادة ، ومن هنا خطأ خضوع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية . وليس في الكلمة الإسلامية أن العقل يحتقر الجسم ويخشاه ، ولكن العقل يعترف برغبات الجسد ، ويدعوه إلى ممارستها في إطارها الصحيح ووفق ضوابطها وحدودها التي جاء بها الدين الحق .

والكلمة المسلمة تقيم نظام الثوابت إطاراً للمتغيرات ، وتؤمن بالحركة والتطور داخل هذا الإطار لا خارجه ، ومعنى هذا أن الفكر

والمادة يتحركان ، ولايسبق أحدهما الآخر ، وأن الفرد والمجتمع يلتقيان ، وأن الفردية والجماعية يتكاملان . وتريد الكلمة المسلمة أن تهدي البشرية إلى ربها وخالقها ، إلى صانع النواميس والسنن والقوانين التي أدركها الإنسان ، فأغفلته عن مصدرها ومعلمها ، فهو خالق الكون من العدم ، وممسكه أن يزول ، ومحركه لحظة بعد لحظة ، والمتصرف فيه ، وهو وحده القادر على مخالفة هذه السنن وإبطالها إن شاء ، وتريد البشرية بفكرها وفلسفتها ونظرياتها أن تقود إلى الضلال والباطل والهوى ، وتريد الكلمة المسلمة أن تردها إلى الهدىٰ والحق والشريعة والإيمان ، ولقد أعطى العلم وأعطت الحضارة ترفاً ورفاهية ومتعة ذاخرة ، فهل عرف الإنسان مصدرها الحق ، وهل أسعدت الإنسان وأعطته مجتمع الطمأنينة النفسية ؟ .

بالعكس لقد جاء مع الترف والرفاهية التمزق والشك والحيرة والقلق والضياع ، لأن الإنسان عجز أن يعرف نفسه ، وكيف يعرف نفسه عن طريق مناهج ليست أهلاً لاستيعاب هذا الفهم ؟ .

إن لمعرفة النفس طريقاً واحداً هو الذي دل عليه صانع هذه النفس وخالقها ومنشئها : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) [الملك : ١٧]

أما العلم التجريبي فإن مهمته تقف عند ظواهر الأشياء المادية ، والإنسان ليس شيئا ماديا ، إنه مادة وزيادة ، إنه مادة وروح ، ومن هنا فإن الكلمة المسلمة تستطيع أن تهدي الإنسان إلى ماهيته وهويته ورسالته وأمانته ، ولن تهديه الفلسفة ولا المناهج ولا النظريات ، وأعجز الناس عن ذلك أصحاب المدرسة الاجتماعية والتحليل النفسي والوجودية لأمر واحد ، لأنهم يفكرون في الإنسان منذ النظرة الأولى على أنه مادة ، وبذلك يعجزون عن اكتشاف العبادة الحقيقية ، وبذلك فإن كل ما يقدمونه له بديلا عن الدين الحق يزيد من أزمته ولا يشفيه ، لأنه يقوم

على علاج شق على حساب شق آخر .

إن الفطرة الإنسانية في الإنسان الغربي المعاصر تصرخ مطالبة بحق الشق غير المادي،لقد صنع الله الإنسان من الطين ومن نفخة الروح،أما العطاء كله في الغرب فإنه يقدم اليوم للطين ، وأما نفخة الروح فهي آسية لأن لها أشواقها إلى الملأ الأعلى وإلى القيم وإلى الرحمة والحنان وإلى السكينة والطمأنينة .

إن في الإسلام شفاء الصدور وعطاء الروح غير منفصل ولا مستقل بنفسه ، ولكنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة البشرية الجامعة ، إن الكلمة المسلمة تؤمن بقوة خالقة من وراء الإنسان ، والإنسان مستخلف في الأرض ومسؤول ، وتؤمن بالتزام أخلاقي بطبع الحياة والحركة والمجتمع، وتؤمن بأن القيم فيه البذل والعطاء والجهاد والإنصاف من النفس واتقاء شح النفس والارتفاع فوق الأهواء والرغبات المذلة .

ليست الكلمة المسلمة تصوراً مادياً ، ولا تصوراً فلسفياً ، ولكنه تصور إنساني يقوم على التوحيد والأخلاق ، ويربط بين الكلمة والسلوك وبين العلم والعمل ، وبين الدنيا والآخرة ، ولقد دعت الكلمة إلى التحذير من الانقطاع من الدنيا كالبوذية ، أو عبادة المال كاليهودية ، أو الغرائز كالايتصورية ، أو عبادة الأبطال كالهلينية ، كما رفضت وحدة الوجود والحلول والاتحاد والنرفانا عن طريق الرهبانية المنطوية كما رفضت الإباحية المطلقة وعبادة الحياة والذات ، لأنها أرادت أن تنشيء لسانا صلباً قادراً على التكليف وحمل الأمانة والاستخلاف في الأرض .

ولقد جاءت الكلمة المسلمة بالأخوة العالمية قائمة على قانون الأخلاق وجاءت بالتحرر من عبودية الفر للفرد ، ومن عبودية النفس والعقل للأوثان ، وجاءت الكلمة المسلمة محررة لرسالة الدين الحق ، ومصححة

للإفتراءات ولسوء الفهم ولأخطاء التفسيرات الضالة ، ولما كانت الكلمة الإسلامية من عند الله قائمة على الفطرة ، فإنها منذ وجدت فإنها لم تمت، ولم يتغلب عليها متغلب ، وما تزال تدافع في قوة إلى كل مجتمع وإلى كل أرض ، لم تخضع لقوانين التطور ولا لنظام التجربة والخطأ ، ولم تجد حاجة إلى التعديل والإصلاح ، وما زالت منذ أربعة عشر قرنا إلى هـذه اللحظة قائمة تعجز وتتحدى البلغاء والعلماء أن يأتوا بآية من مثلهـا ، وذلك هو الفرق العميق بينها وبين الكلمة البشرية التي هي من صنـع الإنسان وعقل الإنسان وهوى الإنسان ، فهي عرضة على الدوام — وفي كل لحظة — إلى التحوير والتعبير ، لأنها لا تستطيع مواجهة التغييرات الدائمة في الزمان والمكان ، ولا تتمتع بصفة الصحة المطلقة أو الأصالـة الثابتة • ولقـد اتخذت الكلمة المسلمة أسلوب القرآن ، لا أسـلوب المنطق ، ولا الشك الفلسفي ، ولا الجدل العقيم ، لقد اتخذت أسلوب الفطرة ، فاستطاعت أن تقنع راعي الغنم وتاجر القوافل والصياد والأمي والمرأة والطفل بعيداً عن التعقيدات العقلية والمنطقية ، وذلك هو طريق النبوة ، هو أصدق طريق للناس إلى يوم الدين •

لقد اختار الله لهذه البشرية في ختامها الإسلام ديناً ومحمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً ، والعربية لغة ، والقرآن كتاباً ، وجعل اللغـة العربية لغة أهل الجنة ، ومن ثم فقد حق أن نعتز بالبيان العربي حتى لا ينفصل عن مستوى القرآن ، وأن محاربة البيان العربي هي دعوة للإنفصال من القرآن والسنة والتراث الأصيل •

ولقد اختار الله الكلمة المسلمة أن يكون لها ميراث الأرض ، ميراث النبوات كلهـا ، وميراث إبراهيم ، فأعطى القرآن عصارة ما في الكتب السماويـة لها ، وأعطى لمحمد ميراث إبراهيـم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله • وأظهر الإسلام على الدين لله ،

وجعل القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، والكلمة المسلمة سمحة ، فهي تقول بتذليل الطبيعة لا تحدي الطبيعة ، وباتقاء الأجيال لا صراع الأجيال ، وبتلاؤم الانسان مع الظروف ، ولا تقول : الإنسان قاهر الطبيعة ، والكلمة المسلمة واسعة الآفاق عريضة الأبعاد ، ليست محبوسة في قمقم أو محصورة في دائرة مظلمة ، فهي تنظر إلى الأفق ، وتعجب لقدرة الله ، وتعرف أن وراء هذا الأفق كوناً واسعاً عجيباً : (فلا أقسم بمواقع النجوم • وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) [الواقعة : ٣٥] وهي تعرف الطب وتعلم أن الله هو من وراء الشفاء ، وتعرف الماء ، وتعلن أن الله من وراء العطاء ، وتسعى إلى الأمر، وتعلم أن الله هو الذي يفتح القلوب ، فإذا أعجب البحر الشعراء فلا يقفون عند جماله وسحره ، بل يعجبون لقدرة الخالق وعظمة الصانع •

والكلمة المسلمة تقرر بأن الإنسان لا يستطيع أن يفهم هذا الوجود وهذه الحياة إلا بعون الله الذي هو الوحي ، وأن الحياة لا تستطيع أن تنفصل عن عطاء السماء ، وأن الكلمة المسلمة تستطيع أن تصحح الطريق، وتحرر النفس من الزيف المثار في طريقها ، وتعود بها إلى الأصالة •

وإن أبرز معطيات الكلمة المسلمة التناصح والتواصي بالحق والصبر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصاحب الكلمة المسلمة إنما يستمد إيمانه من الله ، ويستمد ثروته من القرآن ، ويستمد تراثه من ميراث النبوة والأبرار الذين ساروا على طريق الله ، ويكون في دعوته وكتاباته مطابقاً للآية الكريمة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً) [القصص : ٨٣] فهو لا ينكر العلم ولا يكتمه ، وهو لا يشتري بالحق ثمناً قليلاً ، ولا يكون أبداً أداة لتزييف الحق أو تضليل الناس ، أو إعلاء شأن الأهواء وخداع الناس بها تحت

عناوين الفكر الحر والانطلاق والتقدم .

وآخر ما يرد على هذا الخاطر في شأن الكلمة المسلمة أن العبرة ليست بالتفوق التكنولوجي ، بل العبرة بإقامة المنهج الرباني المصدر ، والحفاظ على الذاتية الإسلامية ، والحضارة هي القيم الموجهة إلى تحرير الإنسان من عبودية الإنسان ومن عبودية الوثنية والمادية ، هي القوة التي توجه الإنسان إلى التماس التقدم بالتزام أخلاقي ، ومن الحق أن يقال : عند ما تغرب الفكرة يبزغ الصنم .

* * *

الفصل الثاني

نظرة الإسلام

التكامل ـ التوحيد ـ الذاتية

إن هناك حقيقة يجب ألا تغيب عنا في معترك كفاحنا اليوم هي أن في كل معضلة أو قضية نظرتين : نظرة أصيلة . ونظرة وافدة .

حين انحرفت الذات العربية الإسلامية عن مقوماتها النفسية والروحية والاجتماعية المنبثقة عن الإسلام نشأت منطقة فراغ استغلها الاستعمار والتغريب لملئها والسيطرة عليها . لقد كانت مهمة النفوذ الأجنبي أن يعمل على تفريغ الأمة العربية من محتواها العقائدي ، وذلك حتى يجعلها مؤهلة لتقبل مفاهيم أخرى ، فإذا جاء هذا الجديد لم يجد حصانة ترده ، ولم يجد من الأصول العربية الإسلامية ما يدحضه ويكشف زيفه ، أو يحول دون تقبله ، أو يعطي القدرة على المقارنة .

لذلك فإن أهم ما يلقى الآن للنفس العربية الإسلامية أن هناك نظرتين : نظرة عربية إسلامية ، ونظرة وافدة .

الأولى : أصيلة ومستمدة من قيمنا ومفاهيمنا ، والأخرى قد نبتت في بيئة مختلفة ، لها دوافعها وتحدياتها وخصائص أهلها وأرضها وذاتيتها ، ما أجدرنا أن نتلفت في وعي كامل إلى هذه الفوارق في كل

أمر ومذهب ودعوة ، ونعرف مدى الخطر الذي نحن مسوقون إليه إذا تخطينا مفاهيمنا واعتنقنا مفاهيم غيرنا .

إن هناك نماذج متعددة في مختلف الميادين مطروحة أمامنا ، لها طابعها المغري وظاهرها البراق ، تحاول أن تدعونا ، ومن ورائها إحساس ما يزال يغمر نفوسنا في ظل تحديات النكسة . وظروف الأزمة قد يلقي إلينا أنه التماس نماذج الآخرين ربما يكون هو المخرج ، أو الحل أو السبيل إلى الخروج من الأزمة .

ولقد ارتفعت أصوات كثيرة ليست مخلصة في نصحنا ، وربما ليست واعية لأبعاد قضايا الالتقاء والاختلاف بين الأمم ، في ظل تحديات التقليد والأصالة ، وتأكيد الذات وتذويبها . ولقد عرفنا الحقيقة لعرفنا أن الخطر كله قد أخذ يجتاحنا منذ أن غفلنا عن الفارق الدقيق بين الأصالة والتبعية ، يوم بهرتنا الصور الغربية ، وظننا أننا حين ننقلها نصبح كالغربيين ، وغفلنا عن أن الترياق الذي يشفي واحداً قد يقتل آخرين .

وكانت الحقيقة الغائبة عنا أن لنا منهجاً كاملاً ، وأن هذا المنهج قد رسم لنا في السطر الأول منه عوامل النصر وعوامل الهزيمة ، وكشف لنا عن مفهوم التقدم ، وعن أسلوب المواجهة والحفاظ على الكيان ، وأمدنا — بل أمد الإنسانية كلها — بالحقيقة التي ليس بعدها إلا الضلال.

غفلنا عن هذا المنهج ، وانتفع به الآخرون ، وما زلنا عنه غافلين ، ولقد ضلت القافلة الطريق في الصحراء ، وحاولت أن تلج كل وجه ، فما وجدت وجهاً واحداً مفتوحاً أمامها ، وليس عليها اليوم إلا أن تعود إلى الطريق الوحيد : طريقها الأصيل الذي أهدى لها ، وهي التي حملته إلى الإنسانية كلها شرقاً وغرباً .

إن هناك محاولة مضللة تقول : إنه ليس هناك فارق بين الشرق

والغرب ، ولا بين ثقافات الأمم والشعوب ، والفكر الإسلامي يؤمن بوحدة الجنس البشري إيماناً لا مراء فيه ، ولكنه يؤمن بالتباين الذي أوجدته العقول البشرية التي حاولت أن تشكل لنا منهجا مغايراً للقيم الأساسية التي جاء بها الدين الحق ضوءاً كاشفاً للإنسانية إلى معرفة الحق • ومن هنا فقد نشأت خلافات بين المفاهيم والقيم ، استقرت في أعماق الأمم ، وقام عليها من بعد وجودها ومزاجها النفسي وكيانها الاجتماعي ، ولقد أعطى الإسلام المسلمين والعرب خصائص مميزة ونظرة متميزة •

ولا ريب : كانت نظرة الإسلام أرحب أفقاً ، وأعمق إنسانية ، وأصفى سماحة ، فقد استمدت جوهرها من الإيمان برسالات السماء وأنبياء الله وكتبه ، وآمنت باليوم الآخر حقيقة لا مراء فيها ، قوامها البعث والجزاء • استمدوا من المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي • وهي — في هذا المنهج — لم تتجمد بالتعصب في قالب معين ، وإنما انطلقت بالسماحة والبساطة واليسر لتنشر العدل وتحطم قوائم العبودية التي أرهقت البشرية في حضاراتها الثلاث : الفرعونية • والفارسية • والرومانية •

ولقد أثر الإسلام منذ ظهوره في التاريخ والحضارة : أما في التاريخ ، فإنه منذ يومه الأول لا يمكن أن يقال : إن حادثاً واحداً لم يكن مرتبطاً به على نحو من الأنحاء • وأما في الحضارة فإنه قدم للإنسانية منهجاً صلحت به كل المجتمعات القائمة ، ولم يكن قاصراً على المسلمين وحدهم ، ولقد كان الإسلام قادراً على أن يعطي المسلمين ويعطي الإنسانية أشياء كثيرة :

١ — التقاء روح العصر مع أصالة الفكر ، فمفهوم التقدم مرتبط دوماً بمفهوم الأصالة •

٢ ـــ التفرقة بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهريــة .

٣ ـــ رفض التقليد والدعوة إلى البرهان وإنكار التبعية للوافد والقديـــم .

ان روح الإسلام وغايته العليا لا تتعارض مع سير الحضارة ، ولكنها تفرق بين الحضارة وبين المدنية ، وتجعل للحضارة ضوابط ، وللقيـــم حدوداً ، وللتطور قوائم ثابتة . إن الهدف ليس هو تقدم الحضـــارة نفسها ، بل حماية بناء الإنسان مع دفعه إلى الأمام ، لتكن الحضارة في تقدمها خادمة للإنسان لا قاتلة له ومسيطرة عليه .

إن الاسلام هو الذي أعطى البشريـــة أيديولوجية الاخلاق في مواجهة أيديولوجية الفكر الحر ، وهو الذي جعل الإيمان بالله قاعدة القيم جميعاً ، وربط الإنسان بالمسؤولية الفردية والإلتزام الأخلاقي ، وجعله بهما حاملا للأمانة ، ومنهما محاسباً يوم البعث . إن الاسلام لا يصادم الطبيعة ، ولا يحرض على الصراع ، بل إنه يخلق المواءمـــة ، وينشيء التكامل ، ويقيم دعامات الالتقاء بين القيم .

إن الصراع مصدره التمزق ، ومنطلقه انشطار القيم وعزلهـــا ، وإعلاء جانب منها على جانب ، بينما الإنسان يقوم على المادة والروح ، والكون يقوم على قاعدة الحركة في إطار الثبات ، فإذا مضينا مع الحركة إلى غير ما حد ، أو اعتنقنا المادة وحدها ، فقد وقع الصراع . إننا نؤمن بتذليل الطبيعة لا تحدي الطبيعة .

إننا نؤمن بتلاقي الفروع والعناصر في كـــل واحد لا تفرقهـــا واستقلالهـــا .

إننا نؤمن بلقاء الأجيال لا صراع الأجيال .

إننا نؤمن بثبات الأصول واختلاف الفروع .

بسم الله الرحمن الرحيم

آفـــاق البحث

الصفحة